علي مصباح
@ketab_n
Follow Me
24.7.2015
سان دني
منشورات الجمل
رواية

علي مصباح

سان دني

رواية

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

علي مصباح: سان دني

Twitter: @ketab_n

ولد علي مصباح عام ١٩٥٢ بتونس. روائي ومترجم تونسي يقيم ببرلين. صدر له عن منشورات الجمل: بيتر سلوتردايك: **الإنجيل الخامس لنيتشه** (ترجمة) ٢٠٠٢؛ فريدريش نيتشه: **هذا هو الإنسان** (ترجمة) ٢٠٠٢؛ فريدريش نيتشه: **هكذا تكلم زرادشت** (ترجمة) ٢٠٠٧؛ فريدريش نيتشه: **غسق الأوثان** (ترجمة) ٢٠١٠؛ فريدريش نيتشه: **نقيض المسيح** (ترجمة) ٢٠١١؛ **حارة السفهاء** (رواية) ٢٠١٢؛ فريدريش نيتشه: **إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الأول** (ترجمة) ٢٠١٤؛ فريدريش نيتشه: **إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الثاني** (٢٠١٥).

علي مصباح: سان دني، رواية
الطبعة الأولى ٢٠١٥
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد - بيروت ٢٠١٥
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ - ٠١ - ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣ بيروت - لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2015*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

مرسيليا ذات مساء

لم تعترضنا بنات الفرنسيس بالأحضان في ميناء مرسيليا كما كنّا نعتقد، أو كما كنّا نمنّي أنفسنا على الأقلّ.

مدينة مرسيليا تبدو قاتمة عند الغروب. بلون الصدأ. وجوه داكنة، شاحبة. عيون لها بريق عيون الذئاب. مغاربيون بهيئات غامضة تتسلّل مرتابة أو متحفّزة. بعضهم يبدو مترنّحًا. أرجل تتجرجر متلكئة. في زاوية من تقاطع شارعين تقف مجموعة من خمسة أو ستّة رجال بهيئات قلقة، يتحدّثون بأصوات عالية بينما أيديهم تضطرب بحركات عصبيّة. ينسحب أحدهم قليلاً إلى الوراء ويبصق جانبًا لفافة سوداء كريهة المظهر تلتصق بالجدار عند ارتخاء وتيرة القذف التي دفعت بها من الفم المتوتّر تحت شاربين أسودين نحيفين يوقّعان حدّة تضاريس الوجه المستطيل، الذي يبدو كما لو أنه نُحت من صخر جبليّ. لفافة تبغ السعوط التي ظلت لنصف ساعة أو أكثر تختمر في حنك ذلك الرجل تستقر الآن لطخة سوداء على الجدار.

«ممنوع البول والبصاق! قانون ١٢ جويلية ١٨٨١». جملة كنا غالبا ما نراها مرسومة بالصباغ الأسود على جدران المدن التونسية في الستينات. كانت تلك على ما يبدو إحدى «الغايات السامية لرسالة فرنسا الحضارية» تجاه شعوب العالم التي ما تزال غارقة في مستنقعات البول والبصاق وشنائع أخرى أفاض في ذكرها المؤرّخون. غير أنّ المغاربيين

Twitter: @ketab_n

لم يقلعوا عن عادتهم العريقة في التبوّل على الجدران والبصاق حيث يحلو لهم ذلك، في مدن تونس والجزائر وسيدي بلعبّاس ووهران وعنّابة ووجدة والرباط ومرّاكش وباجة وقفصة وصفاقس، أو في مرسيليا وباريس ونيس، نكاية في تلك الجملة الوقحة المرسومة بخط أسود على حيطان مدنهم. مهزومة هي الفاجرة الآن في عقر دارها، بعد أن أعلنت فشلها وهزيمتها في مدن الشمال الإفريقي التي أفلحت بالنّهاية في التخلّص من سلطة الإمبراطوريّة الاستعماريّة بعساكرها وترسانتها الإداريّة وقوانينها، واستعادت استقلاليّة قرارها وحرّيّة ممارستها لأنشطة التبوّل والبصاق والتقيؤ والخراء دون رادع أو رقيب.

ندبّ عبر الزقاق القاتم باتجاه محطّة القطارات مثل كتيبة ماضية باتجاه معركة مجهولة المصير. يوسف يتذكر كلمات كامو وهو يدخل باريس لأوّل مرّة: *Paris est gris et plein de pigeons*[1].

قاتمة مدينة مرسيليا عند الغروب ولا فتيات شقراوات هناك يلوّحن لنا بمناديلهن. هناك الهيئات الغامضة للجزائريّين والأفارقة الذين يوقّعون قتامة المساء بخطواتهم الثقيلة المترنّحة على الأرصفة، كما لو كانوا يسيرون داخل حلم ثقيل، والشارع الذي يصعد بملل من الميناء باتجاه محطّة الأرتال يبدو كئيبًا لا تزيده الخطوات البطيئة لعجوز متقوّس وراء كلب صغير إلاّ تجهّمًا.

محرز غدا فجأة أخرس يتعثّر في خطواته المربَكة ولا يكاد يقدر على النّظر إلى الأشياء من حوله، بينما يوسف يلوك جملة كامو بشيء من الزهوّ؛ زهوّ العارف عندما يثبت له الواقع أنّ معرفته ليست مجرّد

---

(١) باريس رمادية ومليئة حماماً.

Twitter: @ketab_n

هراء كتب، كما هو الحال في أغلب الأحيان. أمّا رياض الذي كان على ما يبدو مغرمًا بنوع آخر من الكتب المصوّرة التي تجعل المرء يسافر إلى كلّ مدن العالم وهو لم يغادر غرفته بالمبيت الجامعي، فقد ظلّ محافظا على مرحه، يردّد علينا بصرامة يقين العارف أنّ كلّ الموانئ متشابهة، وهي في تشابهها الرماديّ الكونيّ لا تمتّ إلى واقع المدن بصلة. كان رياض على قناعة بأنّ المدينة تخبّىء في جوفها البعيد عن البواخر والرفاعات والسفن العتيقة الرابضة مثل حيوانات هائلة الجثة محنّطة هناك، والسكك الصدئة وعربات القطارات ثقيلة الهيأة، رياضًا من الألوان والمرح والوجوه الجميلة المشرقة لفتيات شبيهات بدمى من البلّور اللطيف.

Twitter: @ketab_n

توريسك

ألقيت بفردة حذائي في مياه الخليج والباخرة قد توغّلت خارج ميناء حلق الوادي مشحونة حدّ الانفجار بهرج جموع غفيرة من الشباب الذين كانوا بالتأكيد يخفقون مثلنا (أعني مجموعتنا المكوّنة من يوسف ورياض ومحرز وأنا) بذلك المزيج المبهَم من المشاعر المتداخلة والمتناطحة في صدورنا. فرحة، أمل، خيط دقيق من الخوف، وشيء من الحزن كنّا نجاهد في إخفائه مكابرةً أو غرورًا. رميت بفردة حذائي في البحر قائلاً بنبرة احتفاليّة ـ نبرة المنتصر توًا: لن أعود! قلت ذلك بأعلى صوتي، وعلى مسمع من الجميع. ضحك الجماعة وظلّوا يردّدون حكاية فردة حذاء عادل سعيدان التي رمى بها في البحر وقرّر أن لا يعود. طيش؟ إفراط في الحماس؟ صرامة القرار ومنتهى الوضوح؟ في الحلق غصّة موشكة على الانفجار، وكان لا بدّ من حركة مسرحيّة وكلمة مدوّية كنت وحدي أعرف أنّها مجرّد قرقعة على برميل فارغ.

بدأت أتعلّم منذ ذلك اليوم أن لا أثق كثيرًا بالحركات الاستعراضية، وبدويّ الكلمات.

سأل رياض عجوزا كان يدب أمامنا مع كلبه الذي لا يتوقف عن تشمم الرصيف عن الطريق المؤدّية إلى محطّة الأرتال، وكان يبدو أكثر شطارة منا في معرفة أحوال الفرنسيس وطباعهم، حتّى أنّه ظلّ الوحيد الذي لم تبد عليه علامات الارتباك والإحساس بالغربة. ولعلّ ذلك هو

Twitter: @ketab_n

ما جعله يكون الوحيد الذي استطاع أن يفهم التفسيرات والتفاصيل المعقّدة التي لا يمكن إلاّ لعجوز ثمانيني أن يمعن في شرحها وإعادة شرحها لمجموعة من شبّان غرباء يبدو على وجوههم شيء من الذعر وشعور خفيّ صامت بالنّدم على الإقدام على مغامرة مجهولة المصير والمضاعفات.

سألَنا العجوز بعد أن انتهى من تفسيراته المعقّدة: *"Vous venez d'une colonie?"*، وإذا محرز الذي ظلّ لما يزيد عن ساعة حبيس حالة من البكم والانطواء، ينطق أخيرًا:

- *"Quelle colonie? Nous sommes un pays indépendant!"*(١)

كان واضحًا من نبرة صوته المرتعشة بمزيج من الحدّة والارتباك أنّه يحتجّ على سؤال العجوز بسبب سوء فهم لعبارة *colonie* التي تعني مخيّمًا ترفيهيًا للشباب كما تعني أيضًا مستعمَرة.

انطوى محرز على صمته وكآبته من جديد بعد أن تبيّن له من التوضيح الذي أضافه العجوز، مرفوقًا بابتسامة رقيقة، أنّه قد أخطأ الهدف لأوّل فرصة تراءت له ملائمة للخروج من حالة الذهول التي تلبست به منذ دخولنا ميناء مرسيليا. ولم ندع أنا ويوسف ورياض الحادثة تمرّ دون أن نستغلّها لمداعبة صديقنا بكثير من الخبث المرِح؛ كما لو أنّ تلك الطّرفة قد خلّصتنا للتوّ من حالة الارتباك والذهول اللذين كانا يجمّدان ألسنتنا.

نحن الآن في فرنسا!

*

---

(١) أية مستعمرة، نحن من بلاد مستقلّة.

Twitter: @ketab_n

تحوّلت الرحلة بعد مرور لحظات التوتّر الأولى إلى ما يشبه الحفل المعربد فوق جسر الباخرة. لم نكن ندري أنّ هناك حانة حتى تقدّم منّا كهل قصير القامة مرح التقاسيم والحركات، وبيده زجاجة بيرّة، ثمّ قادنا إلى البار وهو ينطّ من الفرحة لأنّه عثر على من سيشاركه الحفل الذي افتتحه بعدها بقليل بالغناء والنكات والرقص والتهريج لمدة حوالي أربعة وعشرين ساعة دون توقّف.

الزّفرافي، ذاك الرجل المرح يسافر للمرّة الثالثة على متن هذه الباخرة. في المرّتين السابقتين أعادت شرطة الحدود تسفيره إلى تونس دون أن يتمكّن من مغادرة ميناء مرسيليا. حدّثنا عن قسوة البوليس الفرنسيّ والإجراءات الجديدة المتشدّدة بخصوص الهجرة، وإذا رحلتنا التي كنّا نحلم بها فسحة مرحة في مدن الأحلام تتحوّل إلى ضرب من المغامرة التي لا تخلو من مخاوف ومخاطر. سألناه عن سبب إعادة تسفيره مرّتين، فأجابنا بأنّه قد ارتكب في المرّتين خطأ فادحًا عندما قال لشرطة الحدود بأنّه ينوي البحث عن عمل في فرنسا. لم يكن يعلم أنّ البلاد قد أغلقت الحدود في وجه هجرة اليد العاملة وشرعت في ترتيب المسألة على نحو صارم. ثمّ أضاف: «لقد حفظنا درسنا الآن. هذه المرّة سأقول لهم: توريسكْ!» ـ عبثًا حاولنا أن نصحّح له نطق العبارة، وبقينا لمدّة أربع وعشرين ساعة نعيد عليه السؤال وهو يجيبنا دائما: توريسكْ (مخاطرة كليّة) وهو يريد طبعًا أن يقول «توريستْ».

«توريسكْ!» ـ ضحكنا وفي صدورنا يتكوّر شيء شبيه بالقلق أو الانقباض، أو الخوف.

*

الرفرافي يغنّي ويرقص ولا يكف عن المشاغبة وزجاجة البيرة لا

Twitter: @ketab_n

تفارق يده. من تحتنا ماء، أمامنا ماء، وراءنا ماء. من فوقنا فراغ شاسع لم يعد يشبه السماء التي تعودنا على رؤيتها فوق الجبال وحقول القمح الشاسعة وغابات الزيتون. الباخرة تتقدم ببطء تكاد تخالها لا تتقدم شبرا واحدا داخل الفراغ المحيط. أنا الآن على ظهر باخرة تعبر بي البحر إلى قارّة أخرى، أردد لنفسي ربما درءاً لفكرة الفراغ الذي يبدو دون مخرج أو نهاية. مسافر في رحلة بحرية مثل جدّي الذي زجّ به عسكر الفرنسيس سنة ١٩١٥ في رحلة أخذته إلى جبهات القتال الساخنة في شمال فرنسا، ثم راح بقيّة عمره يروي للناس عجائب وأهوال تلك الرحلة التي ظلّ هو وآلاف من أشباهه يتخبّطون داخل ألغاز مخاوفها وهول لياليها لما لا يقلّ عن أسبوع، كما ادّعى، مبالغًا شيئًا ما على ما أعتقد، فالرحلة نفسها (من ميناء تونس إلى مرسيليا) لا تتطلب الآن أكثر من أربع وعشرين ساعة! وعلى أية حال، سواء بالغ جدي في طول رحلته البعيدة تلك أم كان صادقا، فإن رحلتي لن تكون مثيرّة مثل رحلته! وسأظلّ مهما فعلت قابعًا مثل جرذ حقير في ظلّ مغامرته الكبرى، خاصّة وهو يمتاز عليّ في كل الأحوال بأنه كان في وضع العسكري المغامر باتجاه حرب من أشرس حروب الدنيا على الإطلاق كانت معاركها الجحيميّة تنتظره في فيردان ثمّ سالونيكي وشاناكّله وأضنة واسكندرون. رحلة رأى فيها العجائب ووقف فيها على تخوم الموت كالسائر على خيط معلّق فوق هاوية الهلاك. سيظلّ بريق المجد إذن من نصيب جدّي الذي عاد بعد ثلاث سنوات من الخدمة في عسكر الفرنسيس يبرم شاربيه ويتمايل بقامته بين أشجار الصنوبر والكالبتوس، يروّع الأرانب البريّة والحجل والغربان والحطّابين والرعاة، وبندقيّة «سانت اتيان» لا تفارق كتفه إلاّ في ساعات الأكل والنوم.

عندما وصلنا إلى محطّة القطارات كان الليل قد استقرّ فوق المدينة

Twitter: @ketab_n

التي لم نعد نلمح منها سوى بعض الأضواء المرتعشة في ناحية الميناء. قال رياض: لعلّ الزّفرافي قد ركب الباخرة من جديد باتجاه تونس التي لن يدخلها بسيّارة فاخرة وإلى جانبه شقراء «تقول للقمر إطلع أو دعني أطلع مكانك». لم يعلّق أحد بكلمة. وفي تلك الأثناء كان محرز الغارق في صمت جنائزي ينظر بكثير من الحنين باتجاه البحر الملتفّ داخل عتمة غامضة في ما وراء فوانيس الميناء.

تفترق مجموعتنا هنا إلى فريقين. يوسف ورياض يركبان القطار الذي سينقلهما إلى باريس. أنا ومحرز نستقل القطار المتجه إلى ليون. باريس! هكذا دفعة واحدة؟ بل دعنا نتوقف في ليون أولا، ثم نرى ما الذي سيحدث بعد ذلك. ليو، أردد لصديقي مازحا، كما كان ينطقها جدي الثاني، ذلك الذي جنده عسكر فرنسا في فترة ما بين الحربين، ولم يعد إلى البلاد يروي حكايات عن أهوال الحرب وشنائعها، بل قصصا عن ليو وساحة بيلكور، وتلك الفرنسية التي ما انفك يذكرها في أحاديثه مع أصدقائه، ويتنهد كلما ذكرها، تلك التي كادت تغويه «بنت الكلب» وتنسيه العائلة والأهل والبلاد.

Twitter: @ketab_n

باريس

ها هي باريس! قلت ملتفتًا إلى صديقي الذي كان يجرجر قدميه ساهمًا، بل ناعسًا قليلا، وقد يكون منكسفا شيئًا ما أو نادمًا وحزينًا. لا أدري هل كانت تلك صيحة ظفر، أم أنّني كنت أريد أن أستنجد بمرافقي كي يعينني على استنطاق غوامض اللغز العمراني الذي وجدنا أنفسنا ملقيْن في هدير حركته السريعة ووجوهه الغريبة التي كانت تنزلق أمام أعيننا مثل صور في شريط سنمائيّ سريع الوتيرة. سيّارات، دراّجات ناريّة، بنايات شاهقة رمادية ذات هيئات ثقيلة، واجهات زجاجية عريضة، مقاهٍ فسيحة، نساء أنيقات لامعات مثل دمى خارجة للتوّ من المصنع، شباب، عجائز، هدير محرّكات، زعيق أبواق، أقدام تنهب أرض الرصيف بعصبيّة، أجساد تتسلّل تنزلق تمرّ بسرعة، ونحن نجرجر حقيبتينا شبه دائخين، أو ناعسين.

باريس. ساحة الأوبرا. ها هي باريس، يا سي محرز!

لم ننم سوى سويعات معدودة منذ ثلاثة أيّام. بعد ليلة في القطار الذي قذف بنا فجرا في ليون قضّينا ليلتنا الثانية في غابة فونتينبلو، لأنّنا لم نكن نرغب في ولوج باريس ليلا. أردنا أن نلجها في ضوء النهار احتياطا وتخوّفا من كلّ المفاجآت، لذلك طلبنا من الشابّ اللطيف الذي التقطنا بسيارته في إحدى ضواحي ماكون ـ على ـ الصون وهو في طريقه إلى باريس أن يتركنا في مكان آمن قبل مدخل باريس.

Twitter: @ketab_n

قضّينا الليلة مرتجفين بردًا داخل كوخ صغير من الخشب في غابة فونتينبلو لا يوجد داخله سوى طاولة قديمة مغمورة بالغبار. وكان علينا لكي نتدفأ قليلا أن نحتسي قدرا محترما من زجاجة الباستيس التي اقتنيناها من الباخرة، ومن دون ماء، فساعدنا السكر على النوم ولم نصح إلاّ في حوالي السابعة صباحًا.

ـ هذه هي فرنسا؟ أوّل ليلة لنا فيها نقضّيها داخل غابة مثل الوحوش!

ـ لسنا وحوشًا ولا بؤساء، أجبت صديقي الممتعض وأنا أرفع حقيبتي وأهمّ بالتوجّه إلى الطريق مرتعدا ببقايا برد الصباح اللاذع. هكذا هي بداية المغامرات دومًا؛ لا بدّ أن نثبت أوّلا أنّنا جديرون بالنعيم الذي ينتظرنا في مكان ما ولا يأتي إلينا من تلقاء نفسه. استعذبت هذا الحديث الذي كنت على ما يبدو أحاول أن أدفئ به أعضائي المتجمّدة من برد الليلة الماضية التي قضّيتها منكمشًا داخل جاكيتي فوق طاولة، فواصلت هذياني عن الدروب الشاقّة والوعار وجنّة الله الموعودة التي تنتظر المغامرين وحدهم دون بقيّة الخلق من الخاملين وضعيفي الهمّة، وباريس التي غدت على مرمى حجر وهي تستعدّ الآن لاحتضاننا كما كانت تحتضن مدن العجائب السندباد القادم إليها من هول الأعاصير وفجائع البحار.

لمحرز بعض اعتراضات على ما رويته إلى حد الآن: ليس صحيحاً أن عادل رمى بفردة حذائه في البحر صائحاً: لن أعود! كما يدعي. بل فردة ذلك الحذاء القماشي المهترئ هي التي انزلقت من يده في غفلة منه ووقعت في الماء بينما كان يهم بدس قدمه في الحذاء الجديد الذي اشتريناه له قبل ساعات ونحن في طريقنا إلى محطة تونس البحرية. ونحن نصعد الشارع الضيق باتجاه محطة القطارات في مرسيليا، كان هو

Twitter: @ketab_n

الذي استبدت به حالة من الكآبة وغدا يجر قدميه وراءنا جرا كما لو كان يقاد إلى المسلخ. أما عن فتيات مرسيليا فهذه على ما أظن حكاية لفقها الآن وهو يكتب ما يكتبه، أو في أفضل الأحوال كان حلما طفوليا ساذجا لم يداعب غير خياله هو، ولا أذكر أن أحدا منا فكر في ذلك، عدا ذلك الرجل الذي يدعى الرفرافي على ما أعتقد.

رياض يقول إنه لم يعد يتذكر شيئاً من ذلك، لكنه يضيف بعد شيء من التفكير بأنه رأى محرز ينسحب إلى ركن ويشرع في البكاء عندما أطلقت الباخرة صفيراً طويلاً مسترسلاً وهي تشرع في التحرك خارجة من ميناء حلق الوادي.

أما يوسف فيؤكد أن عادل قد رمى فعلا بفردة حذائه في الماء بعد أن لبس الحذاء الجديد الذي ساهموا ثلاثتهم كل بقسط من المال لشرائه له كي لا يدخل فرنسا بحذاء قماشي مهترئ ونتن علاوة على ذلك. أما عن الفتيات فيقول إنهن كنا هناك في مدخل ميناء مرسيليا وكن" يلوحن بمناديلهن باتجاهنا، وأن واحدة منهن تقدمت منه (منه هو، يوسف) وقبلته قبلتين على خديه وهي تتمنى له إقامة سعيدة في أرض فرنسا! وعندما سألته لماذا لم نلحظ ثلاثتنا شيئاً من ذلك أجابني وهو يدفع صدره مزهوا: حالما اقتربت الباخرة من ميناء مرسيليا تحولتم إلى ما يشبه طيورا مذعورة، وتلبست بكم حالة من الذعر أنستكم العالم من حولكم. ـ وأنت؟ ـ أنا بقيت متماسكا، أردد قولة كامو قائلا لنفسي ما هذي بالبلاد التي يمكن أن تدخل علي شيئاً من الارتباك!

شوفو ها الورطة يا سيدي! هاهم يشككونني الآن في كل ما أعتقد أنني أتذكره بدقة!

ومع ذلك سأواصل سرد الوقائع كما عشتها، ـ كما عشتها أنا!

*

Twitter: @ketab_n

في حالة من الذهول دخلنا باريس، ناعسيْن تقريبًا نحاول قدر الإمكان أن لا ندع أرجلنا تتجرجر متعبة، وأن نحثّ السير مثلما يفعل الجميع من حولنا. أن نكون جزءً من هذا النسق السريع، صورة من بين الصور المتحرّكة بسرعة في هذا الشريط الذي يشبه أفلام شارلي شابلن. نحن في باريس! فلْتعِ ذلك أرجلنا المرتخية بتعب ليال متواصلة بلا نوم، ولتحزم أمرها قليلا كي لا تربك وتيرة الانسياب السريع السائل لحركة المدينة! ولْتعِ ذلك أمعاؤنا الخاوية المتضوّرة بخوائها يجلدها الشريط المتنوع المنساب إليها من فرجتيْ العينين المفتوحتين بذهول على أصناف المأكولات المعروضة في واجهات المطاعم والمحلاّت في جادّة الإيطاليّين وبولفار مونمارتر وبولفار سان دني وشارع ريومير وساحة شاتليه وشارع سان ميشال ودونفير روشرو، وشارع أليزيا وبولفار جوردان... فلْتعِ أنّها في باريس فلا تتلوّى زيادة ولا تخذل حركة القدمين! إنّها بالتأكيد تعي ذلك أكثر من غيرها من الأعضاء، والأنف من جهته لا يبخل عليها بما يلتقطه من روائح الشواءات والمقليّات والمطهيّات والمحمّرات وعبق القهوة الطالع من المقاهي المجاورة ممزوجة بروائح الكاراميل والقرفة والفانيليا والزبدة ومستحضرات أخرى لشتّى المرطّبات والحلويّات ممتزجة مع كوكتيل العطورات التي تنبعث من الهفيف السريع لفساتين السيّدات المنزلقات مثل لعب أو دمى على إسفلت الأرصفة، ـ يفعل الأنف أيضًا ما بوسعه!

Twitter: @ketab_n

"Paris est gris et plein de pigeons"

خرئت على رأسي حمامة في حديقة اللوكسمبورغ وأنا جالس في استراحة قصيرة خلال جولة من جولاتي اليوميّة بحثًا عن عمل. ضحك عليّ «الكلوشارات»[1] وشعرت بنفسي بائسًا وتعيسًا مثل يتيم مهمل في الخلاء.

لم يعد بإمكاننا تسديد معلوم إيجار الغرفة في «دار تونس» بالحي الجامعي الدولي فكان علينا أن نغادر. بل طردونا من هناك عندما اتضح لهم أن الغرفة التي استأجرناها باسم واحد منا كانت تأوي أحيانا أربعة أشخاص عندما ينضم إلينا يوسف ورياض في بعض الأماسي. وضعنا حقيبتينا عند شابّ جزائريّ مقيم بدار موناكو المقابلة وانطلقنا نتسكّع طوال النهار بحثًا عن عمل، وفي المساء نجلس مع مصطفى ويحيى الجزائريّيْن أمام عتبة دار موناكو نغازل الفتيات ونتحدّث في السياسة وأشياء أخرى متنوّعة ونتخاصم مع الطلبة المصريّين الذين يستميتون في الدفاع عن أنور السادات: لا يا جماعة، حرام عليكم، السادات رجل كويّس آوي! أنتم تكرهوا مصر ليه يا عمّي؟ يحرق دين نفاقكم، ألا

(١) Clochards بالفرنسية، وتعني: المشردون الذين يقيمون في الشوارع وفي الحدائق العمومية ومحطات المترو، ولا يتوقفون عن السكر والخصام والزعيق بشتى الشتائم واستفزاز المارة ورجال الشرطة.

Twitter: @ketab_n

ترون أننا نوزع الشتائم بالتساوي على بورقيبة والحسن الثاني وفيصل والحسين... يعني زعيمكم هذا البعير الأجرب هو الذي كبر في الطريق! في ساعة متأخرة من المساء نتسلّل إلى الطابق العلويّ لننام داخل حجرات الدشّ الخالية ليلا من المستعملين، وأحيانًا ننام فوق العشب في الحديقة الفسيحة للحيّ الجامعي الدولي.

شربنا كثيرًا ليلة البارحة مع مصطفى ويحيى ومجموعة فتيات سائحات من المكسيك والدانمارك. تركت الأمسية على ميزانيّتنا الهزيلة أثرًا بدأ يهدّد بالويل، ولا عمل في الأفق. في هذا الوقت بالذات والمعنويّات في هبوط ملحوظ تخرأ على رأسي حمامة!

من أين لك أن تفهم أنّ ذلك الأمر يحدث للجميع في هذه المدينة، وأنّ الحمامة لم يكن قصدها سيّئًا بالضرورة عندما فعلت فعلتها ربما دون أن تنتبه لوجودك على الكرسيّ الخشبيّ الذي تحتها مباشرة؟ ومن أين للحمامة، إن كانت متعمدة، أن تدري أنّك لست في وقت مناسب للمزاح وتقبّل الأشياء من جهة النكتة والفكاهة في هذا الظرف بالذات وأنت مفلس غير قادر على ولوج مقهى أو بار أو مطعم مثلما يفعل مئات الآلاف من حولك؟ من أين لك أن تتقبّل تلك الدعابة بصدر رحب ودون أن تشعر أنّها إهانة موجّهة عن قصد لك أنت دون غيرك من المخلوقات، شعور مماثل لذلك الذي جعلك تتصبب عرقا عندما صدّتك الفتاة الدانماركيّة في اللحظة التي ظننت أنّها المناسِبة لأوّل قبلة، فانكسفت وانكفأت وانطفأ مرخك فجأة وتبخّرت جرأتك، حتى إذا التقتك في اليوم الموالي وجدت نفسك تدير وجهك لأنّك ما زلت مستاءً، أو خجولا من نفسك، فكان عليها أن تقبل هي عليك حائرة في أمر مزاجك وأن تفسّر لك، يا رأس القرع، أنّ ذلك يعدّ من أحد شروط اللعبة الشبقيّة؛ مراودة وتمنّع وإعادة الكرّة، وزيادة التحرّش والتودّد

Twitter: @ketab_n

وإبداء شيء من الإلحاح الضروريّ الذي يبهّر طقس المغازلة ويجعل الطرف المقابل يشعر بأنّه مرغوب فعلا، وعلى مقدار الرغبة تزداد أو تنقص جذوة التواطؤ وحرارة الإثارة الماضية هكذا نحو الاستجابة.

هذه مسائل لا يستطيع الواحد أن يفهمها إلاّ فيما بعد.

*

لم يمرّ على قدومنا إلى باريس أكثر من ثلاثة أسابيع. إمكانيّات العثور على عمل ليست بالسهولة التي كنا نتوقّعها، والمبلغ الزهيد الذي كان في جيبي قد نفد الآن نهائيًا. قبل يومين طردنا حرّاس الليل من حديقة الحيّ الجامعي حيث كنّا ننام كلّ ليلة.

سافر رياض إلى نانت. ويوسف فضّل الرحيل مع دالي إلى جنيف حيث إمكانيات العمل والسكن أفضل بكثير من باريس كما أكّد له ذلك، هو الذي يحل هناك في كلّ صائفة قادمًا من دمشق حيث كان مقيما للدراسة آنذاك.

بعد رحيل رياض ويوسف ودالي بدت لي باريس فارغة، كبيرة وفسيحة بشكل غامض ومخيف. أدركت داخل هذا الفراغ أنني فعلا قد غادرت تونس، وأن المسافة الفاصلة بين يومي هذا وكل أيامي والسنوات السابقة من عمري قد اتسعت لتغدو شبيهة بهوة معتمة تضطرب على حافتها قدماي المستعرتان بالمشي، المشي، المشي - بحثا عن عمل، وفي بعض الأحيان لا لشيء سوى المشي هكذا بذهول داخل باريس الشبيهة بغول أتسكع داخل متاهة أحشائه المتداخلة. أمشي أحيانا برفقة محرز الذي كان يحمل ذعره قناعا من الحزن لم يعد يغطي وجهه فقط، بل يبدو كما لو أنه انسحب على كل كيانه حتى غدت هيأته كلها توحي بتعب متأصل في الأعماق يقضم نسيج غبطته الداخلية

Twitter: @ketab_n

ويفتت اعتداده بنفسه الذي عهدته فيه من قبل، ويجعل خطوته ثقيلة متلكئة وصوته ذاويًا. أدركت أن لحظات البهجة الأولى بباريس والاحتفالات والعربدة قد انقضت. والآن، وأنا أتمشى غريبا بالفعل ووحيدا، شبه عارٍ، يربض أمامي مصير غامض قاتم نوعا ما، أو معتم، أدرك أنه عليّ أن أبدأ بالإمساك بمصيري بيدي حقا ـ ولوحدي لأول مرة في حياتي. لا أب هنا أو أخ يرفدك. لا منحة جامعية، ولا جامعة بعد، لا مسكن، ولا حتى الغذاء اليومي. هناك فقط شيء يريد أن يكون، ولابد له أن يكون، وإلاّ انقطع الخيط الدقيق الذي ما زال يشدك إلى الحياة.

لا بد من عمل ـ أي عمل. تأمين البقاء أولا. ولا شيء أكثر من البقاء. تأمين البقاء هو الغاية الأولى، وأحيانا غاية الغايات. أفق الأحلام قد تقلّص حتى صار حده النهائي ملاصقا للأنف؛ لا شيء غير الحرص على تأمين البقاء. صندوق الأحلام والمشاريع قد أُغلق وألقي بالمفتاح في قاع بئر عميقة قد تكون مسكونة بالأفاعي. شيء شبيه بورطة تبدو أحيانا بلا خلاص ـ أو أي أمل في الخلاص.

محرز يحلم إلى جانبي على المقعد الخشبي في حديقة اللوكسمبورغ: «اخْديمة، وابّيتة و...»؛ مصغّرة كل الأشياء في لغة محرز أو في أحلامه؛ يصغّر أحلامه كما لو كان يتدلع بأسمائها، أو ربما كي لا يجفلها. أنهض من حالة الخدر التي كانت تشلّ كل الاحساسات والرغبات لديّ. أسبّ الدين متأففا: ـ كفّ عن هذه التوسلات الرخيصة يا أخي! وبما أنك تريد أن تحلم وتتمنى، فلتطلب الأشياء بكليتها وكمالها على الأقل!

كنت أريد أن أكون أكثر طموحا، وإذا ما عنّ لي أن أتمنى أن لا أفعل ذلك بهيأة المتوسّل المتسوّل.

Twitter: @ketab_n

أظن أنني كنت أكذب على نفسي، لمجرد المكابرة ليس إلاّ. أصرخ في وجه محرز، أو في وجه الأشياء المصغرة التي كان يحلم بها ويتمناها، كما لو كنت أدفع عني شعورا بالخجل ـ من أجله؟ أم بسبب حالة من الطمع الصغير الذي أيقظه فيّ؟

هل يعقل أن الواحد عندما يكبّر أحلامه إنما يفعل ذلك لكي يهرب من مراودة أحلامٍ أصغر وأقرب هي في الواقع أكثر إمكانا للتحقق؟ هروب إلى الأمام؟ مغالطة للنفس؟

كل شيء ممكن.

Twitter: @ketab_n

الرفرافي

ـ عادل، أما زلت تتذكر الرفرافي؟

ـ آ، طبعا، أتذكر الرفرافي.

ما الذي جعل محرز يتذكر الرفرافي الآن، ونحن جالسان على هذا المقعد الخشبي في حديقة اللوكسمبورغ بعد ساعات من التمشي بحثا عن عمل؟

طبعا مازلت أتذكر الرفرافي والحفل المعربد، ثم انطفاء هرجه بغتة. عندما دخلنا ميناء مرسيليا كان قد فقد كلّ مرح الأربع وعشرين ساعة الماضية التي قضّاها في الشراب والغناء والرقص والفكاهة والنكات. الحفل الهازج الصاخب الذي أقمناه فوق جسر الباخرة قد فتر عندما بدأ مهرّجنا ينكمش شيئًا فشيئا ونحن نقترب من ميناء مرسيليا. حتى ملامح وجهه المتهللة بقسمات المرح العابث بدأت هي الأخرى تتعتّم. فوقها ترتسم الآن ملامح ذعر طفولي مثير للشفقة.

راح يتبعنا مثل شاة وديعة ونحن ننزل مدرج الباخرة ونتّجه إلى الطوابير الطويلة أمام شبابيك شرطة الحدود بعد أن كان طوال الوقت محرّك الحفل ومهرّج السفينة بأكملها. وعندما وقفنا في الطابور في انتظار إجراءات التحقيق وختم التأشيرات كان ملتصقًا بنا مثل جرو. تصاغر وتحاقر حتّى صار بحجم دجاجة، وغدا وديعا يبتسم بودّ حتى

Twitter: @ketab_n

للفتيات التونسيات اللاتي كان طوال الرحلة ينعتهنّ بالنّتنات وكرعين المعيز، ويحاول إبعادنا عنهنّ قدر الإمكان وهو يذكّرنا بالحسان الباريسيات اللاتي ينتظرننا متوهجات بالشوق إلى شمس المتوسط الملتهبة تحت جلدتنا. كفّت عيناه عن الإشعاع ببريق المرح الداعر ولفّتهما غشاوة من حزن طفوليّ موجع، وغدا لا يكفّ عن تصفّح جوازه وإعادة التطلّع في الأختام الحمر التي تعلن رفض تأشيرة الدخول في المرّتين السابقتين. لم يكن لدينا من سبب محدّد يجعلنا نرتبك أو نخاف؛ جوازاتنا وبطاقاتنا الطلابيّة كانت كافية لجعل الشرطة الحدودية لا تصنّفنا ضمن المهاجرين من أجل البحث عن العمل، خلافًا للرّفرافي الذي كان جواز سفره يحمل في الخانة المخصّصة للمهنة عبارة «عامل يومي». عبارة تجعله في أعين شرطة الحدود أكثر من شخص مشبوه، وقد لا تقنعهم الحجج الواهية لمراميه السياحية، إضافة إلى نوعيّة ملابسه ووجهه اليابس المغضّن الذي يحمل بصمات سنين طويلة من الحياة الشحيحة؛ ما من شيء في تلك الهيأة يمكنه أن يقنع أحدًا بمزاعمه السياحيّة الترفيهيّة الخالصة.

لم يكن الرفرافي على أيّة حال مجرّدًا من نوايا الترفيه والانغماس في المرح، لأنّه منذ ما لا يقلّ عن العشر سنوات وهو يحلم باللحظة السعيدة التي سيقتحم فيها مملكة الخير والرّفاه لينتقم لنفسه من سنوات الحرمان التي حزّزت حياته ورسمت غضونها البغيضة على جبينه. كان على قناعة بأنّه سيرى حتّى ملامح وجهه ولون بشرته وهيأة جسده تتغيّر كلّها في ظلّ جنان النعمة التي تنتظره في منعرج من منعرجات باريس. وقد أقسم بأغلظ الأيمان أن لن تطأ قدماه أرض البلاد إلاّ وهو في سيّارة فاخرة وإلى جانبه واحدة من تلك الشقراوات الفارهات التي *«تقول للقمر اطلعْ أو دعني أطلع مكانك»*. وعندها ستندم كلّ «الفاجرات

Twitter: @ketab_n

القميئات» اللاتي غدا يلقّبهنّ وهو يشتمّ رائحة النعمة من فوق ظهر السفينة، بـ«كزعين المعيز» و«الجلود النتنة»؛ ستندم كلّ واحدة من اللاتي رفضن الزواج به لأنّه لم يكن يملك من متاع الدنيا غير ما يكسو عورته ولا يسد من الجوع غير بعض الثغرات. سيقيم حفلاً كبيرًا لأصدقائه تذبح فيه الخرفان بالعشرات وتهرق فيه براميل من الشراب، وسيبني بيتًا فاخرًا بحديقة فسيحة ومسبح، ويربّي داخله شتى أنواع الطيور والحيوانات البريّة والبحريّة، ويستجلب الكلاب السود الضخمة من فرنسا وألمانيا وطيور الكناري من جزيرة مالطة والببغاوات من جزر الكاريبي والخادمات الشقر من السويد والنرويج، «أي نعم يا سيدي من السويد والنرويج! هل لديك اعتراض؟» يعلّق بنفسه ملتفتا باتجاه معترِض متوهّم والحال أن لا أحد قد اعترض أو علّق بكلمة على شيء من أحلامه ـ فالأحلام بالمجان بالنهاية، خاصة عندما يكون المرء فوق باخرة قد أولت ظهرها للبلاد التي لم يعد يطيق العيش فيها.

لم تكن جوازاتنا تحمل عبارة «عامل يومي» التي تعني في أغلب الأحيان «عاطل عن العمل». ومع ذلك كانت الرعشة التي تقض جسد الرفرافي قد انتقلت إلينا أيضًا، وإن بأقلّ حدّة على أية حال، بينما أعوان شرطة الحدود يتفحصون الجوازات والوجوه، ثم الجوازات فالوجوه بنظرات صارمة ليس فيها ما يدلّ على شيء من الترحاب أو أي نوع من الودّ. لأكثر من أربعين دقيقة ـ بل قل أربعين سنة ـ نتقدم ببطء في الطابور الطويل ونحن نستمع إلى ضربات الأختام على جوازات الذين مروا أمامنا؛ نمطط أعناقنا، نحاول متابعة حركات الشرطي واستقراء ملامح وجهه المقفلة، أصابعه التي تقلّب صفحات جواز السفر بتأنّ متشفّ صارم يجعل أمعاءنا تتلوى وتنعقد. ركبتا الرفرافي المصطكتان ترُجّانني من الخلف وتحدثان فيّ خضّاتِ رهبة لا أدري لها سببا

Twitter: @ketab_n

واضحا. أنا أيضاً توريست مزيّف، تماما مثل الرفرافي، ولي مثله أيضاً نوايا تمديد فترة سياحتي إلى ما لا نهاية، وأحلم مثله بأضواء وألوان وعطور لا أدري من أين كنا نستجدي صورها وروائحها في أذهاننا. المهم أننا كنا جميعنا نحلم ـ ألم نقل أن الحلم حق مشاع للجميع؟ شيء ما كان يتحرك في دواخلنا ويدفع بنا إلى حفل الحياة الذي كان يأتينا هديره من وراء البحار ولا تستورده لنا حكومة بلادنا مع زيت الصوجا ومسحوق الحليب وملابس «الروبافيكيا»[١].

عندما اجتزنا الحاجز الحديديّ حاملين جوازاتنا المختومة مثل شهادات عبور من البرزخ إلى نعيم الفردوس كان شرطي الحدود يقلّب جواز الرفرافي الذي بدأ يرتعد مثل قشّة في مهب الرّيح، بينما وقفنا نحن في الجهة الأخرى من الحاجز ننتظره محاولين لفت انتباهه إلى إشاراتنا التي تسعى إلى رفع معنويّاته قدر الإمكان. غير أنّه لم يعد قادرًا على مايبدو على رؤية أيّ شيء وقد زاغت عيناه الصغيرتان وتهدّلت شفته السفلى كما لو كان يهمّ بالبكاء أو التضرّع. نهض العون الذي ظلّ ممسكًا بجوازه وغادر حجرته الصغيرة مشيرًا إليه بأن يتبعه إلى غرفة خلفيّة. راح الرفرافي يتبعه لاويًا عنقه باتّجاهنا، وقبل أن يختفي أشار لنا بيده مودّعًا وكان بالكاد يقدر على الوقوف فوق ركبتيه المرتعشتين.

*

ـ لا أظنّ أنّهم أطلقوه في شوارع مرسيليا لـ«يعوم بحره» حسب عبارته، قال محرز بكثير من الحزن كما لو كان يرثيه. ولا أظنّ أنّه دخل إحدى الحانات مناديًا بصوته النحاسي ذي النبرة الاحتفاليّة: بونجور

(١) الملابس المستعملة، في اللهجة التونسية.

Twitter: @ketab_n

مسّيو دامْ! إلينا بفرحة الحياة يا جرسون! ولا أظنّه قد حشر رأسه في حِجر واحدة من الشقراوات اللاتي يفضّلهنّ على كلّ نساء الدّنيا، ثمّ غنّى لها وحكى لها سيلاً من النوادر والنّكات الداعرة فضحكت كما لم تضحك من قبل، وأعجبت به فأخذته معها إلى بيتها وأدخلته حمّامًا معطّرًا وقدّمت له بشكيرًا جديدًا وكسوة نوم وأغرقته في الويسكي، وباتت ليلتها سيّدة النساء.

هل كان محرز يشفق عليه، أم تراه قد غدا يحسده على تلك العودة المجانية إلى أرض الوطن؛ برّ الأمان؟

ترى هل محرز وحده هو الذي يتمنى الآن في السر لو أن شرطة الحدود أعادته مع الرفرافي إلى تونس؟

*

جرّني عقبة إلى أوبرفيليي بالضاحية الشمالية وهو ينتفض غضبًا عندما علم أنّني أنام في حديقة الحيّ الجامعي. محرز أيضاً فضل الهروب أخيراً ليلجأ إلى أحد أقربائه في مدينة صغيرة قريبة من باريس.

شقة صغيرة يتقاسمها عقبة مع شابّ فرنسي إسمه جاك وصديقته التي ندعوها نونوتة. غرفتان ومطبخ وحمّام. أشعر بالضيق. أتحرّك متعثّرا في الحرج وأودّ لو أنّني ألبد في زاوية ولا أتحرك البتّة. ليس سهلا أن يتخلّص المرء بسرعة من الحذر والرّيبة والتوتّر التي تسم علاقاتنا التاريخيّة بالفرنسيّين. الفرنسيون كما تنطبع صورتهم في ذاكرة صباي، معمّرون متغطرسون لم تكن بيننا وبينهم سوى علاقات سيطرة وخضوع، خوف وحذر. مزرعاتهم مناطق محرّمة على العرب، بل يقال أنّ لِـ«مسيو دلبيش» كبير المعمرين الذي لا يذكره جدّي إلاّ ملحقًا باللعنة - قبوًا رطبًا مظلمًا يسجن فيه كلّ مشتبه فيه من لصوص ودراويش

Twitter: @ketab_n

ومتسوّلين ورعاة ممن تطأ أقدامهم أو دوابّهم أراضيه الممتدّة إلى ما لا نهاية، وحطّابين ولقّاطين تخوّل لهم جرأتهم أو تهوّرهم أو الحاجة الملحّة ولوج حقل من حقوله لالتقاط ما تتركه آلة الحصاد من سنابل مختلطة بالتبن. مسيو دلْبيش ووكيله مسيو بارتوليه العملاق ذو الرأس الحليقة والعينين البرّاقتين لا يفارقهما الكرافاش (السوط) أبدًا، ولا يبخلان به البتّة على العربان متفانين في الالتزام بمبدأ «إذا قدمت على العرب فلا تنس السوط». أساتذة المعهد الثانوي من الفرنسيّين وبعض البلجيكيّين قد تعوّدنا عليهم قليلا بطول المعاشرة، لكنّهم ظلّوا بالرغم من ذلك غريبين عنّا، بعيدين وغامضين. حتّى الأب فينيال ذلك اليسوعي اللطيف والرحيم الذي كنّا نطرب لدروسه في الفلسفة، خاصّة في حصص بعد الظهر عندما يأتي متعتعًا بشراب الغداء فتميل رأسه قليلا حتى تكاد تلامس كتفه ويزداد أنفه طولا، وتأخذه نشوة لذيذة ومعربدة وهو يذرع قاعة الدروس جيئة وذهابًا ممطّطا خطواته الواسعة راكضًا باتجاه السبّورة ليخطّ بيد متوتّرة سريعة وصارمة جملة أو مقولة فلسفيّة يعتبرها مفتاحًا هامًّا في الدرس، أو وهو ينحني بلطف بالغ برأسه ذات الخصلات المتطايرة على تلميذ يتأفّف لغموض جملة أو فكرة، مردّدًا له بكلّ عطف وأريحيّة: *mais vous n'êtes pas que cela!* (إنك أكثر من كونك هكذا!)، أو منتصبًا في هيأة بروموثيوسيّة رافعًا قبضتيه حانيًا رأسه قليلا باتجاه صدره أمام جمعنا الواجم تحت مفعول الرهبة والارتباك قبيل حصّة امتحان الباكالوريا، صارخا بتحدٍّ كأنّما يخاطب جسده فيما هو يتوجّه إلى أجسادنا التي تخضّها رعدة الخوف: *tu trembles carcasse!* (أراك ترتعش أيها الهيكل العظمي!)، حتّى الأب فينيال، ذلك اليسوعي اللطيف والرحيم، هو أيضًا يظلّ فرنسيًّا رغم كلّ شيء مثل مسيو دلبيش

Twitter: @ketab_n

ومسيو بارتوليه وذلك الأستاذ الذي أتى لاختبارنا في امتحان شهادة ختم الدروس الابتدائيّة وقرأ علينا بصوته النحاسيّ الرخيم تمرين الإملاء:

«Sur le pas de ma porte, j'ai rencontré le vieux Salamano ... »[١]

ذلك التمرين الذي فشلت فيه فشلا قاتلا. حتى الأب فينيال يظل فرنسيا بالنهاية في أعيننا، أو في لا شعورنا على الأقل!

جاكْ وصديقته نونوتة لطيفان جدًا، ويساريّان فوق ذلك، أي من ذلك الصنف الذي لا يولي اعتبارًا للفوارق العرقيّة والقوميّة. لكنّ شيئًا في داخلي لم يكن ليسمح لي بأن أقترب من هؤلاء الناس إلاّ بمقدار. كنا نسمع حكايات كثيرة عن المعاملات العنصريّة ضدّ العرب في فرنسا. كانت تلك الحكايات تأتينا مثل شيء شبيه بالخرافات؛ مقاهي يُكتب على أبوابها: ممنوع على الكلاب والشمال إفريقيّين. وهذا واحد يعود من سفر إلى مرسيليا أو ليون أو ستراسبورغ يروي كيف رفض جرسون هذا البار أو ذاك أن يخدمه لأنّه عربي... كلام كثير لا يفعل سوى تأكيد أفكارنا القديمة عن هؤلاء الناس الذين عرفناهم معمّرين قساة متجبّرين. لكن لا شيء من هذا كان ليمنع أحدًا منّا من الحلم بدخول هذه البلاد. لعلّهم كانوا يحرسون بتلك العدوانية والعنصرية كنوزًا من المتع يحرصون كلّ الحرص على عدم اقتسامها مع غيرهم من الناس. ذلك السلوك العدوانيّ كان يبدو لنا الباب المنيع الذي يوصدونه على الكنوز التي لا يرغبون في اقتسامها. تمامًا مثل ما يرد دومًا في القصص والخرافات الشعبيّة؛ الكنز أو السرّ دائمًا وراء الباب الأخير الذي لا يجوز الاقتراب منه. الباب الممنوع الذي يستثير فضول المغامرين على الدّوام ويشحذ الرغبة في إتيان أعمال الطيش.

---

(١) «على عتبة بيتي وجدت العجوز سالامانو» جملة من بداية رواية «الغريب» لألبير كامو.

Twitter: @ketab_n

مغامرون كثيرون من أبناء جلدتنا يتجرّأون على فتح الباب الممنوع؛ بعضهم يعود إلينا في زيارات قصيرة يخطر زاهيًا وقد تغيّرت حتّى بشرته وغدت أكثر طراوة وأقلّ جفافًا وقتامة. البعض منهم ترافقهم سيّدات؛ زوجات، صديقات، خليلات. لا يهمّ أن تكون الواحدة متقدّمة في السنّ شيئًا ما، أو بدينة بحجم بقرة هولنديّة. المهمّ أنّها امرأة فرنسيّة تتحدّث بصوت عال وتضحك ملء شدقيها، وتجلس في المقاهي والمطاعم والفنادق مثل أميرة شقراء بدينة ومشعّة بالغبطة وبثقة في النفس ساحقة في بعض الأحيان. وعندما تكون متمشية تخطِر إلى جانب صديقها أو زوجها أو عشيقها الذي من بني جلدتنا وقد تغيّرت جلدته قليلا، تلتفت إليها كلّ الرؤوس وتلتوي باتجاهها كلّ الأعناق: الأطفال المعجبون بثقل جثتها أو ببريق عينيها الزرقاوين، والكهول المبهوتون باهتزاز ردفيها الثقيلين وكفلها العالي العريض المرتجّ، والنساء اللاتي يلعنّ أولاد الهمَل الذين «يتمرّغون في نفايات الكفّار» كما لو أنّ بلادهم خلت من النساء والفتيات من ذوات «الزّين والعين والأصل والفصل والحياء والدّين!»، ولا يمنعهنّ ذلك على أيّة حال من إطلاق صيحات الإعجاب بين الحين والحين: «يكبّ سعدها ما أحلى روبتها(فستانها)!» أو «ياوخيْتي، شعرها كأنّه لحاف من حرير، أو ذهب!» لتضيف واحدة منهنّ تحاول إعادة الأمور إلى نصابها: لكنّهنّ جميعهنّ فاسدات وسهلات المنال، ورجالهنّ باردين باهتين مثل الطين! يتكالبن كالذباب على أولادنا يلتهمنهم مثل الشوكولاطة. في تلك البلاد الرجال فاترون والنساء لا تشبع. بعث الله إليهن بأولادنا خبزة في سوق الكلاب!

Twitter: @ketab_n

مائدة البروليتاريا

لم تكن لجاك بشعره الطويل وأنفه المعقّف ووجهه الشاحب النحيل هيأة مسيو دلبيش، أو برتولييه أو مسيو فينولاّر أستاذ العلوم الطبيعيّة الذي كان يحلو له أن يدقّ رؤوسنا بمسطرته الغليظة ولا ينفكّ ينصحنا بالعودة إلى قرانا وجبالنا لرعي الماعز والبقر. جاك يرتدي بنطلون جينز وقميصًا بسيطا، أو تي شيرت، وليس في هيأته وهندامه المهمل وسلوكه وأثاث بيته ما يدلّ على شيء من التفوّق. أكيد أنّ هناك شيء من الافتعال في هيأته المهملة، كما في قراره بمغادرة مقاعد الجامعة والتحوّل إلى عامل بسيط في مصنع بهدف الاقتراب من الطبقة الشغيلة ومعايشة أحوالها وظروف عملها ومعيشتها. «الالتحام بالطبقة الشغيلة» كان شعار غالبيّة مناضلي الأحزاب اليساريّة والحركات الثوريّة آنذاك وبصفة خاصّة حركتي التروتسكيّين والماويين اللتين تجمعان في صفوفهما شبابًا أغلبهم ينحدرون من عائلات موسرة أو من الفئات الوسطى التي لا علاقة لها بعالم العمل اليدويّ والمصانع. رومانسيّة حالمة؟ طيش شباب؟ رغبة في الخروج عن السبل المسطّرة والطرق المعبّدة؟ حلاوة كسر الحدود والعبور إلى المناطق المجهولة؟ متعة مذاقٍ ذكوريّة تُستوحى من أزيز الآلات وزيوت المحرّكات وكسوة العمل الزرقاء، من الأصابع المحزّزة والمورّمة الملطّخة التي بدأت تنسلخ عن قشرتها الناعمة وليونتها الطفوليّة، البرجوازيّة؟

Twitter: @ketab_n

كنت لأكثر من ثلاثة أسابيع لا أتغذّى إلا من خبز وحليب عملاً بمبدأ أنّ الحليب غذاء كامل بينما باريس من حولي تفقأ العينين بطيّبات الدنيا ممّا تعرف عيناي وممّا لم تر إلاّ هنا. خلال تجوالي اليوميّ الطويل بحثًا عن عمل ألج عددًا لا يُحصى من المطاعم، البسيطة منها والفاخرة، التي تعرض واجهاتها أصنافًا خياليّة من الأطباق؛ لحوم متنوّعة؛ كستيليات، شرائح لحم العجل الملفوفة في الدقيق على الطريقة الميلانيّة أو الفيينيّة، شرائح بيفتاك، دجاج، سمّان، بطّ، أسماك بيض فضيّة وزرق وورديّة، ثمار البحر، محار، سرطان البحر العائم حيًّا في أحواض من الزجاج، غلال طازجة تبدو نازلة للتوّ من غياض الجنّة، بينما تفوح في فضاء تلك المطاعم روائح ممّا يمكن أن يقال عنها حسب العبارة الخرافيّة الشهيرة أنّها «*تعيد الرّوح وتجعل الشايب شباب والعجوز قدّ الباب*». كنت في ذلك التسكع اليومي الطويل مثل قطّ محكوم عليه بالتجوّل صائمًا بين شتّى أصناف المأكولات. عندما تحفر معدتي الروائح الشهية ويدوّخني طول النظر إلى ذلك المعرض المتنوّع وتشرع ركبتاي في الارتخاء أتّجه إلى أوّل مخبزة لأقتني نصف رغيف وعلبة بنصف لتر من الحليب ثمّ أتهاوى على كرسيّ في إحدى الحدائق لتناول وجبتي حالمًا باليوم الذي سيصير لي فيه عمل مثل الجميع وحافظة نقود تخوّل لي دخول تلك المطاعم لا طالبَ عمل بل غازيًا لموائدها الفردوسيّة.

تنهار معنويّاتي أحيانا ويقتحمني اليأس فأشعر بشيء من الندم على فعلتي الطائشة التي دفعت بي إلى التشرّد في هذه المدينة وأنا أتخيّل موائد الطعام في بيت عائلتي وبيوت أصدقائي بمقليّاتها وشواءاتها ومرقها المبهّر وفلفلها الحارّ وبطّيخها المبرّد. يمرّ أمام عينيّ مشهد حانات تونس بموائدها العامرة بزجاجات البيرّة الباردة والخمرة الحمراء والبيضاء والوردية وأطباق السمك واللحوم المشويّة، شرائح الستيك في مطعم

Twitter: @ketab_n

«طونطونفيل»، أطباق الشواءات في مطعم «البوليرو» الصغير الذي يعجّ بالموظّفين والطلبة والمدرّسين والصحفيّين والكتّاب والشعراء، صحون العجّة بالمرقاز أو بالمخّ في بار نهج الرتل، أطباق الكلوفيس(المحار) في حانات حيّ لافايات، قطع البيزّا في بار «شي ماكس»، سمك التريلْية المقليّ اللذيذ في حانة «المارينيون»، رؤوس الخرفان المحمّرة المبهّرة بالثوم والكمّون مزيّنة بالبصل والمعدنوس في حانات شارع فرحات حشّاد، كستيليات العلّوش[1] والكبد والطحال والكلى والمرقاز الحارّ المبهّر في دكاكين الشوّائين في مدينة زغوان... تغرغر أمعائي وتتقلّص وتتلوّى داخل بطني ويصيبني شيء من الدُّوار شبيه ببخارٍ ثقيلٍ عطِنٍ يصعد من جوفي المتعفّن بالحليب وعجين الخبز وتغيم الأشياء رويدًا رويدًا أمام عينيّ: واجهات المحلاّت والسيّدات الأنيقات الضاربات بكعوب أحذيتهنّ على الرصيف والعجائز اللاتي يجرجرن كلابهنّ الصغيرة التي تحرسهنّ من شبح الوحدة والموت الحائم فوق رؤوسهنّ، والجوع يتمطّط في بطني مثل ثعبان ويبثّ أبخرته السامة في صدري ثم يصعد إلى رأسي قبل أن يغزو كلّ خلايا جسمي فترتخي مفاصلي وتضطرب ركبتاي وأجدني أتحرّك ببطء وصعوبة فائقة داخل عالم يبدو لي مثل كوكب غريب كلّ ما يتحرّك داخله يصيبني بالبهتة والذهول. أتفحّص الوجوه مثل أبله كما لو كنت أجهد نفسي في استقراء ملامح الناس من حولي، سرّ حركاتهم السريعة وأصواتهم المتداخلة مثل معزوفة غريبة لم تستأنس لها أذناي بعد. كلّ شيء غريب غامض؛ الضحك والمرح والأزواج السائرون في عناق طويل في الشوارع وممرّات الحدائق، وهياكل الشيوخ والعجائز المتهالكة على الكراسي

---

(١) هكذا يسمى الخروف في تونس.

Twitter: @ketab_n

الخشبيّة تنثر الحبّ أو فتات الخبز للحمام المتحلّق حولها في هرج وغبطة، العمّال المنهمكون في حفر الأرصفة وتجلية التراب، العربات التي تضع أمام الدكاكين والمطاعم صناديق المشروبات، المارّة الذين يبدون سائرين إلى حفل في مكان ما؛ رجال ببذلات أنيقة ونظيفة ووجوه مشرقة، سيّدات بفساتين خفيفة زاهية الألوان، صدور متوهّجة، عيون مشعّة بالبهجة، فتيات بتنورات قصيرة وبنطلونات جينز ضيّقة تجعلهنّ في هيئة السمك الطريّ، الشبّان المتمشّون بكسل ولا مبالاة جيئةً وذهابًا كأنّما خُلقوا للتمشّي هكذا جيئة وذهابًا في شوارع هذه المدينة دون هدف محدّد، حالمين، ضاحكين مغمورين بغبطة لا أدري لها سببا ولا مصدرًا. بعيدًا يتراءى لي كلّ ذلك العالم، وأنا الذي لا يحفر الأرصفة ولا يجلّي التراب ولا ينزل البضائع من عربات الشحن ولا يخدم الحرفاء في المطاعم والمقاهي، ولا يجلس إلى طاولة ولا يشرب بيرة باردة صافية ولا نبيذًا أحمر ملتهبًا مثل الياقوت، ولا يأكل آيس كريم ولا يتمشّى حالمًا لا مباليًا، لا يعانق أحدًا ولا يعانقه أحد، أنا هناك مثل كائن لا مرئي تنزلق من حوله الكائنات الأخرى ولا تراه، ولا تشعر بوجوده أصلا. أتحسّس تذكرة العودة بالباخرة من مرسيليا إلى تونس وجواز سفري في جيبي. توريسك! توريسك فعلا يا رفرافي! وأظلّ أردّد مثل الأبله المخبول:

Tu l'as voulu, Georges Dandin! Tu l'as voulu, Georges Dandin![1]

طبعًا، أردت ذلك طوعًا واختيارًا، وأنا مصرّ على البقاء هنا مهما كان الثمن. البطولة، مثلها مثل الجبن، لا تتحقق للمرء إلا عندما لايكون له من خيار غيرها. ليس لي من خيار غير البقاء والصمود،

---

(١) ما يعادل: على نفسها جنت براقش.

Twitter: @ketab_n

فبتعمدي الانسحاب من امتحانات نهاية السنة الجامعية كنت أعرف أنني لا أفعل سوى حرق جسور العودة. إذن! في الأفق تلتمع من وراء غيمة اللحظة الكدِرة وعود بحلم غزو باريس، ولا بأس أن تظلّ الفاتنة تتمنّع وتتغنّج؛ لن يزيدها ذلك إلا إثارة وشبقاً. أحلم بالجامعة؛ قاعات المحاضرات، الأساتذة المهيبون الذين تتألّق هيئاتهم ببريق عراقة في المعرفة، حجارة الجدران السميكة لتلك البناية الجامعية التي كنت أمر من أمامها أحيانا، أتوقف طويلا لأنظر إليها بعينين ملؤهما الرجاء والأمل؛ البوّابات الضخمة التي تعطي انطباعًا بولوج عالم سحريّ غامض مجلّل بوقار العلم وهيبة سلطانه، الطالبات الباريسيّات الشبيهات بحوريّات الجنّة؛ تُرى هل سيكتب لي أن ألجها يوما طالب معرفة، أن تأخذني الطريق إليها لا مشردا هائما على وجهه دون هدف، بل قادما إليها قدوم صاحب البيت إلى بيته؟ تأخذني النشوة، أدوخ ببهارات موعودة تتراءى لي الآن في متناول اليد... أدوخ فعلا. أشعر بخدر يلفّ بخاره برأسي، ينسرب إلى مفاصلي، ينحدر إلى ركبتيّ وقدميّ؛ لم أعد قادرًا على المشي ولا على الوقوف، أستند إلى جدار، أتنفّس بعمق، أجرجر رجليّ حتّى أبلغ كرسيًا خشبيًا على بعد بضعة أمتار تتراءى لي مثل مسيرة شاقّة وعسيرة لا تنتهي، أتهالك على الكرسيّ، سرب حمام بأكمله يطير من بين قدميّ محدثًا برفيف أجنحته دوّامة شبيهة بعجاجة تحمل في لفافتها قشًا وأوراقًا وكواغذ وأغصان أشجار ودفاتر وأشياء أخرى كثيرة متنوّعة تُحدث طقطقة تتحوّل دويًا داخل رأسي، تغيم في رأسي ملامح جامعة السوربون والطالبات المزقزقات مثل عصافير الجنّة وكلّ الوعود التي كانت تدغدغ قلبي منذ حين... قابعا على كرسي خشبي في حديقة اللكسومبورغ لا أحد ينتبه إليّ، لا الشيوخ المسنّون ولا العجائز ولا الكلوشارات ولا أزواج العشّاق المتلاحمين في عناق

Twitter: @ketab_n

لذيذ طويل قاس عليّ قسوة هذا الخشب الذي ترتجف فوقه ركبتاي، والصوت النحاسيّ الصارم لصاحبة المطعم وهي تنتهرني تقريبًا: لانريد طلبة، لسنا في حاجة... بنت القحبة! كما لو أنّي جئت أتسوّل، أو أريد أغتصابها! لا أحد في حاجة لطالب يريد عملا؟ من يعمل إذن في كلّ هذه المطاعم والبارات والفنادق والمحلاّت التجاريّة الكثيرة؟ لا أحد يريدني! ما الذي دفعني إلى القدوم إلى هذا البلد الخراء؟ تفو، تفو، تفو!

*

طبعًا لم تعترضنا بنات الفرنسيس بالأحضان. مجرد كلام طائش، ربما رغبة في تزويق الحديث لا غير؟ لا بنات فرنسيس تحتضنني ولا هم يحزنون؛ أجلس في حديقة اللوكسمبورغ جائعًا خائر القوى ومبتئسًا حدّ الرغبة في البكاء. خرت على رأسي حمامة فضحك عليّ «الكلوشارات» المتحلّقون في جلبة معربدة غير بعيد منّي. وبينما كنت أمسح الذرق عن شعري بقطعة من الورق كان واحد منهم يقول لي مقهقهًا: الخراء فأل خير. خراء الحمام يجلب الحظّ!

ـ فأل خير؟ يابن العفنة! خذ إذن من الحظّ وفأل الخير ملء أنفك يا وسخ!

دسست له الكاغذ في لحيته وهربت مسرعًا قبل أن يهشّم رأسي بالقارورة الفارغة التي كان يشهرها باتجاهي وهو يلاحقني.

جلست أستريح على كرسي خشبيّ بعد أن تأكّدت أنّ الكلوشار الغاضب قد توقّف عن ملاحقتي مفضلا العودة إلى الزجاجة التي قد ينهيها الآخرون في غيابه، ألهث وألعن كلّ فصيلة الحمام وخاصة تلك التي لم يحلُ لها الخراء إلاّ فوق رأسي وعلى ياقة قميصي الوحيد. لو

Twitter: @ketab_n

أنها تقع في يدي فسترى ما الذي أفعله بها، بنت الـ... سألوي عنقها ـ لن أذبحها، لأنّه ليست لي سكّين ـ سأحزّ رقبتها بزجاجة مهشّمة أو بقطعة من الصفيح الحادّ، أنزوي بها في ركن من حديقة اللوكسمبورغ وأريّشها، بعدها أشويها، أحمّرها في الزيت، أسلقها، أضعها في الفرن، أطهيها في مرق من الطماطم وهريسة الفلفل الحارّ مع كثير من البهار حتّى تلين جلدتها، تكاد تهترئ، ويقتحم البهار الشديد والفلفل أقصى أقاصي نسيج لحمها ليزيح عنه زفر الكائنات التي تعيش على بقايا أكل الآدميّين من سندويتشات بالجبن والجمبون وكعك بالزبدة والبيض وبطاطا مقليّة بزيوت قديمة مستعملة عطنة وسجق لحم خنزير مدخّن وفتات من لحم دجاج مشويّ وهمبورغر ملفّق من موادّ عديدة غامضة لا يعرف الشيطان نفسه تركيبتها الحقيقيّة، ونتف من سمك كان مجمّدًا سنوات عديدة وآيس كريم وشكلاطة وفتات خبز داسته الأقدام مرّات عديدة ...

حمام مشوي فوق أعواد من الحطب أجمّعها في زاوية من الحديقة. لكن أين هو الحطب؟ كأنّ أشجارهم لا تيبس! وأين هو القشّ؟ إنّها باريس لا حطب فيها ولا قشّ ولا تراب! حمامة مصليّة في الفرن محشوّة بالرزّ والبندق(الصنوبر) والزّبيب مع قليل من الفلفل الأسود ـ لكن قليلا فقط ـ وشيء من جوز المسك والزنجبيل. حمامتان، ثلاث حمامات، أربع حمامات محشيّات مدلّكات بمزيج من زيت الزيتون والزعفران وقليل من العسل ـ لحم بعسل؟! أي نعم يا سيّدي، شيء من العسل على جلد الحمام، أووه! ذلك المزيج الغامض والدقيق من الحارّ والحلو الذي يتقنه الآسيويّون؛ حلاوة تكاد لا تُدرَك، وحرارة ناعمة دقيقة واهية مثل كذبة! ـ تُحشر الحمامات كلّها في بطن خروف لم يُفطم بعد؛ حليب أمّه ما زال يتدفّق بين شرايينه وعبر خلايا لحمته الورديّة

Twitter: @ketab_n

الطريّة. خروف محشيّ بحمام محشيّ، مخترق من الدبر حتّى الرقبة بسيخ محكم فوق منصب فولاذي، تحته جمر فحم من خشب الصنوبر ذي الرائحة الذكيّة. تدير ذلك السيخ الطويل يد متأنّية بارعة موزونة الحركة معدّلة على نسق حركة عقربِ ساعةٍ ثابتة ومنتظمة الدوران؛ السيخ يلفّ والخروف يلف وفي بطنه الحمامات المحشيّات تدور بدورانه، والسيخ يلفّ في حركته الموزونة البطيئة، البطيئة جدًّا جدًا، والدهن يقطر ببطء على جمر فحم الصنوبر ذي الرائحة الذكيّة؛ تمتزج الرائحتان، بل روائح عديدة؛ كوكتيل روائح وبهارات، فيها الخردل والكزبرة والثوم والزعتر وجوز المسك والفلفل الأسود وهريسة الفلفل الأحمر الحارّ والزعفران والكركم ومعجون المنْغة المبهّرة على الطريقة الآسيوية وصلصة الصوجا ونكهة خفيفة حائمة مثل خيط دقيق من معجون الفستق السودانيّ، والسّيخ يلفّ، الخروف يلفّ، في بطنه تلفّ بدورانه الحمامات المحشيّة، الخروف يلفّ، السّيخ يلفّ واليد البارعة الواثقة تلفّ ورائحة الدهن المتقاطر على جمر فحم خشب الصنوبر تلفّ، والمجمرة تلفّ، الجمر يلفّ دوّامة حمراء مشعّة مشعشعة، والروائح تلفّ واليد تلفّ، بل الرجل بكلّيته غدا يلفّ منتشيًا والكلوشارات المتحلّقون غير بعيد حول زجاجة نبيذ يلفّون...

اختفى كل شيء داخل لفافة واحدة بخارية داكنة مزيج من خرفان كثيرة تلف على الأسياخ وحمام مشوي وكلوشارات يقطر الدهن من لحيّهم الشعثاء وزجاجات نبيذ وأقدام عجائز ومؤخرات الدجينز وكؤوس بيرة وأيس كريم وريش حمام... الدنيا كلها تلففففففففْ...

*

كان جاكْ وننوته يعدّان الغداء عندما دخلت صحبة عقبة. عرض علينا

Twitter: @ketab_n

بيرّة وشراب باستيس ثمّ سألني إن كنت أريد أن أتغدّى معهم فشكرته مدّعيًا أنّني أكلت قبل قليل. لم يُعد عليّ السؤال ولم يلحّ. لم يعلّق عقبة، ولا أعاد عليّ عرض جاك. عقبة يعرف بالتأكيد أساليبنا العاديّة ومراوغاتها وكرّها وفرّها، والمكابرة والحرص على حفظ ماء الوجه. كنت مقتنعًا أن الأمر العاديّ سيحصل عندما توضع المائدة. واصلنا احتساء البيرّة، ثمّ الباستيس والرائحة القادمة من المطبخ تعد بوليمة سخية. غدا الوعد شبه متحقق إذن، حتّى أنّني كدت أنسى أنهم سألوني ورفضت، فأقبلت على تناول المزيد من الباستيس دون تحفظ، وكان جاك، والحقّ يقال سخيًا يشرب بسرعة ويعيد ملء كؤوسنا بسخاء وهو يدندن ويرطن بصوته الأجشّ مرافقًا موسيقى باكو إيبانييز الإسباني أو ليو فيري الفوضوي الذي كان يصرخ ويزعق كأنّه ينبح.

شرعت نُونوتة في ترتيب المائدة ووضع الصحون بينما جاك وعقبة منهمكان في آخر الإعدادات داخل المطبخ. وضعت ثلاثة صحون كبيرة، ثم ثلاثة صحون صغيرة فوقها، ثمّ ثلاث شوكات، وثلاث سكاكين وثلاثة مناديل! جاءت بطبق السلطة، ثم بطنجرة مغلقة يبدو أنّها ساخنة لأنّها كانت تمسك بها بمنديلين سميكين. طنجرة ثانية وضعها جاك على المائدة وعاد إلى المطبخ. هل أنهض من مكاني وأعرض عليهم مساعدتي؟ لا، سيكون ذلك أمرًا شبيهًا بالتطفّل، وهم على أيّة حال ثلاثة والمطبخ الصغير لا يتّسع لأكثر منهم. جاك يطلّ من الباب وبيده أكواب شراب جديدة، يسألني: هل تريد نبيذًا أحمر؟ علامة خير! أوافق، وبشيء من الحماس أيضًا. جاء طبق آخر عليه قطع لحم محمّر مع شرائح بصل. ترى ما الذي تحويه الطنجرتان المغلقتان؟ وماذا يعدّ عقبة الذي لم يخرج من المطبخ منذ ما لا يقلّ عن نصف ساعة؟ أكلة تونسيّة إضافيّة احتفاء بي؟ دخلت نونوتة وبيدها طبق عليه أربع قطع

Twitter: @ketab_n

كبيرة من الجبن وشرائح من الجومبون والسالامي. وليمة ضيافة حقيقيّة إذن! جلست نونوتة أوّلا، ثمّ جاك؛ كلاّ أمام صحنه وشوكته وسكينه وأنا ما أزال جالسًا في مكاني على الأريكة. لم يدعواني. لكن ماذا يفعل عقبة يا للشيطان؟

أخيرًا دخل عقبة. جلس إلى المائدة وشرع في تناول السلَطة. هل يعقل أنّه غدا هو الآخر وغدًا حقيرًا؟ فرنسيًّا سافلا هو أيضًا؟ ربما ينتبه إليّ ...لكن متى؟ يا عقبة، ياولد الـ...! يرفعون كؤوسهم، وأرفع أنا أيضًا كأسي معهم من مكاني على الأريكة. نشرب نخب الصحّة والعافية ووليمة البروليتاريا في يوم عطالتها التي أشترك فيها بنبيذ بدأ يمزّق أمعائي مثل النصال، وأولاد الكلب يأكلون ويتحدّثون، ومن حين لآخر يتوجّه أحدهم إلي بالكلام، أو بسؤال. أيّ كلام يا أولاد الخراء وأيّ حديث، وأيّة بروليتاريا قحبة؟ أكاد أصرخ: يا جماعة، يا جماعة أأنتم مجانين؟ أوغاد وأولاد همَلْ وسفلة؟ أم أغبياء؟ أم ماذا؟

نهضت من مكاني مصطنعًا الذهاب إلى الحمّام. شربت من الحنفيّة مباشرة ما لا يقلّ عن نصف لتر من الماء. فكّرت بأنّه لم يعد لي غير الماء لملء أمعائي وتبديد شيء من مفعول الشراب الذي بدأ يبهذلني. ثمّ اتجهت إلى غرفة عقبة ورحت أحاول إلهاء نفسي بتصفّح بعض المجلاّت وأشرطة الموسيقى. لم تكن هناك كتب، ولا حتّى صور لنساء عاريات كما يرى المرء عادة في أغلب بيوت الشبّان المهاجرين من العزّاب. عندما عدت إلى غرفة الجلوس كانوا قد وصلوا في طقسهم الطويل الشنيع إلى جبن الكاممبير بالخبز الأسمر، والروكفور، وجبن الماعز الطريّ. مرّت أكثر من ساعة من الزّمن وهم يجرشون ويلوكون ويتحدّثون ويضحكون. حديثهم يبدو لي الآن قادمًا من مكان بعيد. هم أيضًا قد أصبحوا عالمًا بعيدًا وغريبًا عنّي، عدوانيًا ساحقًا.

Twitter: @ketab_n

كان عليّ أن أتجلّد على محنة النقاش الطويل الذي يمطّط طقس الغداء إلى ما لا نهاية. وكان عليّ أن أكابر وأنضبط وأنا أرمق بعيني كلب بائس مائدة البروليتاريا التي تُفرت فوقها أمعاء النظام الرأسمالي ويشرّح فوقها الهيكل المتفكك للبرجوازية وربيبتها البرجوازية الصغيرة، بينما تلمّع صفحة البروليتاريا مثل مرآة يجلّى عنها الصدأ المتراكم عليها لقرون عديدة. البروليتاريا هم طبعا جاك ونونوتة وعقبة الذين يكدّون داخل مصانع الضاحية الشماليّة لباريس، الذين لا تطلع الشمس على تململهم بكسل في الفراش إلاّ مرة في الأسبوع؛ في هذا الأحد المقدّس الذي لم يعد يوم عطالة الربّ، بل فسحة للبروليتاريا تضمّد فيها جراحها حول مائدة حافلة بشتى أصناف المأكولات والمشروبات والنقاشات الطويلة حول أفضل وأقصر السبل للإطاحة بعرش رأس المال. يوم الأحد الماضي كان يوم استراحة البروليتاريا لدى واحد من أصدقاء الطفولة وثلاثة شبان مهاجرين تونسيين آخرين يتقاسمون شقة صغيرة في سان دني، يوما معربدا صاخبا بدأ بالتزاحم صباحا على بيت الحمام للاغتسال وحلق الذقون وتلميع بشرة الوجه داخل رائحة قهوة طازجة وأنغام موسيقى تونسيّة وقرقعة أواني في المطبخ وسعال ونحنحات تختلط بصوت صنبور الماء وفحيح مجفّف الشعر. بعدها فطور سريع قبل الخروج للتسوق، أو للتمشي هكذا دون تسوّق داخل زحمة المتسوّقين والآخرين المتمشّين دون تسوّق أيضاً والذاهبين أو العائدين من الكنيسة بعد قدّاس الأحد يملؤون أسماعهم بالنغمات المتعدّدة المتنوعة المتداخلة لباعة الخضار والغلال والسمك والجبن واللحوم والملابس والأواني المنزلية وعارضي الآلات المنزلية الكهربائية الزاعقين في الأبواق، وشباب آخرين صارخين دون أبواق بحناجر شديدة الحماس يوزّعون مطبوعات عرفت من بعد أنها مناشير سياسية،

Twitter: @ketab_n

يعرضون صحفا صغيرة الحجم على المارة الذين لا يهتمون بهم وبالكاد يقذفونهم بنظرات سريعة ويمرون. بعدها ساعتان أو ثلاث ساعات بين الحانات الممتلئة حدّ الانفجار بالمعطلين المتكالبين بشراهة ونهم على كؤوس البيرة والنبيذ الأبيض والباستيس داخل جلبة تلعلع فيها أصوات المتجادلين بحماس حول رهانات «التيارسي» لسباق الخيل. أرقام وأسماء جياد يعرفونها كما لو أنهم ربوها بأيديهم في اسطبلات بيوتهم، صراخ، محاججات، مشاحنات، مداعبات بالسباب والشتائم وذكر الأعضاء الحميمية، بذاءات باتجاه الجرسون والنادلة اللذيْن يردّان بأوسخ منها، قهقهات مجلجلة تمتزج في جو احتفالي معربد مع أزيز آلة القهوة ورنين الكؤوس في حوض الغسيل والموسيقى الصارخة من آلة «الجاك بوت».

المائدة نظيفة والصحون مجلاّة، وجاك يأتي بالقهوة وزجاجة كالفادوس، يضع قدحا أمام البرجوازي الصغير، الطالب الذي ستهترئ مؤخرة بنطلوناته على كراسي الجامعة، والذي يتكوّر الآن على نفسه بالقرب من مائدة البروليتاريا محاولا الضغط بكلتَي يديه على أمعائه كي لا تخرج من بطنه. البرجوازي الصغير الحالم بالانسلاخ، الفارّ بجلده أو من جلدته في رحلة طائشة تدفعه رياح الفضول أو تجذبه عطورات وبريق عواصم الرأسمال المتواقح المتصالف بالبهجة وشتى المغريات، ليجد نفسه بمحض صدفة أو خطأ يجلس إلى مائدة البروليتاريا في يوم عطالتها يناقش ويجادل ويحاجج في جزئيات النظريات الماركسية المفرّخة في كل الاتجاهات ويفصّل مع الرفاق في الفوارق بين اللينينية منها والتروتسكية والستالينية والماويّة والجيفارية والتحريفيّة، والطاولة نظيفة؛ أي نعم *faisons table rase!* وجاك يسكب سائل الكالفادوس وهو يعالج آخر التدقيقات في إعادة ضبط رزنامة التواريخ في رأسي؛ الأحد

Twitter: @ketab_n

لم يعد يوم عطالة الربّ، بل يوم استراحة البروليتاري، وعيد الميلاد لم يعد يؤرخ له بشهر ديسمبر بل بأكتوبر المجيد الذي شهد ميلاد أول دولة للعمال والفلاحين، وفاتح مايو هو الفصح الجديد، جاك ينفض يديه ذات الأظافر السود والأصابع المحززة الملطخة بزيوت الآلات من مجمل التاريخ البرجوازي والإقطاعي ويملأ فناجين القهوة وكؤوس الكالفادوس التي ستدمّر ما تبقى من الأمعاء المتضورة للبرجوازي الصغير المتخم الآن بالوليمة الإديولوجيّة الدسمة:

Du passé faisons table rase!

Groupons nous et demain,

L'Inteeernationaaaaaaaale

Sera le genre humain![١]

(١) المقطع الأول من نشيد الأممية.

Twitter: @ketab_n

سان دني

شعرت بالارتياح للقاء علي الذي عرّفني به عقبة في صبيحة يوم الأحد في سوق سان دني المجاورة لأوبرفيلْيي. قال لي: تعال سأعرّفك على شخص نادر الوجود، لكن عليك ألاّ تنفعل وألاّ تغضب إذا ما بدا لك حادّ المزاج شيئًا ما. إنّه يبدو متكبّرًا وعدوانيّا لكنّه في الحقيقة رجل طيّب وكريم.

كان وجهه يشعّ فعلاً بنوع من الاستعلاء الساحق توقّعه الاختلاجات العصبيّة للفكّين والنظرة الجانبيّة التي يستقبل بها النّاس، كلّ الناس تقريبًا. لم يكن عقبة مبالغًا في شيء بشأن حدّة مزاجه ذلك أنّ الجملة الأولى التي سمعتها منه وهو يمدّ يده لمصافحتي بشيء من اللامبالاة كما لوكان يفعل ذلك لمجرّد روتين بارد، كانت: لستُ تونسيًّا ولا عربيًّا ... ولا فرنسيًّا. اسمي علي التومي وكفى!

سمعته من بعدها يردّد تلك الجملة العديد من المرّات وهو يكاد يصرخ محتجًّا متهيّجًا كلّما حاول عقبة أن يذكّره بلهجة مؤنّبة بضرورة عدم التنكر للأصل والجذور، وأشياء من هذا القبيل. ـ «إن كنت تريد أن نظل أصدقاء، عليك أن تنسى هذا الموضوع!» ثمّ يولّع سيجارة «جيتانْ» بعد أن يكون قد أطفأ السابقة بعصبيّة وأصابعه ترتعش. ينفث الدخان دفعتين متتاليتين، واحدة من الشقّ الأيمن لفمه والأخرى من الشقّ الأيسر. تتهدّل شفته السفلى باتجاه الجانب الأيمن لذقنه ويرتفع حاجبه

Twitter: @ketab_n

الأيسر ليتّخذ وجهه هيأة على غاية من الاشمئزاز والاستعلاء. نوع من الاستنفار الدائم كما سيتبيّن لي في ما بعد. كلّ آخرَ خصم محتمل في عيني علي، إلى أن يأتي ما يخالف ذلك. كلّ واحد يمرّ أمامه أو يقف بجواره وهو يتكىء على مقصف البار خصم، وغد وحيوان قذر، أو حمار سائب حسب عبارته المفضّلة التي يسحبها على الجميع تقريبًا. المهاجرون «خوروطو» ودوابّ تسعى. وكلّ امرأة بقرة.

«لا تحلو لي مضاجعتهنّ إلاّ على طاولة في بار، أو في حديقة عموميّة. أكره ما أكره هو أن تتمدّد امرأة إلى جانبي في الفراش، مثل ميّت». لا يستطيب ذلك الأمر إلاّ وهو يفعله بوحشيّة، عندما تغدو المرأة فعلاً بقرة ويكون هو ثورًا في ذروة التهيّج، أو عندما يكونا كلبًا وكلبة سائبيْن. وكان يحبّ أن يردّد جملة لمغنّيه الفوضويّ المفضّل ليو فيري:

Nous sommes des chiens!

Nous sommes tous des chiens!

Alors laissez nous les chiennes!(١)

تلك المسألة غدت معروفة لدى كلّ اللاتي يترددن على حانات سان دني الليليّة. هناك من تعجبها المسألة وهناك من لا تعجبها. وهناك من تستطيبها في المرّة الأولى لما يمنحه عنصرا المفاجأة وكسر العادة من إثارة إضافيّة، لكنّها لا تستطيع أن تقبل بها نمطًا قارًّا. جانيت، إحدى الحريفات القارّات في «كافي دو مارشي»، الذي يتحوّل بعد الساعة الثامنة مساء إلى بار ليليّ معتّم قليلاً لم يصبها الملل من عادة الخروج

(١) نحن كلاب/ نحن كلاب جميعنا/ لتتركوا لنا كلباتنا إذًا!

Twitter: @ketab_n

مع عليّ إلى حديقة الكنيسة عندما يتعتعها السكر وتكون مداعباته الفاحشة قد أذابت قشرة الجليد التي تلفّ جسمها وروحها في حالة الصحو. يتغامز الحرفاء الدّائمون ومدام روز عندما يرفع عليّ ياقة الجاكيته الجلديّة السوداء ويتّجه نحو الباب فتتململ جانيت فوق التّابوريه العالية، ثمّ تستند بكفّيها على المبسط وهي تطلب الحساب متنهّدة: آه! لا بدّ أن أذهب إلى الفراش يا عزيزتي روز! بينما عيناها الواسعتان تبرقان باتّجاه الباب. ـ آ، معك حق، الفراش..! الفراش شيء جميل، خاصّة في فندق الكنيسة تحت لحاف النّجوم!، يقذف باتجاهها هذا أو ذاك من الحرفاء الذين لم تعد تخفى عنهم المسألة. تفتعل جانيت الصمم أحيانًا كي لا تتورّط في مشاكسات لا تنتهي مع أولئك السكّيرين الذين ليس هناك ما يسلّيهم مثل التحرشات الساخرة والتقاذف بالمداعبات الفاحشة. أحيانًا تلتفت إلى صاحب الملاحظة الخبيثة أو الدّعابة الغامزة ملوّحة في وجهه بالوسطى المرفوعة من قبضتها الصغيرة السمينة التي لا يتجاوز حجمها كرة التنّس، ثمّ تندفع باتّجاه الباب وعيناها تلتهمان الشارع وساحة الكنيسة الفسيحة بحثًا عن علي الذي قد يكون في انتظارها في زاوية من الزوايا المعتّمة قليلاً.

كلّ تحرّكاته وعاداته اليومية معروفة لدى روّاد البارات، لا حرفاء «كافي دو مارشي» فقط، بل كلّ بارات سان دني. عندما يسكب آخر جرعة من كأسه بحركة عصبيّة ويقول وهو يرفع ياقة جاكيته الجلديّة السوداء: *Au suivant!* ـ اللي بَعْدو ـ إلى الموالي فهو لا يعني كأسًا أخرى، بل يعلن عن نيّة دفع حسابه والتوجّه إلى بار آخر.

لا يستطيع أن يشرب أكثر من كأسين في بار واحد إلاّ في حالات نادرة. وعندما يطلع الفجر وينهي سهرته بخصومة صاخبة عنيفة، أو بمضاجعة امرأة سكرانة في حديقة أوفي مدخل عمارة، أو في زاوية

Twitter: @ketab_n

معتّمة يكون قد لفّ بما لا يقلّ عن عشر حانات، وشتم أكثر من نصف الزبائن، وقد وضع يديه بين ما لا يقلّ عن عشرين فخذًا، ودفعته أياد عديدة، وقبّلت رأسه الأجعد أكثر من عاهرة أو عانس سكرانة حزينة.

هو الذي ألحّ علينا بأن نتغدّى معًا في بيته. بعد الغداء خرجنا إلى الحانة من جديد. كان عقبة يناوشه بين الحين والآخر: لن تموت إلاّ على مقصف بار سكران وبائسًا. وكان يجيبه: أمّا أنت فلن تموت إلاّ مرفوسًا تحت آلة من آلات مصنع وسخ نتن. ثمّ يلتفت إليّ: لا تستمع إلى هرائه إن كنت تريد أن تعيش سنوات لذيذة في باريس، لأنّه سيسعى جهده لإبعادك عن كلّ أماكن الفرح والبهجة. اشرب يا رجل، اشرب وامرح وسيبك من الخرافات والأوهام. قل لي بربك، ما الفرق بينك وبين أيّ بغل حراثة؟ كلّ كلاب الدنيا تجري وراء كلباتها، والحمير وراء إناثها، والديكة وراء دجاجاتها. الدنيا كلّها قائمة قاعدة على هذه المسألة إلاّ حضرتك: احشم، لا تضايق الناس، هذه عنصريّة، وتلك عاهرة وقذرة، والأخرى شريفة لا يحقّ التحرّش بها؛ لو كان الرجال كلّهم مثلك لانتحرت جميع النساء احتجاجًا وضجرًا من الحياة!

سألني عن ظروف إقامتي ومعيشتي في المدينة التي ما زالت جلّ أبوابها مقفلة في وجهي. ثمّ عرض عليّ أن أنتقل للسكن في بيته الصغير ريثما تثبت قدماي في البلاد وأجد عملا وبيتًا: ليس ضروريًا أن تزعج الفرنسيس، صحيح أنّ جاك ونونوتة طيّبيْن، لكن لطيبة الفرنسيس حدود، ونحن على أيّة حال نفهم بعضنا أكثر ونستطيع أن نتحمل بعضنا في كل الظروف.

*

أعجبني الطقس الغريب الذي كان علي ينتعش داخل نسقه السريع

Twitter: @ketab_n

والمتغيّر على الدّوام. ذلك الجري من بار إلى بار، تغيير الديكور وتبدّل الوجوه. بدا لي كما لو كان يلتهم المدينة بنهم من كلّ جوانبها. يغيّر زوايا النظر على الدّوام. يراود المدينة المنغلقة على أسرارها. يتوسّلها فيما هو يتنقّل من بار إلى آخر متجسّسا مداخلها الممكنة كلّها.

باريس فعلا مدينة لا تمنح نفسها بسهولة. ذلك الأمر لا يدركه إلاّ من أطال الإقامة فيها ومعاشرتها عن قرب. تنقل في البداية بين أحياء عديدة من المدينة قبل أن ألتقي به في تلك الضاحية الشماليّة (سان دني) التي انتخبها مستقرًّا له بالنّهاية. ضربٌ من التكتيك الجديد بمقتضاه يقتطع الغريب له جزءاً من المدينة ويركّز عليه من أجل رمي الجذور. غير أنّه، حتّى وهو ينحاز إلى ذلك الجزء من المدينة دون غيره، ظلّ مسكونًا بهاجس التنقّل الدّائم. لم يكن هنالك من شيء يشدّه في الواقع إلى مكان محدّد. وكان كلّ شيء، في كلّ مكان يضجره، وكان من الصّعب تحديد الأمر الذي يضجره ويدفع به دومًا إلى ذلك التنقّل اللاهث. صحيح أنّ حانات سان دني لم تكن تمنح للزائر من إمكانيات التواصل إلاّ طابعًا سطحيًا صاخبًا بالهذيان والمزاحات والدّعابات الفاجرة والمشاكسات التي قد تبدو في البداية مرحة إلى حدّ ما، لكنّها سرعان ما تنقلب إلى مناوشات ليست بريئة بالضرورة. هنا يمكن لممازحة عاديّة أن تنقلب بسرعة إلى استفزاز رخيص، فخصومة حادّة وكريهة مشحونة بأحقاد استعماريّة قديمة وعنصريّة متجدّدة. وإذا علي يخرج عن طوره ويطلق العنان لسيل سبابه المتدفّق. وهو على أيّة حال يمتلك قاموسًا ثريًا في هذا المجال وقدرة فائقة على تصريف الشتائم اللاذعة والتفنّن في تنويعها بحيث يكون بإمكانه مخاصمة ما لا يقلّ عن خمسة أشخاص في نفس الوقت دون أن تطغى كثرتهم على صوته الموقّع برنّة نحاسيّة تبدو أكثر احتفاليّة كلّما ازدادت وتيرة غضبه تصاعدًا.

Twitter: @ketab_n

رجل المشاجرات بامتياز؛ يتقن إخراجها، لا بصوته فقط، بل بحركات جسده الذي يغدو راقصا تقريبا وتعبيرات وجهه الأسمر الدّاكن النحيف الذي ترتسم فوقه علامات الاحتقار والاستعلاء على نحو يغدو معه أكثر عدوانيّة من نبرة صوته النحاسيّة وعباراته الفاحشة المنتقاة. كثيرًا ما انسحبت في خضمّ خصومة من خصوماته إلى ركن من البار، لا ترفّعًا عن لغط المخاصمات التي اشتركت في العديد منها وبشيء من المتعة أيضًا، بل لأنّ المشهد يغدو في لحظة ما على غاية من الإثارة بحيث يصبح من الأفضل مراقبته من بعيد والامتلاء بالمكان الذي يتحوّل في غمرة تهيّج علي إلى خشبة مسرح يتحرّك فوقها بطل وحيد منفرد داخل زوبعة من الغضب؛ كتلة من الضغينة والأوجاع والأحقاد القديمة التي لم تلتئم جراحها. رأس أجعد ووجه شاحب داكن السمرة وفكّان يختلجان وعينان سوداوان صغيرتان مثل حبّتي زيتون ملتهبتين وذراعان تتحركان في كلّ الاتجاهات، وتلك الرنّة النحاسيّة للصوت المتفجّر شلالات من الزعيق والسخرية. رنّة زنجيّة بربريّة موجوعة بجراح التاريخ. أوتيلّو - أوعطيل المورو - يرقص رقصة الغضب والصخب بين ركام السكارى وبقايا عساكر المستعمرات واللفيف الأجنبيّ الذين وقعوا مثل الحطام من الحروب الاستعماريّة التي انتهت ودفعت بهم إلى عتمة البارات الشعبيّة وهي ما تزال تطنّ في آذانهم بأناشيدها الحماسيّة المترهّلة التي كانت تدفع بهم إلى شتّى الحماقات الدمويّة موهمة إيّاهم بأنّها سترفعهم عمّا قريب إلى قمم مجد كونيّ بلا نظير.

- *ها هو!* يقول عليّ بسخرية متشفّية رافعا الوسطى في وجوههم، هذا ما أخذتموه في *ذلك الموقع* من وراء كلّ حماقاتكم القديمة، وهذا هو ما ستأخذونه مرّة أخرى وأخرى وفي كلّ يوم مكافأةً لكم عن حماقتكم.

Twitter: @ketab_n

سهراتي مع عليّ كانت شبيهة بفرجة؛ مسرحيّة متعدّدة الفصول ذات طابع ملحمي متنوع الوجوه. ضحك، عربدة، مشاجرات مبهّرة بالدعارة والفحش وألوان من البذاءات، لكنها بذاءات مرحة خفيفة ذات نكهة مستطابة، خاصّة عندما تشعشع الكوكتيلات في رأس مدام روز وينطلقان في مناوشات تحرشاتهما الطقوسيّة ومهاتراتهما الماجنة.

Twitter: @ketab_n

الحي الجامعي العالمي

في بهو الحيّ الجامعي العالمي ببولفار جوردان مشهد شبيه بمهرجان عالمي حافل بالهرج والصياح والمشاجرات والمجادلات الساخنة. مناشير توزّع بجميع اللغات تقريبًا، ملصّقات حائطيّة، مجلاّت وكتب وصور ماركس وأنجلز ولينين وماوتسي تونغ وكيم إيل سونغ وهوشي منه وشي غيفارا. مناضلون إسبان من الجبهة الثوريّة الشعبيّة المعادية للفاشيّة (FRAP)، ومقاتلون من منظمة الانفصاليين الباسك (ETA)، صور المهدي بن بركة المغربي وجورج حبش الفلسطيني وليلى خالد وغسّان كنفاني. شباب إيرانيّون بشوارب كثيفة وشعر أسود غزير مسترسل وعيون ملتمعة ببريق الثورة التي على الأبواب وراء معلّقات تحمل قائمات لا تنتهي بأسماء مناضلي منظمة «خلق إيران» المعتقلين أو المفقودين، أو الذين أعدمهم أعوان الـ «سافاك». بوليفيّون، بيروانيّون وأميريكيّون لاتينيّون من منظّمتي «MIR» و«Topamaros». مرجل الثورة العالميّة يغلي في هذا البهو. الثورة فعلاً على الأبواب.. لقد فعلت خيرًا بمغادرتي تونس لألتحم بهذا الدفق العارم الذي سيهزّ أركان العالم عمّا قريب.

في الجناح التونسي لهذا المعرض العالمي للثورة تقف كوكبة من الشبان والفتيات التونسيّات وراء أكداس من المناشير والنشريات المرقونة والمعلّقات التي تحمل صور أحمد بن عثمان ونور الدين بن خذر

Twitter: @ketab_n

وجلبار النقّاش وحمّة الهمّامي وساسية الرويسي وفاطمة بالعابد والطاهر شقروش وليلى بالعابد وآخرين كثيرين تحت لافتة خط عليها بالحروف الغليظة المسطرة بعناية: «ضحايا قمع النظام الدستوري العميل بتونس»، ثمّ معلّقات إخباريّة عن نضالات الطلبة وإضرابات العمال بمصانع الضاحية الجنوبيّة لمدينة تونس: «الصوفوميكا» و«المسابك المجمّعة» ومصانع النسيج ببن عروس ومساكن، الشركة القوميّة للنقل، ميناء تونس والمصانع الكيمياويّة بصفاقس، الضيعة الفلاحيّة «الشعّال» وفلاحو سِمِنجة... الثورة فعلاً على الأبواب ونحن هناك في تونس لم نكن نرى شيئًا من ذلك كله، ولا تصلنا سوى أخبار نادرة شحيحة تتهامس بها بعض الأفواه في الزوايا داخل الجامعة أو المبيت الجامعي! لقد كان فعلاً قرارًا حكيمًا أن غادرت تونس لألتحم بحركة التاريخ التي تغلي داخل مراجل الثورة في باريس، «لا مجاهد أكبر إلا الشعب!»، «الخبز والحرية لجماهيرنا الشعبية» *Frap, Frap, Frap, Guerra popular!*، بلادي بلادي بلادي... ثورة ثورة حتى النصر!

هاهي باريس! باريس الحركات الثورية الكونية، لا باريس بارات سان دني حيث تتعفّن داخل الصخب الخاوي والمواد المسمومة لفضلات البضاعة الرأسماليّة تلك الكائنات البائسة التي وقعت مثل الفضلات عن جسد الطبقة الشغيلة الملتهبة بالطموحات الثوريّة. عقبة معه حقّ؛ عليّ سيموت متعفّنا في قمامة البارات. أشعر بشيء من الخجل لانسياقي وراء هذيان علي عن اللذّة والمتع وبهجة الحياة ومفاتنها حتى أنني أصبحت أبدي ميلا أكثر إلى السهرات الداعرة معه من جلسات عقبة وجاك، أو لقاءات الطلبة التي لا تدور أحاديثها إلاّ حول الماركسيّة اللينينيّة والتروتسكيّة والستالينيّة والماويّة والتحريفيّة وطبيعة المرحلة وشعاراتها المناسبة، والعالم الثالث وحركات التحرّر،

Twitter: @ketab_n

من الجزائر إلى فييتنام وكمبوديا وكوبا، وكاسترو وشي غيفارا هوشي مينه وماو ورجيس دوبريه وفرانس فانون...

*

لم يكن من السهل التعامل مع علي كما هو، بطابعه التلقائي الخام ومزاجه المتشنج على الدوام. أشياء عديدة في سلوكه كانت تزعجني وتجعلني أشعر بالحرج أحيانًا وبالاضطراب أحيانًا أخرى. وهناك أشياء غامضة أودّ لو أنها تتضح لي.

كنت أنزع إلى نوع من النقاوة، أو ما كنت أسميه استقامة؛ ربما هي ترسبات التربية التي تلقيناها جميعا منذ الصغر، وربما هو ميل جديد مكتسب من هاجس الانضباط الذي تفترضه التربية الثورية الجديدة التي بدأت أتلقاها؛ إحساس يشوش علي متعة السهرات مع علي. بدأت تنشأ بيننا مصادمات لأسباب تبدو تافهة، مثل خصومة لا مبرّر لها، أو استفزاز مجانيّ لشخص ما، أو ردّة فعل عنيفة أكثر من اللزوم. كم مرّة انتهت مواجهة بانصرافي عندما يبدي تعنتًا لا مجال معه للمجادلة. وكان في كلّ مرّة يردّ بأسلوبه المكابر المتعنّت: «كلّ واحد يعرف ما يصلح به». أو «أنا هكذا، أعجبك ذلك أم لم يعجبك!»

أعود إلى الحي الجامعي لألتقي من جديد بالشباب المتحمّسين ليل نهار لقضايا الثورة والاشتراكية والعدالة الاجتماعيّة والمساواة. أنغمس من جديد في النقاشات التي لا تنتهي حول الماركسيّة اللينينيّة والصراع الطبقي، وطبيعة التناقضات التي تشق مجتمعات العالم الثالث، طبيعة المجتمع التونسي، مسائل الاستراتيجيا والتكتيك الثوري، كتابات لينين وماوتسي تونغ: «ما العمل؟»، «الدولة والثورة»، «الديمقراطيّة الجديدة»، «في التناقض»...

Twitter: @ketab_n

«كذب وهراء!» يقول علي مستهزئا.

ربما لم تكن ادعاءاتنا خالية من الكذب فعلا. ربما كنا نكذب على أنفسنا في المقام الأول، ونحن ندعي أننا هاجرنا من أجل مواصلة الدراسة في مأمن من القمع ـ ومن أجل النضال. كان لا بد لنا من عذر ما أمام ما بدا لنا آنذاك فرارا وخيانة لبقية أصدقائنا ورفاقنا المصرين على البقاء والصمود. كنا هاربين إلى الضوء، هذا صحيح. لكن من أجل حريتنا الخاصة ومتعتنا الخاصة أولا وقبل كل شيء، ومن أجل رقعة أرض ملائمة لحماية العود الرقيق لحريتنا التي بدأت براعمها تبرز خجولة مثل حلمتي صبية لم تتحولا بعد إلى نهدين. مدننا المتيبسة على القهر والممنوعات الكثيرة كانت تضيق بنا. في رؤوسنا وفي قلوبنا تصهل الآن أفكار وأحلام وردية. خطانا كانت أوسع من المدن المرَيّفة بلياليها الساكنة سكون الموت ونهاراتها القاحلة. كنا نريد أن نتهيّج مثل شباب العالم كله، أن نطيل شعرنا دون أن ينعتنا الناس بالمخنّثين وتأخذنا كبسات البوليس ليُحلق شعرنا في مراكز الشرطة ونخرج من هناك برؤوس كباش مجزوزة. نريد أن نلبس ما نريد، أن نصرخ بأصوات زاعقة تلعلع بالحرية، أن نقبّل صديقاتنا على مدارج الجامعة وفي المقاهي والحدائق العمومية، وأن لا نضطر للجوء معهن إلى ظلام قاعات السنما كي يضع الواحد يده في يد صديقته أو حبيبته. وإذا ما تساهلت الجميلة مددنا اليد إلى ركبتها وقلوبنا تكاد تخرج من صدورنا. كنا نريد فتيات لا يصفعننا لأن يدنا تجاسرت أكثر من اللزوم، لا غير راغبات بدورهن، بل متمنعات كي لا تصيبهنّ من بعد صفعات أشدّ إذا ما تساهلن وراجت حولهن الأقاويل وغدت لهن سمعة القحاب. كنا نريد أن نتمدد تحت الجسور ـ وليس لمدينتنا جسور ولا نهر أو قنوات مائية على أية حال، ولعل ذلك أيضاً مما يزيد في بؤسها ـ أن نجلس

Twitter: @ketab_n

متحلقين في الشوارع مباشرة على الرصيف دون أن تركلنا جزمات البوليس. كنا نريد أن نمتلك الليل ونملأه صخبا وغناء ورقصا ونكون حفل المدينة وحلتها البهيجة. لكن الليل في مدننا للكلاب السائبة والهَمَل واللصوص ومن لا يطمئن إليهم أحد، بما في ذلك مدبّرو الانقلابات الذين لا شيء يخيفهم أكثر من مدبّري انقلابات آخرين يتحركون بين طيات الظلام. الليل فضاء الحرام؛ تفاحة الأفعى أمّ الغواية. كنا نريد أن نذوق طعم ذلك الحب، يا أخي! ذلك الحب الذي نحلم به بين صفحات الدواوين الشعرية وفي وحدة ظهيرات الصيف القائظة، في ليالي الخريف عندما تنضج ثمار التين تحت القمر، في الحانات عندما ترتفع أصواتنا بغناء شبيه بنحيب المحرومين. نريد أن نخبر مذاق هذا الحب الذي يؤرقنا ولا نعرفه سوى كوعد مسكر يتراءى لنا طيفه بين لحافات «السفساري» البيض للمتسوقات في شارع باب الجنائز أو باب الفلة وسوق سيدي محرز، أو متموجا على أرداف زميلاتنا المكتنزة داخل بنطلونات الدجينز اللعينة. نريد أن نذوق طعما آخر لهذا الحب غير ذلك الطعم الباهت الذي نسترقه بسرعة من بين أفخاذ مومسات نهج سيدي عبد الله قش، أو ماخور la Grande Maison[(١)]، ونحن نرتعش بمزيج من الخوف والحرج بينما صوت البطرونة العجوز يلعلع زاجرا وهي تلوّح في وجوهنا بمروحة كما لو كانت تنش الذباب: امشي وإيجا ما تُوقفشي! يا لله ما تطوّلشي الوقفة. امشي وايجا! ونحن لا نتوقف عن التمشي جيئة وذهابا في الزقاق الضيق الذي تفوح منه روائح الرطوبة والبخورات والمنيّ وعرق الأتياس المتهيجة؛ عيوننا جمر على الأرداف والأفخاذ والمؤخرات المكتنزة

---

(١) البيت الكبير.

Twitter: @ketab_n

للمومسات الواقفات بتبجح الشماتة أمام الأبواب أو خلفها؛ امْش وايجا، ما تاقفشي! يكبّ سعدك! داء على لونك ما ابلدك! بداية الشهر ويدنا على الجيب المكتنزة بالمنحة الجامعية التي تسلمناها للتو ونزلنا منحدر حيّ «رأس الطابية» مهرولين: الحانة أولا؛ بيرّتان أو ثلاث. بعدها نتسلل باتجاه المدينة العتيقة، نغادر شارع باب البحر الواسع كما لو كنا نخرج من منطقة الحلال والمباح باتجاه أزقة الحرام الطيّب؛ نفضل دوما المرور عبر نهج زرقون حتى إذا ما اعترضنا أحد من معارفنا في الطريق إلى منطقة الحرام نتعلل بالتسوق من أكداس الكتب القديمة الكثيرة التي لم نكن نمر عليها دون توقف وشراء بعض الروايات على أية حال ـ لكن في طريق العودة من نهج سيدي عبد الله قش عادة، لا في طريق الذهاب.

هاهي باريس ياسي محرز! كانت تلك صيحة ظفر في الحقيقة.

نجلس أمام دار موناكو بالحي الجامعي الدولي، قبالة دار تونس، ولا نتحلق أمام دار تونس ـ أمر عجيب! نحتسي بيرة ونغني ونتجادل ونغازل فتيات قادمات من شتى أصقاع الدنيا ـ أمام دار موناكو قبالة دار تونس!

هاهي باريس!

ها هي الدنيا!

ها هي الحياة!

*

نكذب؟ قليلا أو كثيرا؟ أم نحن صادقون؟ صادقون مع أنفسنا، صادقون مع هذه المرحلة من عمرنا ومن عمر البلاد الخارجة توا من

Twitter: @ketab_n

سلطة الاستعمار ومن أزمات داخلية وعثرات لم تمر علينا دون أن تترك أثرا.

مصيبون، مخطئون، ليس ذلك أمرا مهما. نحن داخل التيار العام، ننغمس رويدا رويدا في حلمنا الجميل، حلم شباب العالم كله من حولنا: نحن هنا من أجل مهمة تاريخية على غاية الأهمية والخطورة. بيت الرفيق حميد غائم بدخان السجائر، والنقاش على أشده: لا بد من تحديد طبيعة المرحلة؛ إلقاء الشعار المناسب في الوقت المناسب؛ إقرأ «الدولة والثورة» يارفيق! إقرأ «في التناقض»، «بيان الحزب الشيوعي»، كومونة باريس، دور الحركات الطلابية في مسار الثورة البروليتارية؛ العائلة، الدولة، الدين... أنسى حانات سان دني وقهقهات السكيرين وأصواتهم الملعلعة بالمداعبات الفاحشة، ومشاحنات علي التومي ونكاته الفاجرة وياقة جاكيتته الجلديّة التي يرفعها وهو يعلن بنبرته الظافرة: «*اللي بَعْدو*»، ويغدو مجرّد تذكّره صدفة شيئاً شبيها بذكرى قديمة يلفّها شيء من الخجل والتنصّل. نناقش قضايا مصيريّة وأفق الرّؤية يتّسع ليحتضن العالم بكلّيته في حاضره وماضيه؛ عالم منسوج بالخيوط الفضيّة المتلألئة للأديولوجيا التي تهزّ عالم الرؤى والمعتقدات البالية برمّتها، ترجّها وتنفضها فيتطاير غبار أوهام التاريخ عن جسد الحقيقة الناصع، ويبرز وجه المستقبل ضاحكًا متوهّجًا بالثورات الشبيهة بأعراس كونيّة ضخمة تهزّ عرش الأكاذيب والأباطيل والاستغلال والقهر وتضع مكانها عرش العدالة والأخوّة والسلام. نمرح مرحًا سيقوّض العالم ويقلب الدنيا رأسًا على عقب. أليس ذلك حلمنا الأغلى؟ أن نعبث بالدنيا ونبعثر جدّيتها الزائفة؛ لعبة شيّقة وخطيرة، تمامًا كما يودّ ويتمنّى كلّ طفل. ونحن ما زلنا على أيّة حال أطفالا، أو أنّنا في أغلب الحالات

Twitter: @ketab_n

نستردّ ما سرق من طفولتنا. نعبث إذن بحريّة، ننتقم في هذه الفسحة من كلّ السلط التي قهرتنا وزجرتنا وحرمت طفولتنا من العبث. الحرية مطلبنا الأول، ـ قبل الخبز؛ «الخبز والحرية والكرامة الوطنية» يرفع التنظيم شعاره الجديد، لكننا في أعماقنا نود لو أننا نرد عليه هاتفين: الحرية قبل الخبز. موكب الحرية الكوني يمر بالقرب منا صاخبا هازجا، ونحن لا نريد أن نكون متفرجين. أجل نريد أن نعبث، نطمح لتأسيس مملكة المرح الكونيّة: «يا عمّال العالم اتّحدوا!» لا يا رفيق، بل: «يا عمّال العالم، ويا شعوب العالم وأممه المضطهدة اتّحدو!» هكذا أدخل الرفيق ماو تعديله الموافق لطبيعة المرحلة التي لم يكن لماركس وأنجلز أن يتشوّفا تطوّراتها، إنّها مرحلة *الامبرياليّة أعلى مراحل الرأسماليّة*. إقرأ في *التناقض* يا رفيق! إقرأ *الديمقراطيّة الجديدة* يارفيق! إقرأ *الإمبريالية أعلى مراحل الرأسماليّة* يا رفيق!

عندما أكون قد حزمت أمري واتخذت قراري النهائي الصارم بعدم العودة إلى تلك الأنفاق المظلمة المقطوعة عن حركة التاريخ، يبرز لي علي من جديد. مثل شبح طالع من عتمة ماض بعيد.

ـ «يا هرّاب، يا نكّار العِشرة!»

لا يرتمي بالأحضان مثلما يفعل النّاس عادة عندما يريدون التعبير عن فرحتهم، أو عن عواطفهم المبالغ فيها في أغلب الأحيان. أحيانا لا يمدّ حتّى يده للمصافحة. ثلاث كلمات مقتضبة: «يا هرّاب! يا نكّار العشرة!» وأحيانا كلمة واحدة: «ها الغيبة؟» ثمّ يسحبني من ذراعي كما لو أنّ شيئًا لم يكن. نخرج فورًا من ضوضاء الحيّ الجامعي باتّجاه محطّة الميترو الذي سينقلنا إلى سان دني من جديد، كما لو أنّنا كنّا في نزهة قصيرة كان عليها أن تنتهي. أحيانًا يضيف: «جانيت تسأل عنك!» أو

Twitter: @ketab_n

مدام روز سألتني كم مرّة: *Mais où il est le petit jeune homme?*[1]، ثمّ يضيف ضاحكًا: أصبحت لك عشيقات في سان دني هه! ما لك وهراء هؤلاء الطلبة الذين فاتهم القطار؟ الثورة لا تصنع في بهو الحيّ الجامعي ولا في الغرف الضيّقة لبيوت الخدم المعلّقة في الطابق السابع. تعال اغسل دماغك بشيء من البيرّة والكونياك ودع مادام روز تفرح برؤيتك. إنّها مشتاقة إليك.. ماذا فعلت معها يا حلّوف؟

(١) أين هو ذلك الولد اللطيف؟

Twitter: @ketab_n

وجه آخر لفونطوماس

يوم الأحد ينزل على غير عادته مبكّرًا إلى الشارع حيث تنتصب السوق الأسبوعيّة في ساحة الكنيسة وما حولها. وغالبًا ما يكون قد نام بما فيه الكفاية لأنّه لا يخرج من بيته يوم السبت ولا يسهر في البارات. يردد لنا دائمًا إنّ يومي السبت والأحد هما أفسد أيّام الأسبوع على الإطلاق، وهو منذ أن غادر المصنع الذي اشتغل داخله أكثر من سبعة عشر سنة، وانزوى في بيته يتعلّم الرسم قرّر أن لا يسهر يوم السبت إلاّ في بيته. «اليوم ينزل كلّ خراء المصانع والإدارات والمتاجر إلى الشوارع والبارات»، يقول لنا وهو يرفض مرافقتنا.

يخرج مبكّرًا يوم الأحد بعد أن يحلق ذقنه ويسرّح شعره بكلّ عناية ويتعطّر وهو يقف طويلا أمام المرآة، لأنّه في يوم الأحد يشارك الرّفاق الفرنسيين بيع الجريدة الثوريّة لحزب «الجبهة الحمراء» وتوزيع المناشير.

انضمّ علي إلى حزب «الجبهة الحمراء» الفرنسي وهو لا يعرف حرفًا واحدًا من إديولوجيّته، وإلى حدّ اليوم الذي انقطعت فيه عنّي أخباره نهائيًا لم يقرأ ولو كلمة واحدة لماركس أو أنجلس أو لينين وماوتسي تونغ اللذين ظل لمدّة سنة تقريبًا يعلّق صورهم في غرفته، بينما كان يرفض وضع صورة ستالين بالرغم من احتجاجات رفاقه ومحاولاتهم العديدة إقناعه بأنّه بطل الإشتراكيّة وأب البروليتاريا العالميّة. كان يجيبهم: «شواربه لا تعجبني» ويغلق باب الحوار.

Twitter: @ketab_n

لم تكن تلك الصور من رسمه الخاصّ. يرفض رسم البروتريهات لأيّ شخص كان، ولا حتّى كارل ماركس الذي يبدي افتتانًا كبيرًا بلحيته الكثّة المتهيّجة. وكثيرًا ما طلب منه الرفاق أن يرسم لهم صور آباء الثورة الاشتراكيّة على الملصقات واللافتات، لكنّه كان يردّ طلبهم دومًا بلطف متعلّلا بأنّه لا يجيد سوى الرّسم التجريديّ الذي يمنح هرج روحه متنفّسًا على حدّ تعبيره.

ليست هناك لوحة واحدة من رسوماته تجسّد شيئًا محدّدًا. لا وجوه، لا أجساد، لا أشجار ولا حيوانات، بل أشكال تجريدية مبهمة موغلة في التشابك والتداخل. علي يقذف بالألوان فوق بعضها كما اتّفق، ويدع أمر تشكّلها للصدفة. طبعًا إنّه يعدّل بعض الأشكال، يكثّف لونًا، أو يغيّم شكلاً قد يبدو ملحًّا في حضوره. عندما يبلغ التداخل والتعقيد درجة من الإبهام يصبح معها من المستحيل على أيّ كان أن يتعرّف داخلها على شيء محدّد، يرمي بالفرشاة، يشعل سيجارة ويفتح زجاجة بيرّة، ثمّ ينسحب إلى الوراء ويظلّ يرمق رسمه بشيء من الرضا يداخله نوع من التشفّي. كأنّه يستأنس في تلك اللحظة لأخطبوط الألوان والأشكال الذي بلغ درجة من التعقيد والغموض تضمن له التصدّي لكلّ محاولات اقتحامه، أو لعله لا يدرك شيئاً مما يبحث عنه إلا في بلوغ درجة قصوى من التعقيد والتداخل والغموض. ربما لم يكن ذلك غموضا إلا في أعيننا نحن الذين ننظر إلى اللوحة من الخارج.

رسوم علي تمامًا مثل صمته المبهم الذي يتلبّس به في بعض الأحيان. أو هي مثل حالات تهيّجه العنيف وفورات غضبه الصّاعق الذي يغطّي بدويّه وسبابه اللاذع عري روحه الذي يمكن أن يفتضح في لحظة ضعف طارئة ويكشف عن هشاشة ليّنة طريّة، طفوليّة حدّ الانكسار.

Twitter: @ketab_n

لوحاته تبدو لي مثل ستارات من الألوان الصّاخبة يسحبها فوق روحه التي تضجّ بشغبٍ غامض. لكنّها ستارات فاضحة، إذ فوقها بالذّات ينشر شغب روحه وفوضاها ألوانًا صارخة بعنف يكاد يمزّق الورقة. أنا لا أرسم، قال لي ذات مرة، أنا أتمرّغ هكذا، لا أكثر ولا أقلّ. أحيانًا يخيّل إلي أنني أمدّ رجليّ في الشمس وأظلّ مُستلقٍ وذهني بكلّيته منغمس في حالة شبيهة بالنوم؛ بين نوم ويقظة مع تواتر شظايا من أحلام. ليست أحلامًا بالمعنى الحقيقي ـ كيف أفسّر لك ذلك؟ شظايا، ومضات، شذرات مثل تلك التي تتداعى في القيلولة، أو في الصباح إذا ما مدّد الواحد فترة تكاسله أكثر من اللزوم. لا أرسم، بل أتسكّع... الألوان؟ المقادير والتناسق؟ لم أفكّر في هذا الأمر أبدًا! يا أخي أنا لست رسّامًا كما قلت لك. ثمّ مالك تسألني أسئلة عجيبة هذا اليوم؟ جرّب بنفسك وسترى.

علي مثل فونطوماس، يتلخّص فنّه أو براعته في إيهام الآخرين بأنّ قناعه هو وجهه الحقيقي. لذلك كنت أشك دوما في مراوغاته وطرق تستره المتنوعة. لكنني أعرف أيضاً أنه لم يدخل أيّة مدرسة للفنون ولم يتعلّم قواعد الرّسم ومقادير الألوان ونسبها وتناسقها أو تنافرها. بل هو لم يدخل أيّة مدرسة على الإطلاق، وحتّى القراءة والكتابة ـ باللغة الفرنسيّة طبعًا ـ قد تعلّمها بجهده الخاصّ. قال لي ذات مرّة: عندما قرّرت مغادرة تلك الحفرة (هكذا يسمّي البلاد في أغلب الأحيان) قرّرت أن أتعلّم اللغة الفرنسيّة بأيّة طريقة، ولم أكن وقتها أعرف القراءة والكتابة حتّى باللغة العربيّة. كنت أستعين في البداية بطفل من تلامذة المدارس مقابل مبلغ زهيد، أو قليل من الحلوى، أو أحيانًا سيجارة مقابل ساعة أو ساعتين أخلو فيها معه بكتاب اللغة الفرنسيّة الذي كانوا يتعلّمون به في المدرسة.

Twitter: @ketab_n

عندما بدا له أنّه غدا باستطاعته توظيف الرصيد الهزيل ممّا تعلّمه للتعامل مع الناس في الأمور البسيطة زوّر شهادة مدرسيّة وتقدّم بطلب إلى ديوان التشغيل والهجرة من أجل الرحيل في بعثة عمالية إلى فرنسا. هناك اشترك في تربّص تكويني في مهنة اللحام لمدّة ستة أشهر، ثم دخل عالم المصانع.

ـ وماذا وجدتُ هناك؟ حمير، دوابّ وخراء في خراء لا غير.

بعد سبعة عشر سنة من العمل في المصانع وعلى إثر حادث شغل خلف له أضرارا في الظهر وأعلى الورك اتّخذ قراره النهائيّ بأن لن تطأ قدماه مصنعًا بعدها، وأن لن تلمس يداه حديدًا. ثمّ انزوى في بيته الصغير مقرّرًا أن يتحوّل إلى رسّام، هكذا دون سابق تجربة أو تمرين، في انتظار منحة التعويض التي ما زالت تتلكأ داخل أروقة المحاكم، وفي ملفات المحامين والطبيب الشرعي. منذ ذلك اليوم تحوّلت غرفته الصغيرة والممرّ الضيّق إلى ركام من الأوراق وعلب الألوان وقوارير البيرّة، وغدت الستارة السوداء لا تزاح عن النافذة الوحيدة إلاّ في أوقات قليلة وقصيرة، لينظر إلى الشارع من تحته باشمئزاز ويسبّ السماء الغائمة على الدوام قبل أن يعود إلى فرشاته وزجاجة البيرّة.

*

بداية علاقة علي مع حزب «الجبهة الحمراء» كانت في الحقيقة بسبب التقائه بجاكلين مع مجموعة من المناضلين اليساريين كانوا يوزعون مناشير أمام باب المصنع. لم يكن يرغب بادئ الأمر سوى في شيء من التحرّش بتلك الفتاة التي ناولته المنشور وهي تبتسم له. ثمّ ها هي تتحدّث إليه بحماس عن العدالة الاجتماعيّة وضرورة الإطاحة برأس المال، وكلامًا كثيرًا عن أوضاع المهاجرين وما يعيشونه من استغلال

Twitter: @ketab_n

مضاعف، وعن ظروف سكنهم والعنصريّة وغيرها. قال لها مستفزًا، أو محاولا إنهاء ذلك الخطاب الذي راحت تجلده به: المهاجرون مسؤولون عن بؤسهم ولا أحد قد أجبرهم على مغادرة بلدانهم والقبول بتلك الأوضاع، ثمّ إنّ وضعهم المادّي ليس سيّئا بالدرجة التي تتصوّرينها. إنّهم متعوّدون على حياة البؤس والتقشّف وذلك ما يجعلهم يختارون السكن في البيوت الخربة والغرف الضيّقة أو في المبيتات الجماعية الرخيصة، لأنّه لا شاغل لديهم سوى توفير أكثر ما يمكن من الأموال طمعًا في أن يصبحوا أغنياء في بلادهم ذات يوم. في آخر ذلك اللقاء السريع ألحّت عليه بالمجيء إلى حلقة النقاش التي تنتظم أسبوعيًا بمقرّ خليّة الحزب في لاكورنيف المجاورة، وكانت تبدو متحمّسة ومبتهجة للقاء ذلك العامل المهاجر الذي بدا لها اكتشافًا سعيدًا سينبهر له بقيّة رفاقها. ولاحظ هو حماسها فقبل بالدعوة وهو لا يشكّ في أنّها قد وقعت في شراكه. ذهب إلى الموعد فوجد الجميع متلهفين للتعرّف عليه، وكانت جاكلين تكاد تطير من الفرحة وهي تقدّمه لبقيّة الرفاق، ولم تَخْف فرحتها على علي فبات متأكّدًا من نجاح قضيّته. ثمّ انتهى الاجتماع فسألوه عن مكان سكنه ورافقوه بسيّارة حتّى باب العمارة التي يسكن بها، ثمّ ودّعوه بحرارة وانصرفوا. في البداية أحسّ بشيء من الخيبة، لأنّه كان يتوقّع أن جاكلين هي التي سترافقه وحدها، وكان ينوي دعوتها لتناول كأس في إحدى بارات سان دني. لكنّ ذلك لم يحدث، بل إنّها لم تزد على الشدّ على يده بحرارة وهي تودّعه ـ تلك الحرارة الحماسية الصارمة التي تميز مصافحات الثوريين والثوريات ـ، تمامًا كما فعل الآخرون، دون نظرة، أو إشارة، ودون أدنى تعبير زائد على حرارة الودّ الرفاقي. ظلّ لبضعة دقائق متسمّرًا أمام باب العمارة قبل أن يتحرّك باتّجاه حانة مدام روز بخطى ثقيلة ومتردّدة.

Twitter: @ketab_n

لم ينقطع مع ذلك عن الذهاب إلى مقر الخلية وحضور الاجتماعات لسببين على الأقلّ، أولهما أنه لم ييأس من إمكانية حصول شيء بينه وبين جاكلين، وثانيهما أنّه وجد أناسًا يتكلّمون لغة أخرى غير لغة عمال المصنع وحرفاء البارات التي يرتادها، ويتجادلون في مسائل بدت له مهمّة وفيها الكثير من الأفكار التي لا تخطر على بال أولئك الذين يعاشرهم يوميًا. بدا له أنّه أمام إمكانيّة للارتقاء ستجعله يرتفع ويترفّع على المنزلة الحقيرة للشغّيلة عامّة والعمال المهاجرين بصفة أخصّ. طريقة أخرى لممارسة تفوّقه واحتقاره الساحق لما يسمّيه بـ «عالم البهائم». أو لعله قناع جديد ينضاف إلى وجه فونطوماس.

كان الرفاق يجهدون أنفسهم لإقناعه بتفوّق البروليتاريا، وبالدّور التاريخي الذي ستلعبه في تغيير العالم جذريًا، وكان هو يقابل أحاديثهم هذه بقهقهة ساخرة: تلك الدّواب؟ ستغيّر التاريخ! لا، لا، لابدّ أنّكم تريدون المزاح... ثمّ من منّا العامل بالنهاية؟ من منّا يعرف هذا الرهط عن قرب؟ أنا، أم أنتم المتعلّمون الذين لم تدخلوا مصنعًا قط ولا تعرفون العمّال إلاّ كطبقة شغيلة وبروليتاريا داخل نظريّات الكتب؟ أنا أقول لكم إنّها طبقة فاسدة، متعفّنة، راضية ومبتهجة بتعفّنها. أعايش هذه البهائم يوميًا منذ قرابة العشرين سنة. أعرف أمعاءهم، لذلك عفتهم وقرفت من أحاديثهم وضاعتهم ودسائسهم وحسدهم لبعضهم البعض. عن أيّ تضامن طبقي تتحدّثون؟ أنتم متضامنون معهم، ومتحمّسون لمشاكلهم وليس بينكم عامل واحد. لماذا؟ لأنّهم لا يريدون أفكاركم، لا يفقهونها ولا يريدون أن يفقهوها. لم أر واحدا فقط قد اشترى منكم صحيفة، ولا أحد يريد أن يتناول المناشير التي توزعونها في سوق سان دني. أنظر إليهم كيف يزوغون عن يدكم التي تمد إليهم المناشير، كما لو كانوا يريدون إزاحتكم من طريقهم إلى أكداس العلف. لا يريدون

Twitter: @ketab_n

تضامنًا ولا تغييراً ولا ثورة. يريدون الحرث وزيادة في كميات العلف، ليس أكثر.

تلك الأقوال لا تعجب الرفاق المؤمنين إيمانًا دينيًا بالدور التاريخي المقدّس للطبقة العاملة. كانت تدخل عليهم كثيرًا من الضيق والانزعاج. تبدو على سحناتهم علامات الضيق والتبرّم ويلف برؤوسهم شيء شبيه بالغثيان. بعض المناضلين الذين لم يتصلّب عود الإيمان الإديولوجي لديهم بعد يترنّح، تضطرب الأفكار في داخله وترتعد، تميد وتتمايل مثل أغصان طريّة تكابد هبوب ريح عاتية، تلتوي أمعاؤهم بشيء شبيه بالمغص، تتسارع دقات القلب وتضطرب الأنفاس، يكاد الواحد منهم ينهض كالملدوغ، يرتجّ ينتفض يهتزّ يرتعد ليهوي على ذلك المتحامل بصلافة على الطبقة الشغيلة وعلى تماسك النظريّة العلميّة، يهوي عليه بلطمة تلقي به على الأرض طريحًا مثل مقولة إديولوجيّة رجعيّة تهوي تحت صفعات النظريّة الثوريّة أو تحت أقدام الحتميّة التاريخيّة الزاحفة على العالم والحقائق والأفكار السائدة القديمة. يودّ بعضهم أن يصرخ في وجهه: أنت موبوء، عقلك مسمّم بالتلوث الإديولوجي البرجوازي للطبقات المهيمنة، مستلَب، متعفّن، متنكّر لطبقتك، عنصر عرقلة لمسيرة التاريخ، وعليّ يتخيّل تلك المسيرة موكبا معربدا بفحش الغوغاء ودناءات السفلة وأطماعهم الصغيرة وحسدهم وأحقادهم وخداعهم ومناوراتهم الرخيصة من أجل الارتقاء ملّمترًا واحدًا في سلّم تراتب الأشغال داخل المصنع، وتزلّفهم لمن هم أرقى منهم بدرجة بسيطة؛ موكب معربد بالصراخ والتهيّج والدسائس والتلاكز بالمرافق.

لكن هناك أيضًا رفاق من أولئك الذين تصلّب عود قناعاتهم النظريّة حتّى غدوا مثل الصخر الذي لا تزعزعه أعتى العواصف؛ أولئك ينظرون من علياء شرفة قناعتهم الراسخة بمزيج من الجديّة القلقة والشفقة إلى

Twitter: @ketab_n

ذلك العامل الذي يبدو لهم رابضًا أمام أعينهم مثل ضفدعة ملقاة على طاولة التشريح في مخبر المحلّل. يشفقون عليه كضحية لتأثيرات دعاية الطبقة المهيمنة؛ كائن مسمّم بأفكار أعدائه الطبقيّين، معاق القدرة على التحرّر وبلوغ الوعي الضروري لنهوض الطبقة المهيّأة لتبوّء صدارة الأحداث والدفع بعجلة التاريخ الثقيلة ـ وعليّ يفكّر بأنه سيظلّ كعامل مطالبًا على الدّوام بدفع العجلات والدّواليب وتشغيل الآلات؛ أي القيام دومًا بالمهامّ الشاقّة والعمل المرهق حتّى ضمن هذا المشروع الذي يتظاهر بإجلاله كبروليتاري وتقديسه، ويعده بجنّة لم يجرؤ حتى الله نفسه على وعد الآدميّين بها في هذه الدنيا فاكتفى بأن لوّح لهم بأشياء شبيهة بها، لكن في عالم آخر غير هذا. ومع ذلك يظلّ ذلك المستلَب الملوّث بأفكار الطبقات المهيمنة في نظر الرفاق بروليتاريًا تغفو في داخله كلّ إمكانيّات التغيير، لا بدّ فقط من تحريكها وإيقاظها من غفوتها. هناك عمل لا بدّ أن ينجز من أجل شحذ المعدن البروليتاري النبيل وتخليصه من الصدإ الذي علق به. سيُفرك دماغ عليّ كي يستعيد المعدن النبيل بريقه. عمل طويل المدى، ـ وعلي يتمنّى فقط لو أنّ جاكلين هي التي تتولّى فرك وحكّ أجزاء أخرى من كيانه وسترى كيف سيتدفّق المعدن الخالص بآيات أخرى ومعجزات أبهى وأكثر ألقًا من زعيق ثورات العمال والفلاحين والتلويح بالمعاول والمطرقات.

أنا وعقبة على رأي جاكلين ورفاقها في ما يتعلق بمسألة «الانحرافات البرجوازيّة» التي يعاني منها علي. كنّا مصرّيْن على بذل جهد مضاعف لمحاولة إقناعه وتغيير نظرته للعالم والعمّال ودورهم القيادي التاريخي. وكنّا دومًا نصطدم بسخريته اللاذعة التي كانت تؤلمنا وتثير حفيظة عقبة فينتفض متوتّرًا صارخا في وجهه ثمّ ينصرف مقرّرًا مقاطعته نهائيًا.

*

Twitter: @ketab_n

لا يغادر سان دني إلاّ في حالات نادرة وللضرورة القصوى، مثلا للبحث عنّي عندما تطول مدّة غيابي. سان دني عالمه الحميم وكلّما غادرها شعر بالضيق وبدا له العالم غريبًا والبشر الذين يتحرّكون داخل ذلك العالم الغريب كائنات مقرفة ومزعجة. إحدى المرات القليلة التي خرج فيها من سان دني كانت عندما أتى لزيارتي في أوبرفيليي المجاورة. كنت قد وجدت عملا في مستودع للبضاعة في أوبرفيليي، وبعد أن نمت ثلاث أو أربع ليال مختفيًا داخل دغل كثيف بالقرب من Porte de la Chapelle ألجه عندما تسكن الحركة وتنزل العتمة على المكان من حولي، استأجرت غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ثمانية أمتار مربّعة، هي في الواقع ممرّ تمّ سدّه بباب فتحوّل إلى غرفة داخل بنسيون حقير ووسخ على ملك واحد قبائليّ من الجزائر. بدت لي تلك الغرفة الضيّقة مثل قصر وشعرت بالارتياح وبسعادة من نزل ضيفًا في فندق فاخر أو قصر من قصور الجنّة، خاصّة بعد أن أنهكني التعب لقلّة النوم المشوّش بصراخ وزعيق «الكلوشارات» الذين يقضّون الليل في السكر والتشاجر غير بعيد من الدغل الذي اخترته لنفسي في ذلك المكان البعيد عن الحركة. ثمّ إنّ عدم توفّر أماكن للاغتسال بعد يوم عمل طويل في مستودع البضاعة قد جعلني أضيق برائحة جسدي وخفت أن يلاحظ ذلك رفاق العمل فأصبح منبوذًا ومحتقرًا والحال أنّني ما زلت جديدًا وأغلب العمّال ما زالوا يتعاملون معي بكثير من التحفّظ، بل وبشيء غير قليل من الاستعلاء والنفور، ولا يكلّمونني إلاّ للضرورة القصوى وبلهجة آمرة جافّة وعبارات مقتضبة. وفي بعض الأحيان لا يتوجّهون إلي بالكلام مباشرة عندما يلاحظ أحدهم أنّني قمت بخطإ ما في ترصيف البضاعة أو في اختيار النوعيّة المحدّدة التي يشار إليها بعلامات ورموز لم أجد بعد الوقت الكافي للتعوّد عليها، بل يهرع لإعلام ناظر العمال

Twitter: @ketab_n

بنبرة ترشح بالتشفّي والاستهزاء: ـ يا شاف، ألا تريد أن ترى ذلك الجديد إنه لا يكف عن ارتكاب الخطأ وراء الخطأ. وكثيرًا ما يضيفون بنوع من شماتة مجانيّة: هو جديد ولا معرفة له بالعمل، لكنه لا يسأل ولا يطلب المساعدة! لكنّني كلّما طلبت مساعدة من أحدهم أبدى تبرّما وفسر لي الأمر بسرعة مقصودة، لا أدري إن كان المبتغى من وراء ذلك أن يجعلني غير قادر على متابعة توضيحاته حتّى يتسنّى له من بعد أن يقول: فسّرنا له كم مرّة، لكنّه لا يفهم. أم أنه لا يريد سوى إرباكي حتّى يغدو بإمكانه أن يفخر بقدراته وهو يجد أمامه واحدًا عديم التجربة وأكثر غباء منه. لقد تكرّرت لي مثل هذه التجارب مع العمّال مرّات عديدة بعد ذلك أيضاً، وفي أماكن مختلفة؛ في مستودعات البضاعة الكثيرة التي اشتغلت فيها، في مشاغل البناء، في محطة بنزين، في ورشات تسفير الكتب، في رصيف الشحن بمحطّة بيرسي، في مطابخ المطاعم حيث لا يُحتاج إلى معارف خاصة لغسل الصحون والطناجر وإعداد السلطات ... حيثما كنتَ جديدًا فأنت ضحيّة مبجّلة للعمّال المتمرّسين في ذلك العمل الذي غالبًا ما ينحصر في بضع حركات يمارسونها بنوع من الروتين منذ سنوات عديدة. مجيء واحد جديد غير مجرّب إلى ميدان مهارتهم وخبرتهم يجعلهم لا يفوّتون تلك الفرصة التي تجعل منهم بصفة استثنائيّة أناسًا متفوّقين ومهرة وشاطرين؛ أناسًا ذوي شأن. أناسًا.

في يوم أحد وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا وأنا لم أغادر الفراش سمعت جلبة وصياحًا في مدرج البنسيون، ثمّ سبابًا بدأ يتّضح شيئًا فشيئًا. في البداية فكّرت أنه بالتأكيد واحد من الشجارات العاديّة التي تحدث بانتظام بين سكّان البنسيون من العمّال الجزائريّين والمغاربة أو حرفاء البار الذي يوجد في الطابق السفلي، غير أنّه بدا لي أن الأمر غير عاديّ في مثل تلك الساعة، لأنّ الشجارات عادة ما تنطلق بعد

Twitter: @ketab_n

الساعة العاشرة مساء عندما يسكر الحرفاء وتحدث بينهم المناوشات، بسبب امرأة مثلا، أو لاختلاف حول لعبة الورق التي يدمنون عليها، أو لأن جزائريا عربيا قد شتم بربر القبائل، أو قبائليا سبّ العرب. بدا لي كما لو أن الصوت المجلجل بالسباب والذي بدأ يقترب وهو يصعد الدرج غير غريب عني. ثمّ كانت ضربات عنيفة على الباب فنهضت. وإذا بي أمام عليّ وكان محتقن الوجه مزمجرًا شاتما باللهجة التونسيّة هذه المرّة: الحمير، البغال... ألم تجد في بلاد الله الواسعة كلّها غير هذه الحفرة بين حمير القبائل؟ دوابّ. خورروطو!

استوقفه صاحب البنسيون وهو يهمّ بصعود الدرج مناديًا إيّاه بلهجة عدوانيّة وقليلة الأدب: إيه، إيه، وين رايح؟ أتظنّ المحلّ اصطبل بقر؟ وإذا عليّ ينفجر في وجهه كالصاعقة: هذّب لغتك يا حمار، هل أنا ثور أمامك أم عجل حتّى تقول إنّني داخل إلى اصطبل بقر؟ خورروطو، يا رأس البغل!

عند مغادرتنا للفندق ناداني القبائلي من وراء البار بلهجة جافّة:

Pas de visite sans autoristion ici! Ici hôtel , pas bordel , compris?(١)

وكان عَليّ أن أستعمل كلّ ما لديّ من قوّة من أجل الإمساك بعليّ الذي كان يريد الانقضاض عليه: بورديلْ يا ولد القحبة؟ بورديلْ؟ هل نحن قحاب عند دين أمّك الحركيّة(٢) العافنة يا قوّاد؟ ولولا تدخّل رجل مغربيّ طيّب ومهذّب لما تمكّنت من الخروج به من هناك وتلافي معركة قد تسحب فيها السكاكين وتؤول إلى كارثة.

---

(١) لا زيارات بدون ترخيص. هنا أوتيل، ليس بورديل (ماخور).

(٢) الحركي (Harkis) لقب يطلق في الجزائر على المتعاملين مع الاستعمار الفرنسي، او من كانوا يشغلون وظائف في الأمن والإدارة الاستعمارية.

Twitter: @ketab_n

في مساء اليوم الموالي استوقفني القبائلي وطلب منّي أن أغادر الفندق في ظرف لا يتجاوز اليومين معللا ذلك بعدم رغبته في حدوث مشاكل في «محلّه النظيف الهادئ». ثمّ أضاف وأنا أهمّ بصعود الدرج بأنّه على أية حال لا يرى أيّة فائدة في بقائي هناك فأنا لا أشرب بيرّة في البار ولا أتناول أكلا في مطعم الفندق، وعلاوة على ذلك لي أصدقاء غير نظيفين وأصحاب مشاكل.

في المرّة الثانية جاء يبحث عنّي في بنسيون أخرى كانت على ملك امرأة مغربيّة سمينة وضخمة تدعى خوخة. امرأة ودودة ومرحة، ومن حين لآخر كانت تدعوني أنا وصديقي عبد لله الذي أتقاسم معه الغرفة إلى بيرّة أو بيرّتين مجانًا، خاصّة بعد أن علمت من سكّان البنسيون أو من عشيقها التونسيّ أنّنا طالبان وليست لدينا أموال ولا نعمل إلاّ بصفة متقطّعة وظرفيّة. عشيقها التونسي رجل في الثلاثين تقريبًا، عامل مهاجر من بلدة السرس بالشمال الغربي التونسي، وصديقي عبد الله من بلدة الدهماني المجاورة. كان فخورًا بابنيْ بلده اللذيْن يدرسان في جامعة السربون، وكان يشدّد دائما على كلمة «الساربون» كلّما قدّمنا سواء لخالتي خوخة ـ هكذا رحنا ندعوها أنا وعبد الله ـ أو لبقيّة الحرفاء وأغلبهم من التونسيّين هم أيضًا ـ وغالبًا ما يستوقفنا ليدعونا على كأس ثم إثنين وثلاثة، ثمّ يتداول على استضافتنا بقيّة الحرفاء وأغلبهم من التونسيين، ولا نصعد إلى غرفتنا إلاّ بعد أن نكون قد فقدنا القدرة على الكلام والحركة، ونحن على أية حال غير مدرّبين بعد على الشراب بحسب الوتيرة السريعة لأولئك العمّال المجرّبين. في بنسيون خالتي خوخة كنّا نشعر بأنفسنا في بيتنا وفي بلدنا، وقد ارتحنا لجوّ الألفة وللدّعابات والنكات والحكايات التونسيّة المألوفة لدينا علاوة على التقدير الذي كنّا نحظى به كطالبين في جامعة السوربون. كنّا على ما

Twitter: @ketab_n

يبدو شيئًا شبيهًا بالعزاء بالنسبة لأولئك العمّال الأمّيين أو شبه الأميين المنحدرين من أرياف المغرب العربي والذين لا يعامَلون خارج بنسيون خالتي خوخة إلاّ كآلات لتنفيذ وظائف حقيرة وسخة ومرهقة كالتنظيف والحمل والرفع والدفع والجرّ ممّا لا يتطلّب أيّ اختصاص أو معرفة أو إتقان، لا يخاطبهم الناس إلاّ للضرورة القصوى، وفي أغلب الأحيان بأسلوب زجري وجمل مقتضبة مكسّرة وباستعمال صيغ فعليّة لا تعرف التصريف : *pousser, nettoyer, enlever, débarrasser , plus vite*...[1]؛ صيغ تسمّي الأشياء والحركات والوظائف دون اعتبار للفاعل الذي يقوم بتلك الأفعال؛ آلة تنفيذ يغدو ذلك الكائن لا فاعلا أو كائنًا بشريًا متحرّكًا بنفس وإرادة وشخصيّة. وأحيانا لا ينادونهم حتى بإسمائهم بل بـ: أُو، أنت هناك... يستبْطن الغريب بموجب تلك المعاملات غربته كعنصر جديد قد انضاف إلى شخصيّته التي يمارَس عليها يوميًا فعل البتر والإقصاء. يغدو الدّور الذي أعطي له داخل ذلك الوسط، والوظيفة المحدّدة التي عليه تنفيذها هما العنصران المحدّدان في شخصيّته. شخصيّاتهم العادية يخلعونها في صبيحة كلّ يوم مثل لباس مدنيّ لا يصلح لذلك الدور الجديد الذي غدوا يلعبونه هناك، ينسلخون من جلدتهم الحقيقيّة بمرارة ولا يعودون إليها إلاّ عندما يرجعون إلى بيوتهم أو داخل بارات المهاجرين حيث يتلاقون من جديد بأسمائهم وملامحهم ولغتهم وتاريخهم وحكايات وأخبار بلادهم وذكرى عائلاتهم وأصدقائهم وبراعتهم في لعبة الورق، وشطارتهم في التهكم والسخرية والتحرش ببعضهم البعض. هنا، وهنا فقط يعودون إلى أنفسهم، أو تعود إليهم أنفسهم، فإذا هم أشخاص مكتملو الشخصية من جديد. كنّا، نحن

(١) ادفعْ، نظّفْ، ارفعْ، امسحْ، أكثر سرعة...!

Twitter: @ketab_n

الطالبان اللذان نتقن اللغة الفرنسيّة مثل أبناء الفرنسيّين وندخل الجامعة ونجلس إلى الطلبة الفرنسيّين ونناقشهم ونجادلهم في المعارف والعلوم، ويسمّينا أساتذة الجامعة بأسمائنا ويستمعون إلى كلامنا وآرائنا ولا يكلفوننا بكنس قاعات الدروس، كنّا بالنسبة لأولئك العمّال عزاءً ومصدرًا لشيء من الفخر وبلسمًا على الجرح الذي تنزف به أرواحهم. صحيح أنّ من بينهم من كان ينظر إلينا كمحظوظين، بل وفي بعض الأحيان كعلامة على انعدام العدالة، وكان وجودنا كثيرًا ما يذكّر البعض منهم بالغبن الذي لحقهم في عمليّة تقسيم الحظوظ والأرزاق. وهناك من كانوا يشعرون بالحرج أمامنا، بل وبالحسد وشيء من الضغينة، وكان عليهم أن يمارسوا تلك المشاعر وينتقموا لأنفسهم المغبونة بافتعال الترفّع والاستعلاء وتعمّد إذلالنا والسخرية من زعمنا أنّه بإمكاننا أن نباري أبناء الفرنسيّين في طلب المعرفة. وهناك حتّى من كان ينصحنا بنبرة لا تخلو من السخرية التي لا تكاد تخفي حسرته وضغينته، بأنه من الأفضل لنا أن نترك تلك الأوهام في التشبه بأبناء الفرنسيّين ومحاكاة مطامحهم، وأن نقرّ بحكمة وواقعيّة بالدور والمصير الحتميّين اللذين لا مفرّ لنا منهما. أن نترك الجامعة وأوهامها ونبحث لنا عن عمل نكتسب منه خبرة ونكسب منه مالا قد يعود علينا بالمنفعة أكثر من تلك الأوهام. وكان بعضهم يتعمّد حتّى إهانتنا بدوعتنا إلى الشراب على حسابه من باب إبداء شفقة مفتعلة؛ صدقة يسحق بها القويّ كائنًا معدما وضعيفًا. هناك من لا يكتفي بالتلميح، بل يفصح بتلك الشفقة المفتعلة ـ شفقة انتقاميّة ـ ويصرّح بها بنبرة انتصاريّة: كأس بيرّة لهذا الطالب المسكين! أعط هذين الطالبين الفقيرين ما يريدان على حسابي. أحيانًا أضطرب وأتململ، وأريد أن أردّ بعنف كما لو كنت أسعى للتخلّص من عبء تلك الإهانات المقصودة، وأحيانًا أقسم بألاّ أضع رجلي بعدها أبدًا في

Twitter: @ketab_n

هذا البار المليء بالأوغاد، لكن صديقي عبد الله يلكزني ويهمس لي: أشربْ واسكتْ، إنّهم مساكين. بعدها يسعى إلى إقناعي بأنّهم أناس طيّبون لكنّهم أمّيون ومساكين تسحقهم العنصريّة واستعلاء الفرنسيّين وعدوانيّتهم، فلماذا نحرمهم من تلك الفسحة الصغيرة التي يعودون فيها إلى ممارسة كبريائهم التي يسحقها العالم من حولهم في كلّ لحظة؟ ويقول لي إننا فعلا محظوظان بالقياس إلى ما حرمتهم منه الحياة، وأنّه لا يحقّ لنا أن نسحق ما تبقّى فيهم من كبرياء باستعلائنا واعتدادنا بأنفسنا ووضعنا الاجتماعي.

صديقي عبد الله الذي لم تكن لديه ادعاءات إديولوجيّة كتلك التي كان ينتفخ بها رأسي كان في الواقع أكثر حكمة وأكثر إنسانية منّي وأرهف حسًّا ـ لعل مردّ ذلك هو تلقائيّته التي لم يلوّثها بخار الأفكار والنظريّات ـ . كان يردّد لي دوما بنبرة فيها الكثير من الإحساس الإنساني والصدق: إنّها معادلة بسيطة يا «رفيق»، كلّ يجد حسابه فيها؛ نحن نشرب مجانًا وهم ينبسطون وتعود إليهم ثقتهم في أنفسهم كرجال. ما الضرر في ذلك؟

لعلّ عبد الله على حقّ. أقول لنفسي وأهدأ.

المهمّ هو أنّنا واصلنا قبول الدّعوات المستمرّة، وفي الأحيان القليلة التي كنّا ندفع فيها حسابنا بأنفسنا كانت خالتي خوخة لا تتسلّم منّا سوى نصف المبلغ بدعوى نصف تعريفة للطلاب. وكنّا من جهتنا لا نبخل على الحرفاء بترجمة وثيقة أو تحرير رسالة أو مرافقة إلى مكتب التشغيل أو الضمان الاجتماعي، إلى أن جاء عليّ ذات يوم وتعكّر كلّ شيء فجأة.

لم نكن هناك يومها، وبما أنه لم يكن لغرفتنا مفتاح فهي لا تقفل

Twitter: @ketab_n

أبدًا، ونحن ليس لدينا على أيّة حال ما يستوجب غلق غرفتنا بالمفتاح عدا بعض كتبنا ودفاترنا وملابس قليلة متواضعة. لذلك كانت خالتي خوخة لا تسمح لأيّ غريب بالصعود إلى الطوابق العليا حيث غرف المؤجّرين، فكان على عليّ أن ينتظر داخل البار. ثمّ سئم الانتظار فخرج، ثمّ عاد وانتظر، ثمّ خرج وعاد وخالتي خوخة تجيبه دومًا أنّنا لم نعد بعد. سأله أحد الجالسين في البار إن كان تونسيًا فتوتّر وكشّر وأجابه: لا، موش تونسي. - جزائري؟ - لا. - مغربي؟ لا، وسيبني من الأسئلة يا سيّد، هل أنت بوليس؟ وصعد في الفضاء توتّر غير معهود في محلّ خالتي خوخة. ثمّ، لسبب أو لآخر تراءى له أنّني بالتأكيد في غرفتي، وأنّ صاحبة البنسيون تكذب ولا تريد أن تتركه يراني كي تستبقيه أكثر في البار من أجل مزيد من استهلاك البيرّة. طلب منها أن تسمح له بالصعود فرفضت، وألحّ فكشّرت واحتجّت ودافعت عن نفسها بأنّها ليست كذّابة، وأفهمته بأنّها لا ترغب كثيرًا في بقائه هناك بعد أن لاحظت توتّر الجوّ بسبب جفوته وحدّة مزاجه، وخاصّة بعد أن خاطبها بنبرته المستعلية الساخرة بـ: يا بطّيخة (عوضًا عن خوخة). ثمّ كان الانفجار عندما اقترب منه صديق خوخة وطلب منه أن يلزم حدوده أو يغادر المحلّ، لأنّ لا أحد يرغب في مشاكل هنا. تدفّق سيل السباب والشتائم: خوروطو، حمير، بقر، لصوص ومقامرون، قوّادو عاهرات، مخبرو بوليس، وما الذي يهمّهم إن كان تونسيًا أو يهوديًا أو خرية؟ متطفّلون، وكلاب سوق...

*

علي لم يكن عاملا مهاجرًا مثل الآخرين. صحيح أنّه غادر البلاد فرارا من حياة الفاقة والعطالة، لكنّه عندما شرع في تعلّم اللغة الفرنسيّة مع بعض أطفال المدرسة، أو وحيدا في زاوية من مقهى أو في زنقة

Twitter: @ketab_n

منزوية، كان يدرك بوعي أنّه قد شرع في تجسيد الخطوة الحاسمة التي ستقطع كلّ الجسور مع ماضي حياته وحاضرها. كان يعرف أنّه لن يكون مهاجرًا من أجل لقمة العيش، بل فارًا فرارًا نهائيًا، وأنّه مقبل على حياة أخرى يريدها قطيعة تامّة مع ما عاشه إلى حدّ تلك الساعة. لذلك رفض منذ اليوم الأوّل من وصوله إلى فرنسا أن يكلّمه الفرنسيّون بلغة فرنسيّة «مكسرة» غير مستقيمة مثلما يفعلون مع بقيّة العمّال من الأجانب في العادة. ظلّ يرفض ذلك ويحتجّ بشدّة مؤنّبًا مخاطبيه: إن كنتم لا تحترمون لغتكم فمن سيحترمكم إذن؟

تعلّم الفرنسيّة بسرعة فائقة وصار يتقنها بطريقة قلّما تجدها حتّى لدى الكثيرين من عامّة الفرنسيّين. لم يتعلّم فقط لغة المصنع والمعاملات اليوميّة العاديّة، بل راح يبحث عن عباراتها المنتقاة وتراكيبها الأنيقة والمعقّدة أحيانًا، والاستعارات البعيدة وأساليب التلميح والتضمين حتّى غدت لعبة شيّقة لديه بمقتضاها يزجر ويقصي ويصدّ ويسحر ويستدرج ويبهر. وأنا إلى حدّ الآن لم أستطع أن أعرف كيف وأين تعلّم تلك اللغة الراقية والمعقّدة في أسلوبها في بعض الأحيان. قال لي: في البداية كنت أقرأ كلّ ما تقع عليه يداي؛ صحف البولفار التافهة والمجلاّت الأسبوعيّة وأوراق الدعاية والمناشير السياسيّة التي توزّع أمام المصنع وفي الشوارع. أما الآن فأنا لا أقرأ غير صحيفتي ليبيراسيون وشارلي هبدو وأحيانًا لوموند، غير أنّ هذه الأخيرة تبدو لي ثقيلة ومملة، بينما شارلي هبدو بأسلوبها الساخر الممتاز ووقاحتها تعجبني أكثر. أشعر أنّ هناك أناسا أذكياء حقا، لا لكونهم يستطيعون إلقاء المحاضرات الطويلة المعقّدة، مثلك أنت، بل لأنّهم فقط يقعون بصفة عفويّة مرحة على مواقع الغباء لدى هؤلاء الذين يدّعون الجديّة، ثمّ يكشفون ذلك الغباء بطريقة ساخرة

Twitter: @ketab_n

لاذعة لا تراعي أيّ شيء، وهكذا يحوّلون كلّ الحماقات والأكاذيب والادعاءات إلى مهازل وسخريّات.

غدت اللغة وسيلته المحبّذة في التحصّن باحتقار واستعلاء واتخاذ مسافة تجاه «الحمير والدّواب»، أو «الهوش» و«الخوروطو»، حسب عباراته المبجلة. فُسحته التي يمارس داخلها وجوده على الوجه الذي يبتغيه؛ يكرّ بها ويفرّ، يفتح أبوابًا ويغلق أخرى. لغة التفوّق الذي ينشده والارتقاء من منزلة «بغل الحراثة» إلى مرتبة المواطن مكتمل الحقوق.

Twitter: @ketab_n

الدوّامة

دخلنا الجامعة مذهولين، خجولين ومترددين شيئاً ما في البداية. ثم بدأنا تستأنس إلى الوضع الذي كنا نتصوره غريبا وقد يكون مخيفا. لماذا يمكن أن يكون مخيفا؟ لا ندري. ربما كنا نحمل خوفنا مترسبا في قاع الروح: اليوم الأول في المدرسة الابتدائية ذات سنة بعيدة، صوت الصفارة التي أيقظتني من بهتتي، الوقوف في الطابور زوجا زوجا أمام باب الفصل، المعلم الذي يقف مثل تمثال في كسوته السوداء، قفوا! أجلسوا! ثم ذلك اليوم الأول الآخر في المعهد الثانوي: الساحة الفسيحة، القيمون المتراكضون يرتبون صفوفنا الكثيرة ملعلعين بأوامر باللغة الفرنسية في أغلب الأحيان، مدير المعهد الذي نسمع صوته مدويا من بعيد مثل جنرال يبث الرعب في كتيبة تبدو له مبعثرة قليلة الانضباط!

أصبح لنا الآن ما يشبه البيت الجديد وأصدقاء جدد. لم نعد نكِرات نتدحرج في الزحام ولا أحد ينتبه إلينا. أساتذة قسم علم الاجتماع ودودون وليست لهم هيأة أنصاف الآلهة التي عرفتها لدى أساتذة الجامعة في تونس. الطالب هنا طرف مشارك ينصت إليه الأساتذة باهتمام ولا يجعلون محاضراتهم تهوي على رأسه مثل نصوص مقدّسة لا يأتيها الخطأ لا من الخلف ولا من الأمام. الدروس ليست دروسا بالمعنى التلقيني الذي اعتدناه، بل حوارا. حبّ المعرفة والفضول العلمي ينبثقان تلقائيًا من الداخل في انسياب لذيذ يغمر الكيان كلّه بمتعة

Twitter: @ketab_n

دافئة وحماس متجدّد للتعلّم. كُلّفنا منذ الأسبوع الأوّل بإعداد ملفّات بحوث ضمن فرق صغيرة تشتغل جماعيًا. كان العمل الجماعي مدخلا ناجعًا لإرساء علاقات بين أفراد لم تكن تربطهم أيّة علاقة قبل بضعة أسابيع. بعض العلاقات تتطوّر بسرعة وتتحوّل مع الوقت ومزيد التقارب إلى صداقات متفاوتة المتانة والحميميّة. ضمن مجموعة العمل تشأت وتطورت علاقتي بآن ماري. بدأت باريس تنفتح أمامي بشكل مغاير. من الحيّ اللاتيني بدأت ألج المدينة الآن؛ من المكتبات ومن مقاهي الطلبة وأساتذة الجامعة. سان دني راحت تبتعد بسرعة مكوكيّة؛ مجرّد فاصلة للعبور لاغير. مصاعبي الماديّة على حالها تقريبًا وإن بدأت أتحسّس الآن منافذ جديدة للعمل يومين هنا أو ثلاثة أيّام هناك. وكلّما توسّعت شبكة العلاقات برزت إمكانيات جديدة؛ بسيطة، محدودة وغير قارّة، لكنّها هناك مثل طافيات الإنقاذ. لم يعد الجوع خطرًا محدّقًا. هناك في أسوأ الأحوال صديق تلتقيه في مدخل المطعم الجامعي يناولك تذكرة للغداء في انتظار أن تتحسّن الأحوال وتعيدها إليه. لفافات التبغ تكاد تكون ملكًا مشتركًا بين جميع الطلبة. يكفي أن تمرّ بحلقة في الكافيتريا أو في بهو الكليّة، تمدّ يدك لكيس التبغ الموضوع عادة على الطاولة وأحيانًا فوق الأرض، تحيّي، تستأذن، تلفّ سيجارتك وتمضي، أو تنضمّ إلى الحلقة وتدخّن لفافتك.

لم تطلب مني خوخة أن أغادر إقامتها كما فعل القبائلي الجافّ، لكنّ علاقاتي بالمتساكنين انخرمت شيئاً ما منذ ذلك اليوم الذي أطل فيه شبح علي في الفندق، ولفّها شيء من البرودة والتحفّظ، فقررت أن أرحل. إلى أين؟ إلى ليال طويلة من التسكع والتنقل بين بيوت الأصدقاء.

علي! علي! أحيانًا أقرّر أن أنهي علاقتي به قبل أن يخرّب عليّ الدنيا

Twitter: @ketab_n

بكليتها من حولي. الطلبة التونسيّون الذين بدأت علاقاتي تتوطّد بهم عبّروا لي مرّات عديدة عن تأفّفهم منه، من استعلائه الساحق وسخرياته اللاذعة والعنيفة التي لا يخفيها تجاه قناعاتهم وممارساتهم ونمط عيشهم. هناك حتّى من توعّد بكسر فكّيه إن رآه مرّة ثانية في الحيّ الجامعي أو سمعه يتطاول على أفكارنا الثوريّة التي لا تحظى لديه سوى بالسخرية والتهكّم والاحتقار. بعض من الموسْوسين بالمسائل الأمنيّة لم يتردّد في بثّ إشاعة بأنه من أعوان البوليس السريّ، أو أيّ رهط من الاستفزازيّين الذين يعملون لصالح جهات أمنيّة غامضة. وبالرغم من استخفافي بتلك الأقاويل السخيفة واقتناعي الراسخ بنظافة عليّ، بل وبصحّة وطرافة الكثير من آرائه رغم تهوّرها وعجرفة أسلوبه في الإفصاح عنها، فقد صرت أشعر بشيء من الحرج لكثرة التصاقي به. أصبحت أتحاشى الظهور معه في مثل هذه الأوساط التي لا يستسيغها ولا تتقبّله.

أخيرًا شغلتني عنه الجامعة والدروس ولقاءات الأصدقاء الجدد والاهتمامات الجديدة. تباعدت زياراتي لسان دني. بل كادت تنعدم كلّيًا في المدّة الأخيرة.

*

طالت مدة إفلاسي الكلّيّ وتشردي. بعد مغادرة بنسيون خوخة منذ أكثر من خمسة أشهر لم أعثر على سكن. بدأت أضجر من التنقّل بين بيوت الأصدقاء. في بيوت الطلبة التونسيّين هناك دومًا مكان للنوم بشرط أن تقبل بالسهرات الطويلة التي تمتدّ حتّى قبيل الفجر في نقاشات إديولوجيّة وسياسيّة لا تنتهي؛ حلقات تضمّ ما لا يقلّ عن ستّة أشخاص، ثمانية، عشرة وأكثر مقرفصين، قابعين، ممدّدين على

Twitter: @ketab_n

الأرض داخل عجاجة من الدّخان ورائحة القهوة أو الشاي، وقلّما يكون هناك شيء للشراب غير الشاي والماء، فجلسات الرفاق متقشفة، شديدة التقشف في ما يمكن أن يمت إلى المتع والرغبات والشهوات. هناك فتاة تونسية واحدة تتردد على هذه الجلسات المسائية المطولة بانتظام، هي الرفيقة زينب، تلقائية، ودودة، طبيعية وبسيطة في هيأتها وملبسها وسلوكها. فجأة انقطعت عن المجيء ولاحظنا أن ما لايقل عن خمسة أصدقاء قد اختفوا أيضاً من سهراتنا في نفس الفترة. بعد بضعة أسابيع بدأ بعضهم بالظهور مجددا، وراحت تتسرب بعض الأحاديث همسا بين الرفاق عن علاقات مشبوهة بين الرفيقة زينب ومنذر. تحول الهمس بسرعة إلى انتقادات مفتوحة، احتجاجات تحولت بسرعة إلى سباب واتهامات غامضة كانت تبدو لي مجانية أحيانا، أو مبالغا فيها على الأقل. عُقدت جلسات متتالية لمناقشة مسألة العلاقات الغرامية بين الرفاق والرفيقات. جلسات تدور على نفسها وعلى نفس المحاججات لتنتهي دائما إلى خلاصة إديولوجية واضحة تقضي بضرورة تغليب الموضوعي على الذاتي في العلاقات بين المناضلين. التحقت بنا نزيهة ثم انفصلت عن سهراتنا هي الأخرى بعد بضعة أسابيع. تردد بين الرفاق حديث بأنهم رأوها تكثر الجلوس مع شاب فرنسي في كافيتيريا جامعة جوسيو. وقيل رأوهما معا في أماكن أخرى أيضاً.

كانت هناك أيضاً آنا الشيوعية اليونانية التي تسكن الغرفة الملاصقة لغرفة حميد، وقد أصبحت تفضل قضاء السهرة معنا، تدخن صامتة أو غارقة في كتاب باللغة اليونانية، أو تخط بعض ملاحظات على كنش لا يفارق ركبتها. قالت إن قضاء السهرة معنا حتى وهي لا تفهم كلمة واحدة من نقاشاتنا أفضل من قضاء الليل في الاستماع إلى ضجيجنا الذي يصدع جدران غرفتها.

Twitter: @ketab_n

أخيراً أقنعت آن ماري بأن ترافقني ذات مساء إلى بيت حميد. لم تتحمل أجواء السهرة وصخب النقاشات. وبعد أن فشلت محاولتها في استدرار شيء من التواطؤ مع آنا اليونانية، ثم فشلت لمرتين في أقناعي بضرورة الخروج، نهضت فجأة، ارتدت معطفها وأخذت شنطتها وصفقت الباب وانصرفت.

التقيتها بعد يومين في كافيتيريا الجامعة فصاحت فيّ: لتذهب إلى الجحيم أنت ورفاقك الماويون الستالينيون! ريفيّون أجلاف: تريدون القيام بثورة بأفكار مزارعين صينيين! أجننتم؟ هل بكُم مسّ، أم ماذا أصابكم؟

رويت الحادثة لعلي فغرق في القهقهة وهو يستلقي على ظهره ويركل الهواء بقدميه: لأول مرة تحدثني عن شخص ذكي من معارفك! إنها على حق! إنها على حق؛ لتحيا الفوضوية!

زيارة آن ماري وخروجها العاصف ستكلفني المثول في حصة للنقد والنقد الذاتي: «أنت مصاب يارفيق! علاقاتك ذاتية، غير مبدئيّة. سلوكاتك مائعة ليبرالية تنقصها النقاوة البروليتاريّة يا رفيق! لا ينبغي تغليب الذاتي على الموضوعي في أي نوع من العلاقات».

- هل الحب مسألة موضوعية أيضا؟

- طبعا، يا رفيق. الحب كعلاقة ذاتية مفهوم بورجوازي رجعي.

لا بدّ من المواظبة على فرك الأدمغة وإعادة التثقيف. في كل مرة يكون هناك واحد منا موضوعا لحصة النقد والنقد الذاتي: في دماغك الكثير من ترسّبات السموم البرجوازيّة وعفونات التضليل البرجوازي يا رفيق! إقرأ «ضدّ الليبرالية» يا رفيق! هات دماغك نستأصل منه

Twitter: @ketab_n

الرومانسيّة والمثاليّة والليبراليّة والأدب المائع والشعر العابث والموسيقى والسنما والمسرح البرجوازي.

بعد أن يأخذ كل رفيق نصيبه منك نقدا حازما مدعما بالمقولات الإديولوجية، سيكون عليك أن تمارس على نفسك النقد الذاتي الذي غالبا ما يكون صارما هو الآخر، أو أنه يسعى إلى أن يكون أكثر صرامة من النقد. أن تكون أقسى على نفسك من الآخرين! أن تجعل من نفسك موضوعاً، شيئاً على منضدة التشريح، أن لا تتردد في تحريك إصبعك في الجرح المفتوح؛ تزيح بيديك الفطر العالق بدماغك، تستخرج بأصابعك الغدد والقيح ومواد كريهة كثيرة مخالطة للدم، معششة في النسيج اللطيف لخلايا كيانك كله: عفونات التربية البرجوازية، وفطريات البرجوازية الصغيرة، المفاهيم المتآكلة وترسبات الرؤى الإقطاعية والغيبية والميتافيزيقية ـ كثير من الزوائد والفضلات لا بد من استئصالها، اقتلاعها، إزاحتها...

قبلنا بأن نكون صارمين مع أنفسنا، أن نتعلم كيف نحاسب أنفسنا، وهذا أمر ليس سيئاً بالنهاية. نربي أنفسنا تربية جديدة. تربية بروليتارية. أعجبني الأمر، لأنني لأول مرة أجد نفسي مسؤولا عن تربيتي لنفسي بعد أن كان الآخرون دوما هم الذين يمارسون علي تلك التربية بسلطة خارجية قهرية. النقد الذاتي سلمني مقاليد تسيير نفسي والتحكم في عنان اندفاعاتي ونزوعاتي وميولي. أنا مربّي نفسي، تحت إشراف التنظيم بطبيعة الحال، وبأدوات الإديولوجيا، ـ لكنها إديولوجيا اخترتها لنفسي، ولم تلق علي كفرض من طرف سلطة متعالية ما.

ومع ذلك، أجدني أتساءل بين الحين والآخر، أو أسأل رفاقي: طيب، نحن مع أن نتربى تربية بروليتارية. لكن، صديقي علي، ذلك

Twitter: @ketab_n

الذي لا تحبّونه وتنتقدونني بسبب صداقته، أليس عاملا بروليتاريًا؟ وعمّال مساكن مبيتات «السوناكوترا» الشبيهة بثكنات، وأولئك الذين يرفضون حتى أن يتسلموا منشورا من أيدينا يوم نذهب إليهم في السوق الأسبوعية لسان دني، هل أولئك هم البروليتاريا؟ ـ طبعا، تلك هي البروليتاريا غافية تنتظر اليد والفكرة التي تحرك الوعي.

ذهبنا إذن إلى الطبقة الشغيلة لنتعرف عليها ونعايش أوضاعها وهمومها. كنا ثلاثة مناضلين من خلية سان دني شرعنا في ممارسة شعار «الالتحام بالجماهير»؛ نذهب مساء لزيارتهم في تلك المبيتات الشبيهة بثكنات، نسأل عن حاجياتهم ومشاغلهم، نحرر لهم رسائل إلى العائلة والأصدقاء وصندوق الضمان الاجتماعي وإدارة المآوي السكنية الجماعية: احتجاج على الظروف الصحية، مطالبة بتوسيع المطبخ المشترك وإضافة أماكن للطبخ وطاولات للجلوس، احتجاج على الاكتظاظ داخل غرف النوم. نحدثهم عن الاستغلال الرأسمالي وهم ينظرون إلينا بعيون حائرة ولا يفهمون حقا مغزى وكنه مثل هذا الكلام. نحزن لتأخر الوعي الطبقي لدى أولاد بلادنا. نذكر لهم النقابات العمالية ونشجعهم على الانخراط فيها، فينظرون إلينا بمزيج من الدهشة والنفور وبتساؤلات غير بريئة تبرق بها عيونهم: «هذي مسائل تهم الفرنسيين»... «نحن هنا من أجل لقمة العيش، مالنا وهذه المشاكل؟» نفرح لأننا هنا من أجل نشر هذا الوعي وفرك أدمغة البروليتاريا الجديدة القادمة على عالم الرأسمال من بوادي وأرياف الشمال الإفريقي. ننظر إلى طناجر الأكل وقطعة اللحم الكبيرة في الصحن ونحن جائعون، أو في حالة أقرب إلى الجوع. يقول لي الرفيق زبير: إنهم يؤدون أعمالا شاقة يارفيق، لا بد للبروليتاري أن يتغذى جيداً من أجل تجديد قوة العمل التي سيبيعها في اليوم الموالي، أو ينهبها منه رأس المال. نتمنى لهم

Twitter: @ketab_n

العافية. نحن طلبة محظوظون لأننا ندرس ونأكل بأسعار رخيصة في المطاعم الجامعية ونستلف الكتب والمجلات من المكتبات، ونشرب ونمرح على حساب هؤلاء. نقتات من فتات فائض القيمة الذي تنتجه سواعدهم. لا نحسدهم على الأكلات المبهرة وقطعة اللحم الكبيرة في الصحن، ونحن جائعون، ووجبات المطاعم الجامعية تبدو باهتة اللون، عديمة النكهة؛ أكل مستشفيات أو ثكنات عسكرية في أحسن الأحوال، وأحيانا نكون مفلسين معدمين لا نستطيع حتى اقتناء تذكرة المطعم الجامعي الشبيهة بأكل المستشفيات. نتمنى العافية للبروليتاريا ونواصل حملاتنا التوعوية وأعمالنا الاجتماعية التطوعية بأمعاء خاوية. بعضهم لا يدرك السبب الذي يجعلنا نترك دروسنا ومشاغلنا ونأتي إليهم، هكذا، بدون مقابل! أم هل هناك جهات تدفع لكم مرتبات؟ أم... نوايا غامضة، ومآرب مشبوهة؟ هناك من يقابلنا بكثير من النفور، كمتطفلين أو كعناصر مشبوهة. وهناك من لايقبل علينا إلاّ عندما تكون برفقتنا فتاة أو فتاتان.

ذات مرة حاولت مجموعة منهم اغتصاب الرفيقة النقابية الفرنسية التي كانت ترافقنا في لقاءاتنا الالتحاميّة، بينما آخرون يتابعون مشهد مضايقتها من وراء طناجرهم في المطبخ الفسيح ويضحكون مشجعين. كان هناك أيضاً واحد قميء بأسنان صدئة لا يحبنا ولا يخفي انزعاجه من قدومنا إلى المبيت. ذات مساء عن له أن يبدي اهتماما بوجودنا، وفي لحظة ما اقترب مني وهمس في أذني: اشنوّة يا ولد بلادي تنيكوا لوحدكم؟ لماذا لا تترك لنا هذه القحبة نمضّي عليها الموسى؟ ثم تهيج فجأة وغدا أكثر عدوانية، ثم قذف بي خارج المبيت وهو يدفعني من كتفيّ ويشتمني ويتهدّدني بإعلام السفارة أو القنصليّة التونسية عن أعمالي التخريبيّة إن عدت ثانية بعد أن حاولت أن أشرح له أنّ تلك الفتاة رفيقة

Twitter: @ketab_n

وليست عاهرة مشاعة للجميع ـ كانت رفيقة تونسية هذه المرة ـ ؛ هل ذلك بروليتاري نقيّ سيقود حركة التاريخ ويقلب وجه العالم؟ عقبة الذي يرافقني في تلك الزيارات ينفجر: أنا خدّام مثلك يا بهيم. لكنني أضحي بساعات راحتي من أجل توعيتك ومساعدتك حتى لا تظل حمارا طوال حياتك! يندفع ثلاثة نحوه، يلطمه أحدهم على وجهه، وواحد يدفعه من كتفيه خارج باب المبيت.

ـ تفوا! تفوا! على البهايم، البقر، الهمج...

ـ اهدأ يا عقبة، اهدأ! ألم نأت إليهم بنيّة ممارسة شعار «الالتحام بالجماهير»؟ والرفيقة أيضاً تريد أن تلتحم: امرأة في ثكنة عزّاب! قطعة لحم ترمى أمام فوج من الكلاب الجائعة! طيّب يا سيدي، نحن نريد الالتحام والجماهير الجائعة تقول لنا لا التحام بدون لحم، مسألة بسيطة، أليس كذلك؟

*

حصة النقد والنقد الذاتي ستثبت لنا بعدها أننا نحن المخطئون، وأنني أنا البرجوازي الصغير الذي لم أحترم المشاعر الإنسانية لذلك العامل وأنني قمت بعمل استفزازي بإحضار تلك الرفيقة إلى مأواه. اقرأ «بيان الحزب الشيوعي» وتثبّت في المعاني العميقة لنصّ «ضدّ الليبراليّة» يارفيق! إنّك ما زلت مشبعًا بانحرافات البرجوازيّة الصغيرة وضيق أفق تفكيرها. لا بدّ أن تنفذ عيناك إلى الذهب المغمور تحت التراب والحصى يا رفيق! لا تنس أنك متخم بالأفكار والفلسفات البرجوازية. الكتب ليست محايدة، والجامعة أيضاً.

هل سيكون علي أن أغسل دماغي أيضًا من كلّ ما أتعلّمه نهارًا في الجامعة وما أقرأه في كتب أولئك الذين لا علاقة لهم بقضية البروليتاريا

Twitter: @ketab_n

ولا يستشهدون بماركس وأنجلس ولينين وماو تسي تونغ؟ ماذا أفعل بأوغست كونت وابن خلدون وستويارت ميل ومالينوفسكي وريكاردو ودافيد هيوم وهوبز وفولتير وروسو وديدرو وأرسطو وأفلاطون والفارابي والتوحيدي وأبي نواس وبشار والمتنبي وبودلير وفلوبير ودوستويفسكي وتولستوي وكامو و...؟

جواب حصة النقد والنقد الذاتي: فكر برجوازي وإقطاعي منحطّ! في زبالة التاريخ جميعًا. ها هو سارتر ينبذ مقاعد الجامعات وينزل إلى الشارع مع المتظاهرين. لاحياد للمعرفة، إما في صف الشعب والمظلومين، أو في صف الأسياد والمستغِلّين والمستبدين. أنظرْ إلى فلاّحي الصين وعمّالها من الأمّيّين كيف لم تمنعهم الأميّة من أن يصبحوا كوادر حزبيّة نشطة ومحرّكة للتاريخ. أنظر كيف يقودون اليوم جحافل المثقّفين البرجوازيّين والبرجوازيّين الصغار إلى مشاغل العمل في الأرياف، يعلّمونهم زراعة الرز والبصل نهارًا وحفر القنوات وتجلية التراب وتنظيف اسطبلات البقر والخنازير، وفي المساء يرتّلون عليهم ما تيسّر من مقولات الرفيق ماو؛ يفركون الصدأ عن وعيهم ويلمّعونه ويرطّبون أدمغتهم بإعادة التثقيف البروليتاري ضمن أكبر ثورة ثقافيّة عماليّة وفلاّحيّة عرفها التاريخ. اقرأ «في التناقض» يا رفيق! اقرأ «الدولة والثورة» و«دع مائة زهرة تتفتّح» يا رفيق!

ـ كلام حلو! أحلى من العسل. لكن هل يستطيع هؤلاء البروليتاريون والفلاحون أن يقرأوا كتاب «رأس المال» ويفهموه؟ أو حتى «بيان الحزب الشيوعي»، فما بالك بالإديولوجية الألمانية أو «مخطوطات ١٨٤٨»؟

ـ نبسّط لهم ذلك كما فعل الرفيق ماو.

Twitter: @ketab_n

البورجوازي الصغير، ذلك الضمير المستتر الملوث بشتى الأفكار البالية يهمس خلسة من بين أضلعي أحيانا، يتبرم من هذه الحملة المدمرة الشاملة. لكنني أجد لذّة، مع ذلك، في هذه الأجواء المشحونة بالحماس والرغبة في التقويض والبعثرة. أكتم صوته، أخنقه، أركله ليعود إلى الزاوية المعتمة التي يلبد متكورا على هزيمته داخلها. أصبحت مداوما على حصص النقد الذاتي التي أخضع نفسي لها طوعا، في ما بيني وبين نفسي. أحتفل بانتصار وعيي اليقظ على ترسبات الرؤى البرجوازية؛ هاها! ها أنك بدأت تتعلم يا جرذ الجامعات والأروقة الرطبة للمكتبات! أنتشي بفكرة المسح والنسف والبعثرة الكليّة لما ظلّ لقرون عدّة يُعتبر لبّ المعرفة والمعنى الجوهريّ للوجود. مجمل تاريخ الفكر لم يكن سوى تاريخ سلسلة طويلة من التواطؤ مع الظالمين والمستبدين والمستغلين. لابد من قلب النظرة من أجل اجتثاث الجرثومة، وقلب نظام الأوضاع السائدة. قلْب الدنيا رأسًا على عقب!

نحن أشبه بأطفال منتشين بغبطة تقويض البيت؛ سعداء لعثورنا على نظريّة تخوّل وتشرّع لنا مثل هذا التقويض الجميل، تجعله مهمّة تاريخيّة عليها يتوقّف مصير البشريّة وسعادتها في المستقبل. أبناء ما بعد الاستقلال؛ الوطن يريدنا عسكرًا لحلمه، عسكرًا منضبطًا محلوق الشعر، مقلّم الأظافر بلا قمل وصئبان، بقمصان وبنطلونات مخاطة من أكياس الطحين الأميركي، لكنها قمصان وبنطلونات على أية حال، وزعيم البلاد يصرخ ويزعق وينادي بمجتمع جديد بلا دراويش ومتسوّلين ومعتوهين وقارئات كف وعرّافات ودجّالين: «*عربي فرنجي تركي عجمي بيلطّشْ تلطيشْ، محسوب الدرويش عالبورقيبة يعيش!*»، بلا شحاذين، بلا قبائل وعشائر، بلا أولياء، بلا نذر وطقوس ومعتقدات بالية... زعيم يخطب بحماسة، يكرز للحاق بركب الأمم المتحضّرة،

Twitter: @ketab_n

يتبرّم من تزايد النسل: كفّوا عن التناكح، كفّوا عن التكاثر كي أفخر بكم شعبا صغيراً لطيفاً مهذّباً لا يبصق في الباصات ولا يبول في الشوارع، لذيذًا وديعًا؛ من أين لي بتغذية كلّ هذه الأفواه المفتوحة للازدراد، *«شباب العلى عزّنا بالحِمى...»*، أطفال البلاد يدبّون الآن مثل النمل فوق الربى والتلال محلوقي الشعر، غير أنيقين ولا شبعانين حقا، لكن هناك طناجر يغلي فيها حليب البودرة الأميركية «هدية من شعب الولايات المتحدة الأميركية، ليس للبيع أو المبادلة»، يدبون فوق الطرقات، في الأحراش وفي بطون الأودية: «فوق كل ربوة مدرسة» قال الزعيم. الوقوف في الطوابير بهامات مرفوعة، تحية العلم، الاستماع إلى توجيهات الرئيس والتصفيق بحماس؛ من لا يتحمس، أو يتلكأ تلكزه المرافق، تحلق رأسه على الجلدة تقريبا، يحرم من حليب البودرة وإصبع الشوكولاطة السوداء .*شباب العلى عزنا بالحمى! نموت، نموت ويحيا الوطن!* لابدمن الانضباط، نبذ التسيب وخرافات الجدات: *«بالعلم والعمل فرحة الحياة!»* الوطن يريد جيشا منضبطا لمهمّات التطور والحداثة واللحاق بالأمم المتقدمة.

طيب يا سيدي كلّو حلو، زين، عال العال! لكن، للوطن الذي تتصوره أنت حلمه، ولنا حلمنا نحن أيضًا. وللوطن الذي أصبحنا نتصوره لأنفسنا حلمه. لم نعد نرغب في حليب البودرة، ولا في أن نرى إخوتنا يمشون حفاة ويرفسون في الماء والأوحال .*«اقرأ يا ولدي وتعلّم واسمع كلام المعلّم!»*؛ قرأنا يا سيدي وتعلّمنا، حفظنا الدرس عن ظهر قلب والآن نريد أن ينصت المعلم إلينا قليلا؛ الآن ونحن نرى الزرع قد نما وأينع، نريد وطنًا بلا جوع، بلا ملابس مخاطة من أكياس الدقيق الأميركي، وطنا للمرح والغبطة والعبث أيضًا، وليس ثكنة لإعداد المواطنين المنضبطين دومًا والحازمين دومًا. وهذا الاستقلال الذي

Twitter: @ketab_n

صدعت آذاننا أناشيده وهتافاته المهللة قد غدا مكسبًا وطنيًا يربض بكلكله على وعينا وتضيق به أنفاسنا. بدأنا نعاف *«الموت الموت ويحيا الوطن!»*، قلنا لهم الشهادة فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر، كفانا موتا إذن! نريد أن نحيا، أن نعيش، ويحيا الوطن معنا إذا أمكن. قرأنا وتعلّمنا، يا سيدي وانفتحت أدمغتنا على عوالم ساحرة من الآداب والفلسفات والنظريّات التي لا تتغنّى سوى بالحريّة وبركل كلّ قديم، والنظر إلى الأمام بعيون صافية من كدر التقليد والاتباع والقناعة بما هو متحقّق، الآن *«تصرخ في عروقنا الدماء: نعيش، نعيش!* نرنو بأعيننا إلى عواصم أخرى متهيجة بتمرد الشباب في ربيع ساخن معربد؛ شعور طويلة، لحى مرسلة، موسيقى الروك اند رولز، البيتلز والبينك فلويد، جيم موريسون، جيمي هندريكس الذي يقيم حفلاته في خرابة قصر قديم بقرية ديابات داخل غابة بالقرب من الصويرة، جون فيرّا وجورج براسّانس وموستاكي وليو فيريه، ولفافات الحشيش التي تدور في الحفلات والمظاهرات، والحريّة الجنسيّة وحياة الكومونات المتمرّدة الخارجة على نمط المجتمع الرأسمالي الرتيب. إنّه حفلنا وعيدنا الموعود الذي لا نريد أن نحرم منه. فلنمرح في ساحة هذا الوطن ونعبث، ونفرت الدنيا ونبعثرها كما يحلو لنا، الآن وقد عرفنا أن أيد خبيثة وأنانية جشعة هي التي تمنع الرفاه عن الأغلبية! ننتشي، نتهيّج برنين الشعار المدمّر الذي سيأتي على الأخضر واليابس؛ فليأت على الأخضر والأصفر والأزرق لأنّ لنا رغبة في أن نعيد تصميم الوجود بأيدينا وبالألوان التي نريدها نحن.

ـ حذار، حذار! الأولاد ذاهبون في لعبتهم أبعد مما ينبغي، نحو أفق يهدد بالمخاطر. تحرّش أصبح يضع قيادة الزعيم وريادته موضع سؤال. ألم نقل إنه «المجاهد الأكبر»؟ الزعيم الأوحد، المناضل الأول

Twitter: @ketab_n

والأخير؟ عنده تنتهي صيرورة التطورات، وبعده يتوقف مسار التاريخ. الزعيم لا يعرف قانون الطبيعة الذي يجعل من الزهرة نفيا للبرعم، ومن الثمرة نفيا للزهرة. الزعيم ليس أبا فقط، بل راع والبقية قطيع، ـ قطيعه. لكننا على غير هذا الرأي يا سيادة الزعيم؛ المسار متواصل، أفكار جديدة، ومنارات جديدة: غرامشي، لوكاتش، غوركي، تروتسكي، بليخانوف، سارتر... كل شيء يُقلب رأسا على عقب! أية قيمة للبرعم إن لم يزهر، وأية قيمة للزهرة إن لم تثمر. لكن لتعلم أعزك الله، أنه لن تكون هناك ثمرة إن لم تذبل الزهرة ثم تنقرض: قوانين الطبيعة قاسية يا معلّم! نراك الآن وقد بلغت حدك ولم تعد قادرا على مواصلة المسيرة معنا. أنت الآن جزء من الماضي، وعائق في طريق المسيرة.

يغلي الحماس في رؤوسنا والرفيق زبير يلعلع بصوته الجهوريّ في سوق سان دني ممسكًا بجريدة التنظيم يشهرها في وجوه المارّة من المهاجرين المغاربيين: *«لا مجاهد أكبر إلاّ الشعب!»* ـ لكن يبدو أن هذه الزهرة عنيدة، متشبثة بنفسها كزهرة، تنكر الثمرة، تنفي الصيرورة، تستنفر، تتوحش، تتحول إلى دغل أشواك؛ وسيّدنا يضرب بعنف مفرط، مضطرما برغبة البقاء وبالهلع أمام حتمية التحول والانقراض. الأب يتحول إلى أسد يفترس أشباله كي لا يكون له من صلبه عنصر النفي الذي يهدد سلطانه.

«لا مجاهد أكبر إلاّ الشعب!» «يسقط النظام الدكتاتوري البورقيبي!» عينا الرفيق زبير تحمرّان، شارباه الكثّان يرتعشان، ويبتسم عندما يعلو صوته على صوت بائع الأحزمة الجلديّة الذي يقف قبالته تقريبًا صائحًا بصوت نحاسيّ رخيم:

LA BRETELLE! LA BRETELLE!.

Twitter: @ketab_n

الأب يضرب بعنف غير معهود: اعتقالات، تعذيب في أقبية وزارة الداخلية، محاكمات تُجر إليها المئات من شباب الجامعات، مدرسون وأساتذة جامعيون ومهندسون. لم يعد هناك أب وأبناء؛ ضد لضد: أن تكون، أو أن أكون. الأولاد يردّون بمزيد من التجذر في الضدية؛ الحقد ينمو؛ نيران العدوانية تتأجج، الأنفس تتهيج بطاقات تمرد عاتية؛ رغبة العنف؛ لا شيء أحلى من العنف؛ العنف هو الخلاص: هذا أيضاً قانون طبيعي، يا معلّم!

خلّي الثورة تولّع نار، تولّع نار! الأب والأبناء معا يستبد بهم جنون الحرق والتدمير: لتُحرَق المزرعة إذن! روح نيرون تستيقظ متأججة برغبة النار! الرفيق سليم يحتقن ويرغي ويزبد في اجتماع عامّ، يتحوّل إلى شعلة ملتهبة فوق المنبر محاطا بعاصفة من التصفيق والهتافات الطالعة من حوله: *لا مجاهد أكبر إلاّ الشعب! الخبز والحريّة لجماهيرنا الشعبية!* قرأوا وحفظوا الدرس، والآن يريدون قلب المعادلة يا معلم! الرفيق يرفع قبضته من فوق المنبر يستحث على المزيد من الهتاف والتصفيق؛ حركتنا مستمرّة، والانتهازي على برّا! ويكون هناك في القاعة مجموعة أو فريق تلتفت إليه الرؤوس كلّها بقبضات ملوّحة في الفضاء وحناجر مستعرة: *حركتنا مستمرّة، والانتهازي على برّا!* لا بدّ أن تلك المجموعة التي تلتفت إليها الرؤوس الآن هي المشار إليها بالانتهازيّة، لأنها تفوّهت بكلام لم يكن مؤاتيًا للحماس الجماعيّ، نوع من التخاذل والبرودة، أو فتور يهدّد بانخرام الراديكاليّة والاندفاع الضروري. تلك المجموعة المزعجة هي التي تلهب الآن حماسة الجمع المتهيّج الملوّح في وجوهها بالقبضات والشعارات الصاخبة؛ عدوّ اللحظة، أو خصم مباشر تشحذ عليه الثورة أسنانها في انتظار الخصم البعيد الذي لا يُرى ولا يُلمس هنا مباشرة. تمرين ثوريّ ضروري، دربة على ضراوة النهش والخدش

Twitter: @ketab_n

والعضّ بأسنان ثوريّة حادّة كي لا تحفى الآلة في انتظار اليوم الموعود الذي ستباشر فيه عملها القاطع .*العنف الثوري ضد العنف الرجعي*، هكذا جاء في الكتب التي تحض على الثورات. الزعيم يمنع الكتب التي تبث البلبلة في عقول الشباب. رقابة صارمة على الصحف والمنشورات. ها أنك بدأت تخبط خبط عشواء! كلا، العنف لا يطلع من الكتب يا معلّم: العنف وليد العنف. هل رأيت حبة قمح تنبت حسكا؟ أو بذرة بطيخ تنبت حنظلا؟ أو حسناء أنجبت قردا؟ كل جنس لا يأتي ولا يولد إلا عن جنسه، يا سيّد العارفين، الزعيم الأوحد، المستنير الأوحد، الحداثي الأوحد؛ المجاهد الأكبر، أم تراك تريد أن تحتكر الحماقة أيضاً، ونحن لم نلقّبك بعد بالأحمق الأكبر؟

رفيق جديد نراه لأول مرة في هذا الاجتماع العام الحماسي. هائل الجثة، عريض المنكبين، برأس ضخمة ووجه محتقن، شاربان كثّان وعينان تبرقان مثل أعين الذئاب. وجه تبدو عليه ملامح الشدّة وليس فيه من نعومة رغد العيش أثر، يتحرك مثل كتلة من الصخر، يندفع من وسط الجمع ليقترب من المنصة ملوحا بذراعه الثقيلة وقبضته الضخمة في الفضاء: لا مجاهد أكبر إلاّ الشعب! والرفيق حميد الذي يقف إلى جانبي يلكزني بمرفقه أن انظر يا دين الكلب! ها هي البروليتاريا الحقّ يا جرذ البنايات الجامعية والمكتبات! بينما وجه الرفيق الجديد المندفع وسط الحشد المهتزّ بالشعارات يحتقن، تبرق عيناه أكثر، تجحظان، تشتعلان، وفمه يضطرب الآن، ينفخ، ينفتح وينغلق وينفتح، شدقاه يتحركان بعصبية تظنّ أنهما يهرسان، يجرشان الهواء والكلمات فتطلع مقرقعة مدوية، والرفيق حميد يعمل مرفقه في جنبي يكاد يدمّر أضلعي افتتانا، غبطة، نشوة. قال إنه رفيق جديد. عامل حقيقي. بروليتاري لحما ودما. تعرف على التنظيم في أحد أحياء العمال المهاجرين، لا أدري أين

Twitter: @ketab_n

بالضبط؟ في حيّ الواذ بمدينة نيس، أو في تولوز. وافقت شعاراتنا هوى في تربته التي عجنت بشتى المعادن الصلبة والقاسية في مناطق جبلية نائية بمرتفعات الشمال الغربي للبلاد ثم صهرت وصقلت وتصلبت بعدها في مشاغل البناء بمرسيليا ونيس ومونبيليي وتولوز. بروليتاري أشعلت شعارات التنظيم فتيلا في داخله، والشعلة التي تأكله الآن تُضرم في عيني الرفيقة سامية بريقا آخر غير ذلك الذي اعتدناه من لين ورقّة مزاجها البلْدي الناعم.

الرفيقة سامية فتاة ضئيلة الهيأة، بحجم قطّة، لكنها قطة متوثبة، نشطة، يقظة، في عينيها السوداوين حرارة بريق غريب لا يمكنك أن تميز بدقة إن هو بريق شهوانية متوقدة أم هو لهيب الحماس الثوري الصارم. عيناها فعلا جميلتان ومضيئتان، لكنها تزمّ على شفتيها الدقيقتين كما لو أنها تعضّ على رقّتها؛ زهرة تحاول التنكر في هيأة غيضة أشواك كي تغالظ النحل والفراشات. الرفيقة سامية تقف بجسدها الضئيل الذي لا يكاد يتجاوز حجم فراشة إلى جانب الكتلة الصلبة المتقدة حماسا، تسترق قبسا من ناره المتأججة ولا تدري أنها هي الفراشة اللطيفة الرقيقة تؤجج بدورها لهبا أكثر استعارا في صدره البروليتاري الضخم. تملأ عينيها من مشهد الجبل البروليتاري المرتجّ إلى جانبها، وتكتشف في أعماقها التي لا يعرفها أحد سواها أنها ليست دغل أشواك، بل وردة في عنفوان التفتق، وتلك اليد الخشنة التي ترتفع الآن في هيأة قبضة البروليتاريا الواثقة الحازمة، تلك اليد، هل ستتقدّم برفق أم بشدّة وصرامة لتقتطف الوردة؟ الرفيقة يخزها شيء في بطن الوردة، وهي تتساءل بالتأكيد في ما بينها وبين ضميرها الثوري: هل كانت روزا لكسمبورغ أنثى؟

نشوة. شيء شبيه بحفل هازج معربد يعد بأيّام مثل عرس لا نهاية له.

Twitter: @ketab_n

العرفاوي

صباح بارد غائم، وباريس تبدو عدوانيّة تحت لحافها القاتم وسمائها المعتّمة التي لم تعد تحظى سوى بساعات قصيرة من الضوء النهاريّ. خرجت من بيت آن ماري مبكّرًا مقرًّا العزم على العثور على عمل. أيّ عمل.

بيت آن ماري هو ملاذي الأخير عندما تثقل على مزاجي الجديّة المفرطة للجلسات الطلابية وسهرات النقاشات الإديولوجية، وإذا ما أردت الهروب من السهرات الطويلة في سان دني، أو تفادي النوم في مدارج العمارات الفاخرة بالدائرة الثامنة والدائرة السادسة عشرة حيث الموكيت نظيفة والبنايات مدفأة، وفي المدارج الخلفيّة (مدارج الخدم) حنفيّات الماء للاغتسال.

برد الصباح عند الخروج. الرغبة في النوم. فراش آن ماري الدافئ. العتمة في الخارج. الزجاج المجلل بالضباب، وحتى الأضواء المنبعثة من نوافذ البنايات المقابلة؛ هذه الأشياء كلها لا يمكن إلاّ أن تكون إعلانا عن أنّ الليل لم ينقض بعد؛ دعوة إلى العودة إلى الفراش. في مثل هذه الصباحات الباردة ليس هناك ألذّ وأجمل من أمرين: أن تعود إلى الفراش بعد أن تلقي نظرة سريعة على الشارع المعتّم وتدخل بيت الحمام ثم تخرج منه وتكون قد سرتْ داخل الجسم كله تلك القشعريرة

Twitter: @ketab_n

التي تقول لك إنّ الجنة هي الفراش؛ أو أن تدخل إحدى المقاهي التي تنبعث منها الرائحة الدافئة المنعشة للقهوة والكرواسّون وشطائر الخبز المطليّة بالزبدة، ممتزجة مع غمغمات المبكّرين الذين يتناولون قهوتهم السوداء مع قدح صغير من الكالفادوس أو الكونياك متنحنحين أو ساعلين، وصوت آلة القهوة الذي يبدو كما لو أنه يطحن برد الصباح وجليده ويحوّله إلى نثار من الدفء. الدفء! الدفء! يا إلهي الدفء! لا بدّ أن أجد عملا، لأنّ آن ماري لا يمكنها أن تنفق على أكلي أيضًا وهي طالبة مثلي وليس لها من مصدر قوت غير عمل بسيط تقوم به في نهاية الأسبوع. ثمّ إنّها ستفرح بالتأكيد إذا ما رأتني أعود وفي يدي شيء من الأكل، خاصّة وقد فشلت إلى حدّ الآن في إقناعي بضرورة أن أسرق من حين لآخر شيئًا من محلات السوبرماركت التي لم تكن المراقبة فيها صارمة آنذاك: قطعة لحم، زجاجة نبيذ، قارورة حليب، علبة قهوة، بعض الفواكه. فشلت محاولاتها أمام حاجز الخوف الذي كان يرجّ عظامي في المرّتين اللتين حاولت فيهما معها أن آخذ شيئًا أخبّؤه في جيوب معطفي أو تحت حزام سروالي كما لقّنتني ذلك. بالأخير، وأمام إلحاحها وانتقاداتها واتهاماماتها لي بالجبن وتحجّر الاستقامة البرجوازية، حاولت أن أقنعها بأنّني من أصل ريفيّ وأنّني شاطر جدًا في سرقات البساتين والحقول وأقنان الدجاج، لكنّني لم أتعلّم بعد سرقات المدينة، وأنّه عليها فقط أن تمنحني شيئًا من والوقت والصبر ريثما أتعوّد على ذلك، وسترى بعدها أيّ لصّ خطير يختبئ تحت جلدتي.

أكيد أنّ آن ماري قد استيقظت عندما تسللتُ من الفراش ثم أعدتُ إحكام الغطاء في موضعه. قد تكون خرجت لبضع ثوان إلى تلك المنطقة الضبابية الدافئة الواقعة بين النوم واليقظة، وقد تكون غمغمت

Twitter: @ketab_n

بشيء كما في الحلم، غمغمة شبيهة بهرير قطّ في حلاوة الحلم، ثم عادت إلى النوم، بنت الكلب، وأنا أغلق الباب ورائي وأقذف بنفسي في برد الصباح الباكر...

بولفار فولتير، شارع ماجنتا صعودا ثم نزولا، ثم شارع ريبوبليك في عملية تمشيط لوكالات التشغيل المؤقت، ولا أيّ عمل يمكن أن يناسبني. أتوقّف بين الحين والآخر في حديقة صغيرة أو أتهالك على كرسيّ خشبيّ مباشرة على الرصيف أنظر إلى المارّة الذين راحوا يتكاثرون مع تقدّم النهار. أناس يسرعون باتجاه المكاتب والمتاجر، نظيفون مسرّحو الشعر بعناية، السيّدات أنيقات، من بين ثنايا فساتينهنّ ومن تحت المعاطف تنبعث روائح عطر طري منعش. العجائز يدبّون ببطء وراء كلابهم صغيرة الحجم، بعضها مكسوّة بزردات من الصوف بألوان زاهية. كلوشارات متهالكون على الكراسي الخشبيّة يلوكون في صمت وضجر قطع الخبز بالكاممبير ويرتشفون خمرتهم الصباحيّة نصف ناعسين؛ لم تسخن محرّكاتهم الداخلية بعد ولم يبدأوا تحرّشاتهم بالمارّة وخصوماتهم التي لا تنتهي، ولم يتدفّق بعد سيل سبابهم وشتائمهم. الكلوشارات من العناصر الأساسيّة في الديكور الباريسي. هيئاتهم توحي بالبؤس والفقر، لكن لا أثر لما يمكن أن يجعلهم مثارا للشفقة. مرحون في أغلب الأحيان، وسواء كانوا يغنّون وهم يرتشفون خمرتهم من الزجاجة التي تدور في العادة على الحلقة، أو يستفزّون المارّة أو يشتمون النساء والبوليس والدولة والكنيسة، أو يتخاصمون في ما بينهم على قطعة من الجبن أو زجاجة نبيذ أو امرأة من رفيقاتهم، فإنهم في جميع الأحوال يمثّلون جمعًا معربدًا لطيفًا يغمر حضوره أجواء باريس بهالة من المرح الداعر، وشيء آخر أكثر من التسامح، وأكثر من الحريّة.

Twitter: @ketab_n

لا أثر تقريبًا للشبان والفتيات في مثل هذه الساعات الصباحيّة الباردة المشبعة بالرطوبة. إنّهم بالتأكيد نائمون، أو يتناولون فطور الصباح في لا مبالاة. لامبالاة السعداء. متشفّية عدوانيّة بدت لي تلك اللامبالاة، مثل شماتة بغيضة مجانيّة.

آن ماري أيضًا تتناول الآن بالتأكيد قهوتها الصباحيةَ بالحليب الساخن مع شرائح الخبز المحمّرة مطليّة بالزبدة ومربّى الفراولة.

مكاتب وكالات المناولة مليئة كلّها بوجوه كئيبة معتّمة، سحنات تحوم فوقها متجاورة متداخلة متناوبة تعابير التعاسة والإحباط واليأس وعدوانية باردة لا تستطيع أن تنفجر في هيأة صارخة معلنة، مكتفية بالصخب الخفي الذي يأكل روح أصحابها مثل جذام خبيث؛ كواكب منطفئة منذ آلاف السنين قد هوت من مجرّة الرأسمال الذي ينفض عنه بقايا البشر كما ينفض الغبار عن السجاجيد. المصانع نفسها التي تلقي يوميا بمئات العمال إلى الشارع، تطلب في اليوم نفسه مئات من ذوي الاختصاصات نفسها، لكن لأسبوع، لأسبوعين، وأحيانا لأسابيع تظل تُمدد لأشهر عديدة. موظفو مكاتب التشغيل قليلو المرح، يجلسون وراء مكاتبهم أو خلف الزجاج الذي يفصلهم عن فيالق العاطلين عن العمل يدفعون بهذا إلى مصنع أو منشرة أو مشغل بناء، وبذلك إلى الشارع مجدّدًا باتجاه مكتب آخر. القصاصات المعلّقة على الجدار تعلن عن وظائف وأعمال غريبة عن يديّ ومعارفي: نجّار ذو خبرة، دهّان محترف، سائق رافعات، كهربائيّ صناعي كفء، محاسب ذو شهادة، ستاندارديست ذات خبرة، فرّان وحلوانيّ محترف، سائق شاحنة ثقيلة مع جواز سفر صالح، مدلّكة محترفة وبشهادات خبرة، ميكانيكي، ماسح زجاج ببطاقة ضمان اجتماعي وبطاقة عمل، حارس مصنع مع شهادة في إثبات تأدية الخدمة العسكريّة، اختصاصي في طلاء هياكل

Twitter: @ketab_n

السيّارات... لا أحد يريد طالبا لا تحذق يداه أيّة مهنة محدّدة، وبدون بطاقتيْ عمل وضمان اجتماعي علاوة على ذلك. لا مجلّي صحون، ولا بائع أو حارس ولا حتّى ماسح زجاج دون خبرة وشهادات!

بدأت أمرّ بسرعة أمام مكاتب الوكالات، ألقي نظرة من بعيد وأمضي، ثمّ انتهيت بأن نسيت حتّى مجرّد الانتباه إليها. قدماي تتحركان آليا دون هدف أو تخطيط مسبق، لا أنظر إلى شيء، ولا أريد أن أنتبه إلى شيء. في رأسي تنطّ أحلام غريبة ومسلّية؛ رأيتني حارسًا لعمارة أو مصنع أو متحف، أجلس داخل بيت زجاجي صغير أقلّب كتبي ودفاتري، أردّ بين حين وآخر على مكالمة تلفونيّة، أو أفتح الباب الأتوماتيكيّ بمجرّد الضغط على زرّ غير بعيد من يدي بعد أن أتثبّت في هويّة القادم. أحيّي بحركة من يدي أو إشارة من رأسي وأعود إلى القراءة. في آخر الشهر أتسلّم مبلغًا محترمًا وأعود ركضًا إلى البيت، أرمي بالمبلغ على المائدة أمام عيني آن ماري المتّسعتين لفرط الدهشة، نخرج للعشاء في مطعم بشارع موفتار، ومن الغد نتسوّق لنملأ الثلاجة بالمأكولات الطازجة الجيّدة. لا حاجة لها بعد الآن إلى إخفاء قطع اللحم وعلب المصبّرات وقطع الجبن تحت معطفها الأسود الطويل. ذلك المعطف الذي قالت إنها اختارته عمدا طويلا وبجيوب كبيرة بهدف التسوّق، وعندما عدت مرّة أرتدي جاكيتة من تلك الجاكيتات العسكريّة التي تباع بأثمان زهيدة في سوق كلينيونْكوز، استبدّت بها حالة من الغضب وراحت تؤنّبني لأنّني لم أختر واحدة بجيوب كبيرة على الأقلّ. بلغتُ الآن ساحة «بير لاشيز» دون أن أتفطّن إلى ذلك. أيقظتني فجأة فرامل سيّارة تسمّرت بعنف بالقرب من قدميّ وأنا أعبر الشارع دون انتباه إلى الإشارة الضوئيّة الحمراء. كادت تلك السيّارة أن تدهسني وتنثر في الطريق العامّ سلّة المشتريات وأكياس الملابس الجديدة التي اقتنيتها للتوّ

Twitter: @ketab_n

مع آن ماري من محل تجاري فاخر، ووجدتني أرقص رقصة الأبله مترنّحًا وسط الطريق لا أدري هل أعود إلى الوراء كإشارة على اعتذاري لتلك السيّارة التي روّعتُ فراملَها حتّى زعقتْ مثل حيوان جريح، أم أتقدّم وأكمل طريقي مشيرًا بحركات مضطربة مبعثرة من يدي إلى السائق معبّرًا عن اعتذاري...

بير لاشيز! ابتعدت كثيرًا. لكنّ فرامل السيارة أعادتني بسرعة إلى نفسي الجائعة التي تركتها قبل حين قابعة أمام أحد مكاتب وكالات التشغيل ببولفار فولتير، أو في ساحة ناسيونْ. شعرت بارتخاء في ركبتيّ وبألم حادّ يتلوّى داخل أمعائي ويحكم مخالبه على معدتي. سأصعد الآن باتجاه بولفار بالْفيل والحيّ العربي؛ قد ألتقي أحدًا من معارفي التونسيّين القلائل هناك. أمل ضعيف جدًّا لأنّ اليوم ليس يوم أحد والناس جميعهم في المصانع ومشاغل البناء. لكن من يدري؟ لو أنعرج شمالا وأتوغّل في بولفار منيلمونتون ثمّ أدخل شارع شارونّه سأكون قد بلغت بسرعة شارع مونتراي حيث القهوة ماتزال ساخنة بالتأكيد وآن ماري لم تغادر بعد قميص النوم. لكنّني لم أكن أريد العودة إلى بيت آن ماري فارغ اليدين خائبًا وجائعًا فوق ذلك. من يدري بأيّ مزاج ستستقبلني وأيّة خصومة ستنشأ بيننا في هذه اللحظة وأنا متعب وجائع ومبتئس حدّ الرغبة في البكاء. لن أعود إلى بيت آن ماري، ولن أذهب إلى الحيّ الجامعي، ولا إلى بيت محرز في الدائرة السابعة عشرة، مع أنّه قد يكون من المفيد الذهاب إلى هناك فقد وعدني قبل بضعة أيّام بأنه سيسعى لإقناع صاحب محطة البنزين التي يعمل بها كي يمنحني حصّة يوم الأحد من حصص عمله. محرز أكثر حظًّا منّي. استطاع بسهولة وبمجرّد صدفة تقريبًا أن يحصل على ذلك العمل من مكتب مركز الخدمات الاجتماعيّة للطلاب. ومن نفس المكتب أيضًا عثر على الغرفة

Twitter: @ketab_n

الصغيرة التي يسكنها الآن بشارع جوفروا بالدائرة السابعة عشرة. محرز الذي كان يصغّر أمانيه (ابّيتة، وخْديمة، وخْبيزة..) نجح فعلا في مراودة الأشياء بتلك الصيغة المصغّرة التي تستدرّ الحظّ ولا تفزعه.

لكن ماذا لو أنّني أصل الآن إلى مكان ما في الوقت المناسب، الوقت الذي يُضيع فيه أحد ما حقيبة نقوده مثلا، قبل أن يسبقني لها أحد المارة الكثيرين؟

حافظة النقود مليئة بأوراق من صنف المائة فرنك. لم أجد بعد وقتًا للتفكير في آن ماري من جديد وفي ما سنقوم به من أعمال خرقاء، مازلت منهمكًا في عدّ أوراق الحزمة الكبيرة التي تكاد تفلق جلدة تلك الحافظة السوداء، ويبدو أنّني لم أكن حذرًا بما فيه الكفاية أو متسترًا، إذ لا يصحّ أن يخرج واحد حقيبة نقود مليئة، هكذا في الشارع الذي يعجّ بالمارّة ومن بينهم اللصوص المحترفون والمحتالون من كلّ صنف، خاصّة هنا في هذه الزاوية المزدحمة لتقاطع بولفار بالفيل وشارع فوبورغ دي تومبل. شعرت أنّ أحدًا قادمًا من الاتجاه المعاكس قد تلكأ في مشيته وهو الآن ينظر إليّ، أو إلى حقيبة نقودي المفتوحة. يبدو أنّه وهو يتجاوزني ما زال يدير رأسه، أو لعلّه قد توقّف متفكّرًا في الطريقة التي سينقضّ فيها على حافظة النقود السمينة التي لم أجد بعد الوقت لإخفائها في الجيب الداخلي للجاكيت. التفتّ فرأيت الرجل واقفا ينظر باتجاهي. كأنّني تعرّفت على بعض الملامح في ذلك الوجه الذي بدا لي غريبًا وأليفًا إلى حدّ ما! رجل أنيق، ببذلة رماديّة فاتحة وقميص أزرق وربطة عنق زرقاء داكنة تميل زرقتها الغريبة إلى البنفسجيّ. هل هو صاحب حافظة النقود يعود أدراجه بعد أن افتقدها؟ عاد باتجاهي وهو يتفرّس فيّ. ثمّ بادرني: اسمح لي يا أخي. ألم تكن تلميذا في معهد باجة في وقت ما؟ أواسط الستّينات؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، كنت تلميذا في معهد باجة.. ولم أدر ما الذي أضيفه. هناك بعض تقاطيع بدأت تطلع من غمام الذاكرة مثل ومضات.. معهد باجة.. المبيت الداخلي.. مطعم المبيت، وهناك جلبة ما بدأت تصعد داخل رأسي كما لو أنها ليست قادمة من غبار السنين المتوارية، بل من جمجمتي ذاتها، وتسارعت دقّات قلبي فجأة دون سبب واضح..

ـ عادل! يلعن دين أصلك، ماذا تفعل هنا؟ انقضّ عليّ يضمّني بين ذراعيه الفسيحتين، وغمرني عطر الأفترشايف الممتزج في كوكتيل دافئ سعيد برائحة التبغ والكحول. تذكّرت رائحة الأب فينيال، مسيو فينولار، مسيو كازيمير. ـ تعال، تعال نشرب قهوة. يا للفرصة السعيدة! أما زلت تتذكرني؟ أنا العرفاوي. يلعن دين الخسّ. أنسيتني؟

العرفاوي! فعلا، إنه العرفاوي، وكأنه واحد آخر، لكنه هو!

العرفاوي يطلع لي فجأة وأنا في وضع من البؤس واليأس، لكن في لحظة من الحلم بتلك المحفظة السوداء المليئة نقودًا التي اختفت الآن من شاشة المخيّلة وأنا أتثبت في وجهه؛ كأنّه الماضي يطلع لي من عتمة الأيّام والليالي شاهرا مخالب من ذكريات غير سعيدة في أغلبها. لم أنسه طبعا. كما لم أنس عبارته الغريبة الغامضة التي يطلقها عند التأفّف كما في لحظات المفاجآت السعيدة: «يلعن دين الخسّ!»، وأنا لا أفهم، ولم أحاول أبدًا أن أفهم العلاقة الغريبة بين العرفاوي والخسّ! لكن، هذه البذلة الأنيقة! والكرافات الحريريّة والحذاء اللامع! وهذا الوجه الذي لم يعد مفلطحًا داكنًا بلون الصدأ! العينان كما عرفتهما من قبل: سوداوان وضيّقتان تُغمضان تقريبا ولا تتركان غير خطّين داكنين عندما يبتسم، وتلك الابتسامة الواسعة ذاتها، الأسنان الغليظة والفلجة التي تبدو كما لو أنّها قد تقلّصت شيئًا ما في الأثناء. بياض أسنان العرفاوي

Twitter: @ketab_n

الآن، وابتسامته العريضة تشعّ بذلك المرح الذي كانت تشعّ به من قبل عندما تنزاح عنه الكآبة التي تتلبّس به بين الحين والآخر - كآبة الفقر موقّعة بتضاريس الجوع وشيء من الذعر ملتصق بالجلدة مخالط للدم والغدد، ملتحم بالنسيج الدقيق لخلايا اللحم. العرفاوي في جلدة أخرى تبدو ناعمة شيئًا ما؛ بشرة سمراء قد انزاح عنها الصدأ الداكن الذي كان يعتّمها في ما مضى، نوع من الطراوة التي توحي بأنّ دما سعيدًا يسري تحت الجلدة ويغذّي الكيان بالحبور والبهجة.

جلسنا في مقهى في شارع فوبورغ دي تومبل غير بعيد عن بولفار بلفيل والعرفاوي مازال يرجّني ويضمّني ويرجّني كما لو كان يريد أن يتأكّد من أنّني فعلا هناك أمامه لحمًا ودمًا وليس مجرّد طيف قد طلع عليه فجأة من ليل ماضي حياته القاتمة.

لا أستطيع أن أصف بالكلمات تلك الفرحة التي ارتسمت على وجهه فجأة عندما قلت له إنّني هنا منذ بضعة أشهر من أجل الدراسة.

- في الجامعة؟ قال منتفضًا. أنهيت تعليمك الثانوي ونجحت في البكالوريا؟ في الجامعة هنا في باريس! ثمّ ارتمى عليّ يقبّلني من جديد. عادل، هذه لحظة سعادة لا تشترى بالمال! بعد كلّ ذلك العذاب، وذلك البؤس، مبيت التضامن الاجتماعي، الوسخ، الملابس الرثّة، القيّمون المتغطرسون، ونظام العسكريّة، والضرب على القفا وإهانات الأساتذة الفرنسيّين، لاجيه الكلب وفينولاّر البغيض العنصري. كم مرّة وددت لو ألتقي أحدهم هنا صدفة في باريس كي أبصق على وجهه وأمرّغ دين والديه في التراب وخراء الكلاب!

دخل العرفاوي في حالة من الهرج وانطلق لسانه دون توقّف يسبّ الماضي البائس والفقر وتجربة التعاضد الاشتراكية التي أنهكت الفلاحين

Twitter: @ketab_n

الصغار ودمّرتهم، وحليب البودرة والملابس المخاطة من أكياس الطحين الأميركي: «هديّة من شعب الولايات المتحدة الأميركيّة. ليس للبيع أو المبادلة» تحت قبضتي اليدين المتصافحتين على قماش الكيس.

ـ تتذكّر كيف طلعت لنا تلك الكتابة الشنيعة فوق القمصان وعلى مؤخّرات البنطلونات بعد الغسيل الثاني؟ تلك الفضيحة التي جعلتنا مسخرة أولاد الأثرياء آنذاك!

NOT TO BE SOLD OR EXCHANGED

ما زلت أحفظها عن ظهر قلب. لعله درس الأنكليزيّة الوحيد الذي رسخ في ذهني مثل وشم بحروف من الجمر.

تململ وهو يحدجني الآن بنظرات متفرّسة متفحّصة. هل لاحظ شيئًا من الرعدة التي كانت تقوّض جسدي بسبب مفعول القهوة السوداء على أمعائي الخاوية؟ رعدة الأمعاء تنحدر مخترقة نصفي الأسفل حتّى الركبتين، ثمّ تصعد من الأمعاء في حركة متلوّية مثل شريط دقيق بدأ يعصر قلبي. كنت على حافة الإغماء تقريبًا. لكن ها هو العرفاوي يشير إلى الجرسون وهو يتحسّس جيبه. تردّدت للحظة: هل ألعب لعبة من يريد أن يدخل يده إلى جيبه ويهمّ بالدفع؟ عدلت عن الفكرة وحافظة نقود العرفاوي مفتوحة الآن بين يديه وهو ينتظر أن يصل الجرسون بوصل الحساب. لا مداهنة ولا مكابرة ولا هم يحزنون. ثمّ لِم أحاول إيهام العرفاوي بأنّ معي أموالا؟ هل هذا ضروري؟ وهل أنّ هذا سينقذ شيئًا من شرفي وكبريائي التي بدأ يأتي عليها الجوع والإفلاس وشيء من اليأس حتّى. لا فائدة من كلّ هذه المسرحيّات، قلت لنفسي ليس دون شيء من وخز الألم والشعور بالمهانة. سيأتي وقت آخر تكون فيه المكابرة والكبرياء في محلّهما، أمّا الآن، فلا فائدة.

Twitter: @ketab_n

وجه ثالث لفونطوماس

قد يبدو علي من ذلك النوع الذي لا يكاد يخرج من البارات. وهذا خطأ طبعًا، فهو كثيرًا ما ينسحب لأيّام متتالية لا يغادر بيته الصغير المعلّق في الطابق السادس من عمارة قديمة في شارع غابرييل بيري غير بعيد عن ساحة الكنيسة. وفي تلك الأثناء قلّما يفتح لأحد، حتّى أنّني كنت أعتبر ذلك امتيازًا خاصًا أن يسمح لي خلال أيّام عزلته بالدّخول ـ وأحيانًا لا يفعل. عندما أطرق الباب ثلاث طرقات متتالية أعيدها ثلاث مرّات، وأذكر إسمي دون أن أسمع خطاه على الأرضيّة الخشبيّة للممرّ الضيق الذي يفصل بين المطبخ يمينًا والحمّام شمالاً وينتهي عند باب الغرفة الوحيدة، أعرف أنّه يرغب في البقاء وحيدًا فأنصرف.

أحيانًا ألحّ عليه بشدّة كي يسحب الستارة السوداء عن النافذة الوحيدة المغلقة على تلك الغرفة العائمة في فوضى الأوراق والصّور وفرشاة الرسم والجوارب وعلب الصباغ والمصبّرات وقناني البيرّة وعلب سجائر الجيتان المتناثرة في كلّ الأرجاء.

كأنّه يجزع من ضوء الشمس، فلا يعيش ولا يرسم إلاّ تحت أضواء اللمبات الكهربائيّة الشبيهة ببروجكتورات مثبّتة في الزوايا الأربع للغرفة. أحيانًا يستجيب لطلبي دون عناء، خاصّة عندما يكون قد فرغ للتوّ من وضع اللمسات الأخيرة للوحة من لوحاته. وأحيانًا يمزّق الورقة بحركة

Twitter: @ketab_n

متوتّرة ويرمي بها بين ركام الأشياء المتناثرة وينهض. «ها هو دين أمّ الضو!» يقول بحدّة وهو يسحب الستارة عن النافذة بعصبيّة.

«هل اطمأنّ قلبك الآن؟ أنظر ماذا تغيّر في السماء التي تريد أن تراها؟ سحب، غيوم، خراء في خراء..!»

في ما عدا فرنسواز وعقبة لم أعرف أي صديق لعليّ، لا في سان دني حيث يسكن منذ ما لا يقلّ عن خمسة عشرة سنة ولا في أيّ مكان آخر. لم يرد ذكر أيّ صديق له في الأحاديث المتقطّعة عن ماضي حياته؛ سواء في الطفولة أو في سنوات الشباب. تلك الحياة الماضية غالبًا ما كانت تتراءى لي شبيهة بصحراء قفر؛ لا أصدقاء طفولة، لا روابط، لا حنين. لا شيء غير سرداب مظلم تتحرّك داخله أشباح قاتمة من الكائنات الغامضة القاسية التي لا توحي سوى بالعدوانيّة. لا يذكر أشخاصًا من أيّام صباه إلاّ كبقر، دواب، أوغاد ودون ذكر أسماء. هنالك فقط ذلك الطفل النكرة الذي يذكره من حين لآخر دون إسم أيضاً وهو الذي كان ينزوي معه في مكان ما ليتعلّم معه اللغة الفرنسيّة من كتبه المدرسيّة مقابل بعض ملّيمات أو سيجارة. ذات يوم عنّ لي أن أسأله عن إسم ذلك الطفل. فاجأه سؤالي، أو لعلّه رأى فيه شيئًا من الفضول الغريب الغبيّ والفائض عن اللزوم، حدجني بنظرة غريبة واكتفى بالإجابة بشيء من الامتعاض ملوّحًا بيده في الفضاء: اش عرّفني بدين أمّه! فرخ من فروخ الحومة. كيف تريدني أن أتذكّر اسمه بعد أكثر من عشرين سنة؟

اكتفيت بتلك الإجابة مؤقّتا لكنّ شيئًا من الشكّ ظلّ يحوم في رأسي ويوحي لي بأفكار غير بريئة بالمرّة. يا للشيطان، تُرى لِم يمعن في تجاهل هويّة ذلك الطفل؟ - «فرخ من فروخ الحومة»! صحيح، يمكن

Twitter: @ketab_n

أن يكون فروخ الحومة كثيرين كثرة تحدث الخلط والغموض، خاصّة في تلك الفترة التي كانت النساء تلد فيها مثل الأرانب، مما يجعل أمور الأسماء تختلط في بعض الأحيان حتّى على الآباء أنفسهم. وصحيح أيضًا أنّه ليس من الضروري أن ينتبه الواحد إلى كلّ أولئك الفروخ خاصة إذا لم تكن تربطه بهم أيّة علاقة محدّدة. لكن هذا الفرخ قد لعب دورًا مهمًّا إلى حد ما في حياته؛ إنّه أوّل من علّمه تهجّي حروف لغة غريبة عنه، وهما بالتأكيد قد جلسا لساعات طويلة منكبّين معًا على نفس الكتاب أو الدفتر. ولعلّه قد أمسك بيد علي المتردّدة غير المدرّبة على المسك بقلم ليساعده على تسطير الحروف بعناية وبشيء من الإتقان. وهو الذي فتح دماغه على عالم الحروف وعبّد له الطريق التي ستقوده في ما بعد إلى مكتب التشغيل والهجرة من أجل الفرار بجلده من تلك «الحفرة النتنة» كما يحلو له غالبًا تسمية البلاد. أيعقل أن يكون إذن مجرّد فرخ من فروخ الحومة لا غير؟ أحاول أن أدفع عنّي الشكوك التي كانت تخزني مثل الإبر وأنا أراقب تصرّفاته عن قرب. أراه كثير التحرّش بالنساء ويبدي اشمئزازا من المخنثين والمثليّين على حافة العدوانية أحيانا. وعندما ألومه على تلك العدوانيّة محاولا أن أقنعه بأنّ الناس أحرار بالنهاية في التصرّف في أجسادهم وشهواتهم على الوجه الذي يريدونه، يجيبني مستنكرًا: ربّك خلق المرأة الذكر للأنثى والأنثى للذكر، بشرا، كلابا أو حميرا، أتريد أن تتفلسف عليّ في هذا الأمر الطبيعيّ أيضًا وتقلب الدنيا في رأسي؟ تتبدّد الشكوك المقلقة. لكن السؤال المحيّر يظلّ دومًا: ما هو سرّ هذا التكتّم على هويّة ذلك الطفل؟ هل هو جزء من عمليّة النسيان التي يسعى لسحبها على حياته الماضية بكلّيتها؟

علي لا يفعل شيئًا من أجل ربط علاقات صداقة مع الناس، بل

Twitter: @ketab_n

يفعل كلّ ما بوسعه لسدّ الطريق أمام كلّ من يحاول الاقتراب منه. كلّ محاولة اقتراب إزعاج تستنفر له كلّ حواسه، ويتحوّل بموجب ذلك الاستنفار إلى قنفد ينطوي على نفسه ويخرج إبره. لا أحد يرغب في ملامسة الإبر المتوفّزة. لكنّه في علاقته بي وبعقبة مفعم بالمودّة والوفاء والمحبّة التي لا تعبّر عن نفسها بالكلام أو بدفق العبارات العاطفية اللزجة، بل بذلك الحرص الدائم على رؤيتنا، وإذا ما غبنا عنه مدّة من الزمن كان هو الذي يبحث عنّا ويجدنا، وهو الذي يدعونا، بل ويجرّنا جرًّا إلى سان دني.

قال لي عقبة: أوّل مرّة التقيت فيها بعلي كانت في خليّة حزب الجبهة الحمراء. تصافحنا ببرودة. لم تكن لكلينا أيّة رغبة في مزيد اقتراب - لعقبة إبره هو أيضًا. بعد انتهاء اجتماع الخليّة وجدنا نفسنا نسلك طريق العودة معًا. تبادلنا بعض الجمل المقتضبة عن أشياء عموميّة لم أعد أذكرها بالتحديد. أظنّ أننا تكلّمنا عن الطقس، البرد والسماء الغائمة على الدوام؛ كنّا في أواخر الخريف. لا أظنّ أنّنا تحادثنا عن أشياء شخصيّة. لا عن العمل ولا عن الموطن الأصلي، ولا السنّ ولا الوضع العائلي. لاشيء مما من شأنه أن يجعلنا نتعارف. لاحظت أنه كان يتعمد مخاطبتي بالفرنسية بينما كنت أستدرجه إلى لساننا المشترك. في لقائنا الثاني سلّمنا على بعضنا بأقلّ برودة. بعد انتهاء اجتماع الخليّة، وبالقرب من محطّة الباصات حيث تفترق طرقنا؛ هو باتجاه سان دني، وأنا إلى أوبرفيليي، دخلنا حانة في ساحة المحطّة وشربنا بيرّتين، ثمّ افترقنا. لا أدري في أيّة مواضيع تحدثنا. لكن شيئًا من برودة اللقاء كان قد تبدّد حتّى أننا تصافحنا بشيء من الحرارة عند الافتراق: «بالسلامة خويا»، كانت تلك أول كلمة نطق بها بلغتنا. رويدًا رويدًا بدأت لقاءاتنا تتكثّف خارج إطار الخليّة. هكذا وبطريقة بسيطة تتطوّرت علاقتنا حتّى

Twitter: @ketab_n

غدت صداقة متينة، دون شعور منّا، أو أيّة نيّة واعية. هكذا بكلّ بساطة. لا أدري كيف أفسّر لك ذلك.

طبعًا ليس هناك من داع لأيّ تفسير أو توضيح. علاقتي بعليّ تطوّرت هي الأخرى بشكل مماثل. بطريقة عفويّة سلسة وطبيعيّة، في غفلة منّا أكاد أقول. يبدو أنه لا يحبّ أن يباغَت، ولا يطيق أن يفرض عليه أحد نفسه بطريقة إراديّة ومباشرة. حذر جدًّا. متحفّظ، بل في حالة استنفار دائمة. يحذر كلّ الحذر الهجومات المباغتة. يحتاج إلى شيء من الوقت ومن الألفة والمؤالفة، تمامًا مثل حيوان مستوحش، لا بدّ من مؤاهلته أوّلا، ومن الأفضل بطريقة عفويّة لا إراديّة. بعدها يغدو هشًّا طريًّا وينفتح على محبّة تكاد تكون عنيفة. بل هي عنيفة في بعض الأحيان. عندما حكيت له عن لقائي بالعرفاوي استنفر كما لو أنّ العرفاوي هو الذي هجم عليه في تلك اللحظة وارتمى عليه بالأحضان. إنّه لا يفهم، ولا يقبل باللقاءات السريعة.

ـ لكن العرفاوي صديق طفولة قديم، وقد عشنا معا تجارب قاسية وأليمة.

ـ معارف قديمة! ماذا تعني المعارف القديمة؟ القديم قديم، ميّت. مالكم تريدون جميعًا إحياء الأموات؟

ـ العرفاوي ليس ميّتًا يا علي. إنّه حيّ يرزق وله، كما لي ولك، ذاكرة وحنين.

ـ ذاكرة؟ حنين؟ هل كان هذا العرفاوي الذي تحكي عنه مجمّدًا طوال الوقت الذي لم تره فيه؟ هل تدري أيّة طرق سلك منذ أن افترقتما؟ في أيّة عفونات تمرّغ، وأيّة تجارب عاش؟ هل تعرف إلى أيّ شيء تحوّل في حياته الجديدة؟ هل تعتقد أنّه مرّ من الجوع والعراء

Twitter: @ketab_n

والذلّ إلى البذلات الفاخرة وكرافات الحرير والبشرة الليّنة والوجنتين المتورّدتين هكذا دون حدوث شيء في نفسيّته وضميره وشخصيّته؟ أعرف الكثيرين من أمثال هذا العرفاوي الذي ولدته أمّه من جديد. أغلبهم يتحوّلون إلى أوغاد وكلاب دم. صديق طفولتك هذا الذي يسكن بالقرب منا هنا في سان دني مثلا، ألم تجده شخصا آخر مختلفا تماما عن ذلك الذي عرفته من قبل؟ أنا أقول لك ابتعد عن مثل هذا الرهط من الناس، وأنت دليلك ملك بالنهاية.

لم أرد أن أستمع أكثر إلى المحاضرة المطوّلة التي راح يلقيها عليّ حول سلوكات البشر وتبدّلات الطباع. أردت تغيير موضوع الحديث بسرعة. وعندما شعر بذلك توتّر وصمت. وافترقنا يومها بشعور غامض بأنّ خصومة داخليّة صامتة قد حدثت بيننا. خصومة أشدّ وطأة من شجاراتنا العاديّة الصاخبة.

- علي مغيار، قال لي عقبة من بعد.

- لكنّني لست حبيبته أو زوجته. ولا أنا ملك له.

- هو هكذا. ليس له أصدقاء كما تعرف، لكنّه عندما يحبّ شخصا - وهو نادرا ما يحدث - يميل إلى امتلاكه، ولا يريد أن يشاطره أحد صداقة ذلك الشخص. لذلك هو مرهِق في بعض الأحيان. وبالنهاية هل له في هذه الدنيا كلها غيري وغيرك، وفرنسواز؟ تلك المسكينة تقاسي منه ما لا يحتمل؛ يخاصمها ويهينها ويشبعها شتائم كلّما رآها مع واحد آخر. لا يكف عن السعي لإبعادها عن الأفارقة الذين تعتني بهم ضمن عملها الاجتماعي. يصرّ على الاعتقاد بأنها تنام معهم جميعًا وينعتها بالقحبة الرخيصة لا لشيء إلاّ لأنّها تساعدهم.

من حسن الحظّ أنني لم أحك له كلّ شيء عن علاقتي الجديدة

Twitter: @ketab_n

بالعرفاوي. لم أقل له مثلا أنّني أصبحت أنام في بيته بانتظام، وأنّه يعيش على سرقة المجوهرات وبيعها عن طريق أصدقاء له يشتغلون قوّادين على مومسات الشانزيليزي وساحة كليشي وشارع موغادور. ولم أقل له أنّه هو الذي اشترى لي الملابس الجديدة التي أتيت أتبختر فيها إلى سان دني ذلك اليوم مما جعل مدام روز التي لم ترني قبلها سوى في دجينز قديم وجاكيتتي العسكريّة الأبديّة تصفّر عند دخولي البار:

O! O! Mais monsieur est chic aujourd'hui!(١)

بالتأكيد أنّه لاحظ هو أيضًا تغيّر هندامي، ولعلّه تساءل عن مصدر ذلك التغيّر، لكنّه لم يقل شيئًا. وبالذات لأنّه لم يقل شيئًا، ولأنّه لم يعلّق، هو الذي يعشق التعليق والممازحة على طريقة مدام روز، فإنّه قد خمّن أشياء لم ترق له فاكتفى بالصمت. ذلك الصمت المخادع الذي كان يفصح بأكثر ممّا يمكن أن تقول الكلمات.

---

(١) سيدنا أنيق اليوم!

Twitter: @ketab_n

شانزيليزي ـ ماربوف

كلمات علي ظلت تطنّ في رأسي بعد أن غادرت بيته بشيء من الانزعاج. تردّدت كثيرًا وأنا أعبر شارع الشانزيليزي؛ أأذهب الآن إلى بيت العرفاوي، أم أعود إلى الميترو وأذهب إلى بيت آن ماري التي لم أرها منذ أكثر من أسبوع. فوجئت بأنّني قد نسيت آن ماري كليًّا منذ أن التقيت بالعرفاوي الذي أقحمني في أجواء أخرى بعيدة كل البعد عن أجواء الجامعة والطلاّب والمناضلين السياسيّين والنقاشات الأديولوجيّة والنظريّات والكتب والمجلات. وجوه أخرى تحوم حول العرفاوي. حانات تضجّ بالعاهرات المحترفات وفتيات يافعات على حافة الاحتراف. مراقص منقّعة في كوكتيل من الأضواء، موسيقى صاخبة، عطور، ويسكي، كوكتيلات، سجائر مارلبورو، ـ وقد لاحظ العرفاوي كيف كنت أسحب بشيء من الحرج سجائري الغولواز من العلبة الزرقاء الصغيرة المدعوكة فاقتنى علبة مارلبورو ووضعها أمامي ـ، وجبات فاخرة في مطعم ثمار البحر بشارع ماربوف. تغيير كامل للديكور والشخصيّات؛ من شارع مونتروي الشعبي الكئيب، ومن الحيّ اللاتيني برؤوس الطلبة ذات الشعور الطويلة واللحيّ المرسلة وفتيات الهيبّي اللاتي تفوح أجسادهنّ وملابسهنّ بروائح الندّ والعنبر الهندي، ومن الحيّ الجامعي ببولفار جوردان وعكاظيات الحركات الثوريّة العالميّة إلى

Twitter: @ketab_n

الشانزيليزي بأضوائه الساطعة ومحلاّته الفاخرة؛ رجال البذلات الأنيقة: كاشمير، برانس دي غال، معاطف الفرو والديكولّتي والروب دي سواري والحرير والساتان؛ بيار كاردان، إيف سان لوران. ألوان أخرى. أضواء أخرى غمرت رأسي المعتّم بكدر البؤس الماذي والإفلاس وهواجس البحث عن مأوى وتذكرة للغداء أو العشاء بالمطعم الجامعي. أجواء أخرى بعيدة كل البعد عن الجدالات الإديولوجية المفرطة في الجدية والجفاف. كيف لا أدوخ؟ وكيف لا أنسى آن ماري وصخب الحركات الثوريّة وهرج الاديولوجيات الغائمة بقتامة بؤس العمال والفلاحين في جميع أصقاع الأرض؟ حركة التحرّر البديلة هي هذه التي قذف بي فيها العرفاوي بين الفتيات الهازجات والمعربدات رقصًا وضحكا، والمومسات الأنيقات اللاتي يفحن بعطور أخرى غير تلك الرخيصة العطنة التي تعبق بها أجواء بارات سان دني. الزعماء الجدد الذين التقيت بهم هنا هم العرفاوي الذي تناديه الفتيات والمومسات بشيء من الدلع: «فاوي»، ورشيد بوراس ومحسن المغيربي. هم الذين يمسكون بمفاتيح هذه الجنّة التي ظلّت مختبئة عن عينيّ حتّى تلك اللحظة. ثلاثتهم من زملاء الثانويّة قديما، افترقت بنا السبل، وها نحن نلتقي من جديد خارج بؤس المعهد ومبيت التضامن الاجتماعي؛ في قلب باريس النابض بالحياة والدعارة والبهجة.

هؤلاء حقّقوا ثورتهم على البؤس وشقاء الطفولة والشباب. غدوا رجالا. تجاوزوا الحدود والعقبات التي كانت الحياة تضعها أمامهم. اقتحموا المناطق القصيّة التي كنّا نظنّها حكرًا على المحظوظين والمتفوّقين؛ اغتصبوا العاهرة المتغنّجة التي كانت تتمنّع وتمعن في تعذيبنا قهرًا وحرمانًا. رجال، على قسمات وجوههم تتجاور ملامح

Twitter: @ketab_n

المرح والبهجة مع تعابير القسوة والشدّة وشيء من الصلافة التي ترتسم على وجوه المغامرين العائدين مظفّرين من محيطات الأهوال. رأيتني إلى جانبهم أعود طفل الثانويّة المنكمش على خجل الصبيّ الريفيّ وارتباك التلميذ أمام معلّميه، الطفل الذي تضطرب خطواته وراء أبيه في زحمة السوق الأسبوعية وهو يصيح فيه صيحته المؤنبة الدائمة: *انتبه ولا تشرد مثل العجل يا ولد!*

لكنّ العرفاوي لا يخفي افتخاره بصديق طفولته الذي استطاع أن ينجح ويدخل جامعة السربون جنبا لجنب مع أبناء الفرنسيّين، يزاحمهم في العلم في عقر دارهم. العرفاوي يحلم بالانتقام من أساتذتنا الفرنسيين القدامى مثل لاجيه وفينولاّر، ويفخر بي، بصفة محرجة أحيانًا، أمام أصدقائه من أصحاب البارات والقوّادين والنشّالين وأصحاب المطاعم والجرسونات من العرب والفرنسيّين، وأمام صديقاته من المومسات المحترفات ونصف العاهرات: صديقي وزميل دراسة، طالب بالسربون، ودكتور عما قريب!كان يحبّ أن يردّد وهو يفخّم حروف كلمتيْ السربون ودكتور فتنتفخ بها أوداجه وتلتمع عيناه ببريق الانتصار. يسحق بقدميه كبرياء وعنصريّة لاجيه وفينولاّر، وأنتفخ أنا أيضًا، يسري شيء من الدفء في ثنايا روحي، يتمطّط في داخلي شيء من الاعتداد بالنفس وأتوسّع في الفضاء بجسد لم يعد منكمشا، والعرفاوي يحضّني: مد يدك مع الناس يا ولد بلادي. إن لم تتقدم وتمد يدك لن تنال شيئاً على هذا الخوان كما على غيره.

حشّام؟ الحشمة ما توكّلش الخبز يا ولد بلادي. شمر على ذراعيك وانزل إلى المعمعة.

Twitter: @ketab_n

تُحلّ عقدة لسان الوليّد العاقل الخجول، تمتدّ يدي مترددة في البداية، ثم أكثر فأكثر جرأة إلى أكتاف الفتيات وزنودهنّ ومواقع أخرى كانت تتراءى لي قبل لحظات مناطق محرّمة ومسيّجة بأسيجة غير مرئيّة غامضة محبِطة مثل أيد خفيّة تحكم قبضتها عليّ في موقع قصيّ من الروح، أو من اللاشعور، وتكبّل كلّ محاولات اندفاعي باتجاه الخارج. العرفاوي، يا مخلّصي! أكاد أهتف بصوت مسموع. وأكاد أسمعه هو أيضًا يهتف بالهتاف نفسه، منتشيًا بوعد الانتصار النهائيّ على بؤس الطفولة ومبيت التضامن الاجتماعي والملابس المخاطة من أكياس الطحين الأميركي: *«هديّة من شعب الولايات المتحدة الأميركيّة. ليس للبيع أو المبادلة»*.

أفكّر أمام حماسه المتوقد: ها أنّ مهمّة أخرى تلقى على عاتقي الآن؛ أن أحرّر نفسي والعرفاوي من ربقة الماضي البائس والطفولة الشقيّة، أن لا أخيّب أمله ورجاءه. وفي الأثناء لم يخيّب هو ظنّي بكرمه الذي فاض على بؤسي الماديّ؛ إنّه يستثمر كي أحقّق له النصر الذي ما زال يراه غير متحقّق له؛ الانتقام من الماضي وبؤسه وجراحه. عفونات الطفولة البائسة مازالت تطلع له من تحت البذلة الأنيقة وقميص الحرير وساعة الرولكس وخواتم الذهب، عنيدة، متعنّتة ومصرّة وراء صخب الديسكوتيك وعطور جيفنشي وغي لاروش وديور. الطفولة التي لا تعوّض، لا شيء يضمّد جراحها؛ لا عزاء لها. لا تُنسى ولا تنسى، لا تغفر. الطفولة لاتَرحم.

الأمر لا يختلف كثيرًا لدى رشيد بوراس الذي يكاد يغيب تحت كدس من قلائد الذهب التي تتدلّى من عنقه والخواتم الغليظة التي

Twitter: @ketab_n

ترضّع أصابعه السمينة القميئة وروائح العطر التي يرسلها في الفضاء من حوله على بعد نصف كلمتر. عفونة الماضي لا تنقشع بسهولة، خاصة إذا ما تراكمت عليها عفونات أخرى جديدة متجدّدة. رشيد أيضًا من قدماء معهد باجة. لكنّه لم يكن صديقًا لي، ولا أظنّه سيصبح من أصدقائي في يوم ما. لا أحبّه، ولم أنس شراسته وعدوانيّته القديمة التي كنت ضحيّتها ذات يوم عندما خبطني بضربة رأس شنيعة ونحن نتزاحم في الطابور الطويل أمام مطعم المبيت الداخلي. لعلّني نسيت تلك الضربة لبضع سنوات، أو غمرتها أشياء أخرى، لكن لمجرّد أن التقيت به في بيت العرفاوي ولمحت رأسه التي ازدادت ضخامة وأوداجه المنتفخة وعينيه الواسعتين المتورميتين وشفتيه الغليظتين، التمعت أمام عينيّ تلك الضربة التي كاد يفلق بها رأسي ذات سنة بعيدة. تجمّد شيء في داخلي وتيبّست مفاصلي الباطنية، لكن يبدو أنّه لم يعد يذكر تلك الحادثة البعيدة، بل لم يعد حتّى يتذكّرني على ما يبدو. لم يكن هناك من رابط بيننا في الماضي ممّا يمكن أن يجعله يتذكّرني. أما أنا، فقد كانت هناك تلك الضربة القاسية برأسه الضخمة هي التي جعلت صورته لا تمّحي من ذاكرتي أبدًا.

لم يبد رشيد أيّ احتفاء، أو شيئاً من مودّة أو تعاطف تجاهي. ولا حتّى شيئاً من المجاملة. مدّ لي يدا مرتخية باردة رطبة وهو لا يكاد ينظر إليّ. لاحظت ذلك في ما بعد أيضًا، أنّه يتعمّد عدم النظر إليّ. يتجاهلني عن قصد، ويصرّ على إبداء ذلك بوضوح؛ وضوح فجّ، قليل اللياقة. لكنّني فاجأته العديد من المرّات وهو يرمقني خلسة بمزيج من الفضول والامتعاض، وأحيانًا بافتعال شيء من الاشمئزاز. لا ينظر إليّ إلاّ عندما

Twitter: @ketab_n

أكون غافلا عنه متجهًا بنظري إلى شخص آخر، أومنشغلا بالنظر إلى شيء ما.

*

لم يكن بيت العرفاوي كبيرًا ولا فاخرًا مثلما يمكن أن توحي به هيأته وهندامه ومجمل سلوكه وتبذيره للأموال. شقة صغيرة في الطابق السابع من عمارة فاخرة في شارع ماربوف المحاذي لشارع الشانزيليزي، بغرفتين صغيرتين لا تكاد تتسع الواحدة لأكثر من سرير وكرسيّ وطاولة، وزاوية ضيّقة يتزاحم فيها المطبخ مع حوض الاغتسال والدشّ. الصعود إلى تلك الشقّة لا يتمّ عبر المدرج الرئيسيّ المفروش بموكيت حمراء نظيفة يستحي المرء من أن يدوس عليها بالحذاء، بل من مدرج خلفيّ ضيّق متوار خلف باب صغير. لم تعد غريبة عنّي هذه المدارج الخلفيّة التي تدعى بمدارج الخدْمة، كلّ الطلبة تقريبًا يسكنون مثل هذه الغرف الصغيرة المعلّقة في الطوابق الفوقيّة؛ غرف السطوح وتدعى غرف الخادمات: بيت آن ماري، بيت حميد، بيت محرز، بيت علي كلها من تلك الغرف التي كانت في ما مضى مخصّصة لخادمات العائلات الموسرة بباريس. مسألة عاديّة إذن بالنسبة لكلّ الطلبة وغيرهم من الشباب ذوي الدخل والموارد المحدودة. لكنّني هنا، ومع العرفاوي لا أدري لماذا شعرت بنوع من خيبة الأمل، بل بوخز شيء من الألم وأنا أقف على الحقيقة، أو ذلك الواقع العنيد الذي سحبني فجأة من غيبوبة المتعة التي كنت أشعر بها منذ ظهر ذلك اليوم أمام البذلة الفاخرة وربطة العنق الأنيقة والحذاء الملمّع ووجه العرفاوي المشرق بالبهجة وآثار النعمة، ثم مطعم ثمار البحر وبارات الشوارع المحاذية

Twitter: @ketab_n

للشانزيليزي الحافلة بالهرج المرِح للفتيات الأنيقات يزقزقن مثل عصافير الجنّة بعبارة «فاوي» التي تهزج بها أصواتهنّ المتغنّجة كما لو كنّا يهمسن متدلّعات: Chéri!. كأنّ العرفاوي قد خلع عنه الآن البذلة الأنيقة والحذاء الملمّع أو خرج من تلك القشرة المستعارة وهو يدفع الباب الصغير لمدرج الخدم ويلتفت إليّ مبتسما ـ لكن بابتسامته القديمة، تلك التي أعرفها في سنوات مبيت الثانوية بباجة: عوّل على ركبتيك يا ولد بلادي، المصعد الكهربائي معطّب اليوم. لا مصعد كهربائي هناك ولا هم يحزنون. قشرة النعمة على جسد الشقاء! فكّرت بصمت، وبكثير من الأسى.

Twitter: @ketab_n

جوزيفين

غالبًا ما يأتي رشيد للنوم في بيت العرفاوي. يعود في ساعة متأخّرة جدًّا من الليل؛ قبيل الفجر في معظم الأحيان. أحيانًا يكون مصحوبًا بواحدة من فتيات البارات. عندها يكون على النوم والراحة السلام.

تبدأ ضجّته بخبط رجليه الغليظتين على خشب الممرّ، ثمّ ركل الأبواب وتحرّكاته الثقيلة جيئة وذهابًا بين المطبخ والغرفة التي ينام فيها العرفاوي عادة، ينتزعه من نومه ليأتي إلى الغرفة الثانية ملفوفا في لحاف نومه، مغمض العينين ويرتمي على الكنبة. بعدها تتناهى إلينا نوبة فحيحه ونهيجه إن كان مرفوقا بإحدى الفتيات، أو شخيره إن كان وحده. قد يدوم شغله مع الفتاة التي تصطحبه ساعة أو أكثر يتواتر فيها الخبط والنهيج وأزيز السرير وضرطة طويلة مسترسلة بين الحين والآخر. وقد تنتهي بدمدمة فشتائم وسباب وتوعّدات وصفع وركل وصراخ وبكاء. قلّما جاءت واحدة معه إلى البيت وخرجت من هناك دون أن تنال نصيبها من الحظ المشؤوم لأغلب الفتيات المحترفات. كثيرًا ما لمحت على وجوههنّ بعد يوم أو يومين كدمات وآثارًا زرقاً سواء من تلك التي يحدثها على رقابهنّ مصًّا وعضًّا، أو تلك التي تتركها قبضته الغليظة على خدودهنّ وحول عيونهنّ.

- يروّضهنّ، قال لي العرفاوي في ما بعد.

Twitter: @ketab_n

- يروّضهنّ؟

طبعًا، يروّضهنّ أو يؤدبهن، لأنّهنّ إمّا من اللاتي يشتغلن لحسابه وتحت حمايته ورقابته، أو مبتدئات يغريهنّ بلسان حلو وعشاء في مطعم فاخر، ثمّ سهرة مطوّلة لا يبخل فيها عليهنّ بشتّى المشروبات قبل أن ينتهين إلى الفراش حيث تتمّ المرحلة ما قبل الأخيرة للترويض. بعدها إمّا أن تقبل الواحدة بمقترحه طواعية، أو تنال حظّها من قبضة يده الغليظة حتّى تهشّ وتلين وتكسر شوكة تمنّعها وتقبل بالذهاب مع أوّل حريف، ثمّ تعود بالمبلغ الذي يحدّده لها. وتكون بذلك قد وضعت قدميها على طريق المهنة دون رجعة.

لاحظت أنّ فتياته لا يبدين أيّ ميل تجاهي، يتجاهلنني، بالضبط كما يفعل هو.

هل يكرهنني، أم يحتقرنني؟ لعلّه هو الذي قال لهنّ إنّني طالب، وهذا وحده كاف كي يجعلهنّ يفكّرن أنّني خلقة أخرى، من طينة مختلفة ليّنة، هشّة، ولد مازال منغرسًا في عالم الكتب والدفاتر المدرسية؛ أي في كلمة واحدة: موش راجل. أتذكّر كيف دخلت ذات مرّة خطأً إلى ماخور صغير بالقرب من شارع ريومير وكنت أظنّه مقهى أو مطعمًا، أو شيئًا من هذا القبيل. كنت في تلك الأيام الأولى من مجيئي إلى باريس أدخل كلّ المحلاّت بحثا عن عمل. اعترضتني في المدخل واحدة بصدر ضخم وأفخاذ طويلة مرحّبة: بونجور شيري.

bonjour madame; je suis étudiant et je cherche un petit boulot.

كنت أردّد هذه الجملة في كلّ مكان بطريقة آليّة: بونجور مسيو، بنجور مدام، أنا طالب أبحث عن عمل صغير. كلمة «صغير» انتقلت إليّ

Twitter: @ketab_n

بطريق العدوى من رفيق دربي محرز الذي غدت لديه نعتا ملاصقا لكلّ الأشياء التي كان يتمناها آنذاك.

قهقهت المرأة التي استقبلتني في الباب ملء حنجرتها وهي تنادي رفيقاتها:

Eh les filles, venez voir le petit étudiant; il cherche un petit boulot! mais qu'il est mignon! Vous n'avez pas un petit boulot pour lui?

- qu'il aille se faire foutre! (ليذهب إلى الجحيم!)، أجابتها واحدة منهنّ من الداخل، عندنا فقط شغلات كبيرة لرجال!

صديقات رشيد، هنّ أيضًا ليس لديهنّ غير شغلات كبيرة لرجال. الطالب في مثل هذه الأوساط ـ كما في أوساط العمّال ـ صبيّ، أو رجل غير مكتمل، أو مخنّث ليّن العريكة، مائع، هزيل: موش راجل، وانتهى.

كنت جالسا وحدي في مقهى الدّرَاكْستور بشارع الشانزيليزي عندما دخلت إحدى صديقات رشيد بوراس. لم تتجاهلني في هذه المرّة، بل جاءت رأسًا إلى طاولتي واستأذنت ثمّ جلست. سألتني إن كنت رأيت رشيد خلال هذا اليوم وإن كانت لديّ رغبة في مرافقتها إلى مقهى آخر غير بعيد. لم يكن لديّ أي سبب لعدم الاستجابة لمقترحها، وقد اشتممت شيئًا غير عاديّ في سلوكها، وعدًا ما بدا لي مشوّقًا ومغريًا. في لهجة سؤالها شيء من اللطافة، ومن الثقة وتعاطف سرعان ما توطّد وتحوّل إلى نوع من تواطؤ لذيذ منعش عندما قالت لي إنّ رشيد لا يأتي أبدًا إلى المقهى الذي تريد أن ننتقل إليه.

أتذكر أنني رأيت تلك الفتاة مرتين، أو ربما ثلاث مرات في إحدى الحانات التي قادني إليها العرفاوي. كانت تبدو كئيبة شيئاً ما، أو أقل

Twitter: @ketab_n

مرحا من بقيّة المومسات. صامتة طوال الوقت تقريبا. يجلس إليها واحدٌ، يحادثها أو يغازلها، وكنت أرى شفتيها تتحركان بين الحين والآخر كما لو كانت تسترق بعض الكلمات استراقا، دون حماس، أو دون رغبة في الحديث. مثل كل صديقات رشيد، لم تكن هي أيضاً تبدي أيّ اهتمام بوجودي، لم تلتق أعيننا ولا مرة واحدة. لكن شيئاً ما في هيأتها الصامتة الواجمة، وشعرها الأسود الطويل الذي يؤطر على نحو رائع وسعيد بريق عينيها الخضراوين، جعلني لا أمتنع عن النظر إليها بنوع من المودة، أو شهوانية، أو ألفة ما.

فوجئت بإقبالها عليّ بتلك التلقائية كما لو كنا نعرف بعضنا، ثم ذلك التواطؤ الفجئي اللذيذ الذي لم أكن لأنتظره من واحدة من صديقات رشيد. اضطربت، والتوى لساني وارتبكت الكلمات في حنجرتي، وشعرت بموجة من الحرارة تتسرب إلى كل خلايا جسمي. تمتمت متعثرا في الخجل وأنا أشير إليها بالجلوس، بينما رعدة دافئة تتحرك في جوفي وتلوي أمعائي. ولم أستطع أن أنهي كأس البيرة التي كانت أمامي فتركتها نصف ملآنة.

ونحن نغادر مقهى الدريكستور باتجاه المقهى الثاني استطعت أن ألملم شيئاً من شتات انفعالاتي المتناطحة. نشوة ما ضاعفت من مفعول البيرة في رأسي؛ نشوة انتصار، أو شيء من هذا القبيل. ها أنا أحظى باهتمام فتاة من رفيقات رشيد؛ مومس تعرف بالتأكيد عددا لا يحصى من الرجال والجميع رهن إشارتها، فتاة يافعة ربما لا تتجاوز العشرين من عمرها، وجميلة علاوة على ذلك. وجه بيضوي يوقعه حاجبان مسطران بعناية، شعر أسود كثيف يغطي كتفيها مثل ستارة من حرير وعينان خضراوان مشعتان، فم دقيق بشفتين طريتين بهيأة حبة الفراولة

Twitter: @ketab_n

الناضجة، جبين أبيض صاف صفاء البلّور. كيف لا ترتعش ركبتاي ولا يلتوي لساني تحت ثقل الكلمات التي يقيّدها الارتباك؟

بعد أن شربنا بيرّتين سألتني: أنت لست صديقًا لرشيد، أليس كذلك؟

ـ لا. لسنا صديقيْن، هذا صحيح، لكن...

ثمّ كذبت وأنا أجيب بالنفي عندما سألتني إن كنّا نعرف بعضنا منذ مدّة طويلة. لكنّها أدركت بالتأكيد أنّني أكذب. رأيت ذلك في عينيها، وفي الطريقة اللبقة التي تحاشت بها مواصلة الحديث في هذا الموضوع. لعلّه حكى لها، أو لصديقاته الأخريات بحضورها عن معهد باجة، ولا أدري ماذا من الأشياء، لكن هذا لايهمّني. ما كان يهمّني في تلك اللحظة هو السبب الذي جعل هذه الفتاة تقبل عليّ فجأة بهذه المودّة وترغب في الجلوس إليّ على انفراد، ومن وراء ظهر رشيد بوراس الذي يمكن أن يسلخ جلدتها، وجلدتي أيضًا!

وضعت جوزيفين فجأة رأسها بين كفّيها وانخرطت في البكاء والشهيق!

ـ هل تستطيع أن تساعدني؟ أعرف أنك لست من ذلك العالم العفن، وأنا كذلك. ساعدني أرجوك. انقذني من رشيد.

أنقذها من رشيد؟ أنا؟ وكيف يمكنني أن أساعدها؟

تذكرت ملامح رشيد بوراس؛ عيناه المشحّمتان المتورّمتان على الدوام، أنفه العريض وأوداجه المنتفخة وشفتاه الغليظتان. رأسه الضخمة. ضربة الرأس. تذكرت حركات فكّيه وتلاطم شفتيه وهو يلتهم الطعام؛ يجرش، يدهس، يطحن كما لو كان يخوض معركة ضارية ضد الأشياء التي يلتهمها بكثير من اللهفة والعنف، كما لو كان ينطح برأسه

Twitter: @ketab_n

أو يركل بقدميه. تخيّلته يلتهم بذلك الفم الجروش الداهس المدمّر حبّة الفراولة الطرية، وأحسست بوجع يصعد من بطني حتى أعلى الصدر مثل مسمار محمّى.

ـ أرجوك! أرجوك! وإلاّ فإنّني سأنتحر، أو أقتله.. أو لا أدري ماذا سأفعل. إنّه يرغمني. هذه ليست مهنتي. جئت من مدينة نانت هاربة من بيت أمّي وعشيقها العنيف الذي يغتصبني ويملأ البيت رعبا من حولنا... قصّة طويلة لا أريد أن أرهقك بها. غرّر بي رشيد، قال إنّه يريد أن يساعدني، ثمّ قذف بي في البارات وسط المومسات وغدا يتداول عليّ هو وأصدقاؤه في الفراش. يضربني إذا رفضت. المومسات اللاتي يعملن لحسابه لسن أقلّ قسوة منه. هنّ أيضًا لا يبخلن عليّ بالاستهزاء والشتائم. وهن أحيانًا أكثر قسوة منه. لا يفهمن ما الذي يجعل واحدة لا تقبل بالعمل الذي غدا حرفتهنّ. يعتبرن ذلك ترفعا، أو احتقارًا لهنّ؛ كما لو أن ذلك شتيمة موجّهة مباشرة إليهنّ: أنت قحبة مثلنا جميعًا، وستعملين غصبًا عنك. أم ترى مادموازيل تريد أن تلعب دور القدّيسة العفيفة؟ كلّنا كنّا مثلك يا عاهرتي الصغيرة. ستربن الشرف والنظافة والترفّع إن تماديت في العناد والتعنّت؛ سينيكك القوّادون واللوّاطون واللصوص والمصابون بالسيفيليس والكلوشارات والجزائريّون والزنوج وكلّ الأرهاط القذرة والواطئة، وستُضربين وتُركلين وتتقيّئين أمعاءك وتخرئين في سروالك وتتعفّنين ثمّ تنتهين مشرّدة وسخة طُعمةً لكلّ مشرّد قذر. اختاري الآن طالما لديك فرصة للاختيار؛ إمّا أن تقبلي طواعية وتنالي بذلك حظوة الرجل الذي يحميك، ولن تعرفي من الحرفاء غير الموسرين النظيفين والمطاعم الفاخرة وفنادق الخمس نجوم والحرير والساتان والعطورات الغالية، أو العصا والركل والصفع وأرذل الرجال. إمّا الخراء أو الكافيار. ما رأيك؟

Twitter: @ketab_n

رشيد يصطاد ضحاياه عادة في محطّات القطار. يتربّص بالمربَكات اللاتي يبدو من هيأتهنّ ونظراتهنّ أنّهنّ قادمات للتوّ إلى باريس. أغلبهنّ مراهقات خرجن إلى مغامرتهنّ الأولى؛ جئن إلى باريس بحثا عن طريقهنّ في الحياة. طريق الحريّة. صبيّات هاربات من جحيم العائلات، متطلّعات إلى حياة أخرى في باريس التي يتردّد ذكرها على الألسن كحلم بقارب نجاة بسعة الكون. فردوس على وجه الأرض. حريّة، ملذّات، مسرّات، سهرات، حفلات موسيقى الهيبي والبيتلز والرّوك، نزهات حالمة على ضفاف السّان، مفاجآت سارّة وسعيدة في كلّ زاوية أو منعرج. وجه الله الضاحك يمدّ ذراعيه بتحنان لاحتضان عباده الوافدين على جنانه الرّحبة الذي يتّسع لأحلام الجميع. باريس قبلة كلّ الحالمين؛ الحالمون بالثراء، والحالمون بالحريّة، والحالمون بالفنّ، والحالمون بالثورة، والحالمون بالتسكّع، والحلمون بالجنون. باريس قبلتنا جميعًا. كلّنا نأتيها حالمين. كلنا نحلم، لكن يبدو أنّ الحياة لا تتّسع لأحلامنا جميعًا؛ حلم يزحم حلمًا. حلم يردّ الأحلام الأخرى على أعقابها. الجنة لا تتّسع للجميع.

رشيد وكثير من رهطه، هم أيضًا جاؤوا إلى باريس حالمين. حالمون بمأدبة دسمة من لحم المغفّلين والحالمين البريئين والساذجين. يستدرج الواحدة بكلام جميل رائع مغر. محترفُ مراودةٍ ومغازلة. محترف مراوغات وتحايل؛ هشّ، ليّن، بشوش، مرح، فاجر بمقدار؛ المقدار الذي يُثير ولا ينفّر. شبقيّ بتحفّظ مدروس. ظريف، محدّث لبق، ثرثار بالقدر الذي يجعله ينقضّ على فريسته ويغمرها بالكلام ولا يدع لها مجالا للتنفّس بين جملتين من دفق سيله الهذياني الذي يرصّعه بالنكات المليحة والمزاحات الخفيفة، وبين مزحة ونكتة وكلمة حلوة مجامِلة وعدّ ضمنيّ بليلة حافلة بهذيان شبقيّ مرح، لذيذ، شديد البهار، مدوّخ.

Twitter: @ketab_n

فنّ. صناعة قائمة بذاتها تدرّب عليها هؤلاء المحترفون لسنوات عديدة في الشوارع، بالقرب من برج إيفل، على ربوة مونمارتر، في محطّات القطارات، في الديسكوهات والبارات الليليّة. بعضهم قد اجتاز تربّصات كافية في هذا الشأن على شواطئ بلاده الغاصّة بالمصطافين والسيّاح المتوافدين على شمسها ومياه بحرها وعبقها الأكزوتيكي المثير.

حالمون هم أيضًا بأرض الشقراوات المتحرّرات؛ متحرّرات أكثر من اللزوم ـ لزوم ما تربّوا عليه من قهر وقمع وكبت. لفرط تحرّرهنّ يبدون لهم على حافة العهر والتفسّخ. عفويّات بتلقائيّة تقع على تخوم السذاجة، بل لنقل على حافة الغباء كما يتراءى لهؤلاء القادمين يحملون حلمهم بالحريّة والمتعة مثل لعنة طيش، أو رغبة فاجرة غير بريئة وممنوعة كانوا يخبّؤونها في زوايا معتّمة من أرواحهم الرّازحة تحت ضروب من الزجر والقمع والرّدع. دمّل يُفقأ هنا في باريس. هذيان محموم لم يعد يخضع لأيّ رادع. أيّ رادع.

المحترفون الحقيقيّون لا يرحمون.

رشيد لا يرحم ضحاياه. يوم عسل، يومان وأحيانًا ثلاثة أيّام إذا ما كانت الفتاة جميلة وجذّابة وذات نكهة مثيرة وبهار طيّب؛ لا يبخل بها على نفسه في تلك الأيّام الترويضيّة الأولى؛ يدلّعها ليومين أو ثلاثة ويريها من الجنّة التي جاءت تحلم بها مقدار شبر أو شبرين. مطاعم فاخرة، سهرات صاخبة في أجمل الديسكوتيك، بعيدًا في البداية عن أوساط العاهرات ـ وسطه الحقيقيّ. هديّة صغيرة من هنا وأخرى من هناك، حذاء جديد، فستان أنيق، شال من الحرير إن كانت الصبيّة تستأهل ذلك وتعد في هيأتها الأنيقة المستقبليّة بمردود يفوق النفقات بأضعاف الأضعاف. آلة حاسبة دقيقة ومضبوطة التعديل؛ يستثمر حيث

Twitter: @ketab_n

يبرق أمام عينيه أمل أرباح مثيرة. ينفق بسخاء وقلبه يرقص طربًا للمحصول القادم الذي يشعّ من عيني الفتاة التي تكون قد غدت شبه مضمونة الوقوع في شبكته.

بعد انقضاء أيّام العسل، يأتي دور العصا والحزام الجلدي.

ـ أرغمني في البداية على النوم معه ومع صديق له معًا في نفس الفراش. في البداية تداولا عليّ بعد أن أشبعني صفعًا ولكمًا. ثمّ تناولاني معًا بطريقة مخجلة لا أستطيع أن أصفها لك. مخجلة ومهينة. في اليوم الموالي حبسني في البيت طوال النهار وجزءاً طويلا من الليل، دون أكل ولا شراب. عاد بعد منتصف الليل ومعه صديقه وواحدة عرفت من بعد أنّها من المشتغلات لحسابه. تظاهرت بأنّها جديدة ولا تعرفهما. انحبسا معها في غرفة مجاورة وبعد لحظات بدأت أسمع صفعًا واصطفاقًا وقلب كراسي وتكسير أواني وصراخًا وشتائم. كانت العمليّة كلّها مسرحيّة الغاية منها إرهابي، ذلك ما تأكّدت منه في ما بعد. لم يزعجني أحد في تلك الليلة. لكنّني لم أستطع أن أنام بسبب الخوف، وكذلك الصراخ والزعيق اللذيْن ظلاّ متواصليْن حتّى قبيل الفجر. كنت أتوقّع دخوله عليّ في كلّ لحظة، وكانت اللحظات تتلكّأ في المرور وأنا في حالة من التأهّب؛ تأهّب الضحيّة التي تنكمش وتتكوّر متوتّرة على رعبها تكاد تنفجر. في لحظة ما بدأت أتمنّى لو أنه يأتي، أو يأتيا معًا كي ينتهي عذاب هذا الانتظار. لكنّ أحدًا لم يأت. ولا النوم أيضًا.

خرجنا ظهر اليوم الموالي جميعنا معًا. تغدّينا في مطعم شعبيّ رخيص. لكنّني كنت جائعة حدّ الإغماء فلم أنتبه لرداءة الأكل. بعدها ذهبنا إلى البار حيث تركني مع تلك المرأة التي بدأت تقدّمني للحرفاء وتحاول إغرائي للخروج معهم. العاهرات الكثيرات اللاتي يدخلن

Twitter: @ketab_n

ويخرجن ويعدن معربدات، كلّهنّ يسلّمن عليّ بحفاوة مصطنعة، وأحيانًا بشيء من السخرية والتشفّي: آ، الجديدة! يقبّلنني بطريقة عاهرة من فمي، يداعبن وجنتيّ كما لو كنت طفلة، يضعن أيديهنّ على صدري، يتلمّسنني في مواقع أخرى من جسدي، يحشرن أيديهنّ بين فخذيّ مقهقهات: آ، يا للكنز اللطيف! هذه ستفتكّ منّا كلّ العشّاق. وعندما أنكفئ أو أنكمش، أو أكشّ في وجوههنّ وأبدي نفورًا من مداعباتهنّ الفاجرة، ينفجرن مقهقهات بسخرية: أو! أو! يا للإوزّة الصغيرة! إنّها ما تزال خجولة! أم خائفة؟ لا تخافي شيري لن نعضّك، ولن نفتضّ بكارتك إن كنت ما تزالين عصفورة جنّة. يا لمريم العذراء! ألم يلجك رشيد بعد؟ صعبة المنال هه؟ سترين كم من الزّبوب سيعرف عشّك الصغير هذا الذي تخبّئينه بكلّ خوف وحرص. وسوف تحبّين ذلك. ستحبّينه جدًّا حتى تصيري مدمنة. هاي، هاي! الأخت شريفة، أليس كذلك؟ وماذا تظنّين أيّتها العاهرة الصغيرة؟ هل نحن منحرفات؟ عاهرات؟ قحاب فاسدات؟ إنّنا نعمل مثلما يعمل كلّ الناس. أم تراك أشرف منّا؟ أم أرفع شأنًا؟ هل هناك امرأة تترفّع على زبوب الرجال يا غبيّة، يا فاجرة؟

كانت تلك حصّة الترويض الثانية، قبل أن يعود رشيد. في البداية تجاهلني لما يزيد عن ساعة من الزمن بينما العاهرات يرغمنني على الشراب إرغامًا. بعدها ركبنا سيّارة تاكسي وذهبنا إلى بيت آخر لواحد من أصدقائه. بدأ الضرب والصفع مباشرة دون مقدّمات ولا كلام. ثمّ هدّداني بسكّين قبل أن يمزّقا ثيابي ويقذفا بي على الفراش...(تضع وجهها بين كفيها وتنخرط في البكاء)... أرجوك ساعدني، إنّني أريد أن أهرب من هنا، إلى أيّ مكان. سأشتغل بأيّ عمل وأنام على الأرض. فقط أن أهرب من هنا.

Twitter: @ketab_n

ورطة أخرى لم أكن قد قرأت لها حسابًا، قلت لنفسي وأنا بين الحيرة وشيء من الانتشاء، لا أدري بماذا؟ بجمال جوزيفين، بانتصار ما، بإمكانية انتقام من رشيد بوراس قد غدا مضمونا تقريبا.

غير أنها ورطة، مع ذلك!

*

تلبّست بي رغبة عنيفة في مساعدة جوزيفين. لكن كيف؟ وإلى أين سآخذها؟ إلى بيت آن ماري، فكّرت للحظة، لأنه لم يحضر في ذهني غيرها. آن ماري التي لم أرها منذ أكثر من أسبوع؟ وماذا سأحكي لها؟ أنّني غبت كل هذه المدة لأعود إليها بواحدة مشرّدة مثلي؟ ومن هي؟ صديقة؟ فتاة لا أعرفها أريد مساعدتها؟ برافو! فلأنس آن ماري إذن! إلى علي؟ أبدًا. الرفيق حميد؟ غرفته الصغيرة في شارع سان جاك يمكن أن تكون مخبأ آمنا؛ الحيّ اللاتيني بعيد عن رشيد وأمثاله الذين لا يرتادون تلك المنطقة إلاّ نادرًا. لكن بيت حميد ملتقى لمجموعة كبيرة من الطلبة التونسيّين المناضلين. كيف سأقدّم لهم هذه الفتاة الغريبة؟ صديقة من الجامعة؟ لن تنطلي عليهم الخدعة لأنّها لن تظهر بمظهر الطالبة مهما فعلت. سيكتشفون ذلك من خلال كلامها وسلوكها وهندامها ومائة ألف علامة أخرى.

من الأفضل إذن أن أصارح حميد بالأمر. أرجوه أن يغلق بيته في وجه الرفاق ليومين أو ثلاثة حتّى أتدبّر الأمر بطريقة أخرى. أريد مساعدة جوزيفين بأيّ ثمن، أو لنقل إنّني كنت أتحرّق لإبعادها عن رشيد. كنت متحمّسًا حماسًا لاحدود له للأمر كما لو أنّني عثرت على قضيّة مهمّة سأمارس عليها التزامي وشيئًا من أعمال البطولة. أن أهرّب واحدة من رشيد! من رشيد بالذّات! عمل خارق. ضربة رأس أقوى بكثير من تلك

Twitter: @ketab_n

التي فاجأني بها ونحن أطفال. ضربة رجال هذه يارشيد يا ولد القحبة! سترى ماالذي سيفعله بك طالب، أو تلميذ كما تقول أنت من أجل التحقير، أو فقط لأنك لا تدري ما هو الفرق بين تلميذ وطالب. طالب ملتزم، ثوري مناضل قادر على الفعل، لا خنفس كاغذ وحبر كما يحلو لك أن تفكر. سيناريو بأكمله بدأ يرسم خطوطه في مخيّلتي ويغذّي هذياني البطوليّ. أصعد بولفار سان ميشال باتجاه شارع سان جاك راكضًا على إيقاع الوتيرة المضطرمة لسيناريو الفلم البطولي الذي كان يعتمل في ذهني، أمرّ بالقرب من السوربون، ألقي نظرة سريعة على تلك البناية الرمادية الداكنة: أيّ سوربون؟ وأي طلبة منقّعين في رطوبة النظريات الثورية المزيّفة التي يتشرّبونها من الورق! هو ذا العمل الثوري البطولي الحقيقي من صميم المعترك الشرس للحياة!

صرفني حميد وهو يؤنّبني بشدة على سلوكي المتهوّر وعلى دخولي في مثل هذه العلاقات غير النقيّة التي يمكن أن تجلب المخاطر، لا عليّ أنا وحدي، بل على مجمل الحركة: أنت لست عنصرًا منعزلا يا رفيق! وعليك أن لا تغفل عن المسؤوليّة التي تتحمّلها تجاه رفاقك والحركة بصفة عامّة. إنك تتصرّف تصرّفات فوضويّة لامسؤولة يمكن أن تكون لها تبعات أمنيّة خطيرة علينا جميعًا. لذا أرجوك أن تترك حالاً هذه الفتاة، وأن تنسحب نهائيًا من هذا الوسط العفن الذي أقحمت نفسك في متاهته الخطيرة. كن مسؤولا وفي مستوى الالتزام الذي يُنتظر منك يا رفيق.

عبثًا سأسعى بعدها لإقناعه بأنّنا بالتزامنا إنّما نحن وضعنا أنفسنا في خدمة المظلومين جميعًا، وأنّ من بين مهامّنا الثوريّة التقدّميّة محاربة الاستغلال أينما كان وكيفما كان واستعباد الانسان للانسان بأيّ شكل...إلخ إلخ. عبثًا سأجنّد كلّ معارفي وأسلوبي الحجاجي، وقاموسي الإديولوجيّ من أجل إقناع رفيقي الذي كانت حججي تتكسّر كلها على

Twitter: @ketab_n

جلمود انضباطه الحزبيّ الذي لايرى إلى الأعمال الفرديّة غير المؤطّرة إلاّ كأعمال خرقاء وتصرّفات متسيّبة، انحرافات برجوازيّة صغيرة، تشتيت للطاقات وحياد بالعمل النضالي عن إطاره الثوري الوحيد الذي لا يمارس إلاّ داخل البروليتاريا المنظّمة وفي إطار عمل حزبيّ مؤطّر. الطبقة يارفيق هي المعنى. المعنى الوحيد بالنسبة للمناضل الثوري، أما الأفراد المنعزلون فلا شيء. الاهتمام بالأفراد تبذير طاقات مؤذٍ بالنسبة للعمل المنظّم، علاوة على كونه يبثّ سموم الفردانيّة البرجوازيّة؛ يفخّم دور الفرد على حساب الطبقة يا رفيق! عد إلى رشدك، وإلى وعيك الطبقيّ يا رفيق!

أذاقني خلاً وحنظلا خلال الساعات التي جلدني فيها بسياطٍ إديولوجيّة من لهب. أراني النجوم في عزّ الظهيرة، لكنّني لم أكن أعلم أنّه إنّما أراني بعضًا منها فقط وقد احتفظ بالبقيّة لتلك الحصّة الشنيعة التي لم تأت بعد؛ جلسة النقد والنقد الذاتي التي استعرض لي الرفاق فيها مجمل سلوكاتي الليبراليّة وعلاقاتي اللامبدئيّة والذاتيّة، بدءاً بعلاقتي بعليّ، صداقاتي مع طلبة تروتسكيّين وفوضويّين داخل الجامعة، العرفاوي وزمرة الصعاليك، فجوزفين، سهرات البارات في سان دني، سكني في بنسيونات أوبرفيليي وتسكّعاتي في ساحة كليشي وبيغال. ثمّ أُخضعت لاستجواب مطوّل ومفصّل عن شعبة الدراسة وعن المحاضرات التي أحضرها والموادّ التي أدرسها، والكتب التي أقرأها، ومواضيع الملفّات التي أعدّها للجامعة. قبل أن أطالب بتقرير كتابي مفصّل في ذلك التزمْتُ بإعداده لاجتماع الحلقة المقبل.

*

حصص النقد والنقد الذاتي تنتهي عادة، إن كانت موفّقة، بتهنئة

Twitter: @ketab_n

الرفيق على قدرته على تحمل الجلد دون آه، أو بلْ ـ ولكن، وتهنئة بقيّة الرفاق على قدرتهم على التجرّد وعلى موضوعيّتهم وحسّهم الحزبيّ المتطوّر؛ قدرتهم على إحكام المشرط في اللحمة الحيّة الموضوعة على طاولة التشريح أمامهم؛ موضوعً ـ أمامَ يغدو الرفيق المناضل، لا ذاتا. لا داعي للحرج أو الخجل أو المداراة إذن: موضوع على ذمّة الحزب والطبقة والقضيّة الكبرى: موضوع ضمن علاقات موضوعية.

قال الرفيق س في مستهلّ الحصّة وهو يتنحنح ويتكحكح ويعدّل وضع نظّارتيه السّميكتين: النقد والنقد الذاتي من العناصر الأساسيّة في التربية والسلوك الحزبيّين. لقد خضع الرفيق ماوتسي تونغ العديد من المرّات لحصص النقد والنقد الذاتي، ولا معرّة في ذلك. المناضل الماركسي اللينيني الصحيح لا يرى في ذلك حرجًا، بل يعدّه أمرًا ضروريًا لتمتين صلابة عوده الاديولوجيّ.

يخرج الرفيق ماو دومًا مظفرًا من كلّ حصّة نقد ونقد ذاتي. يكون دومًا قد تعلّم شيئًا جديدًا واغتسل من رواسب الفكر البرجوازيّ والبرجوازي الصغير وبعض ترسّبات الرؤى الاقطاعيّة وشبه الإقطاعيّة ـ شبه البورجوازية، وكلّ ما شابه ذلك، وكلّ الشبهات جمعاء. لذلك يخرج الرفيق ماو دومًا منتصرًا جديدًا لامعًا من كلّ حصص النقد والنقد الذاتي.

محظوظ الرفيق ماو الذي يخرج دومًا منتصرا! كنت أقول لنفسي بعد الجلسة، أمّا أنا فقد خرجت من هذه الحصّة برضوض لم أعرف كيف يمكن أن أضمّدها وأرتق فتوقها. كان عليّ أن ألتزم بالقرار الحزبي: أن أتخلى عن كلّ تلك العلاقات التي لا تحظى برضا التنظيم: علي، سان دني، العرفاوي، جوزيفين.

Twitter: @ketab_n

لن يكون صعبا عليّ أن أرجئ زياراتي إلى سان دني إلى حين، وأن أضعها موضع سؤال أيضاً، وهي على أيّة حال ما فتئت تكوّن موضوع تساؤل وأخذ ورد. والعرفاوي؟ العرفاوي والماضي، وطفولتي، وذاكرتنا المشتركة أيّها الرفاق؟ هل أموضع ذاكرتي؟ طبعًا يا رفيق. حسنا، سأنظر في هذا الأمر أيضًا، لِم لا؟ سأحاول.

لكن جوزيفين؟ كيف أموضع حالة جوزيفين؟ أن أقبل بأنّها إنّما وقعت بصفة موضوعيّة في قبضة رشيد بوراس الذي يمارس عليها التعسّف والقهر الموضوعيّين للمجتمع الطبقي الرأسمالي الاستغلالي، كما يمارس عليّ استعلاءه الموضوعيّ، وكما مارس عليّ برأسه الضخمة تفوّقَه الجسديّ الموضوعيّ في ذلك اليوم من تلك السنة البعيدة ونحن نتزاحم بطريقة موضوعيّة، أو في صراع طبيعيّ موضوعيّ على العلف أمام مطعم المبيت الدّاخلي؟

ثمّ لِم لا أبوح لنفسي على الأقلّ بأنّني أرغب في جوزيفين، بصفة لا موضوعيّة هذه المرّة، غير موضوعيّة بالمرة. وبما أنّني لن أستطيع بحكم موضوعيّة العلاقات الحزبيّة والإيمان القطعيّ بموضوعيّة كلّ العلاقات، أن أبوح للرفاق بالعلاقة غير الموضوعيّة التي تشدّني إلى جوزيفين وتدفعني بعنف لعمل أيّ شيء من أجل مساعدتها، فما الذي سأفعله بهذا الأمر غير الموضوعيّ الذي يهمّني أنا وحدي وبصفة ذاتيّة بحتة؛ أنا وحدي، ولي وحدي؟ ما الذي سأفعله بهذا الأمر، وبجوزيفين وبرغبتي فيها؟ وبرغبتي في تمريغ غرور رشيد ورأسه الضخمة وأنفه الغليظة في الأوحال؟ يا رفاق، يا رفاق، ألا يمكن للموضوعيّة أن تتغافل من حين لحين عن فجوة صغيرة يُسمح منها لهذه الذّات أن تكون حاضرة، أن ترغب وتحبّ وتكره وتريد الانتقام؟ أن

Twitter: @ketab_n

تتهوّر قليلا وتمارس شيئًا من غبطة تهوّرها، أن تلتذّ بما هو ليس بالضرورة موضوعيًا؟

خرجت من هناك في حالة من الهلع وبشيء من عدم الرضا عن نفسي، لأنّني لم أجرؤ على قول كلّ ما كان يخامرني من أفكار. وجدتني في وضع التلميذ الذي يصغي بانتباه ويعد بالانضباط ولا يلوي العصا في يد معلّمه: *اقرأ يا ولدي وتعلّم واسمع كلام المعلم!* الولد الصغير الذي كان يسعى بكل الوسائل لإرضاء أبيه الذي لا يرضيه شيء من كل ما يفعله، والذي يفعل كل ما بوسعه كي يعجَب به المعلم ويطري عليه، وربما يستثنيه من حصص العصا والتأنيب والتوبيخ. ما هذا الذي وضعتُ نفسي فيه! ألم نختر هذا الطريق تمرّدًا على السلط القهريّة جميعها ابتداء من العائلة ومرورا بالمدرسة والجامعة فالدولة والمجتمع؟ مالي أضع نفسي طواعية إذن تحت سلطة زجريّة جديدة تسطّر لي الطرق التي ينبغي عليّ أن أسلكها، تراقب وتردع وتزجر وتُرهب؟ أليس هذا بالضبط ما أردت الثورة عليه؟ والانتقام لنفسي منه؟ وأنتم أيّها الرفاق، ألستم مثلي؟

كنت على وشك الحسم في الأمر بالاختيار النهائيّ: إمّا حرّيتي، وإما هذه الثورة التي يريدها التنظيم. وأنا على أيّة حال قد حسمت أمري بشأن جوزفين منذ أسبوع تقريبًا عندما اهتديت بعد فشلي مع حميد إلى فكرة اللجوء إلى فرنسواز. راهنت على مثاليّتها وشفقتها المسيحيّة، وعلى استعدادها الدائم لتقديم المساعدة لكلّ من يعترضها، بمن فيهم عليّ الذي يذيقها ألوانا من العذاب والإهانات المجانيّة ولا يتوقّف عن تسميم حياتها. قلت: فرنسواز هي الحلّ الأخير والأمثل. أكيد أنها ستصدم بقصّة جوزيفين وستدفع بها مشاعر الرحمة المسيحيّة إلى فعل أيّ شيء من أجل إنقاذها.

Twitter: @ketab_n

فضّلت أن لا أذهب وحدي إلى فرنسواز، بل أن أضعها أمام الأمر الواقع وأن أدع جوزيفين تشرح لها الأمر بنفسها، كي تقف على الحالة بصفة مباشرة، خاصة إذا ما كان الشخص المعني أمامك وعيناه في عينك، وقد تكون العينان مغرورقتيْن بالدموع، أو محمرتيْن ومتورمتيْن من كثرة البكاء فلا تتردد مشاعر الرحمة في الانفجار داخلك، بصفة مباشرة وذاتية، فلربما للمسيحي أيضاً معاييره الموضوعية في تصريف رحمته، وعند غياب الذات الملموسة التي تتألم لحمًا ودمًا ودموعًا أمام عينيه قد يتناول المسألة ببرودة وحياد الموضوعية، وإذا نحن أمام فشل آخر.

بعد جلسة النقد والنقد الذاتي وجدت جوزيفين تنتظرني أمام محطة سان لازار كما اتفقنا، كي نذهب معا إلى موعدنا مع فرنسواز غير بعيد من ساحة كليشي. كادت فرنسواز أن تقع مغشيًّا عليها وهي تستمع لما كانت ترويه لها جوزيفين. تهاطلت دموع الشفقة من عينيها. دموع الرحمة كانت بالنسبة لي في تلك اللحظة، مطرًا لذيذًا ناعمًا ينزل على قلبي ويغسله ممّا علق به من آثار الخطبة الثوريّة الصارمة والقاسية التي جلدني بها الرفيق حميد، ثم جلسة النقد والنقد الذاتي التي أخضعني إليها رفاق الخليّة. فكّرت في تلك الآونة - في تلك الآونة فقط، والله يا رفاق! - أنّ ماركس لا بدّ أن يكون لقيطًا ومنحطًّا صلفًا إذ يؤكّد أنّ الدين أفيون الشعوب. ولِم لا يحقّ للشعوب أن تنعم من حين لآخر بوضع شيء من البلسم على روحها المعذّبة والمحزّزة بالجروح إن اقتضى الأمر ذلك ولم يكن هناك من مهدّئ للأوجاع غير الأفيون؟

قبلتْ فرنسواز بأن تؤويها في بيتها مؤقّتا في انتظار أن تجد لها حلاً مناسبًا ودائمًا في إطار العمل الذي تقوم به لدى الكنائس وبعض الجمعيّات ذات النشاط الخيري والاجتماعي.

Twitter: @ketab_n

شربت مع جوزيفين نخب ذلك النجاح بعد أن ودّعتنا فرنسواز التي ضربنا معها موعدًا في بيتها في المساء.

فرنسواز، أيّتها القدّيسة الجميلة! لِتحْيَ الرحمة والمحبّة المسيحيّة، ولْيذهبْ ماركس والشيوعيّون الغلاظ إلى الجحيم!

كان عليّ أن أستغفر بعدها من هذا الاندفاع الانفعالي الطائش، وأن أقوم بنقدي الذاتي - في ما بيني وبين نفسي هذه المرة - كي أستعيد شيئاً من راحة ضميري الأديولوجي، لأنه لا يصح البتّة الاستهتار بالمقدّسات، إضافة إلى الخطيئة التي ارتكبتها بعدم الانضباط وبمراوغة قرار الخليّة، ومحاولة التستر على علاقتي مع جوزيفين، حتى أنني طلبت من فرنسواز أن لا تفاتح علي وعقبة بحقيقة قصتها وبعلاقتي بالمسألة. فعقبة الذي هو صديقي قبل أن يكون رفيقا قد أبدى خلال جلسة النقد والنقد الذاتي صرامةً وقسوة نادرتيْن في محاسبتي هو أيضاً، عقبت ذلك خصومة حادة بيننا مباشرة بعد الجلسة، كان من الممكن أن تتطور إلى ما أسوأ، لو أنني لم أنصرف عنه بسرعة كي لا أتأخر كثيراً على جوزيفين.

كنت قلِقًا في الحقيقة، فلَقا شوّش عليّ إحساس الظفر وفرحة النجاح في عملية إنقاذ جوزيفين.

*

عدت إلى بيت العرفاوي متردّدًا شيئًا ما في تلك الليلة. لكنّني قرّرت الذهاب إلى هناك كي لا أثير الشكوك إذا ما تزامن غيابي مع الاختفاء الفجئيّ لجوزفين. كنت طوال السهرة مضطربًا، قلقًا، أنتظر دخول رشيد في أيّة لحظة. لم يأت رشيد في تلك الليلة، واعتذرت عن الخروج مع العرفاوي بدعوى أنّني متعب وأريد أن أنام. لكنّني لم أستطع أن أنام.

Twitter: @ketab_n

عدل العرفاوي هو أيضًا عن فكرة الخروج وكان يبدو لي في هذا المساء أقلّ مرحًا وخفة من المعتاد. لأنّه مرح جدًا في العادة. هكذا كان دومًا حتّى في أيّام شقائنا، يضحك، يهذي، يمزح وينطّ مثل القرد.

لِم هو معكّر المزاج شيئًا ما هذا المساء إذن؟ لم يكن حزينًا أو كئيبًا أو ضجرًا بصفة واضحة، فقط قليل المرح! أو لعله خيّل إليّ فقط.

جلسنا نشرب نبيذًا أحمر ونقضم خبزًا بجبن وزيتون ونتذاكر فصولا مطوّلة من أيّام المعهد والمبيت. العرفاوي في جلدته الحقيقيّة. دون بذلة أنيقة وكرافات. ننسى باريس وبارات الشانزيليزي، والعاهرات والديسكو... إنّنا الآن في باجة.

طفولتنا مفروتة على الطاولة أمامنا، نلمّ شتاتها من الذاكرة، نبعثرها ونجمّع الأجزاء من جديد ونفرز، مثل ألبوم صور؛ ننتقي صورةً، نضعها تحت المجهر، نكبّرها ونسرح بين ثناياها. طفولتنا عادت الآن مُلكًا لنا، نعيشها من جديد على النحو الذي نريده لها، منقّاة بمصفاة الذاكرة. ناصعة، مشرقة. حتّى الأجزاء الداكنة نلمّعها لتخرج متوهّجة بحنيننا. المبيت الكئيب، القيّمون القساة والانضباط العسكري لأوقات النوم والصحو والإفطار والمراجعة، الجلوس إلى مائدة الطعام وعدم الشروع في الأكل قبل أن تعطى الإشارة بذلك، عدم الكلام أثناء الأكل، الوقوف طويلا إلى جنب السرير حتّى في ليالي الشتاء الباردة في انتظار أن يمرّ القيّمون ويتثبّتون في بيجاماتنا وأظافر أصابعنا وإن كنّا قد غسلنا أرجلنا بالماء البارد أم لا. تمطيط حصّة الوقوف عقابًا لنا إذا ما تجرّأ واحد وأطلق من زاويته البعيدة ضرطة طويلة، أو كحّة مفتعلة، أو صيحة تحاكي صيحة ديك أو عواء كلب؛ هكذا لمجرّد التحرّش والمزاح، وغالبا ما يقلّده واحد آخر، فآخر وآخر إلى أن يتحوّل العنبر

Twitter: @ketab_n

الفسيح الذي يضمّ ما لا يقلّ عن ستّين، ثمانين، مئة فرخًا إلى جوقة يختلط فيها السعال بالضراط المسترسل(خاصّة إذا ما كان العشاء حمّصًا أو فاصوليا) والنهيق والطنين، وجوقة أصوات تقلد صياح الديكة والعواء والمواء. يهرع قيّمون آخرون لمساعدة زميلهم، ويأتي القيّم العام أحيانًا، وتكون ليلتنا ليلة طويلة غالبا ما تنتهي بإخراج بعض أفراد إمّا من المعروفين بالمشاغبة، أو هكذا بحسب عمليّة اختيار عشوائية لينالوا عقابًا شديدًا صفعًا وركلا وضربًا بالعصا على كفّ اليد، ثمّ تسجّل أسماؤهم على قائمة المحرومين من الخروج في يوم الأحد.

عقوبة المنع من الخروج يوم الأحد كانت نظامًا تربويًّا متداولا في معاهد البلاد بكلّيتها آنذاك. دربة على السجن نذوقها ونحن صغارًا بهدف الترويض وإعداد الآلاف منّا لمستقبل سوف لا يكون مشرقًا بالضرورة. المجتمع يرينا أنيابه؛ العلف على اليمين، والعصا على الشّمال. الانضباط والإذعان وبسط جناح الذلّ مقابل شيء شبيه بالحريّة لا نناله كحقّ طبيعي عاديّ، بل كمكافأة وحظوة تُحبس على كلّ من لوى العصا في يد الآمر وتجرّأ على الخروج عن السبل المسطّرة لنا مسبقًا.

ـ شفْت أولاد القحبة! يزرعون في قلوبنا الذلّ والخضوع منذ الصّغر. عسكر عند دين أمّهم نحن؟ يقول العرفاوي وهو ينهض كما لو كان يستعد للانقضاض على أحد ما.

الذين ينالون العقاب يعودون إلينا بعدها في هيأة الأبطال. نوقّرهم ونكبر فيهم التضحية وتحمّل القسوة، خاصّة إذا ما صمدوا وقابلوا القيّمين والمسؤولين بصمت الأموات وهم يستجوبونهم محاولين أن يرغموهم، بالتهديد حينًا وبالإغراء في بعض الأحيان، على الوشاية

Twitter: @ketab_n

وذكر أسماء المشاركين في الشغب. وحتّى إن لم نعرب لهم عن ذلك التقدير طواعية فإنّهم هم الذين ينتزعونه منّا انتزاعًا. يعودون إلينا مرفوعي الرؤوس، بكثير من الغرور والاستعلاء في بعض الأحيان، وصوت من داخلهم يقول لنا من خلال حركات أكتافهم وهم يختالون أمامنا، ومن نظرات أعينهم المشعة ببريق وصلافة المنتصرين: ها أنّنا دفعنا الثمن من أجلكم أيّتها النعاج! قدّمنا جلدنا فداء لجلودكم، واجتزنا الامتحان بنجاح. وهل يستوي الممتحَنون وغير الممتحَنين؟ يغدو جلدهم الذي عُمّد بالعصا جلدا شريفًا نبيلا؛ جلد أبطال ومغامرين: نحاسًا برونزًا فضّة، بينما تنكفئ جلودنا التي لم تجتز الامتحان على نتونتها ورطوبة خمولها؛ جلدة كلاب.

هكذا هم أصحاب المآثر والبطولات دومًا. لا بدّ أن يتقاضوا مقابلاً للثمن الذي دفعوه. يستثمرون جلودهم كي يجنوا منها أرباحًا مضاعفة.

يعود إلينا أبطال المغامرة ليغتصبوا مباشرة اعترافنا بتفوّقهم، وتصير بطولاتهم وبالا علينا. عندها لا مفرّ، إمّا الخضوع أو التمرّد والمصادمة. لكن للتمرّد ثمنه أيضًا. والمناطحة تتطلّب تضحيات في بعض الأحيان، خاصّة إذا ما كان الواحد لا يتمتّع بالبنية الجسديّة الكافية للمواجهة. عندها إمّا الخضوع مجدّدًا، أو القبول بالضرب وخسارة المعارك لكن دون خضوع وقبول بالهزيمة، حتّى تحصل له سمعة «المرامْدي» ـ الذي يقبل بالتمرّغ في التراب والأوحال ولا يستسلم، ولا ينفع معه أي عنف. عندها يتخلّى عنه المتحرّشون إمّا لكلل، أو ضجَرًا، أو لأنّه بدأ يحظى بشيء من التقدير لديهم لجرأته وتهوّره وعدم تراجعه أمام الضرب واللكم. وهناك صنف آخر، لا هو من الأقوياء والأسياد، ولا هو بالمستضعف الخامل خمولا تامًّا، ولا هو بالضعيف المناطح العنيد. صنف القحاب المستأسدين، وهم عادة ممن تمّ إخضاعهم من قِبل

Twitter: @ketab_n

الأقوياء، وتفانوا في إرضاء كلّ رغباتهم بما فيها رغباتهم الجنسيّة فحصلت لهم بذلك امتيازات المحظيّات ومنزلة المحميّات. لكنّها محميّات ستحاول التمعّش من منزلتها تلك واستعمال الحماية التي تحظى بها لتتعسّف على آخرين من مرتبة أدنى في سلّم العنف. كان رشيد من هذا النوع الأخير، أمّا العرفاوي فكان من نوع «المرامْدي» لمدّة من الزمن، ثمّ تحوّل من بعد بفضل فكاهته ومرحه وقدراته التهريجية إلى كائن مستقلّ لا هو من المعتدين والعنيفين ولا هو ممّن يُعتدى عليهم. صداقتي مع العرفاوي نشأت في ظلّ اشتراكنا في صفة «المرامدي» لمدة من الزمن: الكدمة الزرقاء تحت العين والخدوش في الوجه والرقبة كانت علاماتنا المميزة، وصماتٌ تجعلنا أحيانا محل سخرية الفتيات مثلا، أو بعض الأولاد العاقلين، وفي بعض الأحيان تشير إلينا كمقاتلين شرسين. لكنها في جميع الأحوال شارتنا التي نتعرف بها على بعضنا؛ وسام استحقاق بصفة ما، والهوية التي تجعلنا نتعاطف مع بعضنا ونتقارب لنتحابب ونتعاضد... نشأ بيني وبين العرفاوي في البداية تعاطف المستضعفين المتمرّدين والذين لاتُكسر شوكتهم، ثمّ تطوّرت علاقتنا بتطوّر طرق تكيّفنا مع ذلك الوضع عندما بدأنا نلتجئ إلى الحيلة والانتقام الماكر مع المحافظة دومًا على جانب الفكاهة والمرح من جهة العرفاوي، وعلى جانب التفوّق في الدراسة من جانبي. كان العرفاوي يبيع المرح والفكاهة والضحك، أمّا أنا فكنت أبيع للمتعثّرين خدمات إنجاز بعض التمارين المدرسيّة، أو السماح من حين لحين لواحد بأن ينقل عنّي في حصص الامتحانات.

أتدري يا عرفاوي، إنّني لم أغفر لنفسي إلى الآن أنني لم أردّ على ضربة الرأس التي خبطني بها رشيد ذات يوم؟

فغر العرفاوي فمه وظلّ يحدّق فيّ مباغتًا، ومتألّمًا في الوقت نفسه.

Twitter: @ketab_n

ـ يلعن دين أصلك! أما زلت تتذكر ذلك إلى الآن؟ كنت أظن أنكما قد نسيتما تلك الحادثة البعيدة، بل بدا لي أنك نسيته، كما نسيك هو أيضاً.

ـ أنا أيضًا ظننت أنني نسيتها. بل إنها لم تعد إلى ذاكرتي إلاّ حين وقف أمامي هنا في بيتك. لم أنسه. ولا أظنّ أنّه نسيني هو أيضًا. وبصراحة، سأظلّ دومًا لا أحبّه مثلما كنت لا أحبّه في الماضي. لا من أجل تلك الحادثة فقط؛ أنت تعرف أنه لم يكن من صفّنا أبدًا.

بدا لي العرفاوي قادرًا ـ أكثر منّي على أيّة حال ـ على أن يرفس الماضي، يدوس على كلّ ما لا يحبّ. يلمّع حياتنا الماضية ولا يستعيد سوى البريق الذي تشعّ به ضحكته المجلجلة في طراوة عفويّتها ونزقها ولا اكتراثها.. أحاول ملاحقته متعثّرًا في الأوحال والحجارة ونفايات كثيرة لم أُزحها بعد. وبينما أنا أحلم بالثورة وقلب الأوضاع وتغيير المجتمع برمّته، لا يريد هو أن يغيّر سوى حياة أمّه حَدّة. سيشتري لها عربة شاحنة، ويبني لها بيتًا جديدًا. «يكفيها عراءً وحفاءً وبؤسًا يا أخي! أشتري لها فساتين وأحذية من طراز رفيع وأنا أعرف أنها لن تلبسها. لكن لمجرد أن أشتري ذلك الحذاء وأنا أقول لنفسي هذا لحدّة، أشعر بسعادة عارمة. أراها في خيالي تقلّب الحذاء وتضحك وتقول: يلعن بو أصلك يا لزرق، خفيف الراس مثل ابيّك! ماذا أفعل في آخر عمري بهذه الأحذية التي صنعت لغير قدميّ؟ ثمّ تبيعها. تجمع الفلوس لبناء بيت عصري، لا ليس لها هي، بل لإبنها لزرق، كما يحلو لها أن تسمّيني. تحلم لي بعرس لم يُعرف له مثيل في برّ تونس بكلّيته. في الليل تقلّب ذاكرتها، تستحضر صور الفتيات اللاتي تعرفهنّ جميعًا. وفي الغد تأخذ الحذاء وتذهب إلى بيت حبيبة أمّ منية.

Twitter: @ketab_n

ـ حبيبة أختي، أقسمتُ بالله وبأولياء الله أن لا يجي في رجل واحدة غير منية، وحبيبة تمانع، وحدّة تلحّ وتحلف عليها بالله ونبيّه وأولياء الله أن تأخذه ولا تحرم منه منية: ادفعي بالتقسيط، عندما تستطيعين، وبالسعر الذي تريدين! وبعد هذا وكلّو منية بنتي، موش خسارة فيها هديّة من خالتها حدّة! تقذف إليها بالحذاء في حجرها وهي ترى بعيني خيالها منية تضرب بكعب الحذاء الباريسي على أرض أزقّة الحومة ولزرق جالس على كرسيّ أمام عتبة البيت يرتشف قهوته وعيناه تلتمعان. ثمّ يدخل وينادي: أمّي، منية بنت خالتي حبيبة كبرت! مخطوبة ولاّ لا؟

ـ آ، كبرت ومخطوبة. محجوزة وأمرها منتهٍ. أقسمت أنا وحبيبة أن لن تدخل غير بيت لزرقْ ولدي الغالي.

ثمّ تضحك وهي تفرك شعري وتضمّني.

مجنونة حدّة، الله يطولّي في عمرها!»

Twitter: @ketab_n

حرائق

موجة من الهيجان تهزّ أوساط الطلبة التونسيّين في الأسابيع الأخيرة بسبب أحداث ساخنة في الجامعة بتونس. محاكمات تقود مناضلي اليسار بالمئات أمام المحاكم. النظام يضرب بعنف تجاوز كل التوقعات. إضرابات الطلبة تكاد تكون متواصلة على طول السنة الجامعيّة، مظاهرات في شوارع تونس. جيء بأعوان أمنيّين يدعون بال«فيجيل»، أو حرس الجامعات، غدوا دائمي الحضور في الجامعة وفي المبيتات الجامعيّة. حراسة مشدّدة ومراقبة دائمة، توتّر شديد والعنف قد أخذ منعرجًا جديدًا. ذات ليلة هاجم الطلبة أعوان الفيجيل في أحد المبيتات الجامعيّة بالعصيّ والهراوات والحجر والسكاكين. أصيب العديد منهم بجروح خطيرة، ويبدو أنّ هناك من مات على إثر تلك الجروح. الحكومة تصعّد حملتها القمعيّة مجدّدًا، وتضرب بعنف نادر. إيقافات إضافية مكثفة في صفوف الطلبة. البعض هرب مغادرًا البلاد عبر الحدود الغربيّة والجنوبيّة.

رسالة حماسيّة تصلني مؤخّرًا من أحد الأصدقاء في تونس. تشنّج وانفعال يكاد يفلق الورق. صرخة ذعر واستغاثة: دموع، صراخ المعذّبين في السجون والأقبية المظلمة، هلع الفتيات يقعن تحت أقدام أعوان الميليشيات ورجال البوليس، هراوات، عصيّ، خناجر، قنابل مسيلة للدموع، قوارير مهشّمة تولج في الدّبر، صعقات كهربائيّة في

Twitter: @ketab_n

الأعضاء التناسليّة، قلع أظافر، حرق بأعقاب السجائر؛ «جسدي صار منفضة لأعوان البوليس السياسيّ» سيقول لي صديقي الهادي ذات يوم فيما بعد وهو يكشف عن ظهره وبطنه. «افعلوا شيئًا هناك في باريس أيّها الرفاق. لا تدعونا لقمة لقتلة النظام الفاشيّ. دماؤنا ستظلّ في رقابكم.» قُرئت الرسالة في اجتماع عامّ بالحيّ الجامعي الدّولي. تهيّج الحاضرون. تعالى الصراخ والزعيق بشعارات التنديد والوعيد. أناشيد، شعارات، زعيق، شهيق، دموع ... رائحة العنف قادمة إلينا من بعيد تتسرب إلى الشرايين. رائحة دم تستفز، تهيّج. يبدو أنّ الفكر الذي يريد التغيير وقلب الأوضاع يغدو خاملا باهتًا إن لم يشتمّ رائحة دم في مكان ما؛ يشحب، يلين، يرتخي، يصاب بنوع من الفتور والرخاوة تجعله شبيهًا بالكلاب التي تربّت في الصالونات في حجور العجائز والسيّدات الرقيقات. رائحة الدم تنشّط كلّ الحواسّ، وتوقظ كلّ الغرائز العدوانية المدجّنة بلطافة الجدل النظريّ الصرف. الدم منشّط من درجة أولى. لا يخدّر سوى الحراسة الذهنيّة؛ عسس العقل.

نحتقن، نهتزّ، نرتجّ؛ الثورة على الأبواب. أيّة أبواب؟ إنما نحن الآن في غمارها. ترتفع الأذرع ملوّحة في الفضاء: أناشيد حماسية، صراخ بكل ما لدينا من شعارات مولّعة لحرائق لن تنطفئ بعد الآن. حناجرنا تبحّ من فرط الصراخ والزعيق. نفخر بأصواتنا المبحوحة بعد الاجتماع العام أو المظاهرة في حيّ بلفيل. كفى كلامًا! صاح واحد بتشنّج وصعد المنبر ليقرأ قصيدة للشاعر المختار اللغماني الذي كان على فراش الموت آنذاك. شعارات من جديد، زعيق، تنديد، تحريض على المرور إلى الفعل... القاعة تغلي مثل المرجل. لا بدّ من القيام بشيء: مظاهرات، احتلال السفارة التونسيّة بباريس. هذا لا يكفي. لا بدّ من ردّة فعل قويّة؛ العين بالعين والسنّ بالسنّ. اختطاف رهائن،

Twitter: @ketab_n

تخريب، حرق، شيء قويّ، ضربة عنيفة. رسالة أخرى تروي أخبارًا عن اضرابات في صفوف تلامذة المعاهد الثانويّة، اضرابات عمال شركة النقل وأساتذة التعليم الثانوي، تململ في قطاعات عمّاليّة أخرى. الثورة على الأبواب، لا بدّ من المرور إلى الفعل. أيّ عمل؟ في أيّ مجال؟ وكيف؟ وتحت أيّة قيادة؟

أسئلة. أسئلة. أسئلة، ونحن خائفون أن يمرّ قطار الأحداث ولا نركبه. أن نفوّت الموعد. نناقش ونعيد نقاش المسائل نفسها كل ليلة، نتخاصم، لا ننام، نهجر الدروس في جامعاتنا. أية دروس؟ وأية جامعات والدنيا من حولك مشتعلة والعدوّ يترنح الآن! إنها الفرصة المؤاتية. نكاد نتبادل التهاني، بل نتبادل التهاني بعد اجتماع عام تؤكد لنا جلسات التقييم أنه كان حماسيًا وناجحًا، بعد مظاهرة في شارع بلفيل لوّحنا أثناءها بأذرعنا في وجوه المهاجرين نستحثهم على النهوض والاستفاقة من نومهم *«فيق يا شعب!»*، كي لا يفوتوا على أنفسهم فرصة الالتحاق بالثورة المتأججة الآن، نبتسم لهم ونحن نمر بالقرب منهم بأذرعنا الملوحة في وجوههم وقبضاتنا المرفوعة وأصابعنا التي ترسم علامة النصر. عيوننا لا ترى، أو لا تريد أن ترى علامات التعجب والحيرة على قسمات وجوههم، أو علامات السخرية من موكبنا المعربد في هيجان يبدو لهم مجانيا وجنونيا. لا نحفل بتعليقات بعضهم: لو تابعتم دروسكم واهتممتم بمستقبلكم ومستقبل بلادكم لكان أفضل من هذا الجنون! نشفق عليهم وعلى جهلهم: لا تؤاخذهم يا إله الثورة فهم لا يدرون ما يفعلون، ولا ما يقولون.

نسيت سان دني والعرفاوي والشانزيليزي وجوزيفين، وأصبحت شبه مقيم في بيت الرفيق حميد بشارع سان جاك. سمعت بعودة أحد

Twitter: @ketab_n

أصدقائي من تونس. هرعت لملاقاته. كيف أخبار البلاد؟ أحك لي ما الذي يحدث هناك؟

- البلاد كما تعرفها. ولا شيء مما هو غير معتادٍ يحدث.

- لا شيء؟

- طبعًا، لا شيء غير ما تعرفه من روتين الحياة العادية. الناس يعملون، يأكلون، ينامون، يسكرون، يصلّون، يلعبون الورق في المقاهي، يتناسلون. ماذا تريد أن يحدث غير هذا؟ تزوّجت أختي مؤخرًا. زوجها موظّف عادي لكنّه أقام حفل زفاف فاخرًا ومكلّفًا في فندق سياحيّ كبير، فرقة موسيقيّة محترفة، بيرّة، نبيذ، ويسكي بلا حساب، مثل أنهار الجنّة. ما لا يقلّ عن خمسمائة مدعوّ، فتيات مثل الورود، سيّدات أنيقات لا أدري من أين طلعن، فساتين حرير وساتان وديكولّتي كما ترى في أفخر الأماكن هنا في باريس. هناك بعض جرائم قتل عنيفة وجديدة في نوعيّتها بدأت تظهر في المدن الكبرى خاصّة. واحد قتل عشيقته ثمّ قطعها أجزاء وضعها في أكياس من البلاستيك وزّعها على صناديق النفايات في مختلف أنحاء المدينة. القطط والكلاب هي التي جلبت الانتباه إلى تلك الكميّات الغريبة من اللحم التي كانت تتخاصم عليها في العديد من الأزقّة. في مدينة نابل لا حديث للناس إلاّ عن شخص غامض يدعونه «السفّاح»، يختطف الفتيات، يغتصبهنّ ثمّ يقتلهنّ خنقًا. لصوص الدوابّ أصبحوا يتنقلون بين الأرياف بشاحنات! «مودرنيزم!» علّق مقهقهًا. رسائل الرؤى الكارثيّة التي تحدّث بنهاية العالم في العقد الأخير من هذا القرن. أيّ قرن؟ المسيحيّ أم الهجري الإسلامي؟ لا أحد يعرف ذلك بالتحديد. ثمّ هناك صالحة، صالحة المتطبّبة التي تعالج الميئوس من شفائهم في قريتها البعيدة بالقرب من

Twitter: @ketab_n

مدينة القصرين. الناس طوابير أمام بيتها. سيّارات قادمة من كلّ أنحاء البلاد، من الجزائر وليبيا أيضاً. هناك طبيبة أخرى ظهرت في نفزة بشمال البلاد وواحد آخر في مدنين بأقصى جنوب البلاد، لكن صالحة هي أشهرهم جميعا.

ـ دعنا من هذه الخرافات البايخة، هل هناك ...

ـ سألتني عمّا يحدث، هذا ما يحدث. الدنيا قايمة قاعدة بهذه الأخبار، في البيوت في المقاهي، في مكاتب الإدارات، في البارات حتى في ماخور عبد الله قشّ.. بالمناسبة، تم غلق ماخوريْ «النخيل» و«الدار الكبيرة»، لكن لا حديث للناس تقريبًا إلاّ عن معجزات صالحة وما يحفّ بها من حوادث جانبيّة. هناك يلتقي اللابس والعريان مثلما يقال، مجرمون، لصوص، تجّار مواد غذائيّة ومشروبات، دكاكين سندويتشات ارتُجل افتتاحها بسرعة لأنّ الناس يظلّون أسبوعاً كاملاً وأكثر هناك في انتظار أن يأتي دورهم، بلا أكل ولا شراب، لا أغطية ولا أفرشة، المحمولون على ظهور الحمير والبغال، والمستلقون فوق عربات عتيقة تجرها الدواب، والمحمولون على اظهور الحمير ملفوفين في حصر بالية، العُمي والمفلوجون والمعاقون والمصابون بأمراض خبيثة يصعب تحديدها وقد عجز الطب عن معالجتها، ستليهم فيما بعد أفواج من العاقرات والمصابين بالفتور الجنسي وسوء الهضم والتهاب المجاري البولية والقبض المزمن واضطراب الدورة الحيضية... والمرأة الطيبة هذه لا يُعرف عنها سوى أنّها ترمّلت في الثلاثين، ويقال إنها لم تعرف رجلاً بعدها سوى الوليّ الصالح (سيدي عبد القادر الجيلاني يقول الكثيرون، وآخرون يزعمون أنه سيدي بن عيسى المغربي) الذي يأتيها في المنام، وربما بين اليقظة والمنام، والعلم لله!.. قيل حبلت منه بالبركة وكرامة المداواة. وقالوا على يدها المباركة استقام الأعرج

Twitter: @ketab_n

وجرى، والمفلوج تعافى، والمصروع برأ، والمصاب في النفس نهض إلى زوجته فأنجبت، وكلّ ما حيّر الأطباء انقشع وانجلى. والمرأة الطيّبة لا تفعل سوى أن تبصق على موضع الداء وتمرّر كفّها عليه تمسّده قليلا وإذا المشلول يقفز كالأيّل والمعتوه يصير عاقلا حكيمًا والذي في أمعائه داء تقيّأه وطابت حالته والمُقعد نهض وركض. كلّ ذلك بفضل بصاقها المبارك.

لم يمرّ أسبوع حتّى غدت ساحة بيت صالحة سوقًا قائمةً. قلت لنفسي لن أفوت هذا المشهد وأنا في عطلة بالبلاد، سافرتُ إلى هناك لأرى الأمر بعيني. فعلا سوق فيها الشوّاؤون وبائعو الليموناضة والمشروبات الغازيّة ومطاعم مرتجلة لحمص اللبلابي ومرق الكرش والكوارع والفاصوليا والكفتة والمرقاز، طاولات للقهوة، عربات يدفعها أطفال وكهول، صواني على رؤوس عجائز حافيات فوقها المقروظ والغريّبة والفطائر والقطائف والشطائر المشحّرة بالزبدة والعسل والزلابية وهريسة اللوز التي تقطر بسائل ثخين من السكّر، وفوق الكلّ تطنّ جحافل من الذباب والنحل والزنابير يطردها البائعون بمناديل مبقّعة بالزيت والسكّر وموادّ أخرى غامضة تبعث في الهواء رائحة عطنة دسمة لا تفعل سوى استثارة واستدراج المزيد من الذباب والبعوض والنحل والأطفال الجائعين وشيوخ وعجائز من القادمين للتداوي وقد وجدوا أنفسهم في مخيّم حافل بالزعيق والصراخ وأنين المرضى وتضرّعات دراويش ومتسوّلين يدعون للمتصدّقين بالشفاء وبرحمة الله ومقاعد وثيرة في الجنّة؛ جلبة يوقّعها صراخ المتخاصمين وبكاء الرضّع وهدير محرّكات السيّارات في ساحة شاسعة متربة تتعالى منها عجاجات من الغبار والقشّ ومزق الكواغذ وأشلاء بلاستيك بألوان عديدة، عاجّة بروائح الكزبرة والكمّون والبصل والثوم والشاي المنعنع والفانيليا وزفر

Twitter: @ketab_n

الزيوت المقليّة والأدهان والكرش ورؤوس الخرفان وكوارع البقر وروائح بخورات جاوي وندّ وعنبر فاسي ولبان ذكر وصندل سوداني وديزل محروق وصنان رجال لم يغتسلوا لأيّام عدّة، وروث حميرٍ وبغالٍ ناعسة تحت أشجار الكالبتوس الغبراء.

- يا رجل، يا...

لا يسمعني، لا يريد أن ينتبه إلى انزعاجي وقرب نفاد صبري، ويستمر في سرد حكايته بحماس غريب: تدخّلت الحكومة في البداية لمنع تلك المرأة الأميّة من تعاطي نشاطها الطبّي الرّعواني المحظور والمناهض لحملة التنوير والتثقيف الصحّي التي ما فتئت تدعو إليها منذ الاستقلال. لكنّ الناس ظلّوا يتوافدون على كوخها ولا يريدون الانصراف، ثم بدأ شيء من التململ بين الحشود تموجت ذبذباته عبر القرى المجاورة ثم بلغت ضواحي المدن، وبدأت الدوائر الأمنية تشتم رائحة توتر وشغب يلف في الهواء. تراجعت الحكومة عن قرار منع صالحة من تعاطي طبّها المحظور بعد أن زارها وفد من الأطبّاء تبيّن لأعضائه عدم استعمالها لأيّة موادّ مضرّة أو مهلكة. وقرّرت السلطة أن تبقي على أعوان الحرس هناك لحفظ النظام وحماية المواطنين المرضى بعضهم من بعض بعد أن أقنعوا صالحة ليس دون عناء بترفيع مبلغ المكافأة إلى خمسة دنانير والحال أنّها كانت مصرّة على ألا تتناول أكثر من المبلغ الرمزي للخمسين مليّما التي أوصاها بها الوليّ الصالح الذي ظهر لها في المنام وأعطاها البركة والأمر بالمداواة. أفتى لها أحد الشيوخ الذي قدم إليها خصّيصًا من مدينة القيروان بما يبيح ترفيع المبلغ على أن لا تتسلّم منه غير الخمسين ملّيمًا والبقيّة يتسلّمها عون من إدارة الماليّة سيقف بنفسه على باب عيادتها يستلم الأجرة ويوزّع على الناس وصولا مختومة من وزارة الماليّة...

Twitter: @ketab_n

ـ طيّب، لكن هل أنت متأكّد؟ متأكّد أنّ البلاد آمنة، دون حوادث، مظاهرات، اشتباكات ...

ـ ألا تكفيك هذه المظاهرة الهائلة المتجددة عند صالحة؟ الحياة الوطنيّة كلّها بسرقاتها، وخصوماتها، بيعها وشرائها وتهريباتها، مضارباتها، المغازلات والتحرشات والاشتباكات بالأيدي والعصيّ والهراوات والسكاكين، كلّها هناك عند صالحة...

ـ لا، قصدي... إضرابات... مواجهات بين الأمن و...

ـ عادل، أنا عائد من تونس وليس من فييتنام أو من لبنان يا أخي! مالك تسأل أسئلة غريبة هذا اليوم؟ تعال معي إلى البيت فقد جلبت كمّية من الكسكسي وسمكًا طازجاً وهريسة بلديّة وبرتقالا وشراب البوخا الذي تحبه.

خيبة أمل. شيء من الاحباط سرى إلى عظامي حاولت أن أدفعه عنّي وأنا أقول لنفسي: هذا واحد غبيّ، أعمى، بليد. صالحة، وطبّ رعواني، وأخبار جرائم ومواخير وتفاهات!

وأنا أسير متعثّرًا في هذه الهواجس ألتقي بعلي في شارع سان ميشال في طريقه إلى ساحة السوربون على ما يبدو: وين ها الغيبة يا هرّاب، يا نكّار العِشرة؟

أيّة عشرة وبطّيخ؟ فكّرت. البلاد قائمة قاعدة وهو يحكي لي عن العشرة والمسائل البايخة!

الدنيا قايمة قاعدة في دماغك لا أكثر ولا أقلّ، قال لي علي مكشّرا بابتسامته الجانبيّة الساخرة. هاهو الواقع أمامك، ذلك الذي حدّثك عنه صاحبك العائد من تونس. ذلك هو الصحيح. أنت وأصحابك الثوّارين ـ

Twitter: @ketab_n

عبارته الجديدة التي أصبح يحب أن يطلقها على الثوريين ـ تستمنون في غرف الخدم المعلّقة في الطوابق العليا لعمارات باريس وتحلمون بثورات وانتفاضات وجماهير تهتف بأفكاركم الثوريّة ونظريّاتكم الوهميّة، والجماهير هناك تهتف باسم صالحة؛ امرأة أميّة بسيطة لكنّها تداوي أمراضهم التي حارت فيها الأطبّاء، أو على الأقلّ تمنحهم الأمل في الشفاء والعافية. ها هي الجماهير تقول لكم: طزّ فيكم وفي هرائكم، وخذوه في كذا كذا ... تريد الالتحام بالجماهير؟ هاهي الجماهير، يقول لي ونحن نلج عتبة البار. هنا على الأقل يسكرون ويعربدون ويطربون؛ يعني يعيشون نوعا ما. لِم تريد الذهاب إليهم في المصانع؟ لن تجد هناك سوى آلات. آلات من لحم ودم ـ لحم ودم فاسدين ـ لا فرق بينها وبين آلات الحديد غير الكلام، أعني الكذب، المداهنة والدسائس الرخيصة.

يزعجني علي في مثل هذه اللحظات. يبدو لي مثل مفسد الأفراح. أبتئس، أتوتر، أنكمش على غيظي وأظل أنتظر اللحظة التي سينتهي فيها لقاؤنا كي أفر منه لا أعود للقائه أبدًا. ومع ذلك أعود إليه، إن لم يكن هو الذي يأتي للبحث عني.

كان عليّ أن أقبل به كما هو. كان غامضًا وشفّافًا في الآن نفسه، وكلّ تلك الأفكار والسلوكات الغريبة التي تجعل شخصيّته شبيهة بلغز كانت تخلبني وتجذبني أكثر ممّا كانت تنفّرني بعض حماقاته. حالته المتوتّرة على الدّوام، الصخب الذي يملأ به المكان؛ كلّ مكان ـ عدا غرفته التي تحتضن صمته، ونحيبه شبه المكتوم في بعض الأحيان ـ، طبعه المتفجّر، هيأته التي توحي بالاستعلاء والغرور، مشاحناته التي لا تنتهي، سبابه وشتائمه الفاجرة، ضحكته المصلصلة، تصعيراته الشبيهة بتكشيرة حيوان مفترس مستعدّ للانقضاض، كلّ تلك الأشياء التي كنت

Twitter: @ketab_n

أبدي تبرّمي منها هي بالذات التي كانت تخلبني وهي تتراءى لي مشعّة بطاقة شبيهة بتلك التي تشعّ بها كيانات الأبطال التراجيديّين ضمن صراعهم المتوحّد الذي نُكبره ونجلّه فيما نحن ندرك أنّه لا يؤدّي بهم سوى إلى حتفهم الذي لا مردّ له. لعل ذلك هو ما يجعل حتّى خصومه الأبديّين - أولئك الذين لا يكفّ عن التحرّش بهم ومشاكستهم في حانات سان دني، ولا يكفّون بدورهم عن مناوشته واستفزازه - لا يفلحون إلاّ بعسر في إخفاء إعجابهم وحتّى افتتانهم به واشتياقهم لرؤيته.

وراء الواجهة الصاخبة كنت أستشف روحًا متعبة، قلقًا راسخًا في الأعماق وحساسية مرهفة حدّ الانكسار. حتى عيناه السوداوان الصغيرتان اللتان بدتا لي في البداية تشعان بكثير من الحدة والاستعلاء، هما أيضاً قد كشفتا لي عمقا آخر من خلال غشاوة الحزن الطرية التي تلفهما في حالات الصفاء، عندما يكون كئيبا، أو عندما أفاجئه أحيانا - في العشيّة غالبا - يدخّن وحيدًا في ركن من المقهى الذي يكون شبه خال من الحرفاء في مثل تلك الساعات؛ عندما لا يكون له من موجب للتحصّن، أو عندما يخلع عنه قناع الصلابة والعدوانيّة ويؤوب إلى صقيع وحدته.

Twitter: @ketab_n

مقهى ليشكولييه

في مقاهي المهاجرين في بلْفيلْ وبازباس، في الأسواق وفي مبيتات «السوناكوترا» التي يتكدّس في غرفها الضيقة المهاجرون العزّاب لا حديث للعمال التونسيين إلاّ عن صالحة المتطبّبة. كنّا نعرض عليهم مناشير سياسيّة فيها أخبار عن هرج الجامعة والاضرابات العماليّة وحملات الاعتقال، فيها التنديد وفيها دعايات، وفيها دعوات للمساندة، وفيها كلّ ما من شأنه أن يجعل الكثيرين من أولئك المغتربين يشعرون للحظة بضرورة حزم أمتعتهم والسفر فورًا لزيارة الأهل والاطمئنان عليهم قبل أن تعصف بالبلاد ريحٌ طاحنة تجعل سافلها في أعاليها، وقد تغلَق الحدود بسبب ذلك ويُمنع الدخول والخروج. يتوقّف البعض منهم بين الحين والآخر إمّا مستفسرًا أو معلّقًا، أو لنفي ما تحتويه مناشيرنا من أخبار مفجعة، وتكون لنا معهم نقاشات، وأحيانًا مشاجرات. كلّهم لا يسألوننا الآن إلاّ عن صالحة: هل سمعتم عن صالحة؟ هل صحيح ما يُروى عن هذه الطبيبة التي ظهرت في جهة القصرين؟ وهناك من يروي لنا تفاصيل كثيرة عن كراماتها الخارقة، عن حياتها ونسبها وعما يحدث الآن في ساحة بيتها وفي قريتها البائسة الملقاة بين الجبال.

نعود بمناشيرنا التي بارت بضاعتها أمام كرامات صالحة ومعجزاتها، متعَبين، قلقين ومحبَطين شيئاً ما. يتلقّفنا الرفاق المتمترِسون وراء صلابة

Twitter: @ketab_n

النظريات الثورية، والذين لا يكادون يغادرون بيوتهم الخفية عن الأنظار، فيلقّنوننا درسًا جديدًا في ضرورة المثابرة على العمل الدعائي، يشرحون لنا مسائل معقدة في العلاقة الجدلية بين الدعاية والتحريض، وأولوية هذه على تلك بحسب الحالات ومستوى الوعي ونضج الظروف الموضوعية. نتلقى الحقنة الإديولوجية المنعشة لننطلق في الغد باتجاه حي آخر محمّلين بمناشيرنا وجريدة التنظيم التي لا يشتريها منا أحد، حناجرنا مرطّبة الآن بدهن الدرس الإديولوجي الجديد في انتظار خيبة أخرى وهزيمة جديدة وحصّة إضافية من النقد والنقد الذاتي وإعادة التثقيف...

يلعن دين صالحة، ودين المهاجرين الجهلة، ودين الالتحام بالجماهير! لا بدّ أن أغسل دماغي ببيرّتين في أحد بارات الحيّ اللاتيني. قد ألتقي بجميلة الجزائريّة هناك وهي عادة ما تكون محاطة بعدد من الطالبات تلعلع بينهنّ بصوتها الحادّ: لا أسمح لأيّة واحدة منكنّ أن تتشدّق أمامي بالكلام عن المرأة المتحررة. من منكنّ عرفت من هي المرأة الحقيقيّة؟ المرأة المكافحة الشديدة المتينة، لا قحاب الحركات النسويّة بباريس: *La femme algérienne, c'est ça la femme: la vraie*[1] *femme émancipée*. جميلة من ذلك النوع من النساء حادّات المزاج اللاتي يحملن ألسنتهنّ مثل سياط من لهب. تكبرنا بما لايقلّ عن عشر سنوات، وهي في الحقيقة قابلة، لها وظيفتها القارّة بإحدى المصحات، غير أنّها ملّت، حسب عبارتها الخاصّة، النظر على الدوام إلى النساء من تحت، فقرّرت أن تسجّل بشعبة علم الاجتماع بجامعة باريس الخامسة

(١) المرأة الجزائرية هي المرأة حقًا، المرأة المتحررة الحقيقية!

Twitter: @ketab_n

حيث تعرّفنا عليها. وهي على العموم بإمكانها أن تكون فكهة ومرحة وكريمة علاوة على ذلك لا تكلّ عن دعوة الجميع على كأس، ومن حين لحين تدعوني إلى غداء أو عشاء بأحد المطاعم الصينيّة في شارع سان جاك أو شارع كوجاس المحاذييْن للسربون. تحبّ أيضاً تنظيم حفلات شواء ببيتها، هكذا بمناسبة أو بدون مناسبة تدعو إليها عددًا من الطلبة والطالبات وبعضًا من الأساتذة. في تلك الأماسي تُسكب كمّيات من النبيذ الأحمر لتنقيع كمّيات لا تقلّ عنها كثرة من كوستيليات الخروف والمرقاز (المقانق) المشويّ. تبدأ السهرة عادة بنقاشات ذات مستوى فكريّ جيّد، خاصة إذا كان بين المدعوّين واحد أو إثنان من أساتذتنا. نخوض في مواضيع سوسيولوجيّة وفكريّة متنوّعة، ثمّ ينزلق النقاش رويدًا رويدًا باتجاه الإديولوجيا، فالسياسة كي ننتهي إلى موضوع جميلة المبجّل: المرأة الجزائريّة ودورها الريادي في حركة التحرّر الجزائريّة. عندها نعرف أنّ السهرة قد انعرجت باتجاه التحرّشات والاستفزازات وكذلك الكثير من الدعابة والمرح والضحك، قبل أن تنتهي بخصومة تفتعلها جميلة مع واحدة من الطالبات ثمّ تنتقل من هذه إلى تلك، ثم إلى هذا الذي بدا لها فجأة ذا نزوعات سلطويّة ذكوريّة، أو ذاك الذي تراه مائعًا أكثر من اللزوم أو غير نقيّ من الآراء المسبقة ذات الصبغة الاستعماريّة، إلى غير ذلك من التهم التي يخجل لها كلّ طالب أو مثقّف يدّعي لنفسه شيئًا من التقدّميّة والتحرّر الفكري.

لو أنّني أعثر الآن على جميلة في مقهى ليسكوليبه وسط كوكبة من الطالبات ستكون أجمل هديّة أو مكافأة لي بعد هذه الأسابيع الطويلة من الهيجان ولغط الطلبة المناضلين وهراء العمّال المهاجرين. لكن عليّ أن

Twitter: @ketab_n

أسعى قدر الإمكان لفرض طابع مرح وعابث على الجلسة كي لا ندع فرصة لجميلة لترجمنا ببطولات المرأة الجزائريّة مرة أخرى.

ـ وينكم؟ وين؟ وين أنتم كلكم؟ منذ ثلاثة أيام وأنا أجوب المقاهي ولم ألتق أحدًا منكم!

وجدت المولدي وليس جميلة في مقهى ليسكولييه بساحة السوربون. كان جالسًا إلى حسن الذي نلقّبه بالفيلسوف.

هكذا هو المولدي دائمًا، يغيب عن الأعين شهرًا، شهرين وأكثر وعندما يبرز فجأة يقلب الدنيا، كما لو أنّ الناس كلّهم هم الذين غادروا البلاد دفعة واحدة وتركوه هناك وحيدًا. لا أحد يعرف أين يختفي، ومن أين يبرز فجأة، وهو منذ انفصاله، أو فصله من التنظيم قد غدا مثل طائر مهاجر؛ مرّة في سترازبورغ، ومرّة في نانت، أو برلين أو أمستردام، وأحيانًا يدّعي أنّه عائد للتوّ من نيويورك أو هونغ كونغ. في كلّ عودة يأتي مشحونًا بأفكار جديدة وحكايات غريبة وسباب وشتائم ضدّ الرجعيّة والرأسماليّة والإمبرياليّة ودوغمائيّة الأحزاب اليساريّة عامّة. يظلّ لأسابيع يركض من بار إلى بار في الحيّ اللاتيني، يلتقي بمختلف أصناف الحركة اليساريّة التونسيّة، يتخاصم، يشتم، يكرز لنظريّات جديدة ويبشّر بكتب وأفكار مجهولة لدى أغلب هؤلاء: هوركايمر، هابرماس، حنّا أرندت، هربرت ماركوز، أدورنو، فالتر بنيامين. هؤلاء هم أنبياؤه الجدد في المدّة الأخيرة، وفوق الجميع فيلهلم رايش الذي يستشهد بنظريّته وتحاليله وهو يكرز بين اليساريّين للتحرّر الجنسي كقاعدة أساسيّة للوضوح الفكري. بعد أن يشبع خصومات وجدالات يختفي مجدّدًا، هكذا فجأة ودون سابقِ إنذار. لكنّه عندما يريد أن يأخذ له في الأثناء هدنةً في معركته الدائمة مع الطلبة اليساريّين يأتي إلى مقهى ليسْكولْييه

Twitter: @ketab_n

ليلتقي بحسن الفيلسوف الذي يجلس هناك على الدّوام ولا يكلّم إلاّ عددًا محدودًا جدا من الناس.

حسن لا يكاد يغادر مقهى ليسكولْييه، تراه يقرأ وحيدًا أو يجلس صامتًا لساعات طويلة، وعندما يطلّ عليه واحد من الطلبة الملتزمين يشير بيده من بعيد أن مرّ ولا تتوقّف. لا أحد يعرف أين يسكن. ولا ماذا يأكل. يشرب قهوته السوداء صباحًا ولا حاجة له في أن يعرب عن طلب؛ حالما يدخل محيّيًا صاحبة المقهى بحركة مقتضبة من رأسه تبدو كما لو كانت ملفوفة في غبش النوم، تسارع بإعداد قهوته ثمّ تضعها أمامه على طاولة الركن الخلفيّ الذي يحبّذ دومًا الجلوس فيه. تتفقّده كلّ ساعة تقريبًا بقهوة سوداء إضافية. عصرًا يفعل الجرسون الطويل النحيل نفس الشيء، لكن بالبيرّة هذه المرّة. لم نره يومًا واحدًا يدفع حسابه. ولم يقبل ولو مرّة واحدة أن يدعوه أحد على شراب. كان يجيب دومًا بكلّ لطافة: شكرًا، لا تزعج نفسك. عندي اشتراك شهريّ قارّ. وهل رأينا مرّة واحدة ماذا يقرأ؟ أبدًا. يخبّئ الكتاب عندما نقترب منه، وإذا ما تجرّأ واحدٌ وسأله عمّا يقرأ، يجيب بحدّة واقتضاب: ما هذا الفضول يا سيّد؟ هل نحن في عهد محاكم التفتيش؟ لا يفارق معطفه الأسود الطويل أكثر من شهرين في السنة على أقصى تقدير. يقول عنه إنه عباءة البركة. قال لي المولدي بعدها إنّه يستعمله لتخبئة الكتب التي يسرقها من المكتبات المجاورة.

لا يرحّب حسن إلاّ بالمولدي. ولا يقبل بأن نجلس إليه أنا وحسني إلاّ عندما نكون بصحبة المولدي. له حساسيّة جلديّة ضدّ السياسة والأيديولوجيات عامّة، واليسارية منها على وجه الخصوص. يردّد دومًا أنّ فلاسفته ومعلّميه هم عمر الخيّام وحافظ الشيرازي وأبو نواس وابن الرومي ولوقيانوس والشيخ النفزاوي صاحب «الروض العاطر في نزهة

Twitter: @ketab_n

الخاطر» والتيفاشي، والوهراني صاحب «المقامات والمنامات» وجلال الدين الرومي وابن عربي.

له أيضاً صداماته مع المولدي الذي يبدو له مشوّشا بالأفكار اليسارية.

- لكننا في مرحلة معركة للخروج من التخلف والتبعية، أتعتقد أنك ستستطيع مواجهة الإمبريالية الحديثة بعمر الخيام وحافظ الشيرازي وابن عربي والسهروردي؟

- أجل، بهؤلاء سنواجه كل أنواع التبعية، وعندما نعيد بناء أنفسنا على قاعدة من محتوى فكري وفني عميق، عندها سيمكننا أن نواجه مهمات الخروج من التخلف. ويساركم هذا الذي يتخذ مرجعية له في فلسفة البطون الجائعة لا يستطيع أن ينتج ثقافة ومعرفة.

- الفكر اليساري، أحببت أم كرهت هو فكر العصر، والثقافة العربية الغارقة منذ قرون في التحجر والانحطاط ليس لها من إمكانية للنهوض وإعادة بناء نفسها إلا من صلب الفكر اليساري وعن طريق اليسار.

- انطلاقا من كتاب رأس المال، قرآنكم الجديد؟ هناك مبدأ فلسفي وطبي صيني قديم شهير يقول بأنه لا ينبغي على المرء أن يتغذى إلا مما ينبت فوق أرضه، وبه أيضاً يعالج أمراضه.

- معاداتك الجذرية للماركسية وكل الأفكار اليسارية تصب بالنهاية في طاحونة الرجعية وتعيق حركة...

- طاحونة! قاطعه بحدة وهو يدفع بكفه كأس البيرة ومطفأة السجائر كما لو كان يريد أن يكنس الطاولة التي أمامه. دع عنك هذه اللغة البليدة إن كنت تريد أن ترتقي إلى مستوى نقاش رفيع؛ ما من صبّ هناك ولا مصبّ ولا طواحين، ولا أنا بطحّان، والآن استمع إليّ جيّدا:

Twitter: @ketab_n

لا أنا من اليمين، ولا أنا من اليسار؛ لا أنا من الشيوعيّة، ولا أنا من الرأسمالية؛ لا أنا من القديم، ولا أنا من الحديث؛ لا أنا من الكفر، ولا أنا من الإيمان؛ بل أسبح «في برزخ بينهما فلا يبغيان».

عندما يثقل عليه نقاش يبدو له أنّه طال أكثر ممّا ينبغي يستدير بظهره عن مجالسيه ويرفع عينيه إلى السقف مردّدًا:

«هيهات لمن يسعون في الحياة بفكر وعقل،

فإنّهم إنّما يحلبون ثورًا.

أصوب رأيًا منهم أولئك الذين اتخذوا البلاهة ديدنًا

في زمن لا يباع فيه العقل الناضج بقبضة من العشب.»

ثمّ يلتفت إلى المولدي أو منذر الباجي الذي كان اسم ابن رشد لا يفارق لسانه: لم يفهم صاحبك ابن رشد الفقيه المالكي شيئاً من هذه المسائل وما كان له أن يفهم مثل هذه الأمور، لذلك وقف وقفة المذهول الداهش أمام الفتى ابن عربي لا يفقه ممّا كان يقوله له شيئًا. كان ذلك اللقاء كارثة على الفيلسوف الفقيه العقلاني، بينما الفتى كوكبة من نور أمامه، متوقّدًا كان بلهب روح العرفان: تقاطعا ولم يتحاورا. الفلسفة العربيّة! يا للفلسفة البائسة في لهاثها المحموم وراء تركيز النظم وترتيب العالم، وهوسها بمحاصرة الفوضى الكونيّة الواقعيّة بأوهام النظُم والمنظومات! من أين لنا بواحد مثل لوقيانوس ليفضح أكاذيب أولئك الفلاسفة وادعاءاتهم وتهافت عملهم؟ لوقيانوس لا أبو حامد المتهافت بمثل تهافتهم. أبو نواس أكثر حكمة وعمقًا من كلّ المشّائين والمعتزلة والمتكلّمين؛ هو الذي سخر منهم جميعًا بتلك المقولة الرائعة:

Twitter: @ketab_n

قل لمن يدّعي في العلم فلسفة

حفظتَ شيئًا وغابت عنك أشياء.

هي ذي فلسفة وجود أصيلة. إنسانيّة ـ جدّ إنسانيّة.

مع حسن تكون للمولدي، إلى جانب المشاحنات والنقاشات الحادة حول ماركس وهيغل، نقاشات عن أفلاطون وأرسطو ولايبنتز وسبينوزا وشوبنهاور والفلسفات الهنديّة والصينية القديمة. وعندما يكلاّن من التسكّع في رحاب الفلسفة الكونيّة يتخلّصان إلى الشعر عن طريق عمر الخيّام دائمًا، ثمّ أبي نواس، قبل أن تنتهي جلستهما إلى طراوة الدردشة المرحة المبهّرة بالنكات الفاجرة وطرائف المُلح الجنسيّة وعينا المولدي السوداوان النشطتان تدوران الآن بخفّة في محجريهما، تلتهمان نهود وأفخاذ الحريفات وهنّ عادة من طالبات السربون اليافعات، بينما عينا حسن الغائرتان بعيدًا وراء نظارتيه تغوصان أكثر باتجاه الداخل متمرّغتين في عالم فنطازية رغباته التي تحوّلت الآن هذيانًا شبقيًّا داعرًا ومليحًا ملاحة قصائد أبي نواس وممتلئة في الآن ذاته امتلاء أشعار الخيّام. قدّيسٌ مرح داعر، عميق وشبقيّ.

كانا يتحدّثان عن صالحة المتطبّبة! بل المولدي هو الذي كان يتكلم وحسن ينصت بشيء من الضجر والتبرم.

ـ تمام، تمام! نطق حسن أخيراً وهو يبتسم بخبث، أمّا أنا فأنصحك يَا مولدي، أنت وأصدقاءك اليساريين المؤدلجين حتّى النخاع(ولم يغفل عن قذفي بنظرة سريعة، كما لو كان يقول لي: وأنت واحد منهم) أن تذهبوا جميعًا إلى صالحة هذه وتدَعوها تبصق في أدمغتكم كي تشملكم بركة الوليّ ورحمة الله، ويُرفع عنكم هذا الكابوس الجاثم على عقولكم، فتتفتّح أذهانكم وتتعافوْن.

Twitter: @ketab_n

وضع الجرسون بيرّة جديدة أمام حسن فكانت فرصة كي ينسحب من ذلك الحديث الذي غدا يضجره. تناول الكأس ورفعها متغنّيًا بصوته الرخيم الناعس:

فرّح قلبك وروّح نفسك بكأس عقار تُسقاها؛
دع عنك ذكر الماضي ولا تحفل بالآتي،
واطلق سراح هذه الروح المستعارة،
وفكّها من قيود العقل والمنطق.

ثم انطلق في سرد وقائع ونوادر من حياة عمر الخيام.

*

لحسن قدرة فائقة على ضرب سياج واق من حوله وعلى تجاهل الآخرين بطريقة تجعلهم لا يجرؤون على الاقتراب منه في زاويته الدائمة في مقهى ليسكولييه. أحيانا يكون غارقًا في القراءة منشغلا عن كل ما يدور حوله، وأحيانا يبدو ساهمًا ينظر إلى الفراغ في حالة من الغياب الكلّي. لكنه كان يسمع كل ما يدور من حوله من نقاشات، بصمت ودون أن يرفّ له جفن. كنت معجبًا بكثير من أفكاره ومقولاته، لكنني لا أرتاح إلى غروره وطريقته المتعالية التي يتعامل بها معنا وأسلوبه الكلبيّ الساخر الذي ينحو إلى الهزء أكثر مما يدعو إلى الحوار والمجادلة. ذات مرة ناداني وأنا أهمّ بالخروج من مقهى ليسكولييه بعد أن ألقيت نظرة ولم أر أحدًا من أصدقائي هناك، لا حسني ولا المولدي ولا حتى جميلة الجزائرية: تعال يا متمزكس، تعال! أتتذكر تلك الحكمة الطبية الصينية التي حدثتكم عنها ذات مرة؟ أنت وأصحابك تلتهمون من كل شيء دون فرز. أتدري ما هي مشكلتكم، أنتم وكل المتمركسين العرب؟ إنكم تأكلون مما يفلح غيركم عوضا عن أن

Twitter: @ketab_n

تتملكوا بالمنهج والأداة وتفلحوا أرضكم بأيديكم. اذهب الآن تصحبك السلامة.

لا أدري لِم عنّ لي فجأة أن لا أسكت عن استفزازه هذه المرة. كفى من هذا التسلط الأبوي الذي يمارسه علينا، قلت لنفسي، اليوم سأكسر رقبة تعاليه وغروره. عدت إليه وأنا أنظر بهدوء في عينيه الغائرتين وراء نظارتيه السميكتين:

ـ يا سي حسن، أولا، من يضمن لك أن صاحبك الحكيم الصيني هذا قد قال فعلا هذا الكلام؟ وأنه ليس كلامًا مما يلفّق لغايات بعينها وينسب إلى حكماء مزعومين؟ ثانيًا، ما الذي يجعلك تأخذ كلام هؤلاء الحكماء الصينيين كما لو أنه كلام منزّل منزّه من الخطأ؟ ثم إن هؤلاء صينيون، أليس كذلك؟ أي أنّ الحكمة التي تستقيها منهم ليست من نتاج أرضك هي أيضًا. ألا ترى أنك تناقض نفسك في جملة واحدة؟

ثالثًا، لِمَ تنكر علينا نحن إذن أن نتخذ من ماوتسي تونغ وأفكاره مرجعًا والحال أنه من بني عصرنا، وممن نشترك معه في إديولوجيا من نتاج عصرنا هذا وليست كلام أناس من العصور الغابرة؟ ألا يراودك أبدًا شيء من الشك في مقولاتك وأفكارك، انت الذي ما تنفك تسخر من وثوقنا ودوغمائيتنا؟

سألني المولدي عندما التقيته بعد يومين: ما الذي حدث بينك وحسن؟ وجدته في حالة من الغيض والهيجان على إثر لقائك الأخير به. وقبل أن يسمح لي بالجلوس طلب مني بإلحاح أن لا أفرض عليه بعد اليوم مجالستكما أنت وحسني.

ـ صاحبك هذا دجال وكذاب، قلت للمولدي. يتباهى بترديد مقولته المبجلة: ديني لنفسي ودين الناس للناس، في حين يريد أن يجعل من أفكاره دينًا يفرضه على الناس بطريقته المتعالية وسخريته الساحقة.

Twitter: @ketab_n

القاع المظلم

لعليّ ساعات صمت ثقيلة في بعض الأحيان. صمت يجعل الهواء من حوله يتخثّر ويغدو بثقل الرّصاص. كتلة من الغموض والألغاز تتكثّف فوق وجهه الأسمر الدّاكن الذي يزداد قتامةً. عاصفةٌ خرساء تستعر في جوفه تكاد تحوّل ذلك الصمت إلى جوقة زاعقة بأصوات عديدة متضاربة. يصمت، ويدخّن. ينفث الدخان دفعات متتالية توقّعها اختلاجات عضلات الفكّين والرّفيف المضطرب لعروق صدغيه ورقبته المنتفخة تكاد تنفجر. يبهت البريق الذي تلتمع به عيناه عادةً وتنقبض شفتاه. وينحسر أنفه. تكاد ملامحه كلّها تغيب في ظلال العروق الناتئة المتوتّرة على رفيفها المسعور. يبدو لي حينها كما لو أنني أجلس إلى كدس من الحجارة الثقيلة. لكن الحجارة لا يزعجها قرب أحد منها أو جلوسه فوقها. أعرف، أو أحزر أنّه يودّ أن يكون وحده، لأنّه في مثل هذه الحالات ليس هنالك أثقل من وجود شخص غريب عن ذلك الهرج، شخص قد يبدو مربَكًا لا يدري ماذا يفعل بلسانه ويديه وعينيه. محرَجًا ومحرِجًا يغدو الشاهد الذي يظلّ خارج اللجّة، عنصرًا غريبًا يشوّش الحفل ويربك المسيرة الطبيعيّة لتلك الفوضى التي لا تنتظم إلاّ بقوانينها الدّاخليّة. وقد يسعى الشاهد الغريب بمجرّد نيّة ساذجةِ الطِيبة إلى التدخّل سائلاً، مستفسرًا أو مواسيًا ومحاولاً التخفيف أو التفريج فلا يفعل سوى أن يدخل اضطرابًا أشدّ على الحالة التي لا تتحكّم إلاّ

Twitter: @ketab_n

بذاتها. حالة لا تنشد أيّ توازن أو انفراج بقدر ما تحتفي بفوضاها داخل الهرج والألم، لأنّه لا خلاص لها إلاّ في دفع الهرج حتّى المنتهى؛ باتجاه التخوم التي يصبح الجنون فيها متنفّسًا ومفرّجًا للتوتّرات.

أشعر أنّني تحوّلت إلى ما يشبه عجلة خامسة في العربة فأنسحب بهدوء.

أحيانًا يغتبط عليّ لتلك الهدنة التي ستجعله يسبح بحريّة داخل الدهاليز المعتّمة بين تلك الأمواج الداخلية التي يصرّ على التكتّم عليها؛ حُرْمته التي لا يودّ أن ينتهكها عليه أحد. وأحيانًا يفتح النافذة ويطلّ برأسه على الساحة الخلفيّة التي يفضي إليها مدرج العمارة. ينتظر حتّى أنزل ليصرخ فيّ من فوق: يا مجنون! يا مجنون! ماالذي لسعك في أذنك؟ آش ها المسرحيّات؟

ثمّ بهدوء ولين: تعال... تعال يا رجل إنّي أريدك في مسألة هامّة!

عندما أصعد الدّرج من جديد وأدفع الباب يكون قد لبس الجاكيتة الجلديّة السوداء وهو بصدد انتعال حذائه أو تسريح شعره الأجعد الذي يحرص دومًا على تصفيفه على طريقة همفري بوغارت الذي كان مفتتنًا به. غير أنّ نوعيّة شعره وكذلك شكل رأسه المستطيل شيئًا ما لا يساعدانه كثيرًا في ذلك، فكانت النتيجة أن يتخذ رأسه هيأة خاصّة به لا هي كهيئة همفري بوغارت، ولا جون لي هوكر الذي يشبهه إلى حدّ ما. رأس علي التومي التي لا تشبهها رأس.

نطلق مباشرة باتجاه الرحلة الطقوسيّة بين البارات.

يـــقـــول *A nous, et à la vie de chiens heureux que nous menons!*[١]

---

(١) على صحتنا، ونخب حياة الكلاب السعيدة التي نعيشها.

Twitter: @ketab_n

وهو يضع يده على كتفي ويرفع بالثانية كأس البيرة. ثمّ بلهجة بين التوضيح والاعتذار: «كنت بصدد ترتيب بعض من الفوضى التي تجعلني أحيانًا أشعر بالاختناق».

- الفوضى... تقصد...

- إنس الموضوع... كلام فارغ.

ثمّ يغيّر موضوع الحديث.

«إنس الموضوع». لا أدري هل تلك العبارة نوع من الاعتذار، أم هي ضرب من صدّ الخجل الذي يشعر به بسبب حالة ضعف محرجة كشفت نفسها أمامي مثل عورة يسعى المرء دومًا إلى سترها عن أعين الآخرين؟ هل هي موجّهة إلي كي لا أشغل نفسي كثيرًا بمسألة لابد أن أعتبرها مجرّد فاصلة تافهة لا يجدر التوقّف عندها؟ أم هي الزفرة الأخيرة التي تدفع الغصص وتضع حدًّا لانتفاضة الحزن التي كانت تخضّه؟ أم تراها طريقة مواربة لصدّي وتحويل اهتمامي عن الباب الذي انفتح للحظة ثم انغلق مجدّدًا على ذلك الدهليز الغامض المضطرب؟ ما الذي يريد أن يخبّىء وراء ذلك الباب الذي يوصده بعبارة «إنس الموضوع»؟ كأنّه صمت آخر من نوع ثان يسدله على الصّمت الصاخب الذي كاد ينطق ويفضح سرًا لا يودّ أن ينشره على السطح فيغدو نهبًا لعيون الفضوليين.

كلّ ما يمكن أن أظفر به منه هي هذه العبارة التي يقفل بها الحديث غالبا: مالذي تريد أن تفهم؟ إنسَ الموضوع يا رجل!

يراوغ، أو يتظاهر بالنسيان وهو يقتّر شتات الأحداث تقتيرًا. هل يعقل أن يكون بلا طفولة؟ هل يعقل أن ينسى المرء تجارب حياته بهذه السهولة؟

Twitter: @ketab_n

ـ نسيت. ورحمة أمّي نسيت! ذلك هو جوابه الدائم تقريبا. وفي ماعدا ذلك نتف مشتتة من هنا وهناك: أتذكر أنّه (ضمير الغائب يعود دوما على أبيه، الذي لا يسميه بإسمه ولا ينطق أبدا بعبارة أبي عند الحديث عنه) أخذني إلى حومة باب الجديد. دخلنا دكّان حلاق، وكان ذلك أمرًا غريبًا عليّ لأنه لم يخطر له مرّة واحدة أن يأخذني إلى الحلاّق. كان هو الذي يحلق شعري، وأحيانًا أمّي، بمقصّ عتيق صدىء ينتف الشعر أكثر ممّا يقصّ. وكان ذلك يؤلمني جدًّا. كنت أشعر بجلدة رأسي تسلخ سلخًا. لم تبد على الحلاق علامات غبطة أو ابتهاج لرؤيتي. ولم أكن لأعير اهتمامًا كبيرًا لذلك. كانت تشغلني المرآة الكبيرة التي رأيت فيها جسمي كاملاً وقوارير العطور الكثيرة ذات الألوان الزّاهية، ومن ورائها تظهر صورة رئيس الجمهوريّة الذي تراءى لي كما لو أنه يقف وراء بسطة لبيع العقاقير. سمعت أبي يقول له: حاسبني بجلده. تلك العبارة نفسها التي سمعته يقولها للمؤدّب يوم جاء إلى الكتّاب يوصي بي شرًّا. لم يبخل عليّ المؤدّب آنذاك بعصا الزيتون القاسية. طبّق التوصية بحذافيرها، بل وزاد في الأمانة حتّى هربت من الكتّاب وأنا لم أتعلّم أكثر من «بسم الله الرحمان الرحيم». خرجت من هناك «ألِفٌ لا شيْ عليه» كما يقولون. رأيت أنه ابتهج كثيراً لمغادرتي الكتّاب، إذ كان عمّي هو الذي أصر على أن يأخذني إلى هناك، بينما كان هو يردّد بين الغضب والسخرية: سيبك ياراجل من ها الهدرة البايتة، ولد الفار يجي حفّار! وكان لابدّ أن يلقى بي إذن في دكّان ما كي لا أظل أجوب الأزقة، علاوة على المبلغ الذي سيحصل له من وراء عملي. أظنّ أنّني كنت في الثامنة، أو التاسعة من عمري آنذاك.

لم أهرب من دكّان الحلاّق بسرعة كما فعلت مع الكتّاب. لم يكن سي حمّادي يبخل عليّ بالتوبيخ وتمطيط الأذنين لأبسط هفوة، لكنّه كان

Twitter: @ketab_n

يناولني خمسين مليمًا مساء كل يوم أحد، على عكس المؤدّب الذي كنت أسلّمه خمسين مليمًا عشيّة كلّ يوم خميس، عدا ما يدسه هذا الحريف أو ذاك في يدي بين الحين والآخر. كان ذلك على ما يبدو هو ما حمّس أبي أكثر في مطالبة الحلاّق بمحاسبته بجلدي. كان يعجبني أن أعود في مساء يوم الأحد إلى البيت وأنا أتجسّس في جيبي دفء القطعة المعدنية، ثم أسمع أمّي وهي تدعو لي بالهداية والصلاح وأشياء أخرى كثيرة. ذلك طبعًا عندما ينشغل أبي بشيء ما فينسى أن يأتي إلى الدكّان ويتسلّم ذلك المبلغ الزهيد بنفسه، وهو نادرًا ما يحصل. سي حمّادي الحجّام على أيّة حال رجل مرح، على عكس المؤدّب المكفهرّ على الدّوام، ولم يكن يطالبني مثله بالجلوس ساعات عديدة وترديد كلام غريب لا أفهم منه شيئًا. كان كلامه عاديًا ومفهومًا على الدّوام: هات قهوة لعمّك سليم يا ولد. قل للقهواجي ثلاثة تاي بالنعناع وشربة ماء باردة. أكنس المحلّ وانتبه إلى الشعر الذي تحت الكراسي. افتح عينيك ويكفي من التبهليل والاستماع إلى ما لا يهمّك. قل صحّة وعافية لعمّك المختار يا أبله! وامسح الشعر عن رقبته. سدّ وذْنيك، هذه ليست حكايات للأولاد الصغار. ألم أقل لك ادخل المقصورة وسدّ وذنيك يا بليد، يا قليل الحياء! *عليها برْدعة يا سي محمود. وصواري اللهمّ صلّي على النبيّ! من وين تمدّ يدك تلقى خير الله. وهاك الصدر! وهاك الرائحة الطيّبة! نقول لك مسْك، تقول لي تكذب. نقول لك عنبر، تقول تكذب. والعين واسعة سوداء مرخّمة الأشفار. مميّهة، مذبّلة، ناعسة. شيء يجنّن، يجنّن. وأنا خوك فين تلقاني! تقول خرجت من عقلي؟ نبيع جلدي؟ نبيع روحي؟ نصير خادم عندها نغسل ساقيها، غير تمسّ يدي هاك اللحمة اللّي.. شيء لا يوصف يا سي محمود! هو مرمر؟ هو*

Twitter: @ketab_n

بلاّر؟ هو ياقوت؟ *هي دوخة، سكرة، تشرْشيمة. تقول للقمر أطلع أو خلّيني أطلع مكانك!* ـ موش قلت لك أدخل المقصورة يا فرخ الحرام وسدّ وذنيك! تنسْنسْ وتتلصّص؟ تحبّ تتعلّم الفساد يا كلب؟

دومًا كان عليّ أن أقلب وجهي وأسدّ أذنيّ. عند سي حمّادي الحجام أقلب وجهك وسدّ وذنيك يا فرخ، عند سي عبد الرّحمان الفطايْري أقلب وجهك وسدّ وذنيك يا كلب! عند سي الطّاهر النجّار: موش قلت لك كفّ عن التلصّص على حديث الكبار يا فاسد؟ عند سي عبد الكريم الميكانيكي، عند رحومة القهواجي، عند احميدة الخيّاط، في الحمّام، عند الحدّاد، عند الدبّاغ، عند خالتي زهرة الماشطة، عند بيّة الهجّالة التي يدخل الرجال بيتها خلسة من باب الحديقة الخلفي، عند للّة منجيّة زوجة الضّابط العسكري كثير الغياب: ـ *يكبّ سعدو ما أحرّ عينيه فرخ الحرام! ووه، يا شومي الولد كاسر وذنيه يتلقّف في الكلام! حطّ الصينيّة ويكفي من التلوصيص والتبهنيس يا فرخ!* أقلب وجهك! سدّ وذنيك.. أقلب وجهك. أقلب وجهك. أقلب وجهك... حتّى قلبت وجهي نهائيًا من دين امّ البلاد بكلّيتها.

ماذا تريد أن أحكي لك؟ أشياء كثيرة قد غابت عن ذاكرتي نهائيًا، وأشياء كثيرة لا أفهمها. أحتاج أحيانًا إلى ساعات من الوحدة والصمت، أحاول التسلل بخطى السارق نحو هذا الدّهليز المظلم (ويشير بيده إلى صدره). كلّ شيء هنا... مثل كومة من الحجارة والتراب والقاذورات. أحيانًا يخيّل إليّ أنّني أسير متعثّرًا داخل غابة كثيفة مظلمة ولا شيء ينير سبيلي أو يساعدني على شقّ طريق لي بين الأدغال والأشواك. أحيانًا تنسدّ في وجهي كلّ السبل ويضيق بي الفضاء حتّى يكاد صدري ينفجر

Twitter: @ketab_n

فألجأ إلى هذه ـ ويشير إلى الفرشاة والأصباغ. أقول لعلّ البئر تقذف بما في جوفها، لا يهمّ إن كانت عفاريت أو سوائل قذرة أو زهورًا... المهمّ هو أن أتفادى الخروج والخصومات والمشاكل. في مثل تلك اللحظات يمكنني أن أرفس أيّ وغد يعترضني مثل حشرة. كرهت النزاعات والمشاكل... أف، إنسَ الموضوع!

*

Twitter: @ketab_n

لكن أين اختفت جوزيفين؟

لم أنس جوزيفين. شغلتني عنها الأحداث الأخيرة دون أن أنساها. هاهي موجة الهرج تهدأ الآن قليلا فيعود الواحد إلى نفسه قليلا. يتفطّن أنّ له رغبات قد جمّدت لفترة لكنّها لم تندثر. في الواقع جوزيفين هي التي اختفت فجأة وانقطعت عنّي أخبارها. ذهبت مرّتين إلى بيت فرنسواز ولم أجدها. قالت فرنسواز إنها هي أيضًا لا تعلم عنها شيئًا. انقطعت عن المجيء لمدّة أسبوع لكن دون أن تأخذ حقيبتها، وذات يوم جاءت في غيابها، أخذت حقيبتها وتركت لها المفتاح في صندوق البريد، ولم تعد.

ذهبت إلى سان دني بعد انقطاع دام ما يقارب الشهرين. لقائي الأخير بعلي، وإن لم يخل من شيء من الحدّة، في البداية خاصّة، خلّف لدي انطباعات غامضة؛ مزيجًا من الارتباك واللذّة؛ ربّما نوعًا من رطوبة المشاعر. شيء رقيق ودافئ سرى إلى نفسي التي كانت على غاية من التوتّر بسبب الأحداث الأخيرة. عدت قليلا إلى نفسي. وابتعدت قليلا عن الهرج الذي كان من حولي. بحثت عنه في بار مدام روز، ومقهى لي مارشي، وأماكن أخرى عديدة ولم أجده، فذهبت إلى فرنسواز. قالت إنّها رأته قبل يومين جالسًا في مقهى لي مارشي عشيّة. أمّا جوزيفين فلم ترها بعد اختفائها. ـ لعلّها عادت إلى أهلها في مدينة نانت، قالت فرنسواز، لأنّها كانت محبطة وحزينة ويائسة. أو لعلّها

Twitter: @ketab_n

عادت إلى أولئك الناس الذين فرّت منهم ...من يدري؟ أضافت فرنسواز بشيء من الاستسلام البارد الشبيه بحكمة من لا يسعى لردّ القدر.

- لا، لا أظنّ. لا هذه ولا تلك. تعود إلى بيت أمّها وعشيق أمّها الذي يغتصبها؟ أو إلى عالم المومسات الذي ذاقت فيه العذاب والهوان؟

- بل لن تذهب إلاّ إلى واحد من هذين المحلّين، لأنّها كانت على درجة من اليأس والقنوط لا يمكنها معهما أن تتحرّك أيّة حركة مستقلّة. من يستسلم إلى القنوط واليأس تشلّ عزيمته، يضعف صموده وتتدهور قوى المناعة لديه. ثمّ لا تنس يا عزيزي أنّ الضحيّة غالبا ما تعود إلى جلاّدها، لا لشيء إلاّ لأنّ الجلاّد يقتل فيها بسرعة كلّ قدرة على التحرّر، ويبثّ فيها خوفًا من كلّ مغامرة جديدة يمكن أن تضعها فريسة لجلاّد أو جلاّدين جدد غريبين لا تدري ماذا يخبّؤون لها من أصناف جديدة من العذابات.

ها هي بدأت تعقّد الأمور أكثر ممّا ينبغي. فرنسواز بلبلت رأسها النظريّات الغريبة لعلم النفس، قلت لنفسي. جوزيفين لن تعود إلى جلاّديها! إنّها بالتأكيد تجاهد الآن وتصارع في مكان ما من باريس. سأبحث عنها في كلّ مكان، وسأجدها. لدي شعور عميق وواثق بأنّني سأجدها.. لعلّها لم ترد أن ترهقني أكثر بمشاكلها ففضّلت أن تقذف بنفسها في اليمّ معوّلة على طاقاتها الخاصّة، وعندما تتمكن من الوقوف على قدميها من جديد ستبحث عنّي. ستذهب إلى فرنسواز وتترك لي عنوانها كي نلتقي من جديد. أنا متأكّد من ذلك. لعلّها تنتظرني منذ ما يقارب الشهرين الآن ... وأنا؟ ماذا فعلت؟ كنت منشغلا عنها بوهم ثورة كنت أعتقدها قد اندلعت، أو على وشك الاندلاع. كنت حريصًا على

Twitter: @ketab_n

عدم تفويت الفرصة، أن لا يفوتني القطار فأظلّ واقفًا مثل الأحمق على رصيف محطّة مهجورة واقعة على حافة التاريخ.

والآن؟ تخلّت عنّي آن ماري بعد أن عاد صديقها القديم من أمستردام. وبريجيت التي أبدت لمدّة طويلة اهتماما بي هي أيضًا أعياها الانتظار وتردّدي وتعثّري في الخجل فأتخذت لها صديقًا، وعندما سألتها جميلة الجزائريّة: ألست صديقة عادل؟ أجابتها بكلّ سخرية: القدّيس عادل! من أين لك مثل هذه الأفكار الخرقاء يا جميلة؟

روت لي ذلك جميلة في ما بعد وهي تؤنّبني على تزمّتي الشبيه بتبتّل الكهنة: راك باش تولّي ببّاصْ آ سي عاديل! ما ناقصاتك غير[1] *la soutane*، وصافي! من غير ما تدير هذيكة العمامة ديال شيوخ الإسلام، هاذوك راهم يحمقوا على النساء! واش هذا الماركسيزمْ لينينيزمْ ديالكم يحرّم عليكم هذاك الشّيْ وإلاّ أنا ما فاهمة والو؟

(١) عباءة الرهبان.

Twitter: @ketab_n

فرنسواز

اعترضتني فرانسواز في مدرج العمارة. كانت على حالة من الهلع لا توصف. سلّمت عليها فأدارت وجهها ونزلت الدرج مسرعة، كما لو كنت شبحًا مخيفًا. لكنني استطعت أن ألمح احمرار عينيها وكذلك شعرها المنفوش. لم أتردّد. ولا حاولت الإلحاح عليها أو سؤالها عمّا حصل. صعدت الدرج قفزًا. المجنون! الأحمق! فرنسواز أفضل أصدقائه في هذه البلاد، بل في الدنيا كلّها. ماذا فعل الأحمق؟

رفض أن يفتح الباب، أو حتّى الإجابة على نداءاتي المتكرّرة الملحّة: علي! علي! علي افتح وإلاّ سأكسر دين أمّ الباب. عرفت أنّه لن يفتح حتّى لو كسرت رأسي على الباب فنزلت الدرج مجدّدًا وانطلقت أبحث عن فرنسواز. لكنّها قد اختفت.

قرعت الباب بإصرار وعناد هذه المرّة، الأمر الذي جعل بعض الجيران يفتحون أبوابهم، منهم من يرمقني بنظرة قاسية سامّة ثم يغلق باب شقّته بعنف كي يفهمني مدى انزعاجه، ومنهم من يهدّد بمكالمة البوليس. آخرون اكتفوا بالغمغمة بسباب وتوعّدات غامضة من وراء أبواب شققهم المقفلة.

فتح لي بالنهاية، ودون أن ينطق بكلمة واحدة عاد إلى الفراش. كانت الغرفة على حالة غير عادية من الفوضى. أعقاب سجائر متناثرة في

Twitter: @ketab_n

كلّ مكان، زجاجات بيرّة، كؤوس وصحون مهشّمة في مدخل المطبخ، أوراق ملطّخة بالصباغ؛ بعضها لوحات مكتملة وأخرى مجرّد رسوم أوّليّة وتخطيطات غامضة، ممزّقة كلّها وملقاة على أرضيّة الغرفة. سروال هنا، جاكيت هناك، جوارب متناثرة، فردتي حذاء كلّ واحدة في ركن: مشهد ما بعد الحرب. جلست دون أن أقول شيئا، وولّع هو سيجارة جيتان وظلّ يدخن بصمت محدّقًا في السقف.

*

عن طريق جاكلين تعرّف علي على فرنسواز. يبدو أنّها كانت مناورة من أحد رفاق الحزب لصده عن جاكلين التي كانت متزوّجة كما اتّضح في ما بعد. لم تكن فرنسواز عضوة في الحزب. صديقة قديمة لجاكلين من أيّام الدراسة أو الطفولة، أو شيء من هذا القبيل. طالبة مسجلة منذ قرابة العشر سنوات في شعبة علم النفس. وهي علاوة على ذلك من المسيحيّات النشطات في شتّى الأعمال الاجتماعيّة والخيريّة، ويبدو أن لمادة دراستها الجامعية علاقة ما بالعمال المهاجرين ومسائل الانفصام وغيرها، وقد عملت لمدّة طويلة مرشدة اجتماعيّة ومساعدة نفسانيّة في الكثير من المبيتات الشبيهة بالثكنات العسكريّة المعدّة للمهاجرين في أطراف المدينة أو الضواحي النائية حيث يتكادسون أربعة وستة أشخاص داخل الغرفة الواحدة، وأحيانًا يتناوبون على الأسرّة بعدد مضاعف؛ فريق بالليل وآخر بالنهار كي يوفّروا أكثر ما يمكن من معاليم الإيجار، وغالبا ما تحدث بينهم مناوشات وصدامات خلال عطل آخر الأسابيع عندما يجدون أنفسهم مجتمعين كلهم ليومين وليلتين ولا يدرون كيف يقتسمون الأسرّة التي لا تتضاعف بتضاعف عددهم. تتدخّل فرنسواز في أحيان عديدة لفصل هذه النزاعات، وقد استطاعت من خلال عملها الاجتماعي التطوّعي أن تجمع لهم عددا من الأفرشة الإضافيّة تدبّرتها

Twitter: @ketab_n

كمساعدات من بعض العجائز المتديّنات اللاتي تلتقي بهنّ في الكنيسة يوم الأحد.

جاكلين تدرك أن لفرنسواز من التجارب مع المهاجرين ما يمكن أن يخوّلها من ربط صلة صداقة بعليّ دون حصول عواقب كريهة. فهي متعوّدة على تحرّشات العمّال الذين يعيشون دون نساء، وقد استطاعت بطيبتها وهدوئها ومرونتها أن تنجو من العديد من محاولات الاغتصاب التي تعرّضت لها في العديد من تلك المبيتات التي لا تدخلها من الإناث غيرها. وقد تكون جاكلين أكثر خبثًا مما تعتقد فرنسواز. لعلّها فكّرت، أو خمّنت أنّ فرنسواز التي على نوع من الطيبة والبراءة القريبة من البلاهة قد تكون تعوّدت على ذلك النوع من التحرّشات والمراودات الجنسيّة، بل ولعلّها قد استأنست إليها بحيث لم يعد يهمّها في إطار عملها الاجتماعي الخيري، ومن وجهة نظر محبّة مسيحيّة رحيمة صرف أن تتنازل وتقبل بين الحين والآخر بتوسيع دائرة عملها الخيري الإنساني وتلبية نداء رغبة متأجّجة لدى البعض من هؤلاء المعزولين المعدمين. من يدري؟

تكتّم علي في البداية على علاقته مع فرنسواز إلى أن علم بذلك عقبة عن طريق جاكلين التي أوحت له بأنّ علي يعاني اضطرابات نفسيّة وانفصامًا في الشخصيّة قد يغدو خطيرًا. جاكلين تقصد طبعًا ذلك الانفصام الداخلي الذي ما فتئ ينمو لدى عليّ تجاه عالم المصانع وأوساط العمّال بصفة عامّة؛ أي الانفصام الطبقيّ بلغة المناضلين. ولعلّ لجوءها إلى فرنسواز لم يكن بالنهاية سوى مراوغة وتحايل على اعتراف ضمنيّ بفشل عمل الحقن الأديولوجي الذي حاول الحزب ممارسته عليه دون جدوى. لكن الحزب والرفاق لم تكن لديهم رغبة في الاعتراف بذلك الفشل والتخلّي عن علي؛ العامل الحقيقيّ الوحيد الذي استطاعوا

Twitter: @ketab_n

استدراجه إلى صفوفهم قبل أن ينضم إليهم عقبة، لأنّ ذلك سيكون اعترافًا رمزيًا بعدم نجاحهم في استقطاب الطبقة الشغيلة. علي هو طبقتهم الشغيلة، أحد العناصر النادرة في تحقّق حلمهم بالالتحام بالبروليتاريا، فكيف لهم أن يفرّطوا فيه بسهولة إذن؟ وعندما تكسّرت على جلموده فؤوس الأديولوجيا كلها أسلموا أمر معالجته إلى فرنسواز التي سترفد جهودهم بوسائلها الخاصّة: مزيج من الشفقة المسيحيّة والمعالجة النفسيّة.

التقى عقبة بفرنسواز التي أمطرته بوابل من الأسئلة عن عليّ، وأمطرها بدوره بالعديد من النصائح حول كيفيّة التعامل معه، ثمّ التقيتها بدوري مرّتين في درج العمارة. بعدها علم عليّ بتعرّفنا على فرنسواز وصار لا يمانع في أن نلتقي جميعًا في بيته بحضورها. لكنّه كان يصرّ دومًا على إبداء احتقار ولا مبالاة مبالغ فيها تجاهها بحضورنا. يزجرها ويهينها بعبارات ساخرة لاذعة. لا أدري هل كان ذلك نوعا من المناورة التي يبتغي من ورائها أن يجعلنا لا نعتقد أن يكون لتلك الفتاة «الهايشة»(البلهاء) حسب عبارته، دور ما في حياته، وأنّ حضورها لديه لا يتعدّى مجرّد الشفقة التي يبديها تجاهها. «هايشة» مسكينة يحبّ دومًا أن يردّد، أو مغفّلة معرّضة على الدوام إلى الاستغلال من طرف أرهاط من الأوباش الأفارقة والجزائريّين. وكان يحبّ أن يظهر دومًا بمظهر الرجل الفطن الذي يسعى لحمايتها من تلك الذئاب المفترسة، ولا يخفي ذلك حتّى بحضورها.

كلّما تفانت في خدمته ضاعف في إبداء الاحتقار لها. «الهايْشة» غدا يسمّيها؛ يناديها جهرا بذلك اللقب وتعوّدت هي عليه وكانت تظنه لقبا للدلع، أو مجرد تحريف طفيف لاسم عائشة. لكنّه لم يسمّها بالبقرة كما ينعت أغلبية النساء؛ حريفات الحانات مثلا. فشل في إقناع فرنسواز

Twitter: @ketab_n

بارتياد البارات كما فشلت هي في صدّه عن التسكّع الليلي والسكر والخصومات المستمرّة. غير أنّه بدأ يذيقها ألوانًا من العذاب والإهانات. كلاهما عنيد. هو يمعن في معاملتها بقسوة، وهي مصرّة على مواصلة مساعدته.

ـ علي، لماذا تعامل فرنسواز بهذه القسوة المجانية؟ قلت له معاتبًا، بعد أن رأيت الهيأة الكارثية التي التقتني بها في الدرج.

ـ لأنّها خرية.

ـ خرية؟ بل هي تفعل كل ما بوسعها لمساعدتك.

لا أريد مساعدة يا سيّدي. إنّها خرية. تجلس هنا مثل الراهبة وتشرع في إزعاجي بسخافات شفقتها المسيحيّة. وعندما ترى أنّني لا أريد الاستماع إلى هرائها تنهض وتشرع في ترتيب البيت وتنظيف المطبخ. كم مرّة حذّرتها وقلت لها إنّني لا أحبّ ذلك... أنا لا أحبّ لا الراهبات ولا الخادمات. أنا أحبّ المرأة فقط عندما تكون عاهرة، أي عندما تكون ما يجب عليها أن تكون. هل فهمت؟ حذّرتها مرّات عديدة. قلت لها دعي ذلك. لكنّها لا تفهم. لا تفهم أنّني أقرف منها وأكرهها وأعافها عندما تفعل ذلك. هذه المرّة أصرّت، وبينما كنت أطلب منها أن تكفّ عن التنظيف كانت تواصل بكلّ عناد كما لو لم تكن تسمعني. قلت لها: أنت قحبة.

ـ أوكي، قالت لي.

ـ أنت قحبة، ولا يحقّ لك أن تلمسي شيئًا هنا إلاّ إذا كنت قحبة.

ـ علي، أرجوك! قالت لي وهي تموء مثل قطّة ذليلة.

ـ إذن، دعي ذلك ... أو قولي إنّك قحبة.

قالت: أوكي ...

Twitter: @ketab_n

ـ لا، ليس أوكي. قوليها: أنا قحبة.

قالتها. طلبت منها أن تعيدها وأنا أقترب منها فأعادتها: أنا قحبة.

عندها لم أعد أتمالك نفسي. اشتهيتها. لم أعد أرى سوى مؤخّرتها وهي منكبّة على حوض الغسيل. كنت مستعدًا للموت من أجل مؤخّرتها. هل هذا اغتصاب؟ إنها هي التي تستفزّني.

*

علي مفلس ولا يريد العودة إلى العمل في المصانع. يقتّر منحة المساعدة الاجتماعية الزهيدة بين البيرة والسجائر وعلب الصباغ والأقلام، ولولا شيء من المساعدة التي تقدمها له فرنسواز بين الحين والآخر لمات جوعا.

وجدته ينتظرني في كافيتيريا الجامعة ومعه شنطة كبيرة. جلسنا في مقهى ليسكوليه. تناول الشنطة وفتحها:

ـ هل تستطيع أن تبيع بعض بنطلونات الدجينز والأحذية الجميلة لأصدقائك الطلبة؟ نوعيّة جيّدة، وماركة ممتازة، أما السعر فتدبّر أمرك كما يحلو لك. حاسبني فقط برأس المال...

ـ أيّة دجينات وأحذية؟ هل أنت مجنون؟ أتتصوّر أنني سأفتح دكّان ملابس بالجامعة، أم ماذا؟ ثمّ من أين لك هذه الأشياء التي تريد بيعها؟

ـ دجينز وأحذية من نوعيّة ممتازة، لا أكثر ولا أقلّ. أنا أيضًا ثوري. وأنت تعرف ذلك على أيّة حال. الرأسماليّة خراء في خراء. هؤلاء الطلبة، لِم لا يحقّ لهم أن يلبسوا أشياء جيّدة؟ ثمّ إنهم ثوريّون هم أيضاً ومعادون للرأسماليّة والاستغلال مثلك ومثلي أنا...

ـ بضاعة مسروقة؟

Twitter: @ketab_n

ـ مالك ولهذا الأمر، أنت تستفيد وأنا أستفيد وكذلك أصدقاؤك الذين لا يحلم أحدهم بدجينز ليفيس أو لويس... فكرت أيضاً في الكتب، فأنتم تحتاجون كتبا باهظة الأسعار أحيانا، لكنني عدلت عنها، قلت لنفسي سيبني منها هذي أشياء لا أفهم فيها، وهي ثقيلة زيادة على ذلك؛ الكتاب بوزن خمسة دجينات. ما فيهاش مربوح.

عقبة أيضاً غادر المصنع بعد أن خطر له أن يسجّل للدراسة في جامعة فانسان لدراسة العلوم السياسية حالما في ما يبدو بالارتقاء إلى مرتبة البروليتاري المثقف على غرار موريس لي جُوا أحد تلامذة جورج بوليتزر. قبل أسبوع تمّ إيقافه في أحد المحلات التجارية الكبرى متلبسا بالسرقة وكانت تلك الحادثة نهاية لمشروع بدأنا نحلم بإنجازه معا؛ أنا وهو وحسني. عنّ لنا أن نشرع في تصوير شريط وثائقي عن أوضاع المهاجرين بباريس. اشترينا كاميرا «سوبر٨» بالتقسيط وباسم مستعار تجنبا لدفع الثمن. بعدها بدأنا نسرق أشرطة التصوير من «بازار أوتيل دي فيل» حيث المراقبة تكاد تكون منعدمة، وشرعنا في التصوير في الشوارع أولا.

حسني الذي سبق له أن تعلم التصوير وله على أية حال تجربة في المجال لا تقارن بجهلنا المدقع كان هو المخرج والمصور والتقني الخبير، ونحن نطبق ما يمليه علينا، طبعا بعد أن نكون قد خضنا معه نقاشات طويلة في المسائل التي نعتقد أننا نفهمها: محتوى الشريط، أماكن التصوير، الوجهة السياسية والإديولوجية للشريط وغيرها مما لا علاقة له بالسنما.

في الحقيقة ضُبطنا ثلاثتنا معا في مغازة La Samaritaine ونحن نغادر المحلّ وبيد عقبة كيس من البلاستيك كبير الحجم مليء بالأفلام ـ

Twitter: @ketab_n

بعضها كنا قد نجحنا قبل قليل في الخروج بها من بازار أوتيل دي فيل - وأشياء أخرى كثيرة ادعى حسني بأنها ضرورية لمواصلة العمل من نوع آلة للقص والمونتاج وفلترات بألوان مختلفة وغيرها مما لا معرفة لنا به. أعوان الحراسة الذين ركضوا وراءنا ونحن نهم بمغادرة المحل انقضوا ثلاثتهم على عقبة الذي كان يحمل الكيس وتركونا نفرّ أنا وحسني. نجحنا في النجاة بجلدنا إذن، لكننا لم ننجح في الفرار من قبضة الحسرة ومرارة الشعور بالذنب تجاه صديقنا الذي لا ندري ماذا سيكون مصيره. قضينا يومنا هائمين في الشوارع حزينين وغاضبين واحدنا على الآخر؛ أنا أتهم حسني بالتسرع والرغبة في الحصول على كلّ شيء دفعة واحدة بما في ذلك ما كان يبدو لي غير ضروري في تلك الآونة. وحسني يقذفني بالجهل وانعدام الدراية في المجال السنمائي. ثم هاهو يجعل هيأتي المهملة وشعري الطويل الأشعث سببا في جلب انتباه رجال المراقبة وتوجسهم.

أطلق سراح عقبة بعد أن قضى ما لايقلّ عن ست ساعات قابعا في قفص داخل مخفر الشرطة لا يكف عن الصراخ واتهام الأعوان بالعنصرية ويهددهم بالمنظمات الطلابية وحقوق الإنسان والمحامين التقدميين، حتى أضجرهم صراخه وهو يلوح في وجوههم ببطاقته الطلابية محاولا إقناعهم بأنه طالب مجبر على إنجاز عمل توثيقي ضروري لدراسته وهو معدم ولا إمكانيات له لاقتناء الأدوات اللازمة لإنجاز ذلك العمل. أفرجوا عنه أخيراً وهم يشتمونه ويتوعدونه بأقسى العقوبات إن رأوه ثانية داخل محل الساماريتان، سارقا أو حتى مشتريا.

أجهض المشروع ونحن لم نصور إلى حدّ تلك اللحظة سوى بضع بكرات لا تتجاوز مدتها الخام ثلاثين دقيقة. وإذا نحن من جديد مفلسين وبلا مشروع يمكن أن يزيّن لنا وضعنا.

Twitter: @ketab_n

في المصنع

عندما تكون في وضع اليأس تكون القاعدة أن لا تقول أبدًا لا أعرف. وما الذي ستخسره بالنهاية؟ أنت مفلس وجائع وليس لديك ثمن سيجارة واحدة، فهل ستسوء حالك أكثر إذا ما حاولت عملا ما، أيّ عمل ثم اتضح للناس أنك لا تتقنه؟ ما الذي يمكن أن يحصل؟ ولنفترض أنهم طردوك بعد نصف ساعة... أنت عاطل ومتسكع في كل الأحوال. لن يقطع رأسك أحد، وستكون قد جرّبت شيئاً على أيّة حال.

كان هناك موظف آخر لا أعرفه ولا يعرفني في مكتب المناولة بشارع فولتير الذي حصلت فيه لمرتين على عمل «مانيتونسيونيز». لائحة الأعمال هزيلة اليوم واختصاصي العادي غير مطلوب.

ـ اختصاصي في الدهن والمطالة؟ قال لي العون وهو لا يكاد ينظر إلي.

ـ نعم.

ـ ذو خبرة؟

ـ يعني..

ـ ما معنى يعني؟ لديك خبرة أم لا؟

ـ يعني.. نعم.. لكنها ليست تجربة طويلة...

ـ لا يهم، فهم يريدون مساعدا في الطلاء وليس مختصا خبيرا.

Twitter: @ketab_n

ـ آ، طبعا، أنا مساعد جيّد.

لم أستطع أن أنام جيداً في تلك الليلة. ذهبت إلى بيت عقبة وهو مختصّ في المطالة. سألته عن العمل فقال لي اذهب وجرّب فهم بالنهاية يريدون مساعدا، قد تقع على شخص طيب ولطيف فيسهل لك الأمر. طلبت منه أن يفسر لي بعض المسائل الأولية حتى لا أبدو في وضع الحمار الذي لا يفقه شيئا. تململ عقبة وابتسم وقال لي: هذه ليست مسألة نظريات يا عادل، لا بدّ أن تحذق يدك الأمر. لكنه قدم لي بعض التفسيرات على أية حال، وكنت أدرك أنه كان يقوم بذلك دون اقتناع، فقط كي لا يحبطني.

للجرس المنبه في الساعة الخامسة والنصف صباحا وقع سكين حادة على القلب، خاصة عندما تكون أنت المعني بالمنبّه. في غير هذه الحالة، عندما كان عقبة مثلا هو المعني كان الجرس لا يثير فيّ غير مزيد من الرغبة في النوم ليس أكثر. أما اليوم فيبدو أنّه، وهو يوقظني ويلح عليّ بالنهوض، هو الذي كان يحظى بلذة تمديد نومه في ماوراء الحاجز القاطع الذي كان يرنّ به الجرس. جرجرت نفسي من الفراش إلى بيت الحمام وحاولت أن أدندن بنغمة ما مثلما كان يفعل هو دائما عندما كان يستيقظ باكرا للذهاب إلى العمل. لكنّ صوتي كان يخونني، والنغمات التي أعرفها قد تبخّرت كلها من ذاكرتي، ولساني ثقيل معقود ـ لا أدري بالنعاس أم بشيء من الخوف.

فجر شتاء معتّم غائم موقّع بذلك الرذاذ الباريسي الرتيب الموحش. المدينة ماتزال نائمة. بعض نوافذ مضاءة على السطوح الرمادية للعمارات حيث «غرف الخدم»، بينما الأخرى عمياء، سوداء تحتضن نائميها المحظوظين بعتمتها الدافئة اللذيذة. الرذاذ بارد مثل إبر دقيقة، لكنها لا

Twitter: @ketab_n

تفلح في إزالة خدر النوم الذي يبنّج الجلدة ويكلّس كل الحواس. المقهى المقابل لمحطة المترو مفتوح مثل أغلب مقاهي باريس التي تفتح مبكرا. أصوات قليلة وثقيلة تأتي من داخل المقهى ممتزجة بالصوت المعدني لآلة الرّحي وروائح التبغ والقهوة والكرواسون. بعض الحرفاء المبكّرين يدخلون متسللين كما لو كانوا يهرّبون بقايا نومهم تحت المعاطف السود الثقيلة. يفركون أيديهم عند ولوج المقهى أو وهم يقفون إلى الكونتوار. لا أستطيع أن أفعل مثلهم لأنه ليس في جيبي ولا فرنك واحد، ولا حتى ثمن تذكرة للمترو والحافلة. سأسافر بدون تذكرة لأنه قلما يصعد مراقبون في مثل هذه الساعة.

عربات المترو مليئة بالعمال. كثير من الأجانب بوجوه تدلّ على أنهم لم يقضّوا ليلتهم بين ذراعي امرأة، وأنهم لم يأووا إلى فراش يدفئُه جسد زوجة ويجعله بملمس الريش أو الرحم الدافئ الذي يأوي إليه الجسد المنهك بعمل النهار الشاق ليستعيد فيه طراوته ويخلد داخله إلى الهدنة التي تضمّد كدمات النهار المنقضي. هيئاتهم الكئيبة في عتمة الفجر تقول لك إنهم لم يقبّلوا طفلا قبل النوم ولم تلتفّ على عنقهم ذراع تحتضنهم مكافأة على تعب الكدّ الذي وراءهم والآخر الذي يربض متربصا بهم بين ثنايا الفجر القادم. أغلب الراكبين الذين يقطّرون هنا بقايا نعاسهم الذي قطعته عليهم منبهات الساعات الصينية ذات الجرس الحادّ. ساعات منبهة: Made in China من صنع البروليتاريا الاشتراكية لقطع دابر نوم عمال باريس وضواحيها هبةً لإله العمل.

في أغلب المحطات، الوافدون على العربة أكثر من الذين يغادرونها. الوجوه متورّمة بالنعاس؛ النعاس يعشش حتى في أصواتهم وهم يغمغمون لبعضهم بتحية الصباح حشرجةً متلكّئة ضجِرة. يمدّون أيديهم أحيانا لمصافحة الجالسين نصف نيام، يمدّ هؤلاء أيديهم بحركة رتيبة

Twitter: @ketab_n

ثقيلة ليعودوا بعدها مباشرة إلى نعاسهم. آخرون يبدون يقظين تماما، يحشرون رؤوسهم في صحيفة *Le Parisien*. هناك أيضاً من يتحادثون بأصوات ثقيلة خشنة كما لو كانت طالعة من أكياس مليئة بالنخالة والقش والنعاس وبقايا كحول وتبغ البارحة؛ غمغمات ودمدمة. أحاول أن ألتقط بعض الكلمات: هل انتهيت من عمل كذا؟ الآلة المعطّبة... مقابلة كرة قدم... تيازسي سباق الخيل بفانسان... جزائريان يهرّان في ركن: آ، واش باغي تدير آ خويا؟ واه! لا، لا، قاغ ما كاينشي... بحال القضا بحال الصبر آ صاحبي! جزائري أو مغربي نائم قبالتي؛ رأسه مقلوبة إلى الوراء وفمه نصف مفتوح. يحكم يديه على المحفظة الجلدية السوداء التي فوق ركبتيه. كلهم تقريبا يحملون تلك المحفظات الجلدية؛ فرنسيون وأجانب. لم أفهم سرّ المسألة في البداية. فرنسي ثقيل الجثة أحمر الوجه، شعره مسرح إلى الوراء بعناية فائقة، يبدو واضحا من طراوة جلدته أنه خارج للتو من الحمام؛ محلوق الذقن حتى الجلدة الملتمعة. يقرأ صحيفته وبين قدميه حقيبة سوداء أفخر من محفظات الآخرين؛ أظنها سامسونايت. قد يكون موظفا في مصنع أو أنه على الأقلّ يشغل خطة أرقى من مجرد العمل على آلة. ترى ماذا يوجد داخل تلك الحقيبة السوداء الفاخرة؟ والآخرون، بما في ذلك المغاربة ماذا يضعون هم أيضاً داخل تلك المحفظات الجلدية؟

يتوقف المترو في المحطة الأخيرة:

"Porte de la Chapelle! Tout le monde descend!"(١)

«باب لا شابيل»! ينهضون دفعة واحدة ويهرعون مثل كتيبة تلقّت

---

(١) نداء الإعلان عن الوصول إلى المحطة الأخيرة لخط المترو.

Twitter: @ketab_n

الأمر بشنّ الهجوم. ينطلقون متدافعين خارج العربة، يهرولون أفواجا بأقدام حثيثة باتجاه محطة الباصات. أشباح تتحرك مضطربة داخل غبش الفجر؛ كتيبة من سكان العالم السفلي تتحرك مسرعة باتجاه كهفها المظلم قبل ان يفاجئها طلوع النهار. من أين لهم مثل هذا النشاط الفجئي في هذا الصباح الباكر وقد كانوا قبل لحظات مثل التماثيل؟ ألملم شتات أفكاري وبعض القوى الخاملة في ركبتيّ وأهرول وراءهم. أبحث عن الباص الذي سينقلني إلى ضاحية لاكورنيف. أسأل واحدا عربيا: الكازْ ديالْ لاكورنيف آ خويا؟ لا يتوقف عن الجري كي لا يفوّت الباص، وأنا أنطّ وراءه: وخّا، أرواحْ معاي. أنطّ وراءه مثل الجرذ كي لا يهرب عنّي. يصعد حافلة نسيت رقمها ويشير لي أن أتبعه فأصعد وراءه. ينطلق مثل السهم باتجاه مقعدين شاغرين في المؤخرة، يجلس ويشير إليّ أن أجلس إلى جانبه.

- خدّام في لاكورنيف؟

- وخّا... أوّل يوم..

- في لُوزينْ؟

- وخّا، لوزينْ ديال Paul et Roger.

في يده هو أيضاً محفظته الجلدية. بماذا سأجيبه لو عن له أن يسألني: أين محفظتك؟ أقول له نسيتها؟ لا. أقول له إنه أول يوم لي في هذا العمل؟ هل هذا كلام مقبول؟ سيفكّر: حضرتك جاي في زيارة تفقدية؟ لكن ماذا يحملون داخل هذه المحفظات؟ طالما بقيت لا أعرف ذلك فإنه لن يكون بإمكاني الإجابة. لم أر عقبة يحمل معه محفظة أو حقيبة عندما كان يذهب إلى العمل في المصنع. لماذا يا ترى؟

أكره المصانع والورشات وهيئاتها الثقيلة الرمادية القاتمة. للمصانع

Twitter: @ketab_n

دوما شبه ما بالسجون. هناك شعور بكآبة غامضة يتلبّس بي كلما وطأت قدماي باب مصنع. أشعر أنّ الحياة، تلك التي لا أنتبه إليها أحيانا وأنا أمشي في الشوارع، الحياة كلها خارج جدران هذه البناية الشبيهة بسجن. الحياة كلها تبدو لي في تلك اللحظة حفلا مرحا هازجا في الخارج: المقاهي، السيارات، الصخب، زعيق الأبواق، السيدات والفتيات اللاتي يسرن حثيثات الخطوة كما لو كنّ يدرجن على عجلات صغيرة، العطور، رائحة القهوة والكرواسون، الكلاب التي تنط وراء صاحباتها أو تدبّ ببطء أمام العجائز، الحمام المتحلّق على الأرصفة وأمام الكنائس. لكم فرحت عندما أرسلوني ذات مرة لاشتراء بعض المشروبات عندما كنت أعمل «مانيتونسيونير» في ورشة لشحن الكراتين الفارغة! شعرت بغبطة شبيهة بدفعة طرية من الأوكسيجين وأنا أضع قدمي خارج عتبة البناية وألقي بنفسي داخل ضجة الشارع وحركته. بدا لي كما لو أنني غبت لعشرات السنين عن هذا المشهد البهيج. حاولت تمديد مدة بقائي في الخارج، أتلكأ في السير وأتوقف دونما سبب أمام أتفه الأشياء المعروضة في الواجهات. بضع دقائق مثل عطلة أسبوعية غير منتظرة تمنح لسجين أو جندي مقاتل في جبهة نائية داخل الغابات والأودية والأوحال. العالم يبدو فعلا على أجمل صورة في تلك اللحظات التي تسبق مغادرته للدخول إلى عالم السجون. كل شيء؛ من رائحة القهوة والكرواسون إلى المارة الذين يتراءون لك في تلك اللحظة متمشّين في نزهة أبدية لا تشوشها عليهم مواعيد، إلى الباصات التي تتوقف، ينزل منها ركاب ويصعد آخرون يبدون لك جميعهم سعيدين بتلك الرحلات القصيرة في الهواء الطلق. لحظات شبيهة بوقفة وداع، مثل تسبقة عن مذاق اللحظة التي ستغادر فيها ذات يوم هذا العالم نهائيا ودون أمل في الرجوع إليه.

Twitter: @ketab_n

مصنع بول وروجيه بناية كريهة المظهر كما كنت أتوقع. فوق بابها الحديدي الضخم لافتة معدنية بيضاء مكتوب عليها بحروف زرق غليظة:

PAUL & ROGER

CHAUFFAGES ET SANITAIRES

أهه! مصنع أجهزة تدفئة وتسخين مياه! ليس مصنعا للسيارات إذن! خسارة، كنت أحلم دوما بأن أدخل مصنعا للسيارات، أن أشغل أية خطة وأكون واحدا ممن شارك في صنع السيارات.

يبدو أنني تضاءلت وأنا ألج البوابة الواسعة للمصنع، وأنا في الواقع لست في حاجة لمزيد من التضاؤل فقد تكفلت بذلك الطبيعة التي كانت مقتصدة شديد الاقتصاد في صياغة هيكلي الضئيل؛ لا قامة طويلة، لا أكتاف عريضة ولا عضلات متوفزة ـ يكاد المرء لا يلاحظ وجودي. كل شيء بدا لي كبيراً في هذا المصنع وأنا أدبّ مثل نملة باتجاه مكتب الإدارة متعثرا مترددا لا أستطيع أن أصدق أنهم سيأخذون البطاقة التي في يدي مأخذ الجدّ. كنت لا أفكر إلاّ في أمر واحد بدا لي حينها مثل أمنية غالية: لو أنني أهرب! أخرج مسرعا باتجاه محطة الباصات، ثمّ المترو، فالبيت والفراش من جديد! وماذا لو أنهم طردوني من الوهلة الأولى؟ سأخرج جريا وقد لا أعود إلى البيت، بل أظل أتسكع في الشوارع، أنظر إلى الواجهات والمارة، وأمشي، وأمشي، أتوقف متى أشاء، أجلس على كرسيّ في حديقة، ثمّ أنهض متى أريد وأواصل المشي هكذا دون هدف...

ـ بنجور مسيو! قدمت البطاقة التي كانت في يدي لأقرب شخص. كانوا ثلاثة: واحد منهمك في البحث عن شيء ما فوق الرفوف التي

Twitter: @ketab_n

وراء مكتب معدني كبير والآخران واقفان إلى ذلك المكتب الأخضر الثقيل يتكلمان في أمر ما قد تكون له علاقة بالعمل، يرتشفان القهوة ويدخنان.

ـ ماذا تريد؟

لا تحية، ولا تفضّل، ولا هم يحزنون.

ـ أرسلني مكتب الأنتيريم من أجل...

ـ انتظر! قال لي مقاطعا وهو يضع البطاقة على المكتب دون أن يقرأها، وواصل حديثه مع رفيقه الذي رمقني بنظرة سريعة من فوق إلى أسفل مع وقفة خاطفة على شعري الأشعث وعثنوني.

وددت لو أخرج وألوذ بالفرار.

ـ ماذا تريد؟ قال الثالث وهو يستدير عن الخزانة المعدنية والرفوف.

أشرت إلى البطاقة والكلمات لا تريد أن تخرج من حلقي، وليس لي سوى رغبة واحدة؛ أن تنتهي هذه الحصة القاسية بأسرع ما يمكن. أن يعيد إلي بطاقتي ويصرفني.

أعاد إلي البطاقة وهو يشير بيده ناحية اليمين: اسأل في الورشة هناك عن مسيو فانسون. ثلاثتهم ينظرون إليّ الآن وأنا أنسحب ممسكا ببطاقتي مثل شهادة تدعو إلى العطف عليّ ومساعدتي، أو إلى توريطي. أغلقت الباب الزجاجي واتجهت نحو مخرج البناية عوض الاتجاه يمينا نحو الورشة: لا فائدة، لا بد أن أخرج من هنا بسرعة. سمعت طرقات على زجاج النافذة:

ـ ليس من هناك... على اليمين، الورشة الرئيسية.

ضبطوني، أولاد الخراء!

Twitter: @ketab_n

أسلمت أمري لمشيئتهم وعدت متجها نحو الورشة. أنا الآن مورط، ثمّ خراء عليهم جميعا! ما الذي سيحدث؟ في أسوأ الحالات سيسرّحونني وعندها أعود إلى البيت أو أذهب إلى أي مكان، وأكون قد قمت بمحاولة على الأقلّ.. بروليتاري لفظته الطبقة الشغيلة ومصانعها..ها ها ها!

الورشة الكبيرة مليئة بصفائح معدنية مستطيلة، مربعة، اسطوانية، مسطحة، مقعّرة، أنابيب ومواسير مصففة لصق الجدار، مكدّسة على طاولات عمل طويلة تحتلّ وسط القاعة الفسيحة. بعض الصفائح تلتمع بطلائها الأبيض الجديد، أخرى في هيأتها المعدنية البدائية رمادية قاتمة، البعض الآخر مفروك فركا متقنا يجعلها تلمع مثل قطع من البلّور، لكنه بلور ثقيل المظهر معتّم شيئاً ما بالرغم من لمعانه. منظر يثقل على القلب، لا أدري لماذا.

مقابض غليظة، مقصات معدنية طويلة، مطارق، سندانات، ملازم مثل أشداق حيوانات مفترسة باردة ثقيلة، مبارش، كلاليب، كمّاشات، قوّارات، مَكانس داكنة اللون، مبارد بأشكال وأحجام مختلفة محكمة على مسامير فوق خشبات كبيرة ملتصقة بالجدار، جِحاش، مكشّطات، مقاريض، مقاريح، حماليج.

البذلات الزرق موزعة على جميع أركان الورشة الفسيحة، منهمكة في تفحص الآلات وتفقد عمل البارحة أو إعداد مكان العمل، أو جلب قطع معدنية من مكان آخر وترتيبها. الرؤوس تلتفت باتجاهي؛ لا ألبس بذلة عمل زرقاء. تتوقف الأيدي عما كانت تعالجه، يتنصتون بينما أنا أحاول، متعثرا في الارتباك، أن أقول شيئاً لذلك الذي سألني عمّا أبحث، ثم عمّا أريده من مسيو فانسون ـ آ، *Lèche - cul* أو بما معناه

Twitter: @ketab_n

لحّاس المؤخّرة ـ هكذا كان العمال يسمّونه. مسيو فانسون ليش كي هناك في الزاوية الخلفيّة للورشة، يقف إلى منضدة عريضة فوقها أوراق ورسوم وأدوات عمل وتيرموس القهوة وحقيبة السامسونايت السوداء! هو الذي كان يجلس قبالتي في عربة المترو بوجهه المكتنز الحليق حد اللمعان وشعره المسرح إلى الوراء بعناية فائقة. لكنه هنا يبدو مختلفا قليلا بمنديله الأزرق والمنضدة الكبيرة التي يقف وراءها منهمكا في إعداد شيء يبدو أنه مهم للغاية لسير العمل داخل هذه الورشة، أو بالنسبة للمصنع بكليته. أجاب على تحيتي بغمغمة غامضة دون أن يلتفت وظل منهمكا في تصفح أوراقه ورسومه ودفاتره كما لو أنني لم أكن موجودا، أو لعله كان لا يتمنى سوى أن أتبخّر وأدعه وشأنه. لم تكن تجربتي مع المصانع وعماله ذات أهمية، لكنني بدأت أعرف بعض الأشياء عن طباعهم وسلوكهم تجاه الغريب أو الجديد الذي ينظرون إليه منذ البداية كمتطفل أو شحاذ؛ واحد ليس له عمل قار مثلهم؛ أي أقل منزلة منهم، هامشي، وقد يكون مشردا وإنسانا فاشلا وبائسا، وخاصة إذا كان مظهره يوحي بأنه ليس مثلهم حقا، بشعر طويل مثلا، كما هو الحال بالنسبة لي، وبعثنون زيادة على ذلك: هيبّي، أو كلوشار. ما الفرق بالنهاية؟ الهيبي في نظرهم كلوشارات وسخون مهملو الهندام يدخنون الحشيش ويتنايكون مثل الفئران في الحدائق العمومية وعلى ضفاف السين وفي المقاهي والجامعات، ينامون كثيراً ولا يدفعون ضرائب للحكومة ويريدون تخريب المجتمع. فهل هؤلاء جديرون بأن يهتموا بهم وأن ينظروا إليهم ويردّوا على تحيّتهم؟ العمال يصافحون بعضهم كل صباح ومساء، لكنهم لا يمدون يدهم للعنصر الجديد وإذا ما حياهم يردون بكثير من البرودة وبسرعة أو غمغمة كما لو كانوا يقولون لك: *vas te faire foutre!* ـ تروح تقوّد! أعرف هذا كله وأردد

Twitter: @ketab_n

لنفسي: أنا الآن مورط ولم يعد هناك أي مجال للفرار. ثمّ طز فيهم جميعا، لا بد لي من عمل، وأنا أحمل في يدي بالنهاية بطاقة تدلّ على أنهم في حاجة لي. سألهي نفسي إذن بالتجول بنظري في أرجاء القاعة الفسيحة وأحاول أن لا أنتبه إلى النظرات الفضولية التي يرسلها هذا أو ذاك نحوي، كما لو أنهم يتساءلون جميعهم التساؤلَ الغبيّ ذاته: ماذا يفعل هذا الجرذ هنا؟ عمّ يبحث، وماذا يريد من ليش كي؟ ألتهم بعيني كل شيء: الصفائح المعدنية، القطع الأخرى التي اتخذت لها أشكالا محددة، الأدوات الغريبة من مبرشات وكماشات وقوّارات وفرّامات ودحّاسات ولحّاسات وثقّابات وثقّافات وقعّارات ودوّارات وهرّاسات وجرّاشات ودوّاسات وفطّاسات وكبّاسات وكنّاسات، ومصائب أخرى متنوعة متعددة...

ـ ماذا تريد؟ قال لي ليش كي أخيراً دون أن يلتفت إليّ. تقدّمت. وضعت البطاقة التي بيدي أمام أنفه وفي داخلي رغبة في أن أبصق عليه وأفر. نظر إليها وهو يعدل وضع نظارتيه على أرنبة أنفه. عيناه باردتان لا تشعان بأي تعبير عن شيء من الاهتمام بما تقعان عليه. نظرة لامبالاة مفتعلة كما لو أنه يقف على بضعة أميال فوق الأرض ومن عليها. كنسني بنظرة سريعة واستدار: تعال! سار أمامي. تبعته مثل قطّ أو نعجة. توقف العمال مرة أخرى عن عملهم ونحن نمر بالقرب منهم. هدأت ضربات المطارق للحظات، العيون تتبعني وأنا أتبع خطى ليش كي الموزونة الواثقة. عبرنا الورشة حتى آخرها. الحرارة بدأت تتحول إلى عرق على جبيني وفوق رقبتي. دفع ستارة من شرائط بلاستيكية وولجنا ورشة ثانية يتصاعد من زواياها فحيح وصفير وأزيز وشرارات ضوء زرق. رؤوس مختفية تحت أقنعة معدنيّة كبيرة تنزل من أعلى الجبين حتى ما تحت الذقن مع فتحة في شكل مستطيل من زجاج في مستوى العينين.

Twitter: @ketab_n

الرؤوس منكّسة، يرفع الواحد للحظة رأسه عندما نقترب منه، يوقف الآلة التي تبثّ سيل الضوء أو النار الأزرق محدثة إشعاعات وشظايا ألعاب نارية، يرفع قناعه الثقيل للحظة، يحيّي مسيو ليش كي الذي يحيي بدوره ولا يتوقف، وأنا أنطّ وراءه، أو أتدحرج مثل بكرة بدأت خيوطها تفقد إحكام لفافتها... البروليتاري الجديد يتدحرج ويتعثر في الامتحان الأول الذي يجريه عليه العالم السحري للطبقة الشغيلة. البروليتاريا تتفحص هيأتك الغامضة التي تدبّ أمامها. البروليتاريا في عقر دارها هنا. وسائل الإنتاج وعلاقات الانتاج؛ ها هي أمامك هنا: ليش كي الذي يقرّر مصائر صفائح الحديد ويحدد الأدوار والمهمات داخل الورشة يمشي أمامك الآن بخطى واثقة وعينين لا تقعان على أحد أو شيء إلاّ ببرودة الكائن الفاتر بخبرته، هو الذي تنقّل لسنوات طويلة بين كلّ الورشات ومارس كلّ الأعمال قبل أن تنتهي به المسيرة المهنية الموفقة ومعاداته الصارمة للنقابات والإضرابات وشتى الاحتجاجات، إلى المنضدة الكبيرة في تلك الزاوية التي يتقرر فوقها مصير الصفائح المعدنية التي ستتحول وفقا لتعليماته والرسوم الهندسية التي يتهجاها وهو يحكم نظارتيه على أرنبة أنفه مثل مهندس من الطراز الأول إلى سخانات بيوت استحمام ومدفآت ذات أحجام وأشكال متعددة، بيض جميعها ملتمعة بطلائها الطازج وعليها بالخط الأزرق عبارتا: PAUL & ROGER.

وقفت أقلّب الآلة التي وضعها ليش كي في يدي لا أدري ما الذي أفعله بها.

كان قد قادني إلى منضدة عمل في زاوية خلفيّة من الورشة الثالثة: ورشة الطلاء. أمرني بإنزال مجموعة من هياكل معدنية في شكل صفائح أو أغلفة مستطيلة الشكل مقعّرة محكمة استدارة الزوايا. وضعها إلى

Twitter: @ketab_n

جانب المنضدة ثم تناول واحدة منها وضعها على الطاولة وقال لي: ابدأ بهذه. سأعود إليك بعد قليل. ثمّ أشار إلى صفائح الطلاء وأخذ واحدة من الآلات التي تشبه في هيأتها بندقيات قصيرة، أو نوعا من المسدسات الطويلة، كما يوحي بذلك اسمها، تفحصها جيداً ثمّ ناولني إياها وانصرف.

ابتعد ليش كي ولم يلتفت إليّ. لا أدري ما الذي أفعله بهذه المصائب التي وضعها بين يديّ وانصرف دون أيّ توضيح. وهذه الكارثة التي تشبه الكلاشنيكوف، أقلّبها وأتفحصها؛ إنها بالضبط مثل الكلاشنيكوف! أمسك بها مثل البندقيّة، أوجهها إلى السقف، إلى الأسفل، إلى اليمين إلى الشمال كما يفعل مقاتلو حرب العصابات.

العامل الذي كان منكبًا على منضدة عمله في الزاوية المقابلة ترك عمله وجاء إلى منضدتي.

ـ أعجبتك اللعبة هه؟

ـ أيّة لعبة؟

ـ دعني أرى ماذا فعلت إلى حدّ الآن.

استدار عني وهو يغمغم بشيء وانصرف. بعد دقيقتين رأيته يعود إلى الورشة صحبة ليش كي وكان يحرك يديه في الفضاء مقلدا الحركات التي كنت أقوم بها قبل حين وأنا أجرب آلة الكلاشنيكوف.

يبدو أن ليش كي من ذلك النوع الذي لا يحبذ أن يقاسمه أحد ولو جزء بسيطا من سلطته: التفت إلى ذلك العامل وأومأ له بإشارة من رأسه أن يعود إلى منضدة عمله، ثم التفت إلي مجددا وقد كنس الآن عن ساحة سلطته ذلك المتطفل:

ـ العمل سينجز نفسه بنفسه هه؟ أم ترى قيل لك أنّ لدينا معسكرا

Twitter: @ketab_n

لتدريب الفلاّقة هنا؟ حسنا، متى ستبدأ بالعمل؟ ألا تريد أن تريني ماذا تستطيع أن تفعل؟

- في الـ... فالـ... واقع، يعني...

- يعني ماذا؟ ستشتغل أم لا؟

- الحقيقة..

- الحقيقة، الحقيقة. مالي والحقيقة؟ أنا أريد عمالا يقومون بعملهم وليس حقائق.. تعال معي يا سيّدي المقاتل الفلاّقة! تعال، عندي لك بندقية أفضل من هذه، تعال.

ناولني سطلا وخرقا وأشار إلى مكنسة قرب الباب وهو يقول لي:

هذه بندقية أفضل، سترى أنك ستتمتع بها أكثر من تلك الأخرى التي لا شأن لك فيها، وهكذا ستكون قبل منتصف النهار قد أرحتنا من كلّ الأوساخ التي ستعترض طريقك في كلّ الورشات. حتى منتصف النهار. نصف يوم عمل أفضل من لا شيء هه؟

طبعا، نصف يوم عمل أفضل من لا شيء...

Twitter: @ketab_n

يومان لجوزيفين

يوم مشمس

يوم مشمس. شهر أبريل. وداعا أيها الشتاء وموكب السحب والمطر والبرد والعتمة. نهضت دون تكاسل، على غير عادتي. ضوء الشمس في باريس لم يكن خبزًا يوميًا. فتحت النافذة وشرعت أعدّ قهوتي الصباحيّة مستمعًا إلى فيروز: *طلعت يا ما احلى نورها/ شمس الشمّوسة.*

صوت فيروز سيظلّ دومًا مقترنًا في ذهني بالصباحات المشمسة لأيّام الطفولة. كانت برامج الإذاعة التونسيّة تفتتح دومًا بالقرآن فمدائح وأذكار، ثمّ «توجيهات الرئيس» وبعدها فيروز.

في سلّم تراتب المقدّسات هناك الله، فبورقيبة، ثمّ فيروز! موش بطّال!

طلعت يا ما احلى نورها

شمس الشمّوسة.

صباح من صباحات ربيع ما في طفولتي البعيدة أقف على قارعة الطريق منتظرًا قدوم الحافلة التي ستقلّني إلى مدينة باجة بعد انقضاء عطلة الربيع. صوت فيروز قادم من البيت الذي كان يتراءى لي كما لو غدا يبتعد عنّي هو ودجاجه المتحلّق في جلبة مرحة حول الحبّ الذي

Twitter: @ketab_n

كانت أمّي تنثره له في ساحة البيت، خوار عجل لم يعد قادرًا على الصبر على ضرع أمّه، ثغاء شياه تريد الخروج من مراحها واستقبال الصباح بأضراس نشطة، كلب يتسلّل متكاسلا ممطّطا قوائمه وهو يرقب الدجاج بكثير من الحسد والشره، حمار ينهق من فوق ربوة غير بعيدة نهيق المستبشر خيرًا بتلك الشمس الربيعيّة الطريّة التي تعده بفصل قادم حافل بالهجيان والشبق. حياة تدبّ ببطء، لكن بثقة، كما لو كانت تحبو، تتثاءب، تمطّط أعضاءها، تهيّء قدميها للخطوات الصباحيّة الأولى، دون عجلة ولا تسرّع.

السائل الأسود الساخن يتسرّب إلى كل خلايا جسمي وصوت فيروز يقتحم مواقع قصيّة من الروح، يضمّد بعض الجراح ويعد بيوم على حافة الهذيان. كلا، لن أهب هذا اليوم المشمس لكراسي الجامعة والصوت الرتيب للدكتور لويس فانسون توماس الذي سيتوغّل بنا في سراديب رطبة ومظلمة لنظريّاته ونظريّات فيليب أرياس حول «أنتربولوجيا الموت».

أصعد شارع ليفيس الضيّق المزدحم بالدّكاكين وبسطات بائعي الخضار والفواكه. من المقاهي المجاورة يتصاعد لغط الصباحات الباريسيّة المتبّلة بروائح القهوة والكرواسّون وتبغ الغولواز. غير أنّ اللغط اليوم يبدو أكثر هرجًا واحتفاليّة، والباعة يصيحون متغنّين بتفّاح النورموندي الذي يفوح ويردّ الرّوح، ببرتقال تونس وطماطم المغرب وموز إفريقيا وأميركا الجنوبيّة وكيوي زيلاندة الجديدة وبهارات وهميّة آتية من بلدان اكزوتيقيّة لا تقع إلاّ في خارطة فنطازيّتهم المنفلتة الآن من كلّ القيود وهم يبتسمون للفتيات والسيّدات الأنيقات الخارجات للتوّ طريّات شهيّات من بيوت الحمّام يودّ المرء لو يقضمهنّ قضمًا خفيفًا رقيقًا، والباعة ينادونهنّ، يهتفون بهنّ، يستدرجونهنّ بآيات من الغزل

Twitter: @ketab_n

معجزات مبهّرات طيّبات لا يتقنها غير باعة الخضار. شياطين الأسواق هنا في شارع ليفيس كما في شارع أليغر بالقرب من ساحة الباستيل وفي أسواق بلفيل وبارباس؛ توانسة وجزائريون ومغاربة، أياد تتحرك بنشاط وأصوات تلعلع متغنية بخيرات الأرض، عيونهم تبرق، تلتمع، جمر على صدور السيدات والفتيات، الصوت النحاسي للشاب التونسي ذي الشعر الأجعد المرسل على الكتفين:

Maltaises de Tunisie! Maltaises de Tunisie! Pulpe fine pour la bouche fine ma chérie! Oranges de Tunisie! La Tunisie! la Tunisie![١]

الصوت النحاسي يعلو على الأصوات الأخرى من حوله متوغلا في مناجاة طيف بعيد يتوهج به عبق برتقال منزل بوزلفة وبني خلاد في يوم مشمس؛ شمس الوطن القبلي والباعة متهيجون بالوهج الدافئ المطل من وراء قليبية ومنزل تميم والهوارية وجبل قربص! صُقلت حناجرهم وهم أطفال في أسواق باب الفلّة ونهج سيدي بومنديل والفحص ومنزل بوزلفة والكاف وباجة والقيروان وراء صناديق الخضار، وفي جريهم المحموم بسطل الكازوز البارد في سوق الدواب: كازوز بارد! كازوز! برّد ياعطشان! يتسللون مثل القردة بين الخرفان والعجول والخيول والفلاحين الذين يقفون وراء خرفانهم وعجولهم ملفوفين صيفا شتاء في قشابيات الصوف الثقيلة والبرانيس. شارع ليفيس يبدو مسحورا في صبيحة هذا اليوم والباعة يملؤون الفضاء بهرج يبشّر بربيع على حافة الجنون: التفاح اللي يفوح لجنان التفاح الزاهي تحت خمائل الشعر الأشقر الذهبيّ، والموز السحريّ ابن الأدغال للعين الزرقاء، والبرتقال

---

(١) مالتيز هو صنف جيّد من البرتقال التونسي، والبائع يتغنى ببضاعته يناجيها ويغازل الحريفات في الآن نفسه، بما معناه «اللبّ الطريّ للشفاه الرقيقة، يا حلوتي!».

Twitter: @ketab_n

المتوهّج بشمس المتوسّط لشفاه الورد ولسان الحرير: رحيق على رحيق، يهب الله رحيقَه من يشاء.

وأنا أخرج من شارع ليفيس منعرجًا باتّجاه بولفار باتينيول الذي يصعد حتّى ساحة كليشي، قلت: هذا اليوم الرائع سأهبه لعليّ. سيكون اليوم دون شكّ على مزاج رائق، وستكون الجولة معه فسحة بهجة ومرح ودعابة لا أريد أن أفوّتها.

كان فعلا على مزاج مرح خفيف.

ـ إييه! صاح بكلّ غبطة وهو يفتح الباب فيراني، حمار من مات في هذا اليوم يا ترى؟ أهربتَ أم أُطلق سراحك؟

«حمار من مات في هذا اليوم يا ترى؟» هي عبارة التعجّب لكلّ أمر شبيه بمعجزة لدى عليّ؛ أمر لا يكاد المرء يصدّق حدوثه. هكذا يلجأ أحيانًا إلى نوع من التّرحاب الذي لا يخلو من تهكّم يستعيض به عن اللوم ـ عندما لا يقول معاتبًا: يا هرّاب، يا نكّار العشرة!

جلسنا بمقهى في ساحة كليشي وأمامنا يتدفّق السيل المتواصل لأسراب النساء والفتيات في فساتينهنّ الخفيفة المزدانة الشهيّة كما لو لم تكن مجرّد قطع من القماش، بل جلدة رقيقة دقيقة نمت فوق أجسادهنّ ملاصقة للّحم نابتة منه؛ جزءً منه، قشرته الخارجيّة وواجهته البرّاقة.

ليس هناك أكثر من النساء سرعة في التأقلم مع تغيّرات الطقس! يخرجن اليوم بفساتين خفيفة زاهية الألوان طريّة شهيّة والحال أنهنّ كنّا إلى حدّ البارحة يرتدين الصوف والكنزات والمعاطف والأحذية الشتويّة. تفتّحن مثل الورود بين ليلة وفجرها بسرعة وتلقائية محيّرة.

لمحت وجهها ملتصقا بزجاج النافذة الخلفيّة لسيارة تاكسي. وجه جوزيفين. أنا متأكد. السيارة تسير ببطء شديد والشارع غاصّ بحركة

Twitter: @ketab_n

كثيفة. تنظر من النافذة باتجاهي، أو باتجاه المحلات التجارية المحاذية. سيارة التاكسي تدبّ دبيب نملة تكاد تتوقف. باحة المقهى مليئة بالحرفاء الوافدين على هذه الشمس الربيعية المفاجئة، لكنها بالتأكيد قد رأتني. طنّت في رأسي «*طلعت يا ما احلى نورها!*» نهضت مهرولا باتجاه الشارع. تحرك طابور السيارات الذي كان متوقفا أمام الإشارة الضوئية التي تحولت الآن إلى الأخضر، تسارعت حركة العجلات أكثر فأكثر، ثم انطلقت ورأس جوزفين التي غدت على بعد بضعة أمتار مني استدارت الآن عن الجهة التي كانت تنظر باتجاهها، سيارة التاكسي تنفلت من أمامي وتبتعد: *طلعت يا ما احلى نورها*... أشرت إلى سيارة تاكسي في آخر الطابور المتقدم بسرعة الآن، لكنها لم تكن شاغرة، تاكسي ثانية وثالثة كلها محجوزة... ثمّ توقف تدفّق السيل من جديد؛ تغيرت الإشارة الضوئية. في رأسي لم يتوقف طنين: *شمس الشموسة! شمس الشموسة!* ركضت في الاتجاه المعاكس بحثا عن تاكسي قد تكون متوقفة في موضع ما من الطابور الطويل. تحرك الطابور مجددا، ببطء في البداية، ثم بأكثر سرعة وليس هناك من تاكسي شاغرة؛ السيارات تنطلق بسرعة باتجاه شارع باتينيول حيث اختفت التاكسي التي كانت تقلّ جوزيفين، كما لو كانت هاربة عن قصد. أركض إلى اليمين، إلى الشمال. سيارات التاكسي كلها محجوزة. أهرول إلى اليمين، أتراجع إلى الشمال. أتوقّف. أجري. أمدّ ذراعي باتجاه تاكسي أراها قادمة من بعيد، تمرّ التاكسي في الصفّ الثاني ولا تتوقّف. يتوقّف الطابور، يتحرك ببطء، الأبواق تزعق لتوقظ الساهمين الذين لا يتفطنون بسرعة لتغيّر الإشارة الضوئية، أو الذين يتلكّؤون قليلا. بعض السوّاق الأكثر عصبية يطلّون برؤوسهم من النافذة يصيحون، يشتمون، يحتجّون... مرت حوالي خمس دقائق. جوزيفين ابتعدت بالتأكيد، ابتعدت كثيرا. لا

Twitter: @ketab_n

أدري أيّة وجهة قد أخذت سيارة التاكسي بعد شارع باتينيول ولم يعد من المجدي اللحاق بها. تذكرت علي؛ انتابني إحساس بالخجل فعدت إلى المقهى أجرجر قدميّ محاولا أن أفتعل الهدوء تمويها وطمعا في مغالطة صديقي...

توقف طنين شمس الشموسة، ولم يعد هناك غير زعيق أبواق السيارات؛ سوّاق باريس مجانين لا يكفّون عن التبويق والصياح والسباب والتشاتم. مجانين سواق باريس! لم يعلق علي بشيء عندما عدت إلى مكاني إلى جانبه. لم يقل شيئاً عندما اعتذرت عن غيابي الفجئيّ. وجدته يدخن ساهما كما لو أنه لم يتفطن لنهوضي كالملدوغ وجريي في الشارع مثل المعتوه.

- بيرّتين؟ قال وهو يطفئ سيجارته ويسحق عقبها في المنفضة دون أن ينظر إليها. دون أن ينظر إليّ.

وافقت، وبقينا ننتظر شرابنا صامتين.

رفع علي كأسه كما لو أنه استيقظ فجأة، أو كما لو كان يريد إيقاظي. ضربنا كأسينا ببعضهما. تناولنا جرعتنا الأولى من السائل الذهبي والرغوة البيضاء الكثيفة التي بملمس القطن البارد. ابتسم بعد أن مسح بظهر يده على شفتيه. كان قد أفرغ نصف الكأس في جرعة واحدة كما لوأنه هو الذي كان يلهث وراء السيارات مثل المحموم.

- يوم ربيعي رائع، قلت محاولا أن أمزّق جلدة الصمت الكثيفة.

- آ... ربيع...

- فكرت إنه لا يحق أن أهدره على مقاعد قاعات الدروس المعتمة..

- أو في نقاش حول تغيير العالم.. شايف؟ يوم جميل، شمس، نساء جميلات، بيرة باردة. ماذا تريد أكثر من الحياة؟ ولِم تشغل نفسك

Twitter: @ketab_n

بتغييرها؟ هي هكذا، بكل أوساخها وحمقها وأشيائها الجميلة. وبما أنك لست أنت من يصنعها بل هي التي صنعتك، لندع العالم يواصل مسيرته كما يريد إذن ولنذهب إلى مدام روز. أؤكّد لك يا صاحبي أنه ليس لدينا في هذه الدّنيا أفضل من مدام روز وبيرّتها الباردة وذلك القطيع من السكّيرات والفاجرات اللاتي ينتظرن قدومنا ولا شيء أمتع وأجمل لديهنّ من مداعباتنا الفاجرة وأشيائنا الأخرى التي تسرهن. ألم أقل لك كم مرة إنّهنّ خفيفات ببهجة الفراغ؟

نهضنا. بل علي هو الذي نهض كمن حسم في شيء هام ولم يعد لديه من سبب للجلوس والانتظار. نهضت وراءه.

طلعت يا ما احلى نورها!

بونجور مادام روز.

*

يوم ممطر

عدت إلى حي الشانزيليزي بعد انقطاع طويل طمعا في العثور على جوزيفين بعد أن لمحتها في سيارة التاكسي التي كنت شبه متأكد أنها كانت متجهة إلى منطقة الشانزيليزي. ذهبت مرتين إلى بيت العرفاوي في شارع ماربوف طمعا في معلومة عن جوزيفين ولو بصفة غير مباشرة. لكنني لم أجده. مللت صعود الدرج حتى الطابق السابع دون فائدة. وفي الواقع كنت كلما غادرت تقاطع شارع ماربوف والشانزيليزي أحسست بوخزة قلق وشيء من الندم؛ قد تكون مرت من هناك أثناء غيابي، وهكذا أكون قد فوتّ الفرصة التي جئت أتصيدها. تركت بطاقة على

Twitter: @ketab_n

باب بيت العرفاوي: أنا جالس في مقهى الدروكستور. أودّ أن أراك. عادل. ونزلت مهرولا باتجاه التقاطع من جديد.

ساءت حالة الطقس مجددا بعد الهدنة المشمسة ليوم أمس. اختفت شمس كليشي وفتح أبريل حنفيّاته فوق شارع الشانزيليزي. اختفت الفساتين الخفيفة تحت المعاطف من جديد. التثبت في الوجوه غدا أمرا صعبا تحت المطريات المفتوحة فوق الرؤوس. أقدام المارة أكثر سرعة تحت الرذاذ والسيدات الباريسيات مثل أسراب من الحمام المذعور. أتصيّد وجه جوزيفين من بين الوجوه الكثيرة التي تمر بسرعة تحت المظلات. وقوفا تصعب رؤية الوجوه. الجلوس في مقهى الدروكستور أفضل إذن؛ عندما يكون المرء جالسا بإمكانه أن يرى الوجوه من تحت المطريّات.

الأمزجة تتعكّر بسهولة في مثل هذا الطقس الممطر. اللقاءات سينقصها الحبور. هل ستكون جوزيفين معكرة المزاج؟ هل ستصيح: يا للمفاجأة السعيدة! وإذا ما صحت أنا هكذا: يا للمفاجأة السعيدة! هل سيكون هذا الطقس مما يساعد على جعلها تفهم معنى السعادة للقاء في يوم كهذا، غائم ممطر موحل قذر.

مرت سنة تقريبا على اختفاء جوزيفين. ترى هل مازالت تتذكرني؟ أكيد أنها ما زالت تتذكّرني. لم تكن بيننا علاقة صداقة طويلة، لكن... مودّة ما، وثقة...

كيف ستكون مفاجأتها؟ ستُصعق؟ تحاول أن تتظاهر بعدم التعرف عليّ؟ أم تفرح وتخجل، تعتذر عن اختفائها الفجئيّ؟ ندخل أحد البارات في شارع تيلسيت أو شارع لورد بايرون، أو تأخذني مثل المرة الأولى إلى مقهى آخر بعيد. تعتذر، تكذب، تقول إنها سافرت فجأة،

Twitter: @ketab_n

لأنّ أمها مرضت، أو تعرضت لحادث سيارة، أو ماتت فجأة. قتلها عشيقها مثلا، فهو عنيف خاصة عندما يسكر وتلهب أعصابه الغيرة. مللت الجلوس في مقهى الدروكستور بعد أن شربت قهوتين. لقد أخذ هذا المكان حظه، لِم لا أجرب أماكن أخرى من المتوقع أن تمرّ منها جوزيفين أو العرفاوي، وفي أسوأ الحالات رشيد: شارع بلزاك، شارع اللورد بايرون، شارع تيلسيت الموارب وراء ساحة النجمة، شارع فاغرام...

بعد نصف ساعة من التمشي تحت المطر بدا لي أن الجلوس في مكان واحد أفضل من التنقل من مكان إلى آخر. الجلوس، أو الوقوف في مكان واحد يمنح فرصا أكثر لالتقاء الشخص المنتظر عندما تكون حظوظ مروره من هناك مرتفعة نسبيا.

لو أنني لم أكن مركّزا فقط على صورة وجه جوزيفين لاستطعت أن أجد متعة في هذا التسكع داخل سيل المارة والسيدات على وجه الخصوص اللاتي يخطرن في معاطفهن الطويلة كما لو أنّ هذا الرذاذ الذي يجعل كل شيء لزجا مقرف الملمس لا يعنيهنّ كثيرا. لكن المشي مرهق والجلوس بلا متعة عندما تكون أطراف أعضائك منقّعة في البلل والرطوبة.

اخترت مكانا للجلوس داخل القاعة الزجاجية لمقهى فرانكلن مباشرة أمام مخرج محطة مترو فرانكلن روزفلت لأراقب خروج ودخول المسافرين. لعلّ وجه جوزيفين أو العرفاوي يبرز لي من هناك، والمقهى مدفأ على أيّة حال. رطوبة ملابسي المبللة تتسلل إلى العظام، وتلك الرطوبة الأخرى التي تُرى ملتمعة على الرصيف من وراء الواجهة الزجاجية للمقهى وفوق السطوح الرمادية للبنايات أشعر بها هي أيضاً تقتحم الجلد وتستقرّ رجفة في الأحشاء.

Twitter: @ketab_n

لكن، لا يهمّ هناك الآن عينا جوزيفين الخضراوان أدفأ من كلّ المدافئ والمواقد والمعاطف. دفء الأمان. أتخيلها الآن تخلع معطفها بعد أن تلج المقهى، مثل برتقالة تقشّر فتفوح منها تلك الرائحة العسلية الدافئة؛ رائحة برتقال في الشتاء! يا لرائحة البرتقال شتاء! أي بؤس ستكون حياتنا في عتمة الشتاءات وأوحالها لولا البرتقال ورائحة البرتقال!

كدت في غفوتي داخل هذا الدفء المتخيل أن أفوّت مرور العرفاوي. سريع الخطوة يمضي ملفوفا في معطف أسود. يداه في الجيبين الجانبيين، كما لو كان يضغط على نفسه كي لا يتسرّب إليه شيء من البرد أو الرطوبة. أنهض كالملدوغ، أريد دفع الحساب بسرعة واللحاق بالعرفاوي. أضع فرنكين على المبسط، وأخرج.

توقف العرفاوي في زاوية تقاطع شارع مونتانيي وشارع فرنسوا الأول. ألتحق به وأمسك بذراعه.

ـ أين أنت طوال هذه الغيبة؟ يقول لي مفاجأ بظهوري الذي لم يكن ينتظره، تعال!

ـ الدروس... والعمل.

لم يتهلل وجهه كما يفعل عادة عندما يبتسم حتى الأذنين. مدّ يده يصافحني بسرعة ونحن نتحرك مواصلين السير. لم يمدّ وجهه ليقبّلني، ولم يقل: يلعن دين الخس! هل كان مستاءً؟ شيء جديد! العرفاوي عادة لا يستاء، أو على الأقلّ ليس بهذه الطريقة. وحتى عندما يلوم فغالبا ما يفعل ذلك وهو يعانقك، أو يضرب بكفّه على كتفك أو بقبضة يده على صدرك، أو يرجّك يكاد يقطع أنفاسك. إنه كائن جسدي لا يعبر إلاّ بجسده، بفمه الذي يغدو واسعا مثل بحيرة، وفلجة أسنانه التي

Twitter: @ketab_n

تبدو مثل فرجة نور يطلع من أحشائه ويغمر وجهه، وعينيه اللتين تضيقان فوق أنفه العريض مثل حبتي لوز ملقاتين فوق وجهه.

اجلس! قال لي دون مزيد تعليق أو ترحيب، واتجه إلى بيت الحمام قبل أن يخلع معطفه. سمعته يرفع غطاء دفّاقة الماء ويعيد غلقها. أعرف أنه يخبئ شيئاً هناك. المكان الوحيد الذي يبدو له آمنا. أحدس ما الذي يخبّؤه. لم أر بعيني مرة واحدة شيئاً من الأشياء التي يسرقها من محلات المجوهرات. لم يكتم عني الأمر، لكنه لم يرني شيئاً من مسروقاته. ولماذا أيضًا؟

لم أسمعه يفتح حنفية الماء ولم أسمع خريراً يمكن أن يوحي بأنه بال أو اغتسل. عاد إلى الغرفة يخلع معطفه ويمضي باتجاه الباب حيث سيعلقه. وجهه منقبض شيئاً ما وإن بصفة أقلّ مما كان عليه قبل حين. ـ إنّك مبتلّ مثل فرّوج! أين كنت طوال الوقت؟ ـ كنت أتمشى، هكذا. ألحّ علي بأن أخلع الجاكيتة المبللة. رمى لي بكنزة صوف وجوربين. ـ كنتَ هائما تبحث عن عمل؟ هل ستهتمّ بدراستك أم أنك ستظلّ تعمل مثل الحمار في هذه البلاد الخراء؟ لا بدّ أن تعرف ما الذي تريده؟ كم مرة قلت لك إننا إخوة ويمكنك أن تعوّل عليّ... أترك أمر الفلوس لأخيك العرفاوي ـ هنا ابتسم لأول مرة منذ لقائنا ـ وما عليك إلاّ بالدراسة، الدراسة، والدراسة فقط. ربّي وهبك دماغا للعلم، فلماذا تفسد ما منّ به الله عليك؟ دع البقيّة عليّ...أم تراك تغيّرت ولم تعد تؤمن بالأخوّة؟

هل أؤمن بالأخوّة؟ وبالروابط التي تولّدها سنوات شدة متقاسمة وأفراح صغيرة كنا تقتلعها من التربة القاسية لنحلّي بها طعم المرارات اليوميّة؟

Twitter: @ketab_n

لا اظنّ أنني ما زلت أؤمن بالأخوة. أؤمن بالصراع الطبقي: «طبقة ضدّ طبقة» ذلك هو شعارنا. المحبة هي محبّة الطبقة الشغيلة، قلت للعرفاوي ذات مرّة وأنا أحاول أن أسرّب إليه بعضا من أفكار إديولوجيتي الجديدة، والمحبّة تتكوّن وتتدعم داخل صراع الطبقات: صراع طبقي لا فردي، ومحبّة طبقيّة موضوعية لا فردية وذاتيّة. أتذكّر أنّ ملامحه قد انقبضت وتغيّمت تحت غشاوة من حزن أو ذعر أو شيء شبيه بخيبة أمل. أتذكّر أنه ظلّ يحدّق فيّ بعينيه الصغيرتين وهو ينفث دخان سيجارته بعصبيّة، ثمّ قال لي: عادل! سيبك من هذه الأفكار القاسية... نحن لم نتربّ على مثل هذه المشاعر، وأنت لم تستطع أن تصمد أمام مصاعب تلك السنوات القاسية لولا المحبّة التي كانت تجمعنا وتسهّل علينا كلّ صعب.

ـ لكن صراع الطبقات هو هذا يا عرفاوي، أن يتآزر المضطهدون والمستضعفون لكسر طوق عبوديتهم لأنهم في تعاضدهم الطبقي يغدون أقوياء، بل القوة المحركة للتاريخ وبذلك يحققون ما لا يحلمون بذرّة منه كأفراد.

ـ هذا كلام جميل، وأنا أعرف أنك تؤمن بهذا الشيء بدافع حبّ الخير، لكنّ فيه شيء قاس وصلب مثل الكره والحقد والنقمة. شيء أحسّ به غير رحيم لا يوحي لي بالارتياح، وأخاف أن تُصلّب هذه الأفكار قلبك، ومن بعدها تصبح مثل الآخرين الذين كنت تحقد عليهم وعلى قسوتهم.

حسن فيلسوف مقهى ليسكوليبه، الذي يكره الأفكار الماركسيّة ويقول عنها إنها فلسفة الحقد والبطون الجائعة، هو أيضاً يحبّ أن يردد: «ستراهم أولئك الذين ظلوا لسنوات يخزنون الجوع والشره في

Twitter: @ketab_n

قلوبهم، ستراهم كيف ينقضّون مثل الذباب على موائد الأسياد في أوّل فرصة تمنح لهم، كلّ الموائد التي كانوا يحقدون عليها، بشرط أن تمنحهم شيئاً من الفضلات. حقدهم على نعمة الآخرين يتحوّل في قلوبهم المريضة ـ مثل النبيذ يتعفن فيصبح خلاً ـ إلى لهفة على كلّ ما يبرق يخالونه ذهبا. سترون الكثير من هؤلاء الناقمين اليوم يصبحون كلاب الغد المتكالبة على فضلات الموائد وعلى النهش والعضّ، ولن ينسوا النباح طبعًا؛ حسن أيضاً يفكر مثل العرفاوي».

حسن رجل عدمي! نحن اخترنا طريق تغيير العالم لا طريق صلافة السخرية والاستهزاء. مالنا ولشطحاته العدميّة وفلسفاته الميتافيزيقيّة الغامضة؟

*

لبستُ كنزة الصوف والجوربين وأنا مصرّ بالرغم من كلّ شيء على أنّ محبّة العرفاوي ضرب من التضامن الطبقي، لكنه فقط تضامن ذاتي وهامشي بالنسبة لحركة التاريخ.

لم يكن هناك ما ينمّ عن شيء من الجفوة في سلوكه وهو يقدم لي ملابس نظيفة ويتناول ملابسي المبللة ليضعها فوق مدفأة كهربائية كي تجفّ، ثم يشرع في إعداد القهوة. لكنه كان يبدو مشوشا شيئاً ما وقليل المرح، ولا شيء في هيأته وتحركاته وتجهم وجهه يدلّ على أنه ذو مزاج مؤات للمرح، أو للخروج. يرتطم بكرسي فيركله مدمدما ويمرّ ليتعثر في زاوية طاولة، يبحث عن شيء هنا أو هناك ثم يكفّ عن البحث ممتعضا، يجلس ثمّ ينهض ويعيد البحث. لا ينطّ مثل عادته ويهرج ويدندن. الأشياء نفسها تبدو متواطئة على اضطرابه، لا تستجيب لإرادته؛ يدير زرّ المذياع، يخشخش ويصعد منه هدير غامض فيلعن

Twitter: @ketab_n

دين أمه ويغلقه، يفتح علبة سجائر يجدها فارغة فيدهسها في كفه ويلعن دين أمها ويقذف بها على الأرض. هذا ليس العرفاوي الذي أعرفه! يبحث داخل جيوب سترته ومعطفه، يقع شيء على الأرض يحدث ارتطامة ثقيلة فيدمدم وينحني ليلتقطه، يلتفت إليّ وهو يحاول أن يخبّئ الشي الذي التقطه بسرعة محكما يده وراء ظهره. رأيتُ. ويبدو أنه رأى أنني رأيت، لكنه يتسلل إلى المطبخ ليعود بفنجاني قهوة يضعهما على المائدة ويجلس. ودون مقدمات يقول: الجوّ مكهرب.

هل ضُبط في إحدى محاولات السرقة وهرب؟ ضبطت قطعة من مبيعاته لدى إحدى العاهرات مثلا؟

- رشيد في الحبس.

فوجئت. فرحت... فرحت فعلا حتى أنني نسيت الرعدة التي راحت تقوّضني منذ أن لمحت الشيء الذي وقع من يده. كادت الكلمة أن تخرج من فمي ظافرةً، شامتةً: يستاهل. لكنها انقلبت على طرف لساني وانمسخت: في الحبس؟ لماذا؟

- قصة طويلة. خصومة في بار بساحة كليشي. المهم لا أدري ما الذي يمكن أن نفعله كي نخرجه من ورطته. أطلق الرصاص في البار وفرّ، وبعد ساعة تمّ إيقافه في محطّة الشمال.

- ساحة كليشي؟ ماذا يفعل في ساحة كليشي؟

جوزيفين رأيتها في سيارة التاكسي في ساحة كليشي! هل غيّر المكان؟ إذن...لا بد أن تكون في ساحة كليشي وأنا أبحث مثل الأبله في الشانزيليزي! ليذهب رشيد إلى الجحيم. لا بدّ أن...

حدثت خصومة رشيد بسبب خلاف في لعبة بوكر مع مجموعة من القوادين الذين يجلسون ليل نهار في الحانات الصغيرة بالأزقة المحاذية

Twitter: @ketab_n

لساحة كليشي غير بعيد من أماكن عمل مومساتهم. يخرجون من حين لآخر في جولة تفقد ثم يعودون إلى طاولة اللعب، أو للوقوف على البار في انتظار عودتهنّ بمحصول العمل، يفرغن حافظات نقودهنّ ويتناولن كأسا ويعدن إلى مواقع عملهن على أرصفة الشوارع والأزقة القريبة أو في زوايا الساحة.

قد يكون الخلاف في لعبة البوكر مجرد تعلّة، كما يحدث في أغلب الأحيان. فبين القوادين، إلى جانب علاقات التآزر علاقات حسد وغيرة ومزاحمة؛ كلٌّ يحاول كسب ودّ الجميلات من المومسات أو استدراج واحدة جديدة ما زال موقعها غير محدد وروابط خضوعها لقوّاد بعينه غير واضحة بعد. بدأت المشاجرة كلاما وصراخا وخبطا على طاولة اللعب بينما النادلة السمينة تصرخ من وراء البار مطالبة بالهدوء ولا أحد يسمعها، وما كانت بدورها تنتظر أن يسمعها أحد، إنما تفعل ذلك بصفة تلقائية كما تفعل دوما كلما تعالى الصراخ كما لو أنها فقط تسعى للإسهام في توقيع الجوقة وتكميل المشهد ليس إلاّ. نهض رشيد وفاجأ خصمه بنطحة رأس حادّة قبل أن يقلب عليه الطاولة ويفرّ شاهرا مسدسا في وجه الجميع. يقال إنه أطلق رصاصة باتجاه السقف كي يُرهب الآخرين ويصدّهم عن نية ملاحقته. ويبدو أن الطلقة قد أرعبت صاحبة البار فسارعت إلى الهاتف وهي تصرخ وتولول وطلبت أعوان الشرطة الذين قدموا بعد بضع دقائق ولم يعثروا على أحد هناك. جميع القوادين فروا وابتلعتهم الأزقة المحاذية هم ومومساتهم.

لا أحد يعلم إن كان أعوان الشرطة قد استفادوا حقا من شهادة صاحبة البار التي كانت طوال الوقت تضرب على صدرها متفجّعة على السقف المثقوب واللمبات والكؤوس المهشمة، ولا تجيب عن كل الأسئلة إلاّ بصيحات الذعر كما لو كانت فتاة رقيقة لا علاقة لها بهذا

Twitter: @ketab_n

العالم العنيف والمليء قذارات ومخاطر: عربي! أقول لكم إنه عربي.. عنيف يا إلهي، عربي عنيف! لقد دمّر الحانة وخرّب بيتي. لا بدّ أن توقفوه، عربي، خطير، مجرم..

سأنتظر حتى تجف ملابسي قليلا ثم أنصرف. رأيت المسدّس الذي وقع من يد العرفاوي وسارع بإخفائه كما يسارع امرؤ بإخفاء عورة انكشفت في غفلة منه. غدوت منكمشا قلقا. العرفاوي لن يخرج اليوم، هذا أمر شبه متأكد، فالجو فعلا مكهرب كما قال. إيقاف رشيد قد يكون فيه خطر عليه هو أيضًا. وجوزيفين؟ كان بودي لو أنني أجرؤ على ذكر إسمها. أن أسأل العرفاوي. لكن كيف؟ لعله لا يعرف حتى من هي جوزيفين. ولعلّ لها إسما مستعارا هي أيضًا. رشيد في الحبس والعرفاوي يحمل مسدسا! أنظر إليه الآن مثل واحد لا أعرفه وأتذكّر كلمات علي الذي حذّرني بشدّة من مخالطتي له. أتذكر كلمات الرفيق حميد: لست عنصرا منعزلا يا رفيق، علاقاتك يمكنها أن تجلب المخاطر على الرفاق.

- لا بدّ أن أذهب، لي دروس غدا في ساعة مبكّرة.

- ما لك؟ إنك تبدو قلقا، هل هناك شيء يضايقك؟

كان يتلكأ ويتردّد في الكلام، يتعثر في الحرج لأنه بالتأكيد قد لاحظ أنني رأيت المسدس: إنك تبدو شاردا نوعا ما! هل هي قصة رشيد قد أخافتك إلى هذا الحد؟ ما لك تنظر إليّ هكذا؟ قل شيئا، يا أخي!

- عرفاوي! قلت متبرّما. لا أدري إن كنت أرجوه أن يكفّ عن مضايقتي بأسئلته أم أن يتكلّم ويفسر أو يبرر لي وجود ذلك الشيء الذي كان يخبّئه. وهو على أية حال ليس غبيا، له حدسه الحيواني على الأقلّ. ظلّ ينظر إليّ بعينين شبه متوسلتين؛ ارتخت الحدّة التي كانت في عينيه

Twitter: @ketab_n

لكن دون أن تشعّا مجددا بمرحهما المعتاد؛ شيء من اللين الشبيه بالحزن الطفيف. تقدم مني ويده خلف ظهره. انكمشتُ. صمتُّ وأنا أنتظر.

ـ خويا عادل... هل هذا هو الذي يزعجك؟ سحب يده ورمى بالشيء الذي كان يخبّئه وراء ظهره على المائدة. هل هذا هو ما يزعجك؟

مسدّس صغير بحجم قبضة اليد.

ـ هذا؟ أنظر إليه؛ لا شيء، مجرد لعبة للمغالطة ليس إلاّ. قلت لك لعبة ليس إلاّ.

ذلك الشيء الأسود رابض فوق سطح المائدة، ثقيل رغم صغر حجمه، بارد مثل حية ملتوية منكمشة على نفسها. بدا لي مسكونا بنبض، بنفَس، بروح شرّيرة. تجمّدت وعيناي لا تفارقانه كما لو كنت خائفا أن تتحرك الحيّة في غفلة مني، تنطّ، ترتمي على وجهي وتلدغني.

ـ يا أخي، قلت لك لعبة، ألا تصدّق؟ ألعن الشيطان يارجل!

العرفاوي يبتسم الآن، لكنها ابتسامة مجتثة من روح الحرج والقلق، باهتة مربكة.

ـ تريد أن تتأكّد بنفسك؟ ههْ! ودفع بالمسدس باتجاهي. افتح وتثبّت بنفسك...

ارتجفت. تيبست مفاصلي. انكمشت أكثر والتويت على نفسي مثل أرنب مذعور. كياني كله أحسّ به الآن في بطني. ألمسُه؟ وأفتحه؟ لن تمسّ يداي هذا الشيء البارد المسكون بالموت... لكن يا سي عادل! ياسي عادل الذي تتشدق بالثورات المسلحة وتهتف لصور المقاتلين في

Twitter: @ketab_n

فلسطين ولبنان ونيكاراغوا والسلفادور وظفار وكمبوديا! يا عادل ياعدّولة، أريد أن أنادي نفسي هكذا، أو هكذا كان يخاطبني الصوت من داخلي، يا عادل الإوزّة المذعورة، ألست أنت الذي تهتزّ لرؤية الفتيان والفتيات في نيكاراغوا وأريتريا وظفار يشهرون البنادق والرشاشات وأنت تصرخ كالمختبل: خلّي الثورة تولّع نار، تولّع نار! ألم تصبح الكلاشنيكوف لديك أنت ورفاقك رمز الحرية والبطولة وحركة التاريخ؟ ألم تتغنّ بترديد إسمها مثل عبارة شبقة تملأ قلبك وشرايينك بسائل ساخن هادر كنت تظنه إلى حدّ الساعة النبض الحقيقي للحياة؟ ما لك تنكمش الآن إذن وتتكور على نفسك وتتقلّص أمام هذا الشيء الصغير الذي لا يتجاوز حجم قبضة اليد؟ شيء صغير جامد ملقى فوق مائدة في غرفة محايدة، مثل ضفدعة لابدة لا تجرؤ على الحركة خوف أن تجلب انتباه يد عدوانيّة. ما أحلاها الثورة برشاشاتها وبنادقها ومسدساتها ومدافعها وألغامها وقنابلها وكمائنها وخنادقها ودمائها! ما أحلاه موكب الذبح، القتل، النيران، الدخان والجري والقذف والقصف والجزّ والحزّ... لكن في بهو الحيّ الجامعي، وفي قاعات العروض السنمائية وعلى كراسي قاعات المحاضرات وفي غرفة الرفيق حميد المعلقة في الطابق السابع من عمارة في شارع سان جاك!

«وفي يدنا يلمع الرعب في يدنا!»

الرعب! الرعب يا طحّان! مسدّس مسالم قد يكون فعلا مجرّد لعبة، يربض فوق مائدة يجعلك تنكمش، ترتعد والعرفاي ينظر صامتا بشيء من الحرج، والشفقة أيضاً. أحضنّي ياعرفاوي بذراعيك الحنونين مثل أمّ تهدئ روع ابنها الذي أ قضّ مضجعه حلم مزعج. قل لي إنّه مجرّد حلم. طمْئِنّي، هدّئ روعَ قلبي ببيرّة باردة وحدّثني عن باجة وقل لي: يلعن دين الخسّ، أخوك الفاوي موجود ما تخافش يا فريريج، يا برغوثة

Twitter: @ketab_n

السوربون! وغنّ لي يا عرفاوي ياخويا عوضًا عن كلّ تلك الأغاني التي تنشد الرصاص والنيران والثورات الدامية، غنّ لي:

ننّي ننّي جاك النوم

يا خدود بوقرعون!

- لم تصدّق؟

نطق العرفاوي أخيراً بمزيج من المرارة وشيء من التحدّي، ثم تناول المسدّس... لم تصدّق؟ إذن طز في الكذب! أنت أخي ولا أريد أن أغالطك، ههْ!

فتح خزان المسدّس بيد واثقة وعارفة، بيده اليمنى بينما اليسرى تحتضن مؤخرة المقبض في كفّها. ستّ رصاصات تناثرت فوق المنضدة، صغيرة الحجم بكبسولات نحاسية ملتمعة، تماما مثل تلك التي كنا نجمعها في أيّام الصبا من بقايا خنادق عسكر الألمان في الجبال المجاورة. لكن هذه أصغر حجما، تكاد تكون مكوّرة أو بيضويّة الشكل.

ستّ عبوات معدنيّة صغيرة متناثرة فوق المائدة، مسالمة مثل جنود يرفعون أيديهم فوق رؤوسهم وهم يتقدّمون مجرّدين من السلاح إلى عدوّهم يقدّمون رؤوسهم للأسر. رصاص

- هل اطمأن قلبك الآن؟ إنّه مسدّس رشيد تركه عندي أمانة قبل أن يلقى عليه القبض. ماذا تريد أن أفعل؟ أرمي به في صندوق القمامة؟ إنّه أمانة!

أمانة؟

ستّ رصاصات فوق الطاولة! ألم يقل أنّ رشيد أطلق رصاصة باتجاه السقف؟ هل وجد بعدها وقتا كافيا وما يكفي من برودة الأعصاب كي يضع واحدة سادسة عوضا عن الرصاصة التي أفرغها في سقف البار؟

Twitter: @ketab_n

وهل تمكن في ظرف وجيز من البحث عن العرفاوي والعثور عليه ليسلمه المسدس؟ ألم يكن مهتما بالدرجة الأولى بالنجاة بجلده، ولا شيء غير الفرار والنجاة بجلده؟

العرفاوي يجمع بسحبة من كفّه الرصاصات المفروتة فوق المائدة. ـ عادل، أنت لم تسألني أبداً لماذا أمارس هذه الشغلة. منذ أن التقينا قبل سنتين لم أخف عنك الأمر، وكنت بكل تأكيد تتساءل، وربما كنت تريد أن تسألني، أو تلومني، لكنك لم تفعل. ربما كنت حريصا على أن لا تحرجني. لكنك كنت تحرجني طوال الوقت، لأنك لم تسألني، ولم تعطني فرصة كي أفسر لك الأمر، أو أبرر نفسي. شوف خويا عادل، يوم جاءتني الموافقة الأولية على طلب الهجرة بعد جهود مرهقة من أمي وتوسلات ودفع رشاوٍ من بيض ودجاج، علبة عسل من هنا لهذا المسؤول وصحفة سمن من هناك لموظف في إدارة التشغيل والهجرة، ثم نودي علينا للفحص الطبي، وأوقفونا في الطابور الطويل أمام لجنة طبية من رجلين وامرأة فرنسيين لنمرّ الواحد تلو الآخر؛ الأول يجسّ سواعدك، يأمرك بأن تمشي بضعة خطوات إلى الأمام، عدْ مشيًا إلى الخلف دون أن تلتفت، افتحْ قميصك، تتقدمُ، تمر إلى الرجل الثاني، ينظر إلى صدرك وبطنك، ثم يفحص ظهرك ويجس أضلعك، بعدها تمر إلى الطبيبة تجس نبضك، تستمع إلى دقات قلبك وتنفّسك، تأمرك بأن تفتح فمك، تفحص لسانك، حنجرتك، تمرر قضيبا في طرفه مرآة صغيرة على أسنانك وأضراسك، تذكرت سوق الدواب وكيف يفتح المشترون شدقي البغل أو الحمار أو الحصان ليفحصوا أسنانه: أنا الآن بغل أو حمار في سوق دواب للتصدير إلى فرنسا، فكرتُ في تلك اللحظة. ثم سمعتها تقول «سي بون»، أي أن كل شيء على مايرام، وهي تدفعني من كتفي كي أمر.

Twitter: @ketab_n

خرجت من هناك وعبارة «سي بون»، تتردد في رأسي، ثم على لساني. عرفت لحظتها أن الفرنسيين يطلبون بغالا للحراثة: «سي بون».

يوم ركبنا الباخرة، وبعد أن اختفى الساحل وراءنا وكفكفت عيني من الدموع، قلت لنفسي: أنت الآن بغل حراثة يصدّر إلى بلاد الفرنسيس. ثم أقسمت لنفسي، ولحدة أيضاً أن الأمر لن يدوم طويلا، وأنني لن أكون بغلا لأحد أيًا كانت التكاليف.

يصمت العرفاوي، يولع سيجارة ويسحب نفسيْن متتالييْن وهو يسرح بعيدا بنظره، ثم يلتفت إلي:

خويا عادل! الحياة ليست لعبة كما تصورها لك الكتب. اللقمة صعبة، والقلب تعب واهترأ من البؤس والعراء والحفاء والفاقة الدائمة. حَدّة يا خويا عادل! حدّة التي ترمّلت وركضت في الحقول وأدمت يديها المِسحاة والفأس وصابون الغسيل في بيوت الموسرين... ليس لي غير حدّة التي تحمّلتْ من أجلي الذلّ والشتائم والوقوف الطويل في طوابير إعانات التضامن الاجتماعي. أقسمت أن أنتقم لها من كلّ ذلك، أن تصير ملكة زمانها قبل أن تختطفها يد الموت. كلّ شيء يهون من أجل أن أراها في رفاه ولو يوما واحدا، سعيدة، راضية عن كلّ تضحيات وعذابات السنين الطويلة القاسية.

أنا لا أريد هذا المسخوط، ومثلك لا أحبّ رؤية منظره المفزع. أعرف أنه الأفعى التي تنام في جنبي ويمكن أن تنقلب عليّ في أية لحظة وتلدغني. لكن هناك ساعات أو لحظات أتحسسه فأشعر به مثل التميمة التي تبعد عنّي البلاء، تملأني جرأة وثقة، هكذا لمجرد أن يكون ملاصقا لجنبي... ماذا تريد؟ هكذا هي الحياة.

Twitter: @ketab_n

زمرة الشياطين

المولدي في باريس، قال لي حسني، تعال سنجده بالتأكيد في مقهى ليسكولييه.

كان فعلا هناك. من وراء ستارة المطر المتدفّق خيوطًا عموديّة سميكة بدت لي تقاطيع وجهه مثل صورة متشظية تنعكس في مرآة مهشّمة. واقف على المبسط وأمامه بيرّة، كما لو أنّه لم يتحرّك من ذلك الموقع من الزاوية اليمنى للبار منذ أن تركته هناك قبل سنة أو ما يزيد.

ارتعش شارباه الغليظان وبرقت عيناه ببريق الفرح ونطّ مثل قطّ متوثّب بقامته القصيرة والممتلئة التي تجعله شبيهًا ببحّار برتغاليّ.

هاي هاي هاي! يا زمرة الشياطين! ها أنا الآن حقا في باريس!

ثمّ، ومن دون مقدّمات: كيف أخبار الثورة؟ وأخباركم الجنسيّة؟ فتيات باريس ليس هناك مثلهنّ في الدنيا قاطبة. تعرف يا رفيق، قال ملتفتًا إليّ وهو يتّخذ ملامح جديّةً للغاية كالمقبل على قول شيء ذي أهميّة قصوى، تعرف ماذا كتب ماركس لأنجلس ذات مرّة في رسالة من باريس ـ ستجدون ذلك في المراسلات الكاملة صفحة كذا كذا.. قال له: تعال إلى باريس يا فريدريش، إنّ فتياتها الجميلات سيساعدنك على تنقية دماغك من الكدر الألماني، وستعود بوضوح فكريّ وأيديولوجي لا عهد لك به. ماركس، في رسائله إلى أنجلس. أغلب الرفاق مكبوتون

Twitter: @ketab_n

جنسيًا، لذلك تظلّ أفكارهم متوتّرة، جافةً ورؤيتهم ضبابيّة. ينقصهم الوضوح الفكري، لأنّ وعيهم مكبّل بالعقد الجنسيّة يا رفيق. اقرأوا فيلهلم رايش. إنّه الوحيد الذي استطاع أن يذهب إلى أعماق البنى السيكولوجية الخفيّة للمسألة الفاشيّة. لم يفهمه أصدقاؤه الشيوعيّون الأغبياء. الوحيد الذي حرّك إصبعه في الجرح العميق لكتلة الجماهير المكبوتة، والذي كشف عن الخيوط الخفيّة التي تحرّك بها القوى الفاشيّة الكتلة البشريّة الغائمة، وتتحكّم بموجبها في الأرواح والضمائر. العامل الجنسي، والعامل الذاتي هو المحدّد دوما في عمليّة الوعي، كما في عمليّة التلاعب بوعي كتلة الجماهير. جمّعهم ذلك الأحمق، قتل فرديّتهم، سحقهم كأفراد وهو يجمّع مكبوتاتهم ويؤطرها ليكوّن منهم كتلة غامضة تتحرّك وفقا لأغراضه ونواياه. حرّروا الجنس، يتحرّر الفرد ويصفى الوعي. كلّ ما عدا ذلك كذب ومغالطة. تدجين. إعداد جيوش للخراب والدمار.

سبق أن حدّثنا المولدي قبلها بحماس عن فيلهلم رايش وعن الثورة الجنسيّة، عن هربرت ماركوز وهوركايمر وأدورنو. «العالم يتحرّك من حولكم يارفاق وأنتم تغطّون في نوم الأيديولوجيات. يا ويحنا يوم نفاجأ بشبح التزمّت الديني وهو يطلع علينا على قاعدة هذه العقول التي روّضها التأطير الاديولوجي والخصي المعرفي. خصي. أنا أقول لكم إنّه خصي، ولا شيء غير خصي. لكنّ المخصيّ يحاول الاستمناء خفية. وفي الاستمناء لا يفعل سوى شحذ ضغينته والتهيئة للدمار. أولئك الخوانجية المتزمتون الذين تدّعون محاربتهم يغتذون من تعصبكم وعماكم الإديولوجي. لا تدعوا أنفسكم تتحولون إلى بذرة متعفنة تنتعش داخلها تلك الدودة. مازال بالإمكان تفادي هذا الأمر والدودة في طور بداياتها الخجولة».

Twitter: @ketab_n

المولدي هو الذي ابتكر مصطلح اليسار الخوانجي. ـ طبعا يارفاق، يقول منتفضا، كتاب عوضا عن كتاب، إيمان أعمى مكان إيمان أعمى، تزمت مكان تزمت... عقل محنّط: القالب هو نفسه، لا يغرنكم وهم المحتوى؛ القالب هو المحتوى.

ـ هاو بدا يخبّز ويلبّز، قال حسني ممتعضا. ما هذا الهراء يا مولدي؟ يبدو أن صاحبك رايش قد خبّل عقلك حقا!

*

في بيت آخر في الدائرة الرابعة عشرة، بالقرب من أليزيا تلتئم لقاءات مجموعة مرحة من أصدقائنا وأنصار التنظيم، تقدّميّون وملتزمون لكنّهم يحبّون المرح والعبث. أوفياء وحازمون عندما تقتضي الحاجة، لكن لا يعجبهم كثيرًا إفراط أغلب الرفاق في الجديّة، وذلك التيبّس الذي يجعل الكثيرين منهم أشبه بالكهّان والفقهاء المتزمّتين: مروان وفتحي وعبد الحميد وذجو مجموعة من المرحين المشاكسين. ودودون، مرحون، عابثون يحبّون المغامرات الجنسيّة والحديث في مسائل الجنس والنساء. يشربون بشراهة وتدور بينهم في بعض الأحيان لفافة الحشيش، يتأبط مروان العود ويمسك فتحي بالدربوكة أو الدفّ وتأخذ السهرة منعرجًا آخر. ندع الأغاني الملتزمة جانبًا وتصدح الحناجر بأغاني الشيخ العفريت وراؤول جورنو وصليحة والهادي الجويني وأمّ كلثوم ومحمّد عبد الوهّاب وسيد درويش. أحيانًا يتوقّف مروان فجأة عن العزف. ثمّ ينظر إلينا بعينين تفتعلان اللوم والعتاب قبل أن يقول بصوت ظاهره جدّ صارم: أستغفر الله! أظنّ أنّنا بدأنا نتميّع يا رفاق! يالاّ، خلّينا نأتي بواحدة للشيخ (وهو يقصد المغنّي الملتزم الشيخ إمام) نغسل بها الذنوب! ننفجر جميعًا ضاحكين ونقول له: تتزندق يا كلب يا فاجر؟

Twitter: @ketab_n

لو كنت في الصين لحشّ الرفاق لسانك ونفوك في حقول الرز لتتم إعادة تثقيفك! ـ أي والله، معكم حقّ يا رفاق. ويظلّ مصرّا على عدم العودة إلى «أغاني الميوعة» قبل أن يغنّي إثنتين أو ثلاثًا من أغاني الشيخ إمام؛ «الآيات القصار يا رفاق!» يقول بتهكّم ويشرع في: *«مرّ الكلامْ، مثل الحسامْ / يقطع مكان ما يمرّ»* أو *«درْ يا كلام على كيفك دور»*. بعدها يضع العود ويولّع سيجارة وهو يقهقه ويقول: هذا شيخ وذاك شيخ، ولكلّ شيخ علينا حقّ، ثمّ يشرع في الدندنة بأحد ألحان الشيخ العفريت.

في البداية كان الجماعة، وبرغم الودّ الذي بيننا، حذرين شيئًا ما تجاهي ومتحفّظين. كانوا لا يعرفون مني غير جانب الجدية والالتزام والحركية، فقد كنت خلال تلك السنوات أعيش بحسب نمطين متوازيين: واحد في الحي الجامعي بين الرفاق الثوريين، في الاجتماعات العامة والركض بين أحياء المهاجرين، ونمط آخر في حانات سان دني والشانزيليزي ومونبرناس، بين أرهاط من السكيرين والسكيرات والمومسات والقوادين واللصوص والنشالين. عالمان متوازيان أتأرجح بينهما بكل تلقائية مثل بهلواني مدرب على السير فوق حبل دقيق، لكن أغلب الأصدقاء لا يعلمون شيئاً عن عالمي الموازي ذاك. ذات ليلة قضّينا ساعات طويلة من النقاش حول مسائل سياسيّة متنوّعة في بيت مروان، حتّى كادت تطلع روحنا. وبعد أن شربنا بضع زجاجات من النبيذ الأحمر تناول مروان العود وكنت حينها قد بلغت حدًّا من تخمة النقاشات الجديّة فسألته إن بإمكانه أن يعزف لنا أغنية «أنا ماذا بيّ» للشيخ العفريت، وإذا به ينطّ مثل الملدوغ ويرتمي عليّ وهو يسألني: تحفظها؟ كاملة؟ فأجبته بنعم وشرعنا نغنّي جميعًا بحناجر منطلقة مثل سجناء أطلق سراحهم للتوّ ولا يدرون بعد ما الذي يفعلونه بحرّيتهم المستعادة فانطلقوا يزعقون مثل المخابيل. منذ تلك السهرة التي

Twitter: @ketab_n

لم يغنِّ فيها حرف واحد ملتزم توطّدت علاقاتي بـ«مجموعة المائعين» كما يحلو لبعض الرفاق تسميتهم. زالت الكلفة وفتحوا قلوبهم لي. ثم غدونا «نتزندق» معًا ولا نتورّع عن التهكّم ـ في حدود طبعًا ـ من الجديّة المفرطة لبعض الرفاق، ومن دوغمائيّة هذا وتبعيّة ذاك، وكان مروان يجيد فنّ النكتة ويتفنّن في ابتداع شتّى السخريات الشيّقة المبهّرة بشيء من الدعارة ورغبة واضحة في التحرّش بكلّ ما له هيئة المقدّسات. ذات ليلة سألنا: هل لاحظتم شيئًا في ملامح الرفيق ق؟ في عينيه بالتحديد؟ ـ لا، أجبنا جميعًا. وماذا لاحظت أنت؟ ـ عجيب! قال لنا، هل أنتم عمي، أم أنكم لا تنظرون بدقّة في وجوه رفاقكم؟ ألم تلاحظوا أنّ عينيه ما فتئتا تضيقان في المدّة الأخيرة؟ ـ لا، لم ننتبه. وما السبب في ذلك يا مروان؟ ـ السبب في ذلك يا رفاق هو إدمانه على قراءة صحيفة «أخبار بيكين». ق له فعلا عينان ضيّقتان ووجه بملامح مغوليّة، وهو بالفعل من المدمنين على قراءة «أخبار بيكين»، لا يستشهد إلاّ بها، ولا موقف له من أيّة قضيّة إلاّ بحسب ما جاء في «أخبار بيكين»، وإن حدث شيء ما في أيّ مكان من الدّنيا فإنّ الرفيق ق يحجم عن الإدلاء برأي في الأمر قبل أن يصل العدد الأخير من «أخبار بيكين». ذات مرّة ناداه مروان وكنّا جالسين في مقهى سوفلو بالحيّ اللاتيني بينما كان مارًّا من هناك، ثمّ سأله بنبرة جديّة صارمة: هل سمعت يا رفيق؟ الحزب الشيوعي الصيني أصدر بيانًا يشجب فيه زيارة أنور السادات إلى تل أبيب ويعتبرها مؤامرة إمبريالية صهيونية ضدّ الثورة الفلسطينيّة.

ـ حسنا، وما الغريب في ذلك؟ إنّ موقف الرفاق الصينيين تجاه القضيّة الفلسطينيّة واضح لا غبار عليه، خلافًا للاتحاد السوفياتي الذي... وانطلق في شرح مطوّل وتحليل خشبيّ لمسائل قضايا التحرّر الوطني والامبرياليّة العالميّة، والامبريالية الاشتراكيّة السوفييتيّة، ونظريّة

Twitter: @ketab_n

العوالم الثلاثة، ونحن نستمع ونتغامز لعلمنا بأنّ الصين قد نوّهت بزيارة السادات إلى اسرائيل واعتبرته شخصيّة وطنيّة من درجة أولى. لكنّ مروان أراد فقط أن يضحك على الرفيق، وظلّ يغمز إلينا بأن لا نفاتحه بحقيقة الموقف الصيني وأن ندعه حتّى يكتشف ذلك بنفسه في العدد الأخير من «أخبار بيكين» الذي كان منتظرًا وصوله إلى باريس في ذلك اليوم. بعد يومين سألنا الرفيق ق متظاهرين بالاندهاش للموقف الجديد والمفاجئ للصين بشأن زيارة السادات لإسرائيل، وهاهو ينطلق في تحليل جديد مناقض تمامًا لتحليله الأوّل، وهو لا يفعل في الواقع سوى استحضار محتوى المقال الذي جاء في العدد الأخير من «أخبار بيكين»، ومروان يفتعل الحيرة والدهشة ويردّد: سبحان الله، لم أعد أفهم شيئًا يا رفيق! والرفيق ق يعيد عليه محتوى المقال من جديد محاولا أن يُوضّح له ولنا الأبعاد السياسيّة والاديولوجيّة والاستراتيجيوسياسيّة لموقف الرفاق الصينيّين معتمدًا في ذلك على نظريّة العوالم الثلاثة الصينيّة طبعا.

Twitter: @ketab_n

زاوية أخرى من القاع المظلم

علي يبدو اليوم مرحا. بيته مرتّب ونظيف. كان قد أعدّ كسكسي بلحم العلّوش. قال لي: هكذا خطر لي اليوم أن أطبخ كسكسي، لكنني حالما انتهيت من الطبخ شعرت بشيء من الضجر وقلت لنفسي كيف سأتمتع لوحدي بهذا الأكل؟ أنت تعرف أن الكسكسي لا يمكن أن يأكله المرء لوحده. لا أدري لماذا؟ الأكلة الوحيدة التي أشعر بنفسي وحيدا بائسا مثل كلب متروك عندما أطبخها وآكلها وحدي، وغالبا ما أرمي بها بعد يومين في الزبالة. في المطعم الأمر يختلف. لكن أن تقضي ساعات في إعداد هذه الوجبة، ثمّ تجلس بالنهاية أمام كدس من الخضار واللحم من المفترض أن يكون طعاما لحفل وتشرع في التهامه بسرعة وبصفة آلية! خسارة، أليس كذلك؟

ـ اشتممت الرائحة من بعيد فأتيت.

تهللت أساريره. بدأ يركض بين الغرفة والمطبخ، يدندن، يهذي، يفتح زجاجة بيرة ويضعها أمامي، ثم يعود إلى المطبخ ويأتي بزجاجة نبيذ سيدي ابراهيم الجزائري: أليس هذا أفضل من البيرة مع الكسكسي؟

بعد انتهائنا من الغذاء راح يتحدّث عن الأطعمة التونسية وعن بعض المطاعم التي كان يرتادها في تونس. نادرا ما يرغب في الحديث عن

Twitter: @ketab_n

تونس، لكنه اليوم يفعل ذلك بنفس الشهيّة التي كان يلتهم بها صحن الكسكسي؛ وكان بالفعل كسكسا لذيذا. تحدث عن أطباق الكمّونيّة والمدفونة ومرق العقد التي يجيد إعدادها اليهود أكثر من غيرهم. تحدّث عن حارة اليهود في حيّ الحفصيّة وعن زاوية سيدي محرز الذي يكنّ له تقديراً لا يضاهيه سوى تقديره لسيدي بلحسن الشاذلي. تحدث عن موت عمه وعن الكسكسي الذي طُبخ بتلك المناسبة وكان طفلا آنذاك. قال إنه ألذّ أكلة عرفها في حياته حتى أنه راح يتمنى بعدها لو يموت أبوه كي يأكل كسكسا شهيا، مثل «كسكسي عمي» كما يقول.

وجدت الفرصة سانحة وعلي على مزاج معتدل، كي أسأله عن أبيه.

ـ ماذا تريد أن تعرف عنه؟ واحد كلب سائب وطحّان(قوّاد) علاوة على ذلك، هذا كل ما يمكنني أن أقول لك عنه. لا أتذكّره إلاّ سكران يسبّ ويشتم وصوته يلعلع في الحيّ كلّه. عندما أسمع صوته قادما من الزقاق أهرب إلى بيت جيراننا أو إلى بيت عمّي المجاور لنا. لم يكن عمّي أفضل منه بكثير. لكنّه على الأقلّ لا يستعمل «السبْتة» مثله. الحزام الجلدي هرّأ ظهري ومؤخّرتي. إلى حدّ الآن كلّما أرى حزامًا، أو كلّما أمسك بحزام سروالي إلاّ وينتفض داخل صدري شيء شبيه بعصفور مذبوح. استغربت يوم اشترى لي حزامًا جلديًا قديما كي لا يقع سروالي الفضفاض الذي هو في الواقع أحد سراويله القديمة عمدت أمّي إلى قصّ رجليه كي أستطيع أن أرتديه ـ لكم وددت وأنا أراها تحكم المقصّ في رجلي السروال لوأنها كانت تقصّ رجليه هو. تخيّلت أحدًا يحشّهما له بمنجل، أو بساطور أو فأس. قفزت دون أن أشعر ورحت أدور على نفسي مثل المختبل وأنا أصفّق وأصيح: قصّولو رجليه، قصّولو رجليه! ما أحلاها فيه! لم تفهم أمّي شيئًا من سرّ ذلك الجنون الذي استبدّ بي، واكتفت بأن انتهرتني: اسكت عنيّ، لو كان بوك راجل ما كنّا نقصّ لك

Twitter: @ketab_n

أرجل سراويله القديمة النتنة! لم أدر في البداية ما الذي أفعله بالحزام بالرغم أنني لم أكن أجهل ماذا يمكن أن يفعل واحد بحزام، وخاصّة عندما يعطى سروالا فضفاضًا يمكن أن يضمّ في هوّته ثلاثة منّي. بعدها اكتشفت لذّة استعمال الحزام لترويع القطط وإلهاب جلد الكلاب والحمير وكلّ ما كان يدبّ من حولي ولا يستطيع الدفاع عن نفسه، ثم غدا سلاحي في الدفاع عن نفسي أمام من هم أكبر مني وأمتن بنية. هل كان أبوك أيضاً يستعمل الحزام؟

ـ لا. أبي لم يكن يضربنا، لكن لسانه كان أقسى من الحزام. كان يجيد الإهانة، يسحقك، يحقّرك، يجعلك تذوب خجلا من نفسك التي يحولها بسخرياته وهزئه وإهاناته إلى شيء أقل من الحشرة، أقل من قاذورة. لا شيء يعجبه من كل ما كنت أفعله؛ عندما تكون نتائجي في المدرسة متوسطة أو دون المتوسط ـ وهو ما لايحدث إلا نادرا يشبعني شتائم وإهانات، وعندما تكون جيدة، وأعود إلى البيت بجائزة أضعها أمام عينيه وأنا أبصبص بذيلي متسولا ثناء ما، نظرة إعجاب، كلمة مشجعة، يشيح عنها بوجهه بكثير من الاستعلاء، كشيء تافه دون منزلته هو الشاطر، الذكي، الماكر، الداهية، الذي يفهم كل شيء أحسن من غيره، وكل ما يفعله غيره لا يستحق حتى مجرد نظرة مجاملة. باهي، باهي، سنرى مالذي تفعله في امتحان السيزيام، يقول لي وينصرف. بعدها ستصبح: سنرى مالذي ستفعله في الباكالوريا. انشالله ما تخرا على روحك في امتحان الرجال! أتدري ياعلي كم مرة تمنيت لو أنه كان مثل بقية الآباء يستعمل الحزام والصفع ويكفيني شر لسانه وإهاناته...

ـ الكلب بابا كان يستعمل الحزام ولسانه القذر معا. لم يكن لي من ملجأ سوى جدتي إلتي كان يخاف منها ومن لسانها الأكثر سلاطة من لسانه، معه هو بالذات. بعد أن ماتت جدّتي التي كانت تحميني من

Twitter: @ketab_n

بطشه وكثيرًا ما تردّه على أعقابه وهي تشتم أصله الواطي وتنعته بالخاسر والفاسد، أصبحت عمّتي صلّوحة هي ملجئي المحبّذ عندما يستشيط به الغيظ فيسحب الحزام ويهجم عليّ. ولم يكن لها هي التي تصغره بحوالي عشر سنوات من الهيبة أو السلطة ما كان لجدّتي، ولم يكن في بيت عمّي حيث تسكن منذ وفاة أمها لا خزائن ولا دواليب ولا حتّى سرير يمكن أن تخبّئني تحته، فكانت طريقتها الوحيدة هي أن ترفع فستانها الفضفاض وتسحبني بقوّة ثمّ تجلس فوقي ولا تنهض حتّى لو وقع عليها السقف.

آه، عمتي صلوحة..!

ثم صمت وظل يدخن ساهما، أو هائما في ذلك الماضي البعيد.

كان عمري لا يتجاوز السبع سنوات عندما خبّأتني عمّتي للمرّة الأولى تحت فستانها وبركت عليّ حتّى كدت أختنق وتطلع روحي بين فخذيها. كانت جالسة على كرسيّ صغير واطئ، وكان فستانها واسعًا فضفاضًا، لكنّ الخوف على ما يبدو هو الذي جعلها تضمّ ركبتيها كي لا يشعر هو بوجودي مختبئا تحتها. وكان فجأة ظلام، وكان دفء، وعلى خديّ وفوق شفتيّ كان اللحم الطريّ الدافئ شيئًا لذيذًا لذّة كادت تجعلني أبول في سروالي ـ لا خوفًا هذه المرّة بل لأمر آخر غريب وغامض ولذيذ في الآن نفسه. عندما غادر البيت متوعّدًا شاتمًا أخرجتني من ذلك المخبأ الآمن وكانت وجنتاي تشتعلان وأعضائي ترتعد، وكنت أريد أن أبول. ثمّ ضمّتني إليها وقبّلتني وهي تردّد لي محاولة تهدئة روعي: ما تخافش يا عزيزي ماتخافش! لقد ذهب، قلَب وجهه المشؤوم ولن يعود.

بعد يومين خطر لي هكذا وبدون سابق تفكير أن أهرع نحو عمّتي

Twitter: @ketab_n

في عمق الظهيرة مندفعا مثل العجاجة من الباب المفتوح على الدوام، صارخًا مولولا: عمّتي الحنينة، عمّتي! إنّه سيقتلني! وارتميت بين رجليها باحثًا عن مخبئي المبجّل حيث تركتني ما لا يقلّ عن ربع ساعة هناك وهي تعيد عليّ: ما تخافش، لن أنهض من مكاني حتّى لو قتلني! وبالفعل لم تنهض من فوقي إلاّ عندما ارتخت ركبتاها فجأة بعد شدّات عنيفة متواترة وارتعاشات شعرت بها صكًا على وجنتيّ. وعندما خرجت من تحتها بعد أن دفعتني برفق كانت سحنتها كما لو أنها هي التي كانت مختنقة بين ركبتيّ. بعدها باستني مرّات متتالية ودفعتني باتجاه الباب. تكرّرت لعبتنا تلك مرّات عديدة. ثمّ غدت لا تنتظر أن أدخل عليها لاهثًا صارخا كي تفتح لي باب المخبأ، بل كانت هي التي تمازحني بين الحين والحين ونحن جالسان لوحدنا، عندما يخرج الجميع لقضاء شؤونهم؛ تفتعل صرخة ذعر وهي تسحبني من شعري: اختبئ يا ابن الكلب، اختبئ ها هو جا يبحث عنك...

اختفت عمّتي صلّوحة فجأة. ولم أرها إلاّ بعد ما لا يقلّ عن خمس سنوات طويلة عندما توفي عمّي، وكانت مصحوبة بزوجها وهو أحد جيراننا الذي اختفى بدوره في الفترة التي اختفت فيها، ووراءهما الآن طفلان وبين ذراعيها رضيع لم يتجاوز الستة أشهر من عمره.

بكيت بحرقة في ذلك اليوم، بالرغم من عزاء الكسكسي اللذيذ الذي لم آكل مثله لا قبلها ولا بعدها. لم أبك عندما ماتت جدتي. ولم أبك عندما اختفت عمتي صلوحة قبل خمس سنوات. حزنت لذلك لكنني كنت متأكدا أنها ستعود ذات يوم. أما اليوم وأنا أراها امرأة غريبة تجر وراءها جزوين وبين ذراعيها جرو آخر..!

آه، عمتي صلوحة!

*

Twitter: @ketab_n

كانت الحياة بائسة قذرة في حي قرّيش. فقر، جوع، عراء، بيوت من الطوب والقشّ، أزقّة موحلة شتاء، مغبرّة في الصيف، مجارٍ عارية بمياه آسنة سوداء ونتنة يحوم حولها الذباب والبعوض وشتى الحشرات. نتونة نفايات تخنق الأنفاس. لا كهرباء ولا ماء ولا قدرة حتّى على اشتراء شيء من الحطب أو الفحم من أجل التدفئة في فصل الشتاء. أبي يدّعي أنّه مريض ولا يستطيع العمل. لكنّه كان يستطيع السّكر. لا يعود إلى البيت إلاّ في ساعة متأخرة سكران مترنّحا، أحيانًا يغنّي، وأحيانًا يكون غاضبًا يصرخ ويولول، ينهال على كلّ من يعترض طريقه صفعًا وركلا وشتائم. ينعت أمي بالهاملة ووجه البؤس التي جلبت له كلّ شقاء الدنيا وبلاويها منذ دخلت بيته. لا أحد ينجو منه، ولا حتّى القطط.

ذات مساء عاد مبكّرًا إلى البيت وسكران كعادته. اتّجه مباشرة إلى «الدكّانة» ـ الزاوية الصغيرة التي كانت تعدّ مطبخنا في ذلك البيت الضيّق المكوّن من غرفة واحدة ننام فيها جميعًا أبي وأمّي وأنا وأخواتي الثلاث. سمعنا لطما ولطخا وأواني تقع على الأرض وصراخا وشتائم ونحن لابدون أربعتنا في زاوية من البيت حيث ننحشر دوما عندما نسمع خطاه أو صوته الأجشّ الملعلع بالسباب والشتائم وهو يتجاوز العتبة.

سمعناه ينعت أمي بالقحبة التي مرغت سمعته في الخراء وجعلت وجهه في قفاه. ثمّ سمعنا صوتها يرتفع فجأة بين الصراخ والنحيب: هاهي الفلوس، خذها واقلب وجهك. ماذا تريد أكثر؟ هذا كلّ ما تبقّى لديّ خذه وأرحني من خلقتك، اذهب انشاالله تاكل راسك، تنقطع رقبتك، تتهرّس عظامك، يجيني خبرك بجاه سيدي محرز وسيدي بلحسن... وووووه! وووووه! يا أسيادي يا أولايْ الله، ياربي تاخذْلي حقي من لحمه، الكلب الهامل الطحّان!

Twitter: @ketab_n

ـ حقّي يا فاجرة. هذا حقّي، بل أقلّ من حقّي.. أتظنّين أنّك تتصدّقين عليّ بقحبك؟ لا بدّ أن آخذ حقّي كاملا. كاملا هل فهمت؟ تخدمين في بيوت العزّاب من دون علمي، من دون استشارتي! غسيل وتنظيف؟ لذلك أنت دائمًا تعبانة، وكلّما اقتربت منك اشتكيت من مغص في الأمعاء، وجع في المفاصل، شقيقة، دم الشهر... دائمًا مريضة الفاجرة! أتظنّينني أبله؟ وأن الناس ليست لها عيون؟ كلّو مكشوف، وربي يشوف، والشيطان يشوف، والناس تشوف يا قحبة!

أخذ طنجرة العشاء وخرج. كانت ليلة أشبه بمأتم. قضينا أكثر من ساعة جالسين على العتبة، أمي في الوسط وأنا على يمينها وأختي حميدة على يسارها، صامتين، ما من أحد منا نطق بكلمة. جنازة، وبلا عشاء علاوة على ذلك.

بعد تلك الحادثة بيومين عنّ لها فجأة أن تدافع عن نفسها، وإذا هي تغرس رأسه في التراب ثمّ تنهال عليه ضربًا ولكمًا وعضًا. شبعت من لحمه. اكتشفتْ أنه ضعيف وأنّها تستطيع التغلّب عليه. كان يتخبّط تحتها مثل الفأر وهي تدقه وتهرسه، بينما كنا أنا وأختي ننظر مرتعدين ونحن نمد رأسينا من وراء الباب المنفرج للغرفة، ونحاول أن نصد أخوينا الصغيرين من ورائنا عن رؤية ذلك المشهد. تتوقّف بين حين وآخر عن ضربه دون أن تنهض من فوقه وهي تحكم ركبتها على رقبته، ونحن نرتعد خائفين أن يفلت من قبضتها وينقلب عليها فيقتلها؛ تستريح قليلا ثم تعود إلى ضربه من جديد. شبعت من لحمه، وربما تعبت أيضاً، فنهضت من فوقه وراحت تركله بكلتا قدميها فيتدحرج باتجاه الباب ولا يقدر على الوقوف، حتى قذفت به في الزقاق وأغلقت الباب من ورائه، وكان صمت مثل الموت داخل البيت.

Twitter: @ketab_n

كان يؤلمني ضربه لأمّي. وكنت دائما أرغب في أن أنهال عليه من الخلف ركلا وضربًا لأنقذها منه. لكنّني لم أتجرّأ أبدًا. لم أتجرّأ ... كنت جبانًا. لو أنّني تجرّأت مرّة واحدة...

لم أتجرّأ... كنت جبانًا! يرددها مرات متتالية ساهمًا بنظره كما لو كان يخترق بعينيه الجدار والمسافات والزمن ليحدّق في ضباب طفولته البعيدة ويحرق بنار الندم التي تشعّ بها نظراته كدس الجبن الذي يجثم على تلك الطفولة البعيدة، القريبة الآن، قريبة جدًا تحكّ أمعاءه وتوقظ فيها أوجاعًا قاسية.

كنت فعلا جبانا، أخاف من ظلي كما يقال، أنزوي إلى زاوية مثل قط مذعور كلما لعلع صوته قادما في الزقاق. لكنّني بعد أن أكتشفت أنها قادرة عليه ورأيتها تضربه وتمرّغه وتبرك فوقه وتحكم ركبتها على رقبته وتجرّه من عنقه كما يُسحب فأر من ذيله ثم تدفع به ركلا بالقدمين لتقذف به خارج البيت، قلت لنفسي: كان لك أب، قاس وشرّير، لكنّه أب على أيّة حال. أمّا الآن فأنت يتيم ياعليّ. لم يعد ليلتها إلى البيت، ولم يغمض لي جفن طوال الليل وأنا أتكور على نفسي تحت الغطاء محاولا أن أكتم شهقاتي ونحيبي. مع طلوع الفجر خرجت من البيت لأسلم ساقيّ إلى الأزقة حتّى بلغت مقبرة الجلاز لأجلس هناك وأبكي بعد أن ضربت رأسي ضربات قاسية متتالية على جذع شجرة حتّى نزف أنفي. في طريق العودة من المقبرة اشتبكت مع أوّل طفل اعترضني، هكذا دون أيّ سبب. كانت أوّل مرة أبادر فيها أحدا بالشجار. في العادة كنت أتحاشى المشاجرات؛ يكفيني ضرب أبي في البيت. كل طفل يشهر قبضته في وجهي يجعلني أرتجف مثل قصبة في الريح وقلبي يكاد ينفجر. أهرب، أسلك طرقا ملتوية مواربة كي أتفادى الساحة التي يتجمع فيها الأشرار للعب الكرة والتحرش بالصبية الآخرين. لم يخطر ببالي أبدا

Twitter: @ketab_n

أن أعتدي على أحد، سواء في حومتنا أو في أيّ مكان آخر. كنت أكتفي بإحساس بالظفر عندما أعود إلى البيت دون أن أكون قد تعرضت إلى اعتداء أو ضرب أو هزء الأطفال المشاكسين، أو تحرّش اللوّاطين. كنت وحيدا في أغلب الأحيان ولا أنتمي إلى أيّة زمرة أو عصابة، لأن للانتماء إلى هذه المجموعة أو تلك ثمنه؛ لا بدّ أن تُضرب وتردّ الضرب مرات عديدة قبل أن يُقبل بك كصديق وعضو في المجموعة. ثم عليك من بعد أن لا تتأخر في المشاركة في الاعتداء على الآخرين أو في الدفاع عن المجموعة عندما تعتدي عليها عصابة أخرى. كان ذلك كثيراً عليّ، ففضلت العزلة.

الطفل الذي اعترضني في زاوية من زقاق قريب من باب الفلّة لم أكن أعرفه، ولا أظنه يعرفني أيضاً. تراءى لي أنه طفل وحيد مثلي، ولعلّه جبان مثلي ولا يحبّ العراك، لذلك هو يسير متسللا وحده مثل قطّ سائب. لم أكلمه ولم يكلّمني. كان يتقدم باتجاهي وكنت أتقدم باتجاهه، ولا أحد منا ينظر إلى الآخر، أو كنا نتفادى النظر إلى وجهيْ بعضنا، كما يفعل الخائف دوما. وجدتني على بعد مترين منه وشعرت أنني أكرهه. لم أفكّر في شيء، أغمضت عينيّ وأنا أشعر بدقّات قلبي تتسارع وكلّ أعضائي ترتعد. أغمضت عيني وارتميت عليه. لا أدري كم من الوقت بقينا نتمرّغ في التراب وأنا ألطم وأركل وأعضّ وأبصق على وجهه، وهو من تحت يتشبّث بقميصي وبشعري ويتململ ويتخبط، وأنا ألطم وجهه لطمات متلاحقة سريعة وركبتي محكمة على بطنه، وكلما تماديت في لطمه ازداد الخوف تأججا في جوفي. كنت مصرا على البقاء فوقه إلى ما لانهاية، أو حتى يموت. أن أظلّ محكما ركبتي بقوة على بطنه؛ لو استطاع الافلات من قبضتي ربما سيقتلني. كنت مورطا ولا

Twitter: @ketab_n

خلاص لي سوى في مواصلة ضربه، حتى شعرت بقبضة قويّة تسحبني من كتفي، وشتيمة: لعنة الله عليكم يا كلاب! ما تحشموش!

فتحت عيني فوجدت نفسي واقفا أرتجف أمام كهل قد يكون في الأربعين يمسك بي من ياقة قميصي ويشتمني ويأمرني بالانصراف. أما الطفل فقد تبخر ولا أدري أيّ أرض ابتلعته.

نمت نوما ممزّقا بالأحلام المرعبة في تلك الليلة. رأيت نفسي تائها في سبخة الملاسين أحاول التقدم ولا أستطيع أن أرفع قدميّ وأخلصها من أوحال المستنقع. أحيانا يخيل إليّ أنني أتقدّم لكنني كلما خطوت خطوة إلاّ وازدادت الضفة ابتعادا وازدادت أعضائي تيبّسا. ثم وجدتني مقيّدا إلى عمود كهرباء والأولاد يرشقونني بالحجارة، بينما أبي يقف عند زاوية الزقاق يدخن وينظر إلي ويقهقه: خلّيهم يقتلوك يا ولد القحبة! لينقصْ عني كلب من عائلة الخراء! أتململ ولا أستطيع تحريك عضو واحد من أعضائي الموثوقة بحبل غليظ إلى العمود، أشعر بالاختناق، وإذا أنا بين فخذي عمتي صلوحة التي تضغط عليّ بركبتيها بكلّ قواها ولا تريد أن تنهض من فوقي وأنفاسي تكاد تنقطع ولا أقدر حتى على الصراخ.

بعد يومين أو ثلاثة أيام اعترضني مع طفلين آخرين على تخوم حومتنا. أتذكّر أنني رأيت ثلاثة أطفال يتخفّون وراء منعرج، يطلون برؤوسهم ثم يختبؤون. ثمّ رأيتهم ثانية وأنا أنحدر من الربوة التي تفصل حيّ السيّدة عن مونفلوري، واختفوا مجددا. في زاوية من شارع ضيق، وأنا أهمّ بالعبور فاجأتني اللطمة على قفاي، ثم انهالوا عليّ، لكنني نجوت من قبضتهم بسرعة وتمكنت من الاحتماء داخل دكان حلاق قريب.

Twitter: @ketab_n

منذ ذلك اليوم صار لي أعداء ظلّوا يتكاثرون وخصوماتي تتكاثر بتكاثرهم وليس لي من صديق غير حزام سروالي في البداية، ثم سلسلة درّاجة كنت أخبؤها تحت ملابسي مثل حزام.

لم يعد يهمّني الآن ماذا يحدث في البيت. أمي غدت تضرب أبي يوميًا تقريبًا. تجرّه من عنقه مثل جرْو لتقذف به خارج البيت. أختي حميدة التي بدت لي كما لو أنها كبرت فجأة في الأثناء غدت تساعدها، أحيانًا بيديها، وفي بعض الأحيان بلسانها فقط. تعرّيان رأسه، ترميان بشاشيّته في مجرى المياه الوسخة. تنتّفان شاربيه النحيلين، تبصقان عليه وهما تجرجرانه في ساحة البيت وتنعتانه بالطحّان والهامل الفاسد، وهو يصرخ ويولول بأعلى صوته، يكاد ينتحب كما لو كان يسعى لاستدرار عطف الجيران: يا فاسدات، يا قحاب! وأنتِ يا عاهرة ما تحشميش تمدّي يديك على بوك! وكانتا تردّان عليه معا: ياطحّان، لو كنت راجل يستاهل الاحترام ما كنت تتركنا نقحب كي ننفق عليك. ثمّ تقذفان به في الشارع على مرأى من كلّ الجيران. في المساء يعود متذللا، يرتجف من البرد والجوع. تتركانه يدخل الحوش الضيّق بعد أن يموت توسلا وتغلقان باب الغرفة في وجهه. يقضّي ليلته في زاوية من الحوش ملفوفًا داخل بطانيّة قديمة مهترئة، مدمدمًا شاتما متوعّدًا.

صرت أحتقره، وداخَلني إحساس بالقرف لا مثيل له تجاه أمّي وأختي. أصبح الشارع بيتي، لا أعود إلى ذلك البيت الذي غدا حفرة تفوح عفونة إلاّ عندما يرغمني الجوع، أو لتغيير ملابسي. لم يعد يهمّني كثيرًا ما يحدث بينهم. احتقار تجاه أبي ومزيج من قرف وحقد على أمّي وأختي. ذلك كلّ ما في الأمر.

وراء بيتنا، بل يمكن أن نقول فوقه كانت هناك عمارة جديدة تقع في

Twitter: @ketab_n

أعلى الربوة على الحدّ الفاصل بين حيّ حفرة قرّيش الغارق في الأوحال شتاء وفي الغبار والبعوض والذباب صيفًا وحيّ مونفلوري بفيلاّته الفاخرة وشوارعه المعبّدة والمضاءة. في الطابق الثالث لتلك العمارة كان يسكن معلّم شابّ رأيته العديد من المرّات يتلصّص على بيتنا من إحدى النوافذ، وكان بالطبع بإمكانه أن يرى من هناك كلّ ما يجري في بيتنا الذي يقع تحت أنفه مباشرة. فاجأته مرّتين وهو يومئ لأختي ويخاطبها بحركات من يديه.

صعدت إلى شقّته ذات يوم، ودون مقدّمات طلبت منه دينارًا. دون استفسار أو نقاش سحب محفظة نقوده تحت مفعول المفاجأة، أو لأنّه قد يكون خمّن أنّ تلك بالتأكيد إشارة من أختي، وإعلانًا عن موافقتي على إشارتها. بدا لي مفاجأ إلى حدّ ما، ومسرورًا شيئًا ما، وشاردًا أو مذهولا. صفعته بغتة على وجهه واختطفت حافظة النقود بكاملها من يده، ثمّ نزلت الدرج مسرعًا. كان في الحقيبة ثلاثون دينارًا. مبلغ لا يستهان به في ذلك الزمن. ربما كان ذلك مجمل مرتبه.

منذ ذلك اليوم غادرت البيت ولم أعد إليه. كان عمري آنذاك حوالي أربع عشرة سنة.

أوووف! الله يسامحك يا عادل يا خويا، بربّي أش مرجّعْنا ننبش في ها المزبلة والعفن!

Twitter: @ketab_n

حانة برناديت

جرّني علي مرّة أخرى إلى حانة برناديت. واحدة من أحقر الحانات الشعبيّة في سان دني لم نكن ندخلها إلاّ نادرًا. تنقّلنا في تلك الليلة بين حانات عديدة وشربنا كثيرًا. كان مزاج مدام روز غير معتدل، تدخّن كثيرًا ولا تكاد تردّ حتّى على تحيّات الحرفاء، وتقدّم الطلبات بطريقة آلية جافّة. غادرنا بعد الكأس الأولى ورحنا نركض من بار إلى بار؛ نشرب كأسًا أو كأسين ويلعب علي لعبة على آلة الفليبّر بطريقة متوتّرة وغير مركّزة، وعندما يخسر يركل الآلة ثمّ يدفع الحساب ونخرج. يبدو أنّ مزاج مدام روز قد انتقل بطريقة العدوى إلى علي فغدا بدوره صامتًا طوال الوقت تقريبًا، وإن نطق بشيء فبشتيمة يوجّهها إلى آلة الفليبّر وهو يركلها برجله أو يبصق جانبًا، متجاهلا تذمّر أصحاب المحلاّت أو استنكارهم لتعامله العنيف مع آلاتهم.

لم أتفاءل خيرًا بدخولنا حانة Chez Bernadette في تلك لليلة. لثلاث مرّات انتهت سهرتنا هناك بخصومة. وفي كلّ مرّة أقسم بأن لن تطأ قدمي تلك الحفرة الكريهة بعدها أبدًا. علي أيضًا يقرر في كلّ مرّة وهو يلعن برناديت وحانتها وينعتها بقحبة النازيّين وفضلة الألمان أن لن يعود أبدًا إلى ذلك الماخور النتن. لكنّه يعود دائما.«شي برناديت» بار صغير معتّم يقع على التخوم الفاصلة بين سان دني وكليشي، غير بعيد من ساحة بلاييل، مما يعني أنّ الوصول إليه يتطلّب المرور بما لا يقلّ عن

Twitter: @ketab_n

عشر حانات أخرى والتزوّد خلال تلك الرحلة بكمّية محترمة من الكحول، ويكون الواحد قد وصل إلى هناك وهو في وضع يتطلّب من صاحبه الإسراع إلى الفراش، إن كان في دماغه مقدار ذرّة من العقل طبعًا. برناديت بهيأة دبّة ثقيلة، صدر ضخم يتقدم جسدها يكاد يلغيه، ومؤخّرة بحجم برميل، وهي بالرغم من تجاوزها سنّ الخمسين التي تسعى لإخفائها تحت كمّيات من الأصباغ والمساحيق ما تزال متصابية متغنّجة. وكعاهرة متمرّسة محنّكة ماتزال قادرة على جلب الانتباه، أو لنقل على جعل أيّ رجل تناول أكثر من ثلاثة كؤوس من الكونياك الرديء يطمع في التحكّك بها ومدّ يده إلى صدرها الوافر وأليتها السخيّة التي لا تبخل بتحريكها حركات داعرة كلّما خطت خطوتين، أو حتّى وهي تقف منتصبة مثل تمثال للعهر وراء المقصف. وهي بحقّ جديرة بأن تكون تمثالاً للقحب بعد التجربة الثريّة والمتنوّعة التي تراكمت بين أفخاذها منذ صعودها وهي في سنّ السابعة عشرة على متن عربة جيب لأعوان الـ*SS*[1] الألمان وانطلاقها في رحلة طويلة عبر أرجاء البلاد، إلى أن استقرّ بها المقام في سان دني ذات ربيع من سنة ١٩٤٣ بعد أن أهداها ضبّاط الـ*آس آس* ذلك البار الذي كان على ملك أحد الشيوعيّين الذي زجّ به في أحد المعتقلات، ثمّ نُقل للعمل الإجباري في مصانع ألمانيا ولم يُسمع عنه أيّ خبر منذ ذلك اليوم.

الشيوعيّون القدامى من سكّان سان دني كلّهم يعرفون تفاصيل قصّة برناديت، وعدد غير قليل منهم قد عرف المعتقلات النازيّة بفضل خدماتها الإعلاميّة التي كانت تؤدّيها مرفوعة الساقين في فراش هذا الضابط أو ذاك من أعوان الـ*آس آس*. إلاّ أنّها ظلّت بالرغم من ذلك في

(١) فرقة آس آس *SS*، أو البوليس السياسي للحكم النازي.

Twitter: @ketab_n

مأمن من كلّ أعمال الانتقام بعد تحرّر فرنسا وهزيمة الألمان، ذلك أنّ غريزة دعارتها المتأصلة قد أفادتها على ما يبدو في اكتساب حاسّة شمّ دقيقة جعلتها قادرة على اشتمام تبدّل اتجاه رياح التاريخ في الوقت المناسب، فكانت أوّل من غادر باريس متجهة إلى النورموندي موطن ولادتها ونشأتها، لترتمي بكلّ حماس ونخوة وطنيّة في أحضان جنود الأميركان النازلين هناك في مهمّة تحرير سامية ومخلِّصة. كانت برناديت من أولى ثمار الجنّة الفرنسيّة التي حظي بها جنود الخلاص الأميركيّون ودخلت باريس فوق إحدى دباباتهم ملوّحة بتنّورتها الشفّافة في سماء الشانزيليزي قبل أن تنطلق معهم في رحلة طويلة انتهت بها إلى برلين حيث انتقلت في ليلة سعيدة وعلى إثر حفل راقص من القطاع الأميركي إلى قطاع الفرنسيّين بدائرة تيغل على متن عربة عسكريّة فرنسيّة هذه المرّة.

عادت برناديت إلى باريس بعد غياب دام حوالي ستّة أشهر وفي حقيبتها شهادة اعتراف بخدمات وطنيّة من درجة أولى تحمل ختم السّلطة العسكريّة الفرنسيّة ببرلين.

رآها سكّان سان دني في صبيحة يوم أحد مشمس تنزل أمام الكنيسة من عربة سيتروان دي آس سوداء، من الباب الخلفي الذي فتحه لها سائق بزيّ رسمي وهو يعدّد الانحناءات حتّى يكاد أنفه يلامس حذاءها، والسيّدة برناديت التي كانت تعتمر قبّعة سوداء ينحدر منها على نصف وجهها برقع من الدانتيل، تقف منتصبة مثل تمثال لمدامْ بومبادور منتظرة ذراع الضابط الذي نزل من الباب الخلفيّ الثاني لسيّارة السيتروان ليقودها بخطى مضبوطة الإيقاع وهامة منتصبة إلى مدخل الكنيسة في ساعة قدّاس الأحد. رأى سكّان سان دني السيّدة الوقورة بمعطف الفرو الطويل والقبّعة الأنيقة والحذاء ذي الكعب العالي وعلى صدر معطفها

Twitter: @ketab_n

الشريط الحريريّ ثلاثي الألوان الذي تخصّ به الجمهوريّةُ الأبطالَ وقدماءَ المحاربين المكلّلين بالمجد عادة. رأوا ذلك وهم يقفون فاغري الأفواه أمام مدرج الكنيسة في تلك الصبيحة الربيعيّة المشمسة، تتناهشهم الحيرة بين تصديق وعدم تصديق ما كانت عيونهم تنقل إلى أدمغتهم المتبلّدة بهول المفاجأة: برناديت! برناديت عاهرة النازيّين! وهم على أيّة حال لم يروا بعدُ شهادة الخدمات الوطنيّة من درجة أولى التي كانت في حقيبتها. تلك الشهادة التي ما تزال معلّقة داخل إطار مذهّب في حانة شي برناديت بسان دني تفقأ عيون الشيوعيّين والفوضويّين وكلّ المناوئين للجنرال دي غول واليمين الفرنسي عامّة. ليس غريبًا إذن أن تجتمع في بار برناديت زمرة من الأوغاد تضمّ محاربين قدامى بالجزائر والهند الصينية، و«بيي نوار»[١] ومخبرين وقوّادين وعاهرات على وشك التقاعد، وحتّى بعض الذين ينتمون أو يتعاطفون مع قوى اليمين المتطرّف الجديد التي يقودها أزعر أعور وبذيء يدعى لو بان. لا أحد غير هذا الرهط من السفلة يدخل بار برناديت. وكثيرًا ما رأى الناس على يافطة البار عبارة LA PUTE DES SS[٢] مرسومةبالصباغ الأسود مباشرة تحت اسم برناديت. رأيت ذلك بعيني ذات يوم بينما كنت مارًا صدفة من هناك، بينما كان أحد الحرفاء من القوّادين معلّقًا فوق سلّم وهو يجتهد في محو تلك الكتابة وبرناديت تقف أمام باب الحانة وهي ترفع تنورتها حتّى مستوى الحزام مؤدّية

(١) Pieds noirs، أو ما يعني حرفيا: «الأقدام السود»، لقب يطلق في فرنسا على فرنسيي المستعمرات (الجزائر وتونس والمغرب على وجه الخصوص) الذين عادوا إلى فرنسا بعد انتهاء الفترة الاستعمارية.

(٢) قحبة أعوان *ال آس آس*.

Twitter: @ketab_n

حركات بذيئة بنصفها الأسفل وتصيح بصوتها الذي يغلب عليه شيء من البحّة التي يخلّفها الكحول والتبغ لدى العاهرات عادة:

le voilà mon con; regardez le bien. c'est ça qui vous fait languir de jalousie? Le voilà donc mon con qui vous dérange tant; regardez le bien.!!(1)

وهي على أيّة حال على حقّ في ذلك، إذ فرجها هذا الذي تستعرضه الآن بتحدّ هو ما ظلّ يزعج الجميع في سان دني منذ أن وظّفته في خدمة النازيّة، ثمّ بعد أن غدا فرجًا وطنيًا منخرطًا بكلّ تفان في خدمة الأمن ومصالح المخابرات بشتّى أنواعها. لكنها ليست على حقّ عندما تدّعي أنّه هو الذي يجلب إليها الحسد، إذ هو لا يجلب إليها سوى الكراهية والاحتقار بسبب الدور الشنيع الذي قام به طوال مسيرة وظيفته السياسيّة القائمة على القحب والوشاية.

لا أدري لماذا يصرّ علي على العودة من حين لآخر إلى هذا البار. أظنّ أنّه لا يذهب إلى هناك إلاّ عندما يكون متوتّرًا وفي حالة من الهيجان الداخلي تدفعه دفعًا إلى أماكن المشاكل والخصومات. هناك يجد أعداء من النوع الذي يسمح لسمومه الداخليّة بالتدفّق. يمضي إلى هناك وهو يعرف أنّه غير مرغوب فيه. يتصيّد الفرص للانقضاض على أوّل من يجرؤ على التفوّه بعبارة كريهة تجاهه أو بتلميحات عنصريّة، أو حتّى من ينظر إليه مجرّد نظرة لا تعجبه. والنظرات هنا على أيّة حال ليست بريئة، ولا هي خالية من تعابير الحقد أو الاحتقار. نظراتهم بتلك العيون الشبيهة بعيون كلاب مصابة هي ما يستفزّ علي، وإن غدوا جميعهم يتلافون التورّط في أيّ اشتباك معه بعد الخصومة التي كسر فيها

---

(١) «هاهو فرجي! أنظروا إليه جيدا! هذا هو الذي يقتلكم حسدا؟ هاهو إذن فرجي الذي يزعجكم كل هذا الإزعاج؛ أنظروا إليه جيداً!».

Twitter: @ketab_n

نصف الحانة وخروجه من هناك ببعض رضوض وخدوش لا غير، ثم بعد انقضاضه ذات ليلة على أحد الحرفاء القارّين في زقاق معتّم بالقرب من ساحة الكنيسة حيث أشبعه ضربًا ثمّ أوثقه بحزام سرواله إلى سياج حديديّ متوعّدًا إيّاه وهو يلوّح في وجهه بسكّين مخيفة بالقتل وبقطع الخصيتين إن هو حدّثته نفسه بمحاولة الانتقام ذات يوم، أو بأن يشتكيه للبوليس. لكن يبدو أنّ ما حسم الأمر نهائيًا لصالحه هو ترويعه لبرناديت نفسها وبطريقة مباشرة وواضحة على إثر خروجه من السجن عقب تكسيره نصف المحلّ. يبدو أنّه قد تأكّد لها بعد تلك الواقعة أن لا شيء سيردّه عنها وأنّ السجن لن يردعه. بل إنّه جعلها تشعر بأنّها مدينة له بحياتها بعد أن لامست شفرة السكّين رقبتها في تلك الليلة التي فاجأها فيها تخرج لوحدها قبيل الفجر من البار فدفعها بعنف إلى الداخل ثمّ أقفل الباب وحشرها في ركن مظلم وراء آلات الألعاب الألكترونيّة وأطلعها على زاوية من زوايا الجحيم الذي ينتظرها على حدّ السكّين، ثمّ أطلقها بعد أن قضت له وعدًا بأن تتجنّب شرّه في المستقبل، وبالطريقة التي يراها ملائمة.

قال لي مزهوًا عندما التقيته بعد يومين من حدوث تلك الواقعة: لقد مرّغت «قوس النصر» في الخراء. انتهى، لن تفتح فمها القذر بالشتائم والاستفزازات بعد اليوم.

كان يحلو لبرناديت عندما يتعتعها السكر وتنتشي بتهيّج حرفائها من بقايا اللفيف الأجنبي وحطام معارك فرنسا الخاسرة، أن تدفع بصدرها إلى الأمام رافعة كأسها باليد اليمنى بينما اليسرى محكمة على خاصرتها على طريقة جنرال عسكري يرقب جريان المعركة من فوق تلّة: أنا تمثال الأمّة! أنا جان دارك! وأحيانًا تصعد فوق طاولة أو يحملها المعجبون بين أذرعهم لتنتصب فوق الطاولة في حركة مسرحيّة فاجرة: هنا قوس

Twitter: @ketab_n

النصر، مشيرة إلى ما بين فخذيها وهي ترفع تنورتها. فوق هذين النهدين جرت معارك وحروب، ومن تحت هذا القوس مرّت فيالق من عساكر الألمان وضبّاط الـSS ووحدات المارينز؛ بيض وسود على حدّ السواء ـ أنا الحريّة، أنا المساواة؛ الإعلان الكوني لحقوق الإنسان هنا! وتستدير بمؤخّرتها الضخمة لجمهورها المعربد تصفيقًا وصراخًا وهتافات بمئة حياة وحياة لبرناديت، بينما هي تحتقن وتضطرم بذكرى معارك جيش التحرير الفرنسي: النورمندي، برلين تيغل، فيدينغ، فايدْمانسْلوسْت، راينيكنْدورفْ شارلوتّنبورغْ كلّها معارك مظفّرة مدوّنة على هذا السجلّ، وتشير من جديد إلى ما بين فخذيها ـ حتّى زنوج السنغال مرّوا من هنا؛ كنت أحسبهم أميركان، لكن لا يهم. فقط العرب، العرب لا. أبدًا، أبدًا ـ *Les bougnouls, jamais!* الجزائريّون؟ بأشداقهم المليئة بتبغ السعوط، ورائحة أتياس الماعز التي تفوح منهم على الدّوام! لا، أنا لم أنحطّ إلى هذا المستوى؛ نيّاكوا النياق، ومغتصبو المعيز؟ أبدًا، ولو اقتضى الأمر حربًا عالميّة أخرى. ثمّ يقال إنّهم يحبّون إتيان النساء من الخلف. كلا، مؤخّرتي هذه قد كتبت عليها منذ تيغل: *"Réservé à la Nation française"*[1]. انتهى عهد المسيرة الأمميّة. هكذا! بعد أن أغرقتُ بارجات الألمان في هذا المحيط(وتضرب بكفها على أسفل بطنها) وهبت صدري للأميركان؛ أوه، لكم كانوا يحبّون التمرّغ برؤوسهم على نهديّ مثل أطفال مدلّعين، أطفال أولئك الأميركان، كلّهم ما زالوا يحنّون إلى حلمات أمّهاتهم. لكن هذا... هذا، وتشير إلى مؤخرتها، هذا سرج الوطن، ولفرنسا فقط. أمّا العرب فلهم قدمي هذه في مؤخّراتهم. تلك كانت خطبها الحماسية قبل حادثة كسر المحل.

---

(١) خصصت به الأمة الفرنسية وحدها.

Twitter: @ketab_n

عندما وطأت قدمانا عتبة البار ساد صمت عدوانيّ لبضع ثوان. التوت الرقاب للحظة باتجاهنا ثم استدارت عنّا بسرعة. تظاهر الجميع بالانشغال عنّا بالعودة إلى الحديث مع بعضهم، لكن بأصوات خافتة هذه المرّة. وظلّت برناديت ترمقنا بصمت منتظرة أن ننطق بطلبنا. عيناها متحجّرتان على تعبير مبهم؛ ليس محايدًا، لكنّه خال من علامات الكراهية أو الحقد التي ترشح بهما عيناها في العادة. شيء شبيه بالتبرّم المربك المتردّد المتعثّر في خليط من أحاسيس متضاربة، غير واضحة. هل كانت خائفة؟ أم ممتعضة باستسلام؟ مكرهة؟

- بيرّتان! قال علي بجفاف.

حُلّ عقال برناديت. تحرّكت بطريقة آليّة باتجاه صنبور البيرّة، وبنفس الآليّة شرعت تملأ الكأسين.

- *Allez, à la santé de tous les conards, et des pouffiasses!*[1]

قال علي وهو يرفع كأسه بطريقته المسرحيّة التي لا يجيدها غيره. حدث شيء من التململ الصامت تموّجَ توتّرُه عبر فضاء البار الذي غدا الآن بثقل الرصاص، وتظاهرت برناديت بالانشغال بتنظيف زاوية بعيدة، ثم بتلميع الكؤوس مولية لنا ظهرها العريض، وكانت مؤخّرتها ترتعش وترتجرج مع كلّ حركة من حركات يديها، بينما عينا علي تشتعلان الآن ببريق حادّ وقد غدتا تتراقصان في حركة متوتّرة وعنيفة. اشتممت رائحة حادثة كريهة في الهواء ولذت بدوري بالصمت الجنائزيّ الذي غدا يلفّ بالبار. وقع كأس من يد برناديت أحدث انكساره على الأرضيّة المجلّزة رنينا حادًا تبعته قهقهة علي المجلجلة في فضاء القاعة الصامتة:

(١) لنشرب نخب كل الأوغاد وكل العاهرات!

Twitter: @ketab_n

Conasse! si c'était une bite, tu l'aurais pas laissé tomber comme ça!(1)

لم تردّ برناديت بكلمة واحدة. لكنّ واحدة من مجموعة الواقفين إلى المقصف هي التي ردّت محتجّة على ذلك التعليق الذي لا موجب له، ولم أكن سريعًا بما فيه الكفاية كي أمسك يد علي التي قذفت بكلّ عنف بمحتوى كأسه باتجاه المرأة المحتجّة. ولم أفلح إلاّ بعد جهد في دفعه من كتفيه خارج البار تاركيْن وراءنا غمغمة غامضة سرعان ما تحوّلت إلى أصوات متداخلة بالشتائم والاحتجاجات وتوعّدات وتهديدات. لكنّ أحدًا لم يتبعنا خارج البار لحسن الحظّ.

فرصة أخرى لخصومة جديدة مع علي.

ـ إنّها تذكّرني بواحدة قحبة أكرهها منذ الصغر، قال فجأة ونحن نتمشّى مترنّحين في طريقنا إلى البيت.

ـ من؟ برناديت؟

ـ برناخرْية! قحبة مثلها. هيأتها مثلها، ضحكتها مثلها، حركاتها مثلها. عندما أسمعها تضحك بصوتها الفاجر تأخذني الرغبة في أن أغرز في حلقها السكّين. وعندما تحرّك أليتها العريضة... ألم تر كيف كانت تفعل ذلك وهي تتظاهر بتلميع الكؤوس؟ عاهرة ...

ـ تغرز في حلقها سكّينًا! ولماذا لم تفعل ذلك ليلة اختليتَ بها قبيل الفجر في البار؟

ـ لأنّها خافت، العاهرة! رأيت الرّعب في عينيها. لم تنطق بكلمة، لم تصرخ، بل جحظت عيناها واصفرّت وفغرت فاها بطريقة بشعة. لم تعد عاهرّة، بل بقرة مريضة محتضرة. فعفتها.

---

(١) لو كان أيرا لما تركته يقع من يدك بسهولة، أيتها العاهرة!

Twitter: @ketab_n

بعد أسبوع تقريبا أومأت لي مدام روز وأنا أمرّ أمام البار الذي كان مقفرًا في تلك الساعة من العشيّة. قدّمت لي بيرّة ثمّ قالت لي إنّها لم تعد ترغب في رؤية علي في حانتها؛ فليذهب إلى قحبة النازيّين! أنا لا أسمح لأحد من الأوغاد الذين يتردّدون على حفرتها العفنة بأن تطأ قدماه عتبة حانتي النظيفة. حانتي أنشأتها بالكدّ والجهد والوسائل الشريفة، وليس بفتح فخذيّ لعساكر البوشْ النازيين. أنت تعرف أنّهم جميعًا نازيّون وعنصريّون هناك. ثمّ إنّ الأدهى من ذلك أنّه صار من عشّاقها بعد أن تسبّبت في دخوله إلى السجن. هل هو كلب ذليل أم ماذا؟

- من عشّاقها؟ أنت تبالغين يا مدام روز! صحيح أنّ ذهابه إلى هناك مجرّد تصرّف متهوّر، وبلادة لا موجب لها ولا داع غير حبّ التحرّش والمناوشات، وأنّني بدوري لا أحبّذ ذلك، ولا أحبّ خصوماته الدائمة مع أوغاد ذلك البار. لكن أن تفكّري بأنّه صار من عشّاق تلك البقرة فهذه مبالغة لا مبرّر لها.

- مبالغة؟ مبالغة؟ ظلّت مدام روز تصرخ بحنق. مبالغة لا مبرّر لها؟ أأكذّب عينيّ؟ بعيني هذه رأيته معها في آخر الليل داخل البار قبل أربعة ... لا، قبل خمسة أيّام ...يوم الإثنين الماضي ...أجل، قبل خمسة أيام. أتريد أن أقول لك في أيّ وضع؟ أتريد رسمًا كي تفهم؟

كان البار مقفلا في حدود الساعة الرابعة صباحا بينما كانت روز في طريقها إلى البيت، وعندما بلغت حانة «شي برنادات» ألقت نظرة من فجوة صغيرة في الستارة المسحوبة على الباب، هكذا لمجرّد فضول، كما تؤكّد هي على الأقلّ. - وماذا رأيت؟ أتريد أن أقول لك ماذا رأيت؟ صديقك واقف إلى البار، متكئ بمرفقيه على تابوريه وتلك العاهرة جاثية على ركبتيها أمامه و... أتريد رسمًا كي تفهم البقيّة؟ أي نعم...

Twitter: @ketab_n

رأيت ذلك بعيني. فلأفقأ إذن هذه العين إن كانت مخطئة. وإن لم تصدّقني فلتراقبه خفية. مُرّ من هناك في آخر الليل وسترى بنفسك. لا، أنا لست حمقاء مجنونة.

لم أعد أفهم شيئًا. علي؟ مع برناديت التي يمقتها مثل الموت؟ برناديت التي تذكّره بواحدة يكرهها ولا يتمنّى لها سوى غرس السكين في حلقها؟

اختلطت كلّ الأوراق في ذهني، ولم أعد أفهم شيئًا.

Twitter: @ketab_n

عودة السندباد

المولدي في باريس بعد غياب طويل. التقيناه قرب حديقة اللوكسمبورغ. توقفنا معه طويلا أمام مقهى الديبار. مثل عادته، يغيب لمدّة تطول أو تقصر ويعود فجأة محمّلا بشتّى الحكايات. لا يهمّ ما قدر الصحيح منها من المتخيّل. المهمّ أنها شيّقة كلها وممتعة مثل نسمة بحريّة منعشة تهب على جفاف الروتين الذي كان يحملنا داخل سيله الرتيب. عائد من البحر هذه المرّة، حسب ادعائه طبعا، بعد أن طاف بالدنيا على متن باخرة تجاريّة كان يعمل مساعدا في مطبخها. حكى لنا عن الفيلبّين وهونغ كونغ وأندونيسيا وكوريا وسنغافورة والموانئ الهولنديّة راطنا بأغنية شهيرة لجاك برال:

Dans le port d'Amsterdam il y a des marins qui chantent![1]

- دعونا من ليسكوليبه ومن مقاهي هذا الحي اللاتيني المقرف. سآخذكم اليوم إلى حانة شي موريس.. موريس بيي *نوار*[٢] عنصري، لكنه لذيذ وصديقي. هناك يمكن أن أشرب بالديْن. لكن أرجوكم أن لا تكشفوا مخبئي الآمن هذا لأحد من رفاقكم.

---

(١) في ميناء أمستردام هناك بحّارون يغنّون.

(٢) Pieds noirs تسمية تطلق في فرنسا على فرنسيي المستعمرات من شمال إفريقيا وإفريقيا عامة، الذين عادوا إلى فرنسا بعد استقلال تلك البلدان.

Twitter: @ketab_n

ونحن في طريقنا إلى حانته السرية في الدائرة الرابعة عشر حكى لنا عن قِردة ضاحكة وببغاوات معلّقة في أقفاص بيوت مومسات بومباي تلهج بكلّ اللغات، عن الأجساد النحاسيّة للفتيات الفيلبّينيّات، عن شفاههنّ الطريّة وتفانيهنّ بطريقة دينيّة تعبّديّة في الفراش، عن صخب ليالي هونغ كونغ، عن شجاراته العاتية مع صعاليك حانات مانيلا، عن القيلولات المنقّعة في خدر القاتْ بعدن، والسهرات الصاخبة في كباريهات الاسكندريّة وحانات الدار البيضاء وطنجة، عن الشاي الأخضر المنعنع ومعجون الحشيش واستفاقته في اليوم الموالي في غرفة باردة ببيت مهجور بمدينة طنجة، وكان شبه عار وقد اختفت حقيبة نقوده وآلة التصوير التي ترافقه دومًا، فكان عليه أن يهرع في كلصون/كلْسون وقميص داخليّ منحدرًا مثل المعتوه عبر دروب القصبة الضيّقة باتجاه الميناء حيث كانت أبواق السفينة تزعق والجسور قد رفعت. ولم يتمكّن من الصعود بعد أن تعرّف عليه أحد الملاّحين إلاّ مرفوعًا بحبل.

ما ظل يحيرني دوما هو أن المولدي يغيب لمدة قد تتجاوز سنة أحيانا ثمّ يبرز فجأة وهو عارف بكلّ ما حصل أثناء غيابه من نزاعات وشجارات وصراعات بين مختلف تيارات اليسار التونسيّ والفرنسيّ، والحركات اليساريّة العالميّة عامّة. ـ قيل لي إنّ الجلسة العامة السنوية لهيئة فرع باريس للاتحاد العام لطلبة تونس قد تواصلت لأكثر من ثلاثة أشهر. هل هذا صحيح؟ صراعات خطيّة؟ أنور خوجة أعلن انفصاله عن خطّ الحزب الشيوعي الصّيني. انشقاق جديد في الحركة الشيوعيّة العالميّة. ما هو موقفكم من هذا الصراع؟ يبدو أنّ العدّ التنازلي قد بدأ بالنسبة للشيوعيّة. لكن، ثلاثة أشهر بأكملها! أليس هذا كثيرًا على شبه مؤتمر طلاّبيّ؟ ثلاثة أشهر بكاملها، هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

Twitter: @ketab_n

ـ ويوميا؟

ـ تقريبا.

ـ وماذا كنتم تناقشون، أو لنقل حول ماذا كنتم تتخاصمون خلال كل هذا الوقت؟

ـ كل شيء. لم نترك شيئاً مما يدور في العالم لم نناقشه ونحرر في شأنه لائحة: ثورة ظفار، أريتريا، حركات التحرر في أنغولا والموزمبيق، مسألة الصحراء(غربية أم مغربية؟)...

ـ وهل أرسلتم هذه اللوائح إلى منظمة الأمم المتحدة؟ ربما ستساعدونها على حل بعض النزاعات العالمية المعقدة! والآن، ما قولكما؟ أليس جيداً هذا النبيذ الأحمر عند موريس؟ وبسعر زهيد علاوة على ذلك. هذه حانة لن ينتبه إليها أحد من خفافيش اليساريين التونسيين، حذار لا تدلا أحدا عليها! اتفقنا؟ دعوهم يتعفنون في الحي الجامعي وفي كافيتيريات الجامعات! ثم مالنا ومالهم؟ أولئك عساكر لهم ثكناتهم ونحن أحرار لنا كل باريس، أليس كذلك؟ ثلاثة أشهر من الجدالات البيزنطية المتواصلة؛ إنها علامة تعفن.

ـ لكن، لكن يا مولدي...

ـ لا لكن ولا لعلّ، أنا أؤكد لكم إنكم تمضون بخطى حثيثة نحو انحطاط سيأتي على الأخضر واليابس. ثلاثة أشهر تتخاصمون فيها وتتقاتلون من أجل تحرير لوائح تتوهمون أنكم ستحلون بها كل مشاكل العالم! خمسة أو ستة كنائس وراء كل واحدة عشر شياه مؤمنة إيمانا أعمى بأنها هي وحدها التي تملك الحقيقة. انتبهوا، إن أمركم حقا على غاية من الخطورة!

ـ لاتوعية ولا تثقيف ولا تسييس ولاهم يحزنون! يصرخ المولدي.

Twitter: @ketab_n

هذا ترويض. إعداد جيوش من رؤوس الإسمنت المسلّح لمستقبل كريه. رؤوس قرع، بغال للحرث وعساكر للفتك والإبادة والدمار. انتبهوا وأفيقوا من غفلتكم. اقرأوا فيلهلم رايش، وحنا أرندت. اقرأوا دوستويفسكي وكافكا، استمعوا إلى جيمي هندريكس وجيم موريسون، ما هذا الشيخ وزّة الذي لا تستمعون لغيره: «جيفارا مات! آآاه جيفارا مات!» هذه مناحة، جنازة، مأتم، كآبة وحزن وهمّ وخراء، كل ما تريد عدا موسيقى! استمعوا إلى موزارت وبرليوتز وفيفالدي و.. سيّد درويش وفيروز أيضًا لم لا؟ لكن أغانيها الحلوة اللطيفة المفعمة بالحياة والفرح لا مناحة «الإبن في المغارة وأمّه مريم وجهان يبكيان»... يكفينا بكاء ونواحًا يا إلهي! كلّ هذه الكآبة وهذا الحزن هو بالضبط ما يلزم لإعداد جيش الدمار والخراب. اسمعوا مثلا سِيدي علي: «أنا كالطير فوق غصني نغنّي/ عايش في خير اشكونْ احسن منّي!» إذا امتلأتم بالبهجة ستحبّون الحياة وتسعون إلى التغيير الحقيقي، لا تغييرات الديكور والبيادق. عندها تغدون ثوريّين حقيقيّين، بالبهجة والفرح.

إنّه بالضبط كلام ذلك الشاب الذي جاء مؤخّرًا من تونس، ولايتحدّث إلاّ عن الشعر والمسرح! فكرت في ما بيني وقلت من الأفضل ألاّ نعرّفه على المولدي.

كلام المولدي العائد محمّلا مثل عادته بأفكار غريبة، جديدة وجريئة، مثل ضربة فأس تهوي فجأة على الرأس. لكنّها ضربة لها حلاوة ما في مكان خفيّ من لاشعورنا، أو في المكبوت من أحاسيسنا. ولها مرارة طعم مسبق للهزيمة أيضاً.

أنا وحسني من القلائل الذين يمكنهم الاستماع إلى المولدي دون رغبة في قتله مباشرة. نستطرف أفكاره التي تبدو لنا غريبة حينًا، مضحكة

Twitter: @ketab_n

حينا، جريئة أكثر مما ينبغي ومخيفة أحيانا. هناك ما يشبه كدمات سرية في الوعي، أحاسيس نتكتم عليها ولا نفسح لها مجالا للتعبير عن نفسها، وأحيانا نراودها خلسة وبحذر شديد. لكن المزعج دوما هو أن يأتي أحد ويعري لك ما كنت تتستر عليه، تكتمه وتعيق طلوعه إلى سطح الوعي. كنت أعرف أنني لست في مأمن من التصدعات. يتراءى لي أحيانا أننا غدونا مثل المجانين؛ مضحكين إلى حد ما ونحن نصرخ، نتحمس، نشتعل، نلوح بقبضاتنا بتشنج يكاد يفلق صدورنا؛ هكذا في وجه لا أحد ـ في وجه عدو نتوهم وجوده أمامنا هنا في قاعة «الموتياليتي» الفسيحة، أو في شارع روششوار، وشارع بلفيل، وشارع ماجنتا التي كانت تشهد العديد من فصول مهزلتنا في مظاهرات صاخبة زاعقة تزداد صخبا وزعيقا كلما مررنا أمام دكان عربي أو مقهى من مقاهي المهاجرين المغاربيين، والناس ينظرون إلينا بشيء من الحيرة، بل هناك من يشير إلينا بيده أو بالسبابة التي يحكمها على صدغه ليقول لنا إننا مجانين. أخجل، أختبئ في الصفوف الوسطى للمظاهرة، أخبئ رأسي كي لا يراني أحد ممن أعرفهم خارج أوساط الطلاب والثوريين. أهرب إلى سان دني لأغمس دماغي في صخب آخر، لكنني أعود. أصبحت مدمنا.

ـ ما اسمه هذا الشاب المغرم بالمسرح؟ صابر؟ عرّفوني عليه فورًا. هذا هو الذي سيعينني على حفر أدمغتكم وتجلية الغبار والنفايات عنها.

من الأفضل أن لا نعرّفه عليه، قلت لحسني، كي لا يخربا معا ما بدأ يهدد هنا وهناك بالتداعي؛ هناك تصدّعات تحدث سرا في الداخل، بعض الشقوق بدأت تظهر على الواجهة أيضًا. يبدو أنّ فترة الحماس الأعمى قد بدأت تفسح المجال لشيء من الملل. المقولات التي نرددها منذ سنين مثل آيات منزّلة بدأ يطرأ عليها ضرب من الشحوب في أذهان

Twitter: @ketab_n

عدد غير قليل منا. رغبة خفية في فرك الأفكار، وضعها على محك المراجعة والتثبت؛ كأننا بدأنا نشعر أنّ بعض الأفكار لا بد أن تغيَّر مثل الملابس، لأنها تهترئ لكثرة الاستعمال هي أيضاً. قد يصبح الأمر خطيرا؛ ليس لنا من ضمان بأن يصمد الكثيرون أمام الهزّات. كلّ ما يمكن أن يثير البلبلة ويحدث تصدعات لا بد من تلافيه. مروان وفتحي أراهما يترنّحان، تغلب عليهما الخفة، وحب الدعابة يجرهما شيئاً فشيئا إلى الاستهتار. صابر هذا القادم الجديد من تونس والذي لا يهذي إلا بالمسرح والشعر، ويتحدّث عن دور الفرد. قلنا له: اقرأ نصّ بليخانوف عن دور الفرد في التاريخ. ضحك وقال لنا لم لا تقرؤا أبو نواس؟ لم لا تقرؤا أشعار المتصوّفة؟

- المتصوّفة؟ هل جننت؟ - هل قرأتم نيتشة؟ - نيتشة؟!

المولدي يتحمّس ويقول صارخا: أيوه، نيتشة أيضًا، وهربرت ماركوز!

شرعت في قراءة فيلهلم رايش وهربرت ماركوز سرّا. فيلهلم رايش راح يبعث فيّ شيئاً من الشكوك الشبيهة بحكاك في الدماغ. شيء شبيه بنسمة تمرد! وأنا لست في موقع جيد؛ ملازم لجماعة الشباب المائع، كثير الاختلاط بأرهاط متنوعة ليست محل ثقة ولا توحي بالارتياح لدى كل الرفاق. جلدتي اهترأت من حصص النقد والنقد الذاتي، وإن غدوت الآن في مأمن نسبيا بسبب كثرة نشاطاتي وتنوعها: جمعية هنا، ولجنة هناك، تعليم أطفال المهاجرين، تنشيط ناد للأطفال والشباب، فرقة مسرح، ركض بين أحياء العمال المهاجرين. بعض الرفاق لا يتردد في نقد هذه «الحركية التي لا تخلو من عفوية»؛ «لا ينبغي أن تتجاوز أنشطة المناضل الأطر التي يشرف عليها التنظيم»... لا ينبغي للسيل الصغير أن يفيض على النهر. الفرس الذي يبتعد كثيراً عن الكوكبة يهدد بالانفلات

Twitter: @ketab_n

والتيه. «إحذر الفردية يارفيق!» الاختلاط بالطالبات التروتسكيات ليس بالأمر المحبذ هو أيضاً.

ـ لا بد أن تعرّفني على هذا الشخص الذي قلت لي أنه يحبّ المسرح والفنون وينفر من الإديولوجيا الجافة.

ـ دع هذه المسألة إلى أن يأتي أوانها يا مولدي.

ـ خائف؟ أقنعوك بأنك ما زالت هشا طري العود؟ خائف من الهرطقة؟ ألا ترى أنكم قد حوّلتم الفكرة الثورية من فكرة مغامرة تقلب وتنسف وتقوّض إلى ديانة مقفلة وصرتم لا تتحركون إلاّ داخل حيز المباح والممنوع؟ حذار يا صديقي العزيز! تزمّت ينجب تزمّتا، وتعصّب يفرّخ مائة لون من التعصّب؛ ألوان فقط، مجرد ألوان والأمر هو نفسه بالنهاية. ديكتاتورية البروليتاريا، دكتاتوريّة البروليتاريا كبديل عن دكتاتورية الطبقات المهيمنة حاليًّا. دكتاتوريّة محلّ دكتاتوريّة وكفى الله المؤمنين شرّ الجدال. ما من تعب هناك، ولا إجهاد للنفس، أو دربة شاقّة على نظام سلوك جديد. إيمان محل إيمان، كتاب محل كتاب، ألواح محل ألواح، وإلى الأمام! المزيد من القمع والإقصاء والتنكيل والحزّ والبتر: قتال، وربما قتل وذبح ونفي في معتقلات الأعمال الشاقة، من أجل حقيقة مطلقة واحدة صافية ونقية. الوحدانيّة! هو ذا عمق المسألة وجوهرها وسرّها المكنون: مخّ الهذرة، إن أردت بالتونسي وبالفلاّقي

ـ موريس، إلينا بإبريق آخر من خمرتك اللذيذة يا صديقي، ربما تساعد في ترطيب هذه الأدمغة المقدّدة تحت رياح الإديولوجيا الصحراوية. ثم ملتفتا إلينا وقد بدأت عيناه تبرقان بذلك البريق الذي يعلن عن طي صفحة النقاشات الجدية: طيّب، والآن كيف هي شؤونكم الجنسيّة؟ متماسكون؟ متوازنون؟

Twitter: @ketab_n

فطيمة الزهراء

يأتي علي بين حين وآخر لزيارتي في الفندق الذي كنت أعمل فيه ليلا بالاستقبال. نجلس ساعات طويلة في المطبخ الصغير، نتحادث ونتجادل ونتخاصم ونمزح، وأحيانًا تُقاسمنا السهرة واحدة أو اثنتان من نزيلات الفندق من اللاتي لا يرغبن في الخروج لكنّهن لا يستطعن النوم مبكّرًا. هذه المرّة كانت هناك فتاة جزائريّة جميلة تلقائية ولطيفة، مرحة وفكهة. فطيمة الزهراء تدرس الطبّ في سنتها الثانية بجامعة الجزائر. ساقها اليسرى مصابة بشلل طرأ عليها في الطفولة ولم ينجح الأطبّاء في معالجته. بالرغم من الجمال الفائق لفطيمة الذي جعل مدام بيزول تصيح إعجابًا : *Mais elle est trés trés belle, monsieur Adel!*[1]، فإنه لا يمكن للمرء أن لا ينظر إلى تلك الإعاقة. وكلّما حاول الواحد تفادي النظر إليها رآها أكثر. شتيمة فوق جسدها، شيء شبيه بشماتة عديمة الذوق تجعل الناظر إليها يودّ لو يصرخ بحنق ومرارة أمام هذه الإعاقة التي تشبه خدشًا وقحا فوق لوحة فائقة الجمال.

فطيمة من عائلة ثريّة، أبوها ضابط سام في الجيش. تأتي إلى باريس مرّتين في السنة لإجراء فحوص واقتناء الأحذية الطبيّة. لكنّها هذه المرّة جاءت وفي رأسها تحوم فكرة البقاء ومواصلة دراستها في إحدى

(١) إنها فائقة الجمال، مسيو عادل!

Twitter: @ketab_n

جامعات باريس. مرتّ على إقامتها في الفندق ثلاثة أو أربعة أيّام. ومنذ اليوم الأوّل نشأت بيننا مودّة لطيفة ورقيقة. تعود دوما في حوالي الساعة التاسعة مساء، أي ساعة فقط بعد استلامي لحصة دوامي الليلي. لا أدري ما هو السبب الحقيقي لعزوفها عن الخروج مساء. هل هو نوع من الاستسلام، وإقرار بأنّ الليل والسهرات ليست من شأنها، لأنّها لا تدري ما الذي تفعله في مدينة باريس التي تتحوّل ليلا إلى حفل صاخب هازج معربد راقص تفصلها عنه حواجز تلك الإعاقة؟ أم أنها فقط لا تجرؤ على اقتحام أجواء ليليّة تحوّل المدينة إلى كائن غريب وغامض، وأحيانًا مليء مخاطر ومفاجآت ليست سارّة بالضرورة؟ هكذا هي المدن الغريبة في بعض الأحيان بالنسبة للغرباء؛ نهارها مثل غرفة الجلوس أو باحة البيت، مفتوحة لكلّ الضيوف، ولياليها أشبه بالمناطق الحميمة التي لا يلجها المرء إلاّ عندما يكون من أهلها. أو على المرء أن يكون مغامرًا.

لم أسأل فطيمة إن كانت لا تشعر برغبة في الخروج مساء ومشاهدة الوجه الآخر لباريس. كنت أرغب في أن أسألها، لكن كان يصدني الحرج. سهرنا معًا في مطبخ الفندق حتّى ساعة متأخّرة جدًا، وكان علي ليلتها ودودًا وفكهًا وتلقائيًا أكثر من المعتاد. في البداية ولمدّة ربع ساعة تقريبًا ظلّ شبه لابدٍ في مكانه متمسّكًا بحدود لياقة محايدة؛ لا هي من تلك اللامبالاة الباردة الشبيهة بالإهمال التي غالبا ما يبديها تجاه كلّ من لا يعرفه، ولا هي من نوع التوتر الذي يجعله شبيها بقنفد أمام من لا يأنس إليهم. لكن سرعان ما انقشعت قشرة الجليد الشفّافة بينهما. تلقائيّة مرحة من الجانبين. سلاسة في الحديث لم تتطلّب منهما أيّة جهود للمؤاهلة. تحدّثت فطيمة بكثير من الفكاهة عن كلوشارات باريس الذين

Twitter: @ketab_n

تستسيغ ملاحتهم وسخرياتهم اللاذعة الظريفة، وعن الوتيرة السريعة لتحرّكات الناس في الشوارع وفي ممرّات المترو التي تجعل المدينة تبدو كما لو كانت تعيش حالة من الهلع والهروب الدّائم. انطلق عندها لسان عليّ بسخرياته اللاذعة وتهكّمه من العمّال المهاجرين المغاربيين: مشيتهم، هيئاتهم الفجة حينًا والمتسلّلة بذلّ وامّحاء أحيانًا، لباسهم، نظراتهم الشبيهة بنظرات البلهى، بهتتهم الدائمة «مثل بقر يرقب مرور قطار» حسب تعبيره المفضّل، جهلهم، انغلاقهم وانطواؤهم على أنفسهم، لغتهم الرثّة، لهجتهم الحادّة وطريقة مخاطبتهم الغليظة. حكى الكثير من النكات والمداعبات الساخرة، وتفلسف وتأنّق في الكلام بلغته الفرنسيّة المنتقاة، وسبّ، وشتم وعربد كعادته وأكثر بقليل وهو يرى فطيمة تضحك وتطرب لذلك الدفق المتواصل من النكات والفلسفة المرحة الظريفة، والداعرة.

بدا لي خفيفًا خفّة لا معهودة هذه الأمسية، وكانت عيناه تشعّان ببريق لطيف رطّبته ضحكات فطيمة وتراقُص المرح في عينيها السوداوين الواسعتين. عينا فطيمة جميلتان جمالا ساحرًا حتّى وهما تذبلان قليلا في بعض الأحيان تحت غشاوة رقيقة دقيقة وشفّافة من حزن طفيف لا يكاد يُلمح إلاّ كستارة من الدنتيل الرفيع. مشرقتان تشعّان ببريق بهيج عندما تضحك. سكران غدا عليّ بعيني فطيمة المرحتين وبتلقائيّتها الطروب. سكران طربًا حتّى أنّ شتائمه وسبابه لم تعد تفوح بتلك الرائحة الكريهة التي غالبا ما تفوح بها في خصومات البارات مثلا، بل غدت أشبه ببهار طيّب يغمر نكاته ومزاحاته وحتّى أحاديثه الجديّة؛ تفلسفاته. ركلا وخبطًا بالقدمين يتفلسف عليّ في أغلب الأحيان، لكنّه خبط لطيف لا يملك الواحد إلاّ أن يستعذبه ويصغي إليه بكثير من المتعة. شيء شبيه برقصة

Twitter: @ketab_n

زنجيّة تتواتر فيها الحركات العنيفة بالتواءات إيقاعات مفاجئة مرنة وطريّة - *c'est un petit Zorba trés sympathique* علّقت فطيمة في ما بعد بنبرة طافحة بالإعجاب؛ كما لو كانت تغنّي بتلك الكلمات.

شعرت بشيء يخزني سرا في جوفي وأنا أرى عيني فطيمة تتعلّقان بكلّ حركة وكلّ كلمة تصدر عن عليّ كما لو كانت تشاهد عرضًا مسرحيًا شيّقًا تنشدّ إليه بكلّ كيانها.

*

فوجئت بعدم عودة فطيمة إلى الفندق في حوالي الساعة التاسعة مثلما تعوّدت أن تفعل كلّ يوم طوال إقامتها هنا. كان مفتاح الغرفة معلّقًا في الخانة الصغيرة الخاصّة به: رقم ٢٤، واسمها ما يزال مسجّلا على قائمة الضيوف في الخانة الموافقة لرقم ٢٤. مرّت الساعة العاشرة... ثم الحادية عشرة، وهي لم تعد بعد. في الأماسي السابقة كنت أفرح لرؤيتها تعود مبكّرًا؛ أعرف أنّها ستضع حقيبتها وتستريح قليلا ثم تنزل لنجلس معًا في المطبخ. لكنّ شيئًا من الألم كان يخزني عندما أفكّر أنّها الضيفة الوحيدة تقريبًا التي لا تسهر في المدينة أبدًا، وأنّ ذلك مما يجعلها بالتأكيد تشعر بشيء - قليل أو كثير - من الغبن. كنت أعرف أنّ لها في النهار مواعيد فحوص طبيّة وأشياء من هذا القبيل. لكن لا أظنّ أنّها تقضّي كامل اليوم في مثل هذه الشؤون. ما الذي تفعله؟ أين تذهب؟ وكيف تتنقّل؟ حدّثتني بأنّها زارت اللوفر ومتحف أورساي وتجوّلت في حديقة التويلري وزارت معرضا للرسم بالقرب من معهد الفنون الجميلة بالحيّ اللاتيني. لم أرها البتّة تدخل محمّلة بأكياس المشتريات مثل أغلب النزلاء وخاصّة أولئك الذين يأتون من بلدان المغرب والمشرق العربيّين، ولم تسألني مثلهم عن محلاّت البضاعة الرخيصة. لم أسألها

Twitter: @ketab_n

أو أعرض عليها أن نلتقي في مكان ما بالنهار، لا لأنّني لم أفكّر في ذلك، لا، بل كلما فكّرت في ذلك إلا ودفعت عنّي تلك الفكرة بشيء من الحرج والقلق. أقول لنفسي إنّها بالتأكيد ستتأوّل الأمر على أنّه جرأة غير عادية وتجاوز لحدود اللياقة، أو أنّها ستأخذها كاستنقاص أو استسهال ما كان لي أن أجرؤ عليه لولا إعاقتها. أحيانا أخمّن أنها ستعبّر ولو تلميحًا عن رغبتها في أن نلتقي خارج الفندق إن كانت لها مثل تلك الرغبة. وعلى العموم لم تكن رغبتي في ملاقاتها من ذلك النوع الذي يخضّني في العادة ويجعلني لا أهدأ وأحيانا أتحامق وأتسرّع وأستعمل كلّ ما بحوزتي من أساليب الإغراء والمراودة. بل كانت فقط شيئًا شبيهًا بشعور بضرورة أداء واجب ما، أو عمل طيّب، لا أكثر. وهو أيضاً أمر كريه ومزعج.

أحيانًا أضبط نفسي متلبّسًا بإحساس آخر يتسلل خفية ولا يومئ بوجوده إلا باحتشام. إحساس لم أستطع، أو لم أجرؤ على تبيّن ملامحه بوضوح. أعرف فقط أنّني أرتاح لمجالسة فطيمة، بل أكثر من ذلك أنتظر مجيئها بكثير من الفرح. أبتهج للنظر إلى وجهها الجميل وعينيها السوداوين الواسعتين، وأجد متعة في النظر إلى فمها عندما تبتسم. أعرف أنّني أحبّ حديثها ومزاحاتها وخاصّة تلك الطريقة التي لديها في التندّر بأسلوبها الساخر الذي يجعلني في بعض الأحيان أتساءل إن كانت تنظر إلى الأشياء والناس من وجهة نظر امرأة جريئة، أم من زاوية محايدة؛ لا هي زاوية نظر الرجال ولا هي زاوية الفتيات اللاتي غالبا ما يتناولن الأشياء ضمن استراتيجيّة مداورات وإيحاءات وتضمينات ظاهرها تحفّظ وباطنها رغباتٌ مراوِغة وشبق مقنّع. أقول لنفسي: إنّ فطيمة امرأة، وامرأة جميلة جدًا علاوة على ذلك، وهي بالتالي لا يمكن أن تكون مجرّدة من طابعها الأنوثي و...و... (هكذا أتلعثم في تفكيري

Twitter: @ketab_n

وأتعثّر)... ومن رغباتها ككلّ امرأة. لا بدّ أنّها تُسَرّ بما يَسُرّ كل أنثى في هذه الدنيا! إطراء ما، مجاملة رقيقة على حافة المغازلة. بل بالمغازلة أيضًا! أضبط نفسي متلبّسًا مرّة أخرى. متلبسا بأمرين: أنّني أفكّر في فطيمة كما أفكّر في كل امرأة تعجبني، وهو ما لا أريد أن أقرّ به علنا وبصراحة. والأمر الثاني هو ذلك الحرج الذي أشعر به لمجرّد أن أفكر بأن لي رغبة من هذا النوع تجاهها ـ تجاهها هي بالذات. عندما أضبط نفسي متلبّسا يبقى الهروب هو الحلّ الأسهل: سأتصرّف كجنتلمان في علاقة صداقة نقيّة أخويّة، لاغير. ذلك هو المنفذ الذي أجده؛ مخرج النجدة!

قبيل منتصف الليل توقّفت سيارة تاكسي أمام الفندق، ونزلت فطيمة. كانت مرحة، أكثر من العادة بقليل. جلسنا في المطبخ وعرضت عليها زجاجة الكولا المعتادة.

ـ آ، كيف كانت باريس الليليّة؟

ـ جميلة. أجابت باقتضاب وبدون فائض تعليق، وصمتت. لا حظت أنّ حمرة طفيفة قد تخللت وجهها وتركّزت على وجنتيها للحظة، ثمّ انقشعت.

دخل أحد النزلاء فنهضت لأسلّمه مفتاح غرفته، وبعد أن أغلقت وراءه باب المصعد عدت إلى المطبخ. كانت فطيمة تدخّن وتنظر إلى السقف. عندما جلست قالت: قضّيت سهرة جميلة مع عليّ. تعشّينا في مطعم بساحة كليشي ثمّ تمشّينا حتى الأوبرا ثم بولفار الإيطاليين. حكى لي عن الدنيا والعالمين وضحكنا كما ينبغي. إنّه فعلا رجل لطيف علي.

ها ها! لماذا ارتجف شيء في داخلي؟ لِماذا ابتلعت ريقي بصعوبة

Twitter: @ketab_n

وأحسست بدقّات قلبي تتسارع؟ ثمّ ماهذا الإحساس الغريب الذي أحس به لأول مرة به تجاه عليّ؟ أهو شيء من الكراهية؟ غيرة؟ أم ماذا؟

لم أعلّق بشيء. بل ويبدو أنّي قد نجحت في قمع كلّ رغبة في التعليق حتّى في ما بيني وبين نفسي. وأنا شبه متأكد أن ذلك لم يخْف عن فطيمة، وأنها قد تساءلت بالتأكيد عن سرّ عدم تعليقي بشيء على خروجهما معا. أكيد أنها لمحت رفيف تلك التعليقات المكبوتة في عينيّ، ولعل وجهي قد احمرّ أيضًا. لكنّني كنت متأكّدا من أنّني قد نجحت في قمع تلك الرغبة (الولد قد أتقن أفانين التمسك بالانضباط؛ التربية الحزبية قد أتت أكلها على ما يبدو! نفاق؟ كذب على النفس؟ اِخرسْ، أيها الذاتي، البرجوازي الصغير المعفّن!).

Twitter: @ketab_n

خوروطو

أحيانًا لا تصدّق أنّك حقا في باريس. بل غالبا ما تنسى أنّك في باريس. عندما تنغلق حلقة الغيتو على أهلها ينسون المكان ويصبحون مثل كائنات خرافيّة تسبح في لا مكان. والمدينة على أيّة حال مثل كائن خرافي متعدّد الوجوه. باريس الشانزيليزي التويلري وريفولي وسان جرمان وحي الأوبرا وبولفار مونمارتر. وباريس هي حيّ بارباس المتوغّل في قتامة أوساخه وتداعي بناياته القديمة والحركة الكابوسيّة لمتساكنيه: جزائريّون يتسلّلون بخطوات ثقيلة، أذرع تتحرّك في كل الاتجاهات وأصوات ملعلعة مثل طلق المدافع. الجزائريّون يبدون على الدوام في حالة خصام حتّى وهم يمزحون أو يدعون بعضهم على شراب أو يسألون عن الأحوال. مغاربة يقفون في شارع la goutte d'or مستندين بظهورهم إلى الجدار داخل جلابيبهم القاتمة الطويلة بطرابيشها مخروطيّة الشكل المسدلة على جباههم لا يكاد المرء يلمح غير بريق غامض من أعينهم الصغيرة الحادة؛ يدعون المارّة إلى الاقتراب بطريقة مريبة تبعث على الحذر: آزواخْ آالشريف! آرواخْ! يعرضون موادّ غريبة للبيع: أدوية من أعشاب صحراويّة ـ حسب زعمهم ـ، مراهم غامضة وزجاجات صغيرة من زيوت وأدهان كلّها نافعة للتهييج وتمتين الذكر واستمالة القلوب، منهم من يدّعي قراءة المستقبل، لا في الكف، بل على ورقة نقديّة بعشرة فرنك تخرج دافئة من جيب صاحبها، آخرون يعرضون بالنيابة عن مولاي ادريس وسيدى بن عيسى وسيدي علي بن

Twitter: @ketab_n

حمدوش كراماتٍ وإتيان خوارق شتّى، ومنهم أيضًا باعة السجّاد والجلابيب والطرابيش الذين يحملون دكاكينهم على أكتافهم وهي حمولة يمكن أن تدمّر ظهر بغل يتنقّلون بها من شارع إلى شارع ومن حيّ إلى حيّ بصبر وعناد نادرين. جنبًا إلى جنب مع المداوين وأصحاب الكرامات يقف أفارقة سود، طوال نحاف مثل أعواد أبنوس بعيون برّاقة مثل الودع وأسنانٍ خناجر تبرق في العتمة، في أيديهم أنياب فيلة وقلائد من الودع والعنبر وعظام طيور دقيقة وأحزمة من جلد الثعابين والنمور، آخرون يقفون حلقات في جلبة صاخبة حول واحد يقرفص على الأرض ويحرّك بسرعة خياليّة مجموعة من أوراق اللعب يخلطها ثمّ يوزّعها على الأرض صفّيْن متوازيين ثلاثًا ثلاثًا، يعيد خلطها ثمّ توزيعها بسرعة مرّات متتالية بيد، بينما الثانية تقبض من الأيدي الممدودة من فوق رأسه أوراق العشرة فرنك وهو يصيح كمن يستغيث ويستحث:

allez y frères! allez y, allez y, allez y, dix francs, allez y ;dix francs , qui dit encore? qui dit encore? les jeux sont faits!

غير بعيد من هناك طوابير الرجال الواقفين في صمت جنائزيّ أمام أبواب صغيرة يميلون برؤوسهم ليطلّوا من موقعهم على الباب المفتوح، أو نصف المفتوح على ممرّ شبه داكن تقف فيه واحدة، اثنتان أو أكثر من نساء نصف عاريات في هيأة تحاول قدر الإمكان أن تكون مثيرة وبوجوه محايدة لا أثر فيها لشيء من تعبيرات التودّد أو الاستمالة، ولا حاجة لهنّ للاستمالة على أيّة حال فالطابور طويل والأعناق ممدودة والأيادي تشتغل في الجيوب تدلك أو تحاول تهدئة النمور المتهيّجة داخل السراويل والعيون تكاد تخرج من مآقيها؛ يتقدّمون ببطء، الواحد تلو الآخر، ومع دخول كلّ واحد تختفي امرأة من الواقفات، بينما

Twitter: @ketab_n

المتبقّية تستحثّ الآخرين: *avancez, circulez!* ـ تقدموا، تحرّكوا! والأيادي تعمل بنشاط في جيوب البنطلونات، تفرك، تدعك، تدلك؛ الوجوه مستديرة قليلا باتجاه الجدار كما لو كانت تتحاشى أنظار المارّة، يندفع الواحد بسرعة اللصّ الموارب إلى الداخل، يخرج بعد دقائق معدودات مطأطئ الرأس مندفعًا هاربًا ليبتعد بسرعة عن المكان، ويدخل الموالي، وهكذا دواليك... تونسيّون، جزائريّون، مغاربة، ماليّون؛ عساكر الشمال الإفريقيّ تتقدّم، بأيديهم الرماح، خناجر مسنونة، سيوف محمّاة، عيونهم جمر على الربى والكثبان، ولا غالب إلاّ الله! بارباس مكان شبيه في قتامته وذبول هيأته وحركيّته المضطربة بالعالم السفلي، الذي لم نره طبعًا، لكن هكذا نتخيّله عندما تنعتق الفنطازيا مغتذية بمخاوفنا ورعبنا أمام المجهول الذي وراء الموت. باريس هي أيضًا بالْفيلْ التي كنّا نراها تنسلخ رويدًا رويدًا عن طابعها الفرنسي متّشحة بألوان شمال إفريقيّة بعضها مشعّ وبعضها في قتامة الديكور الهادسي لبارباس؛ محلاّت تجاريّة تونسيّة تنبعث منها روائح الكزبرة والكمّون وبهارات أخرى عديدة، مجازر لحم مذبوح حلال، مطاعم اليهود التونسيّين العائدين بعد مغامرة في أرض الله الموعودة، إليها شدّوا الرحال ذات سنة حالمين بمملكة المجد الموعود، ثمّ عادوا منها منكسرين ليحطّوا رحالهم في هذه المنطقة البين ـ بين، لا هم يجرؤون على العودة إلى هذه البلاد ولا إلى تلك، فظلّوا يقضمون شوقهم إلى موطن ولادتهم ونشأتهم بمزيج من الحنين والحسرة، يخطّون ذلك الحنين على يافطات محلاّتهم مثل همس سريّ أو نحيب مكتوم:

la Rose de Djerba, l'Etoile du Sud, La Sirène de La Goulette[١]، أو

---

(١) وردة جربة، نجمة الجنوب، عروس حلْق الواد.

Twitter: @ketab_n

يستدرجون الذكرى في هذيان مطبخي يصنّفونه أطباقا وألوانًا من الأكلات التونسيّة العريقة التي يجيدونها كما لا يجيدها أحد مثلهم مع شراب «البوخا» الحاد الذي يعبق بمذاق التّين. منطقة بين - بين؛ بين أرض الميعاد التي ولّوا عنها منكسفين وتونس التي لن يعودوا إليها. منطقة بين بارباس الموغلة في القتامة وشرق يحاذي منيلمونْتون ذات النكهة الباريسيّة العريقة. منطقة للعبور أو للانتقال من حال إلى حال، ومن حسرة إلى شوق كما لو أنّها البرزخ الذي يصوّره خيال دانتي. وباريس هي الحيّ اللاتيني، وهي أيضاً مونمارتر ومونبارناس وسان جرمان والماريه: مقاهي فاخرة، كتّاب وشعراء وفنانون، وأرهاط أخرى غريبة من فيالق المتملقين والمتحذلقين الملتصقين على الدوام بتلابيب الفنانين والأدباء مثل القراد الذي لا يفارق مؤخرات الدوابّ. باريس هي الشانزيليزي، الأضواء، المحلاّت الفاخرة، الأناقة، المفتعل منها والأصيل؛ وهي التويلري واللوفر القصور المعالم المجد الذي يجثم بوقار على كتفي تاريخ البشريّة. وهي أحياء الضواحي الشبيهة بمراقد شاسعة؛ صناديق معلّقة تكوّن غابات من الإسمنت المسلّح، لكنّها خلافًا لما نعرف من الغابات تعرض للعين منظر صحراء أو أكداسًا من الجبال الصخريّة الجرداء تتحرّك داخلها كائنات باهتة، مثل لعبة إلكترونيّة شرع فيها طفل ثمّ غفل عنها وتركها تتابع مسلسل تحرّكاتها برتابة آليّة لا فحوى لها ولا مسوّغ. باريس هي كلّ هذا وأكثر. ألم نقل إنّنا نأتيها جميعًا حالمين؟ الحالم بالفرار من جحيم بؤس الأرياف الإفريقيّة وجحود الهضاب الجرداء القاحلة والصحاري التي تهدّد بالموت، والحالم بجنّة الله الموعودة فيها أنهار الخمر والحوريّات الحسان، والحالم بأنوار الفكر والفنون وإشعاعات الحريّة. الحالم بالتمرّد والحالم بالتشرّد والحالم بالجنون الذي كسر العنان والحالم بأن يتيه هنا في

Twitter: @ketab_n

باريس ويحلم ويحلم ويحلم، ولا يعود. علي التومي الفارّ بجلده من حيّ «حفرة قرّيش» الآسنة وما ترسّب من أوحالها في قاع روحه مستعصيًا على كلّ موادّ التنظيف، ورشيد بوراسْ الماكرو ـ قوّاد المومسات في شارع موغادور، الذي ينتقم للّحظات التي ربض فيها على ركبتيه وقبِل باستسلام أن يطلع فوقه هذا أو ذاك من لوّاطي مبيت الثانوية، وظلّ كلّ سعيه للتخفيف من وطأة وضعيّة المركوب بمحاولة ركوب كائنات أخرى أكثر ضعفًا منه لا تفلح في رتق الحزّ الذي لا يريد أن يندمل؛ العرفاوي الذي ينتقم لطفولته البائسة، من أيّام المبيت ولياليه المنقّعة في البؤس ورعدة الخوف الدائمة، ومن الحفاء الأبديّ لأمّه حدّة. ثم هؤلاء الذين رأوا حظّهم، هكذا بمحض صدفة في أغلب الأحيان أو رمية نرد موفّقة، يربو قليلا على حظّ الآخرين فدخلوا الجامعات وتفتّحت عيونهم على معارف ونظريّات واقعة على حافة الهذيان الخرافي تقريبًا ... غير أن الكثيرين منّا قد نسوا مع ذلك أنّهم في باريس؛ الذي يدبّ من الظلام إلى الظلام بين حفرة في بارباس ومصنع في الضواحي الشماليّة، والذي تقوقع على هذيانه الثوري الذي بدأ حلما لذيذًا مشعًّا بنار الرغبة في التجاوز والتمرّد والتحدّي وحرق السفن، ثمّ راح، كما لو أنّه بدأ يتنكّر لوعوده الأولى، يتوغّل بأصحابه في نفق التقوقع على حالة من الاستمناء الدائم: غيتو آخر لا يختلف كثيرًا عن بارباس وأحياء الرّقاد المترامية كالجرب على أطراف باريس. حسن الفيلسوف يقول إنّهم حاقدون على المدينة، لن يتصالحوا معها أبدًا ولا شيء يغريهم أكثر من تدمير المدينة. احذروا البدو، يحبّ أن يردّد، ألا تراهم كيف يحملون حتّى على الفكر يريّفونه.

بَ، بَا. بقرٌ..

دخلوا مدارس الاستقلال وقد تركوا وراءهم الكتّاب وعصا المؤدب

Twitter: @ketab_n

والقرآن وراحوا يتهجّون حروف الأبجدية من جديد في كتب ملوّنة ومزدانة بالصور: بَ، بَا.. بابٌ، بقرٌ...

وذاك الجدّ يضرب كفًا بكفّ وحفيده الذي غادر الكتّاب ليدخل «كوليج» الرّوامة قابع أمامه يستعرض عليه ما حفظه في يومه الأوّل بالمدرسة:

بَ، بـ، بَا... بابٌ، بَقرٌ.

ـ يا كلب يا ابن الكلب! ألم أقل لكم إنّها مدرسة فجّار؟ صرفتم الطفل عن الكتّاب وعن كلام الله ونبيّه الكريم ليتعلّم بعبعة الغنم: با با با!

من كان منهم يسمع باسم باريس حتّى مجرّد سماع في ذلك الزّمن البعيد؟ أو لعلّهم قد سمعوا الإسم عدّة مرّات ولم ينتبهوا إليه، لأنّه لم يكن ليعني لهم شيئًا. وقد يكون اسمها ورد مرّة أو مرّتين في واحد من نصوص الكتب المدرسيّة لكنّهم لم ينتبهوا إليه. تكفيهم على أية حال تلك الأعاجيب التي قرأوها في نص «علي يزور تونس» وما كانوا ليصدقوا أنها حقا ليست من بنات خيال مصنفي الكتب والأكاذيب! أكاذيب شيقة تجعل صور المدينة تبرق في مخيلاتهم مثل أحلام اليقظة، وربما يجرؤ حتى بعض الجسورين منهم على الطمع في أن تطأها قدماه ذات يوم، لِم لا؟

عندما يكون الحال متيسّرًا يرافقون أباءهم إلى مدن صغيرة مجاورة أيّام السوق الأسبوعيّة. في الهزيع الأخير من الليل ينحدرون عبر دروب الجبال ملتحفين بالظلمة يلكزون دوابّهم ويتحدّثون بأصوات عالية تتناهى إلى الأذنين في العتمة. مثل مسامرات الجنّ والشياطين والأرواح الهائمة في الخلاء. تجوّلوا بأفواه مفتوحة مجرجرين أقدامهم المغبرّة النحيلة

Twitter: @ketab_n

وراء آبائهم عبر شوارع فيها كلّ ما تشتهي العين وما تريد، فيها واجهات تعرض ملابس جديدة بدت لهم أنيقة، فيها محلاّت الأكل من كلّ نوع وصنف، الشوّاؤون، الجزّارون، صواني الفطائر والزلابية، التي تعترضهم روائحها المثيرة منذ مدخل المدينة منتصرة على روائح روث الخيول وزبل الابقار وبعر الغنم والماعز المحتشدة داخل سوق الدواب التي نسميها الرحبة؛ أطباق الحلوى الزاهية بألوان بديعة، باعة متنقّلون يدفعون عربات مزدانة بالأعلام وصور مشاهير المغنّين ولاعبي كرة القدم وفوقها جميعًا صورة الزعيم؛ سيارة تمضي عبر الشوارع وتلف حول سوق الدواب ببوق يفلق طبلة الأذن: *عربي فرنجي تركي عجمي/ بيلطّش تلطيشْ/ محسوب الدرويش عالبورقيبة يعيشْ!* حكومة الاستقلال تعلن حملتها على الخرافات والشعوذة والتشرّد وأضرحة الأولياء والمتطبّبين والعرّافات والدراويش والقمل والفرطس والرّمد والجدري والحمّى الصفراء وتعدّد الزّوجات (الرجل أصابه كلب والعياذ بالله، يقول سالم بن مصباح، يلعنه هو ودولته الفاجرة ويرمي بعكّازه على الطفل الذي كان يطنّ غير بعيد منه:

Travaillez prenez de la peine!(1)

السوق الأسبوعيّة تبلغ ذروة تهيّجها والفلاحون يتدافعون بالمناكب ويتعثّرون في قشّابيّاتهم الصوفيّة الطويلة؛ مشروبات غازيّة متنوّعة: سيدر خرّوب أسود، كازوز ليموناضة أبيض، كازوز برتقال، كازوز أصفر، كازوز أخضر، كازوز أحمر والبائع يدفع عربته ويدندن: *«ما اشربْش الشاي، أشرب قازوزة أنا»*. بائع الأيس كريم بصندوقه المغلق الغامض

---

(١) اعملوا كدّوا واجتهدوا (البيت الأول من قصيدة «المزارع وأبناؤه» للشاعر الفرنسي لافونتين).

Twitter: @ketab_n

يركض طوال النهار ويصيح: فريكولو، فريكولو! جيرفي، جيلاط، فريكولو! أصوات متغنّية بنغمات متنوّعة تنوّع البضائع المتغنّى بها، تتبارى تتداخل تتقاطع: فريكولو، كازوز بارد، برّد يا عطشان، خبز طابونة جبن، ، بيض مسلوق، افرز والبس يا بو العيلة يامسكين: كنزات، قمصان، جوارب، بنطلونات دجينز، جاكيتات، معاطف، قمصان مزدانة بصور عجيبة وحروف لاتينيّة تهجّؤها متعثّرين لا يفقهون فحواها، أكداس وأكداس؛ الخمسة بدينار يا بو العيلة يا زوّالي يا مسكين! الدنيا كلّها أصوات، وجوه، أقدام تتحرّك في جميع الاتجاهات: *انتبه ولا تشرد مثل العجل! الدنيا كلّها أقدام من حولك، انتبه ياراس القرع!* السيد الأب الشاطر النبيه يجذبك من يدك بحدة وهو ينتهرك؛ طبعا لست وحدك في الشارع الصاخب والدنيا كلّها سيّارات من حولك، أبواق تزعق، سيل متدفّق، ولا يهمّ إن كانت في أغلبها قديمة عتيقة قد كلّت محرّكاتها وغدت تبعث شخيرًا ونفيرًا وسعالا معدنيًا وحشرجات ودخانًا داكنًا يقطع الأنفاس، المهمّ أنّها سيّارات كثيرة وكلّها تتحرّك تسير تدبّ تنطّ؛ سيل هادر، زعيق، تبويق، شيء شبيه بحفل كبير، كرنفال، شاحنات محمّلة بالخضار والفواكه، شاحنات رصّفت فوقها بنايات شاهقة من أكياس القمح والدقيق والسكّر، صناديق مشروبات، صفائح زيت، موادّ تنظيف، ستائف صابون، معلّبات شتّى، كراتين ملابس وأحذية، سطول تتدلّى على الجنبات، أواني بلاستيك بألوان زاهية، إطارات مطاطية، أكداس بطاطا، برتقال، ليمون، بصل، شرائط ثوم، صفائح فلي توكس الزرق المزّوقة بخطوط بيض مبيد للذباب والبعوض والبقّ والبرغوث وجميع الحشرات، كرايزاي، والدفق متواصل لا ينقطع، كبد وطحال وعناقيد سجق المرْقاز معلّقة على أبواب المجازر وفي واجهات زجاجية، شارع المطاعم؛ بعضها يعلّق سبورات

Twitter: @ketab_n

كبيرة عليها قائمات العروض ولائحة الأسعار والآخر يكتفي بصوت الجرسون الذي يتلو على الحرفاء سلسلة الأطباق الطويلة بسرعة غريبة لا يكاد الواحد يتبعه في الزقاق الموالي محلاّت الأكلات السريعة؛ كسكروت بالتن (قال معلّم العربيّة كسكروت كلمة فرنسيّة دخيلة وسندويتش أميركيّة أنكليزيّة، أما العربيّة فبعد أن بعثرت عمامتها وحكّت رأسها حتّى كادت تثقبها فقد اهتدت بالنهاية إلى هذا الإسم الغريب: شاطرٌ ومشطورٌ وما بينهما كامخٌ - آآآي! ما أطولها كلمة! قلنا، الواحد ستطلع روحه قبل أن ينال هذه اللقمة! - احتفظنا إذن بالكسكروت وليشنقْ معلّم العربيّة نفسه!)، كسكروت بالسردين، كسكروت مرقاز، كفتاجي بالعظْمة، كفتاجي بالكبد، كفتاجي عادي بلا بيض ولا كبد، صحن تونسي بالسلطة والتنّ، صحاف بلّور مصطفّة كما لو كانت في معرض إشهار لجناح من أجنحة الجنّة: بطاطا مسلوقة، تنّ منقّع في الزّيت، سلطة طماطم وخيار، سلطة جزر، طرشي لفت مخلّل، فجل، فلفل برّ العبيد الصغير الحارّ، مقليّات شتى من فلفل وبطاطا وكوسة وقرع وطماطم... وهذا سوق العطريّة، أكداس من البهارات: فلفل أسود، كمّون، كزبرة، كرويّة، مسحوق الفلفل الأحمر المسمّى هنا زيّانة، جوز المسك، كركم، زعفران، صفائح زيت الصوجا الأميركي (سمعوا في الراديو خبيرًا صحيًا يردّد أنّ زيت الزيتون مهيّج للقمل فقرّرت الحكومة وسقه إلى الخارج؛ - ليأكلهمْ القمل أولاد الكلب الكفّار!)، كافور، قطران... وهذه أكياس من مسحوق دي دي تي قاطع ضدّ القمل والبرغوث والنمل والبعوض. فوق مصطبة الحلواني تحوم جيوش من الذباب، الحلواني لا يكفّ عن تحريك منديله في الهواء والذباب لا يردعه المنديل، بينما عيون الأطفال كويرات زجاجيّة تختطفها الألوان الزاهية للحلوى المعروضة نهبًا للذباب؛! المدينة كدسٌ

Twitter: @ketab_n

ضخم من الحلوى؛ أطفال الأرياف يتعثّرون في بهتة شهواتهم، يسيل لعابهم، يشردون، تضطرب خطاهم *«قلت لك لا تشرد هكذا مثل العجل يا ولد!»* بينما أطفال المدينة يتسلّلون مثل القطط، حركاتهم خفيفة وأيديهم أكثر خفّة تمتدّ بسرعة مثل لسان السحليّة تختطف وتفرّ والحلواني يشتم فروج أمّهاتهم، ينعتهم باللقطاء وأولاد الحرام ويتوعّد جلودهم. الريفيّ لا يستطيع أن يمدّ يده بتلك الخفّة؛ عيناه تتعثّران فوق الأشياء ويداه مشلولتان من فرط البهتة. ليس كذبًا ذلك الكلام الذي قلته ذات يوم لصديقتي آنْ ماري الفوضوية التي تؤمن بأن الملكية هي السرقة: الريفي لا يسرق إلاّ في بساتين ريفه، هناك يغدو قطّا خفيفًا رشيق الحركة يتسلّق الأسيجة مثل القرد، يراوغ حواجز صبّار الهندي والأشواك وينفذ مثل القنفد إلى شجرة التّين أو الخوخ. روائح الزلابية وفطائر الإسفنج في مباراة مفتوحة مع روائح القطران والبنزين والفلْي ـ توكس والبهارات وعطورات دكاكين الحلاّقين وصابون المسك والكافور، روائح حديد مصهود قادمة من دكاكين الحدّادين، روائح اللوز وبزار عبّاد الشمس والقرع المحمّصة، روائح الجاوي والندّ واللبان الّذكر، مساحيق وأعشاب غريبة ومراهم عدّة على طاولة المغربي؛ هذا لفتح الألباب، وهذا لإعماء البصيرة وذهاب الشيرة، هذا لعودة الزوج الضالّ، وهذا لتسهيل الإنجاب وإخصاب العاقر... وكلّه نافع إن شاء الله.

المدينة هي الجنّة! ولا جنّة هناك غيرها. يشرد الواحد، يذهل، يندهش، ينتشي، يدوخ يترنّح، يتعثّر في خطاه حتّى تجذبه يد الأب بعنف تعيده إلى اليقظة: *قلت لك انتبه ولا تشرد هكذا يا رأس العجل!* العجول والخرفان والحمير والبغال والخيول توسق فوق عربات الشحن العالية، مسافرة بلا تذاكر، هي أيضًا تتغيّر هيئاتها فوق العربات وتغدو

Twitter: @ketab_n

نوعًا من المسافرين الغامضين، كائنات أخرى غير تلك الشياه والعجول التي تُرى في الحقول. الأبقار تلوك علفها في صمت، والعجول ترقب الدنيا بكثير من الدهشة أو اللامبالاة. الأغنام لا تكفّ عن الثغاء، شيء شبيه بمناحة جماعيّة والرقبة قد غدت الآن على موعد شبه متأكّد مع سكاكين الجزّارين. البغال واجمة مثل جنود ينتظرون في استعداد وقنوط إشارة الانطلاق. البغال في أيّ موضع ومكان تتخيّل نفسها دومًا مشدودة إلى المحاريث والعربات؛ بغال للحراثة! والدجاج الملقى على الأرض مكتوف القوائم، أو الرابض في الأقفاص يسدل جفونه فيبدو غافيًا لا يهمّه من أمر الدّنيا من حوله شيء، كأنّه ومنذ خرج من بيضته لا يفعل سوى انتظار تلك اللحظة التي سيسلّم فيها رقبته للسكّين. لكنّ تلك الجفون الورديّة المسدلة على عينيه والتي تبدو شفّافة إلى حدّ ما تدفع إلى الاعتقاد بأنّه يرى من خلالها ويراقب كلّ ما يدور من حوله، وهو ليس بنائم أو غاف، بل يتبهْنس متظاهرًا بالغياب وعدم الاكتراث. أمّا الماعز فلا تكفّ عن الشيطنة، بنت الحرام، حتّى وهي معروضة للبيع! حدقاتها الواسعة ذات الإشعاع الخبيث تلتهم الدنيا من حولها بفضول يقظ، تراها على استعداد دائم للانقضاض على أيّ غصن أو قبضة معدنوس تطلّ من قفّة إحدى المتسوّقات. الحمير وحدها برقابها الطويلة المحنيّة دومًا باتّجاه الأرض تجسّد الضّجر في هيأة بائسة تبعث على الحزن. الحمير من بين الحيوانات النادرة التي تعرف الضجر إلى جانب القردة - والإنسان طبعًا!

لكن ها أنّ حمارًا يبدو غير مكترث بالمصير الذي ينتظره بعد سفرة فوق شاحنة مزدحمة بالحمير والبغال، يقف الآن بالقرب من الشاحنة وشيؤه يتدلّى أسود طويلا يكاد يلامس الأرض، وإناث الحمير في وجومها الجنائزيّ لا يعنيها الأمر. فقط ثلاث نساء خارجات من السوق

Twitter: @ketab_n

البلدية المسقّفة ارتطمت عيونهنّ بالمشهد العجَب يقرقرن ضاحكات ويتظاهرن بإخفاء عيونهنّ بأيديهنّ أو بطرف السّفساري الحريريّ الأبيض ويسترقن النظر ملتفتات متعجّبات لهول الآلة المتدلّية: ووهْ! ووه! ياشومي مالاّ همّ! - لا همّ ولا غمّ، بل هو الذي يجلّي الكرب والهمّ. - لا يا وخيْتي اللي عند رجالنا يكفينا! ديك يرفع صوته من داخل قفص مليء بالدجاج، وكما لو أنّه ذكّر إمام الجامع غير البعيد فصعد صوته هو أيضًا من صومعته: إمامان في المدينة، خير من الله وفضل كريم! قال أحد السكّيرين وهو يجرّ رجليه مترنّحًا في الزّحام. الديك يظلّ ديكًا حتّى ورقبته على بعد شبر من حدّ السكّين!

لم يشرد الطفل المسكين مثل العجل ولا هو سها فترنّحت خطاه واضطربت وراء أبيه - أوووه من هذا الأب الذي وحده يعرف كيف يمشي، ووحده يعرف كيف يتسلل بين الزحام، ووحده الشاطر الماكر الذئب اليقظ الذكيّ «المزوّر»، الذي لا يبهت ولا يشرد ولا يتعثر! - لا يا سيدي، لم يبهت ولم يشرد ولم يتبهْلل، بل هو يلتفت الآن إلى الوراء لأنّ يدًا صفعته على قفاه صفعة سريعة خاطفة ولّعتْ أمام جبينه وميضًا حادًا نزّت له عيناه.. ملاعين أولاد المدينة! لا شيء يحلو لهم مثل الضحك على أبناء الأرياف المتعثّرين في الدهشة أمام غرابة الكرنفال الذي يجري من حولهم؛ يتبعونهم ضاحكين من مظهرهم الغامض مزيج من الخشونة والسذاجة الحائرة، يسحبون هذا من طرف ثوبه، وذا من أذنه، يركلون ذا أو يصفعونه من الخلف ويفرّون ضاحكين. أولاد «الملاجي» من أبناء العائلات النازحة من الأرياف قبل بضع سنوات، هم أيضاً عايْفين حياتهم داخل بيوت شبيهة بالحفر الضيّقة التي لا يلجؤون إليها إلاّ ساعات الأكل والنوم، تمامًا مثل القطط، الشارع فسحتهم ويوم السوق الأسبوعيّة حفلهم الدوري،

Twitter: @ketab_n

كرنفال أو كاراكوز ينتظرونه هم أيضًا بشوق، يتسلّون فيه بالسرقات الصغيرة والنشل والضحك على أولاد العربان ـ الذين هم في أغلبهم أبناء أعمام وأخوال لهم لم يتبعوهم إلى حفر ملاجئ المدن ومجاريها العارية النتنة ـ، شيء من التسلية والسلوان، في انتظار أن يكبر هؤلاء ويكوّنوا بدورهم عصابات تتجوّل مجموعات بأكملها تصادم وتعارك وتردّ الضرب والصفع والركل، وقد تحلو لها وتروقها نشوة الانتصار فتصبح هي التي تبادر بالهجوم والاعتداءات. انتهى الدّرس ياغبيّ! وانهض لنفسك كن ذئبًا كي لا تفترسك الذّئاب!

كبر أطفال القشابيات المهترئة وأحذية الكاوتشوك والقمصان المصنوعة من أكياس الدقيق الأميركي:

«هدية من شعب الولايات المتحدة الأميركية

ليس للبيع أو المبادلة»

كبروا. حفظوا الدرس عن ظهر قلب ثم نسوه. يذرعون شوارع باريس الآن، يخطّون بالحبر الأحمر على جدران السوربون: انتهى الدرس يا غبيّ! وعلى جدران خرائب بارباس:

UNE SEULE SOLUTION, LA REVOLUTION!(1)

أي نعم، انتهى الدّرس. عرفنا اللعبة من أوّلها إلى آخرها. لا يا سيّدي، *les Gaulois* ليسوا أجدادنا. أجدادنا الهلاليّون أبو زيد وذياب والجازية. أجدادنا بربر الجبال، ماسينيسا ويوغرطة وكسيلة، والقرامطة والشطّار والعيّارون. اللوفر وفرساي والتويلري معالم مخضّبة بدماء الفقراء والمستضعفين، عمارة الإقطاع وفنون الإقطاع ورجال اللاهوت.

---

(١) ما من حلّ إلا الثورة.

Twitter: @ketab_n

الكنيسة مصّاصة دماء والدّين أفيون الشعوب، سنهدم أجنّة الأكاذيب كلّها منذ حمورابي صاحب الثلاثة آلاف قانون المدبّرة لقطع دابر الشعب مرورًا بالاسكندر الذي سنقتلع قرنيه وقيصر الرّوم وهارون الرشيد وحكّام الأندلس، بنو الأحمر والأصفر والمعتمد والمعتضد والمعتصم ويزيد والوليد... كلّها للهدم، للنسف، للحرق؛ فؤوس ومناجل ومعاول: لا *travaillez*، ولا *prenez de la peine* *اعملوا وكدوا* بعد الآن: يا عمّال العالم اتّحدوا!

- اهدأ. اهدأ ياولد! أنسيت درسَك الأوّل: بَ بَا، بَ بَا.. بقرٌ؟

«خوروطو»! يقول علي الفنّان. «خوروطو»، يقول كل مهاجر وهو يشتم بقية المهاجرين جميعا، وقد نحتوا لأنفسهم عبارة شتيمتهم الخاصة لبني جنسهم ضاربين عرض الحائط بعبارات «بونيول» و«بيكو» التي ابتدعها لهم الفرنسيون. همج، عربان الأحراش والفيافي الجدباء، يقول حسن الفيلسوف المرابط بمقهى ليسكولييه بساحة السوربون مصرا على مقولته التي لا يكل عن ترديدها: «البدو حقودون، لا شيء يحلو لهم مثل تدمير المدينة والانتقام من المدينة. لستَ بحاجة للذهاب إلى بارباس ولا إلى تونس التي تريّفت وغدت قرية بائسة أو جثّة عمرانيّة محاصرة بالقرى والأرياف، بل لتنظر فقط هنا من حولك، هنا في الحيّ اللاتيني. هنا يجلسون في قلب باريس النابض بين الجامعات والمكتبات والمعالم الكبرى وينظّرون لـ: «محاصرة المدن من جهة الأرياف». أنا أقول لكم احذروا كلّ ريفيّ وكلّ فكر مريّف!»

أسأل المولدي: ألم تقل لي إنه من مدينة من جنوب البلاد؟ فما الذي يجعله يبدي كل هذا الاحتقار لأبناء الأرياف والقرى، كما لو أنه

Twitter: @ketab_n

من أرستقراطيّي العاصمة؟ هل سلوكه هذا من باب ضغينة معكوسة، أي أنه ينتقم لنفسه من أصوله؟

ـ لا أدري... ربما، ربما. حقا لا أدري

ـ حسن هذا عدميّ مستهتر وليس وراء عدميته واستهتاره من محتوى يعوّل عليه!

Twitter: @ketab_n

علي العاشق

توالت الجولات المسائية لعلي وفطيمة. أحيانًا يرافقها إلى الفندق لنتم السهرة في المطبخ كالمعتاد. علي يتفتّق الآن عن بهجة لم أعرفها فيه من قبل. ذات ليلة قال لي قبل أن يغادر الفندق إنّه يريد أن يلتقيني يوم غد على انفراد لأمر مهمّ.

عندما التقينا بإحدى مقاهي ساحة كليشي بدا لي مضطربًا ومتردّدًا شيئًا ما. ظلّ لما يقلّ عن ربع ساعة يدخّن بصمت، وبدا لي كما لو أنه كان غارقًا في مونولوج صامت. وعندما نطقت أخيرًا أسأله عن الموضوع الذي يريد أن يحدّثني فيه تطلّع في بإمعان ثمّ قال وعلى شفته تلك الابتسامة الخفيفة الماكرة التي يحاول غالبًا أن يغطّي بها حرجه:

ـ ما رأيك في فطيمة؟

ـ بنت لطيفة وذكيّة جدًا.

ـ لا، أعني... يعني... لطيفة وذكيّة فقط؟ قصدي، هل بينكما شيء؟

ـ طبعا لا. قلت بلهجة واثقة وثابتة، بينما كانت تتخلّلني في الحقيقة رعدة فجئيّة لم أدر ما هو سببها.

ـ عادل! بصراحة... البنت... أعني، هناك شيء لا أدري ما هو في هذه البنت أعجبني... أقصد أحببته... شيء غير واضح. قلت لك لا

Twitter: @ketab_n

أدري ما هو. هذه الفتاة فيها شيء جميل جدًا، لا تحاول أن تتفلسف مثل عادتك، ولا تسألني ماهو. فيها شيء، وانتهى الموضوع.

ـ من منّا المتفلسف الآن؟ أنا أم أنت بشيئـ ـك هذا؟ أُنطقْ، ماذا تريد أن تقول؟ هل حصل شيء بينكما؟

ـ لا، أبدًا. لكن، لكن هناك شيء... كيف سافسر لك هذا؟

ـ اسمع يا عليّ، احذر أن يكون الأمر مجرّد نزوة من نزواتك العابرة، أو شفقة أو شيئًا من هذا القبيل. الشفقة سرعان ما تزول، وبمجرّد أن ترتخي التوتّرات التي يحدثها التشويق ويبدأ الملل يطلع وجهها الثاني البشع: الاحتقار والإهانة.

ـ أيّة شفقة يا رجل؟ هل رأيتني يومًا أشفق على أحد؟ أيّة شفقة يا رجل؟ أنا أقول لك هذه البنت فيها شيء، لا أدري ما هو، لا أستطيع... ولا أريد أن أعرفه... لا شفقة ولا أدري ماذا من تلك الخرافات البائسة. فيها شيء أحببته، وانتهى..

ـ لكن، لكن ياعلي، البنت، وبقطع النظر عن كلّ شيء، عن جمالها وذكائها وعواطفك أنت وهذا الشيء أوذاك، معاقة. لا تنس ذلك. إنّه ليس بالأمر السهل أن تكون امرأةٌ مشوّهةً في جمالها، وبصفة خاصّة إذا ما كانت جميلة؛ الألم سيكون مضاعفا في مثل هذه الحالة، وبالتالي الحساسيّة والتأذّي سيكونان أكبر بكثير. ألا تريد أن تفهم؟

ـ ياسيّدي، ياذكيّ، يا فاهم، ياحسّاس، أتعتقد أنّ الناس الطيبين الحساسين مثلك سيحسنون إليها بتجاهل جمالها و... أتعتقد أنّها سعيدة برؤية الناس لا ينظرون إليها كامرأة، بل فقط كمعاقة: شيء محايد لا يثير ولا يُستثار؟ قالت لي إنّها عافت الحياة في الجزائر لذلك تريد أن تسجّل بالجامعة هنا. أتدري لماذا؟ أنا أقول لك لماذا: لأنّهم هناك لا

Twitter: @ketab_n

ينظرون إليها إلاّ كمعاقة، موضوع شفقة لا غير. بل لعلّهم يسخرون منها أيضاً. أنت تعرف عقلية الناس هناك، في تلك البلدان العربية المتخلفة؛ الإعاقة لديهم نقيصة وعار. ألا يعيّرون الناس بعاهاتهم؟ ألا يلقّبون كلّ ذي عاهة بعاهته: فلان الأعمى، العايب، الأعور، الأطرش، الأفحج، السمين ... هناك، في «بلاد الرحمة»، «بلاد الإيمان»، «بلاد الأخوّة» كما يحلو لكم أن تدّعوا جميعا، تصبح الإعاقة هويّة للمعاق، ويصبح المعاق محبوسًا داخل إعاقته ومختزلا بكلّيته في إعاقته؛ لا شيء غير أعرج، لا شيء غير أعمى، لا شيء غير معاق. لذلك قالت إنّها عافت الحياة هناك. أكيد أنّهم ينظرون إليها ويحدّقون فيها وهي تمرّ أمامهم بأعين لا تعرف لياقة أو تحفظًا، مثل البلهى يحدّقون بإصرار في عاهة المعاق كي يشعروه بأنّهم يرونها، ومن حين لآخر تدفع واحدة عاهرة بزفرة مفتعلة: «مسكينة!»، وبصوت مسموع حتّى تُسمعها أنّها تشفق عليها. إنّها تريد أن تهرب من ذلك الجحيم. وماذا تفعل حضرتك؟ تريد أن لا ننظر إليها إلاّ كمعاقة، «مسكينة»!

ها أن السماء قد جادت علينا بسبب إضافيّ لخصومات جديدة! قلت لنفسي ممتعضًا. ولم أضف كلمة.

قبل أن نغادر المقهى قال لي: اتّفقت مع فرنسواز أن تنتقل فطيمة للسكن معها لمدّة من الزمن حتّى نجد لها غرفة في مكان آخر، لأنّها لن تستطيع تحمّل تكاليف غرفة في فندق لمدّة طويلة من الزمن، خاصة وهي لا تنوي العودة إلى الجزائر كما قالت، وقد يسحب أبوها عنها كل دعم مادي كي يضغط عليها ويعيدها إلى هناك.

*

Twitter: @ketab_n

غادرت فطيمة الفندق. جاءت فرنسواز لتأخذها بسيّارتها إلى سان دني.

سان دني! ذلك العالم العجيب! البارات الشعبيّة، حرفاء من العاطلين عن العمل وبقايا عساكر الحروب الكولونيالية، نساء منقّعات في الكحول منذ عشرات السنين، العيون المتورّمة بطول السهر وكثرة النوم نهارا، النظرات المائهة وراء الستارة الورديّة التي تغشى المقل على الدوام، الصراخ والزعيق وتبادل الشتائم والمداعبات الفاجرة. برافو! الجنّة الجديدة التي سيقذف علي بفطيمة بين غياضها!

كالمتني بعد يومين. كانت مرحة ومبتهجة! قالت إنّ فرنسواز امرأة لطيفة جدًا وأنّها ذهبت معها إلى كلّية الطبّ بباريس واستفسرتا معًا عن إمكانية التسجيل. الأمور ليست بالسهولة التي كانت تتوقّعها. لا بدّ من معادلة شهاداتها المدرسيّة والجامعيّة وأن تسجل أوّلا على قائمة الانتظار. قد يجرى عليها اختبار خاصّ بالأجانب إذا ما أرادت أن يعترف لها بمستوى المرحلة الدراسيّة الأولى التي اجتازتها بالجامعة الجزائريّة. بعض تعقيدات عاديّة، لكن فطيمة تبدو متحمّسة ومبتهجة.

- وعلي؟

- كما تعرفه. سهرنا البارحة في بار عجيب. كلّهم يعرفونه هناك؛ إنّه في بيته. عالم غريب لكنّه طريف. ضحكنا كثيرًا مع مدام روز وواحدة ضخمة الجثّة لكنّها مرحة وكثيرة المشاكسات والتحرّش بالرجال، تدعى جانيت. متى ستأتي لزيارتنا في سان دني؟

عملها المجنون والله، قلت لنفسي. أخذها إلى بار مدام روز!

*

جاؤوا ثلاثتهم معًا إلى الفندق. لأوّل مرّة تأتي فرنسواز إلى هنا.

Twitter: @ketab_n

كانت تبدو شاردة في بعض الأحيان. تنظر إلى ساعتها كلّ عشر دقائق تقريبا. ليس من عادتها أن تسهر خارج بيتها، وإن حصل ذلك ففي بيت بعض الأصدقاء، وغالبا ما يكون ذلك في سان دني. استطبت فكرة مجيء فرنسواز، لأنها سترغمهم على العودة مبكرا نسبيا إلى البيت. هكذا لن يقتل علي فطيمة بطول السهر والتنقّل من بار إلى بار. وبالفعل، وبالرغم من احتجاجات علي وتهكّمه من «الراهبة التي تأوي إلى الفراش منذ الغروب مثل الدجاجة» فقد غادروا الفندق قبل منتصف الليل. قبّلتني فطيمة لأوّل مرّة قبلتين حارّتين وقالت بصوتها المرح: الآن صرت نصف باريسيّة، لا أنام في فندق. لابدّ أن تأتي لزيارتنا في سان دني، أو لنلتق في باريس نهارًا؟ ثم التفتت إلى عليّ: علي، ما رأيك؟

غدت تستشيره... أو تطلب إذنه!

ذهبت لزيارتهم في سان دني بعد أسبوع. تعشّينا في بيت علي. كانت فرنسواز أيضًا هناك. البيت مرتّب كما لم أعهد ذلك من قبل أبدًا. اختفت أوراق الرسم وعلب الصباغ وقوارير البيرّة. علي يبدو متوازنًا ومرحًا حتّى مع فرنسواز التي كانت تساعده في المطبخ. قالت لي فطيمة إنّه قلّل من الخروج والسكر، وهو يفكّر في العودة إلى العمل.

ـ هل رأيتِ لوحاته؟

ـ *C 'est trés fort!* ـ شيء قوي، قوي جدا! قالت بحماس. لكن لا أدري لماذا يبدو كما لو أنّه لا يأخذ الأمر بجديّة. لا يستعمل القماش، ولا يرسم إلاّ على الورق. ثمّ يرمي بكلّ شيء في زاوية وينساه. كأنّها مجرّد لعبة. خسارة! لا بدّ أن نحثّه...

ـ لكنّك قلت إنّه ينوي العودة إلى العمل. لعلّه تاب عن عبثه الطفولي. أشعر أنّ شيئًا مهمًّا، أعني تغييرًا مهمًّا بدأ يطرأ عليه. كأنّه بصدد طيّ صفحة والاستعداد لفتح صفحة جديدة.

Twitter: @ketab_n

ـ أتعتقد ذلك؟ طبعًا أنت تعرفه أكثر منّي.

صمتت فطيمة بعدها وظلّت تدخّن ساهمة. بعد أن أطفأت سيجارتها وهي تديرها ببطء داخل المنفضة، قالت دون أن ترفع رأسها، أو أن تنظر إليّ: لا بدّ أن يغيّر الإنسان مجرى حياته من حين لآخر، وبصفة فجئيّة وجذريّة في بعض الأحيان على طريقة الانقلاب. أن ينقلب الواحد على نفسه وعلى ما ظلّ يعتقد أنّه القدر، أو المصير المحتوم. ألا تعتقد؟ لماذا نرغم الحياة على السير دومًا في مسرب واحد يبدو لنا آمنًا، أو كأنّه الطريق الوحيدة، بينما الأمر كلّه مجرّد تعوّد وكسل. أليس كذلك؟

ـ لا أدري. الأمر يظلّ حسب رأيي مرتبطًا بنوعيّة الطريق الجديدة، والاتجاه الجديد...

ـ لكنّ كلّ جديد غير معروف، وليست له ضمانات كما نتمنّى، فقط لأنّه جديد. ألست مغامرًا؟ شباب بلادنا، لا يحبّون المغامرة. يفضّلون الراحة على حبّ الاطلاع، والتعفّن في الكسل والروتين على المغامرة وتحمّل المسؤوليّة. أمهاتنا مثل دجاجات لا تتخلّى عن فراخها، لا تتركها تسلك طريقها وحدها، يبركن فوقها حتّى يجدن لها دجاجات أخرى تحتضنها وهكذا دواليك... تظل دائرة الخمول متواصلة، وليس هناك غير أقلّية قليلة من المجانين والمغامرين هم الذين يكسرون هذه الدائرة الرتيبة. ألا ترى أنّ الناس يشيخون بسرعة داخل هذا الركود؟ ليست هناك حياة.

بعد أن أشعلت سيجارة ثانية وسحبت نفسين متتاليين، نظرت إليّ مبتسمة وقالت: عادل، أنا سعيدة بأنني التقيت بكما. لقد بعث في لقاؤكما دفعًا جديدًا. حيويّة بدأت تتحرّك في داخلي. لذلك لن أعود إلى الجزائر حتّى وإن اقتضى منّي الأمر أن أضحّي بسنة من الانتظار قبل

Twitter: @ketab_n

الدخول إلى الجامعة. سأحاول أن أقنع عائلتي، وأنا متأكّدة أنهم سيوافقون عندما يجدون أنفسهم أمام الأمر الواقع. وهم يعرفون على أيّة حال أنّني عنيدة، وأنّني أنجح دائما في فرض إرادتي واختياري. هذه من فضائل إعاقتي، إذ هم لن يُبدوا شيئًا ولو ضئيلا من هذا التسامح تجاه أختي مثلا. ليست هناك عدالة في الدنيا. ماذا تريد أن تفعل؟ لنأخذ الأمور كما جاءت ولنحاول فقط أن نظفر منها بأكثر ما يمكن من الإيجابيات، لا أكثر ولا أقلّ. الحياة هكذا وليست شيئًا آخر. علي أيضًا هكذا. أمّا أنت فإنّك تفكّر كثيرًا. ألا تفكّر أكثر مما ينبغي في بعض الأحيان؟ أضافت وهي تبتسم وتنظر إليّ بشيء من المكر.

ـ قد يكون...لا أدري... أجبت مرتبكًا شيئًا ما، كما لو كنت أتعثّر في حاجز أو عقبة وضعتْها عمدًا أمامي... قد يكون.

ـ لا يهم. لا تشغل نفسك بهذه الفكرة الطائشة، كي لا تجعل منها موضوعًا لتفكير طويل آخر قد يأخذك منا خلال هذه السهرة.

*

مروان بدأ يجلب الانتباه في المدّة الأخيرة ويستثير حفيظة عدد غير قليل من الرفاق بمزاجه الموغل في الخفة واستهتاره بالجديّة وهتكه للممنوعات عامّة وكلّ ما له هيئة المقدّسات خاصّة. هو الذي غدا يسلّم على الرفاق وسؤاله الأوّل: كيف أخبارك الجنسيّة يا رفيق؟ أمورك واضحة جنسيًا وإديولوجيًا يارفيق؟ لم تكن تلك المزاحات تُتقبل دون امتعاض وتقطيب من قبل الرفاق، واختلاج عضلات الفكّين وشيء من صرير أسنان. أغلب الرفاق مكبوتون جنسيًا. لا صديقات ولا عشيقات، ولا هم يرتادون حتّى المواخير ولا يتجرّؤون على مومسات الشوارع. أحيانا نتندر خلسة فيما بيننا حول تزمتهم الرهباني، وأحيانا يحلو لمروان

Twitter: @ketab_n

أن يشاكس حميد وهو يتناول يده ويفتعل تفحص باطن كفه باهتمام: أوو، يقول مفتعلا القلق، كفك ستذوب من كثرة الفرك الإديولوجي السري يا رفيق!

تعرّف مروان على مجموعة من الممرّضات أثناء إقامته في المستشفى الجامعي بسبب عمليّة جراحيّة أجريت له على عينه. استأنسن بسرعة إلى مزاجه المرح ومداعباته الفاجرة ومدّ يديه إلى صدورهن. علّمهنّ لعبة الورق التونسيّة المسمّاة «شكُبّة» وغدا يقضّي السهرة معهنّ في غرفة المداومة الليلية، يلعب معهن الشكُبّة وأحيانًا يعزف على العود، ثم يضاجع إحداهنّ. بعد مغادرته المستشفى أصبحت بعض الممرضات يزرنه في بيته حيث تلتقي المجموعة بكاملها، ولم يكن أحد لا من الرفاق ولا من الممرّضات يرى مانعًا في اقتسام كلّ شيء؛ الأكل والشراب والفراش والأصدقاء. وكانت أكثرهن ترددا على بيت مروان واحدة تدعى جانين. جانين من اللاتي لا يرتوين ولا يتعبن من طلب المزيد. حصل ذات مرّة أن جاءت فجأة إلى بيته مساء وكان لسبب ما قد دعا يومها مجموعة كبيرة من الرفاق، أو أنّهم قد تجمّعوا هكذا عنده دون سبب وبمحض صدفة لاغير. عندما ولجت جانين عتبة البيت ورأت ما لا يقلّ عن اثني عشر شابًا، الجالس على السرير والمستلقي على الموكيت والمتستند بظهره إلى الحائط والمتكئ على مرفقه، انبعثت منها صيحة تعجّب، أو مفاجأة، أو فرح:

Nom de Dieu! j'ai jamais couché avec autant de tunisiens à la fois. C'est certainement beau, mais comment je vais faire?[1]

---

(١) يا إلهي! لم يحدث لي أن نمت مع مثل هذا العدد من التونسيين. أكيد أنه أمر لذيذ.. لكن كيف سافعل ذلك؟

Twitter: @ketab_n

لم يتناوب الرفاق على جانين مثلما كنت تعتقد. ولم تتنمّر وتدخل في جلدة فرس نابليون. هكذا تسمي نفسها عندما تتوغل عميقا في تهيجها الشبقي وتغدو تحمحم مثل الفرس. انسحب أغلب الرفاق مستائين. كانت القطرة التي أفاضت الكأس، وجعلتهم يتخذون قرارا بعزل مروان نهائيا ويعطون أوامر صارمة بمقاطعته. ولم تنفع محاولاته تبرير سلوكه بأسلوبه العابث المشاكس. بل إنّ أسلوبه ذلك هو الذي أعطى الرفاق الحجّة الدامغة على انحلاله وتفسخه وفساد طبعه جملة وتفصيلا.

قال لهم بنبرة تفتعل الاستغراب والدهشة: لكنّنا اشتراكيّون يا رفاق! أليس كذلك؟ أنا لا أؤمن بالملكيّة الفرديةّ للأشياء، فما بالك بالتملّك الفردي للمرأة! قالوا إنّه لايكتفي بممارسة انحرافاته وتفسّخه الأخلاقي، بل يحاول أن ينظّر لذلك بطريقة لا تخلو من تهكّم واستهتار. ولم تقنعهم أبدًا حجّة أنّ جانين حرّة في التصرّف في جسدها تفعل به ما تشاء، وأنّ أحدًا لم يرغمها على ذلك، بل هي التي تحبّ ذلك الأمر وتنتشي به حتى تكاد تجن.

- إذا كانت الرفيقة لا مانع لديها في الاقتسام الجماعي للمتعة واللذّة، فأين المشكلة؟ يقول مروان بكلّ تلقائيّة لبعض الرفاق المتهيّجين الآن مثل فوج من الكلاب المستعرة برغبة العضّ والنهش وتمزيق الجلد واللحم.

- أيّة رفيقة؟ من وين رفيقة؟ كلّ الناس عندك رفاق، أم ماذا؟

- طبعًا، لقد خلقنا الله رفاقًا، لا فرق بين عربيّ وأعجميّ إلاّ بالوعي الطبقيّ يا رفيق، لكنّ الاديولوجيا الإقطاعيّة والبرجوازيّة هي التي اختلقت هذه التفريقات بيننا يا رفيق.

Twitter: @ketab_n

اتضح للجماعة عمق فساده. الرجل مستهتر واع باستهتاره، ينظّره ولا يتورّع عن تبريره والدفاع عنه. عنصر خطير لا رجاء في إصلاحه، بل إن البعض راح يروج لكونه من المندسين، أو ربما من المتعاونين مع أعوان البوليس السياسي. لابدّ من فصله وإبعاده وعزله وتنقية الساحة الثوريّة الملتزمة المنضبطة من بذرة شروره. إنّما هكذا تنشأ الأفكار المنحرفة والمتفسّخة في صفوف المناضلين، تليها من بعد كلّ أشكال التنطّع والخروج عن الخطّ وشتّى الممارسات الذاتيّة والفرديّة والليبراليّة سيّئة الذكر.

فُصل مروان بقرار حازم صارم لا رجعة فيه. وأعطيت الأوامر الصارمة بعزله ونبذه والابتعاد عن مجالسه والتنديد العلني بانحرافه، وتمريغ سمعته وعِرضه في البول والخراء.

*

رأينا رفاقا كثيرين يعزلون، ويشطبون بجرّة قلم. يصبحون بين يوم وغده أعداء. لا أحد يقترب منهم. لا أحد يكلّمهم. لا أحد يردّ على تحيّاتهم.

المنبوذ مثل الشاة الجرباء؛ كائن موبوء. نبتعد عن طريقه، نسعى إلى نسيانه، نجعل منه مجرّد بقعة سوداء في ذاكرتنا. وعندما يعترضنا صدفة لا نجرؤ على النظر في عينيه. نتمنّى فقط لو أنّ الأرض تنفتح لتبتلعنا وتحجبنا عنه وتحجب عن عينينا مشهد رؤيته. مشهد رؤيته؟ بل مشهد رؤية ارتباكنا واضطراب خطواتنا وارتعاش جسدنا بكلّيته أمام نظراته التي تبدو لنا مثل إبر محمّاة تخترقنا، تلومنا، تؤنّبنا، تقول لنا إنّنا حقيرون، ضعفاء، لا ذوات ولا صفات.

رأيت مروان العديد من المرّات عقب حادثة فصله واتخاذ القرار

Twitter: @ketab_n

بعزله، يجلس وحيدًا في مقهى le départ وهو يعرف أنّنا سنمرّ من هناك حتمًا في طريقنا إلى الحيّ الجامعي أو مطعم طلبة شمال افريقيا ببولفار سان ميشال. رأيته يجلس ساهمًا وراء الواجهة الزجاجيّة، مباشرة إلى الرصيف، عيناه على الشارع، ينتظر، يقتنص، يترصّد مرور أحدنا. مرّتين أو ثلاث مرّات تظاهرت بالنظر إلى وجهة أخرى وأنا أحثّ خطاي كي أمرّ بسرعة. لكنّني في كلّ مرّة كنت أشعر بعينيه تثقبان الزجاج وتخترقان ظهري مثل سهمين من نار. أحسست بحرارتهما تنفذان إلى عظامي، وبوخز ما في أحشائي؛ شيء يشعرني بالخجل من نفسي. مرّة أو مرّتين قذفت بشتيمة هكذا في الهواء: إنّه وقح وقليل حياء، يحاول ابتزازنا وفرض وجوده علينا بهذه الطريقة المبتذلة المهينة. رخيص! لكنّها كانت كلمات جوفاء. كنت أشعر أنّها فقاقيع خاوية؛ في الواقع كنت أحاول الاحتماء من خجلي من نفسي ومن سلوكي الجبان؛ لا أجرؤ على النظر إليه في وجهه بينما عيناه تثقبان رأسي. أدير وجهي مثل أيّ مَدين متنكّر لدائنه. قرّرت أن أتلافى المرور من ذلك المكان كي أوفّر على نفسي مثل هذا الحرج، فكان عليّ أن أصعد من ساحة السربون عبر شارع سان جاك حتّى أتجاوز ساحة البنتيون ثمّ أنحدر في زقاق ضيّق جانبيّ باتّجاه البولفار حيث محطّة المترو مباشرة وراء ظهر مروان الذي يجلس بالتأكيد في مكانه العاديّ في انتظار مرور أحدنا. لكنني كلّما مررت من وراء ظهره متسلّلا من ذلك الزقاق الضيّق نحو مدخل المترو كنت أشعر بوخز خجل أشدّ. قرّرت بعد بضعة أيام أن أتخلّى عن هذه الخطّة المداورة البائسة، وأن لا أسلك غير طريقي العاديّة دون لفّ أو تخفٍّ، بل ودون أن أستدير بوجهي عن وجهه الذي غدا مثل صورة ملتصقة ببلّور تلك الواجهة الزجاجيّة. سأنظر إليه مباشرة في عينيه وأمرّ،

Twitter: @ketab_n

حتّى يعلم أنه لم يعد يمثّل شيئًا بالنسبة لي، وأنّني لا أخشى نظرات عينيه، ولا أنني مثل غصن دقيق أمام ريح لومه وعتابه أو تملّقه.

مررت أمام مقهى الديبار بطريقة تحاول أن تكون عاديّة وتلقائيّة قدر الإمكان. رأيته. لم أدر وجهي عنه. ابتسم وأومأ لي بيده. ارتعشت، اصطكّت ركبتاي، سرت في جسمي كلّه حرارة غريبة. لكنّني لم أردّ لا على ابتسامته ولا على إيماءته ومررت مسرعًا باتجاه مدخل المترو.

شعرت بقبضة صارمة ترجّني من كتفي. كان مروان قد اندفع مثل السهم من مكان جلوسه ونزل الدرج ينطّ نطًّا ورائي حتّى أدركني. عيناه في عينيّ، ويده ما تزال ممسكة بكتفي بشدّة.

ـ مالك؟ لن آكلك. ثمّ مالكم جميعًا؟ أجننتم؟ ماذا فعلت لكم؟ ماذا فعلت لك أنت مثلا؟ أنت بالذات؟ أبهذه السهولة تتنكّرون؟ أسكر وحدي، أمشي في الشوارع وحدي. أجلس في المقاهي وحدي. آكل في المطعم الجامعي وحدي. أسمع الأخبار وأعلّق عليها وحدي. سمعت بوفاة الشاعر المختار اللغماني وبكيت وحدي. قتلتموني يا أولاد القحبة! سمع البعثيّون بقصّتي فاتّصلوا بي، تمسّحوا بي، راودوني على نفسي وحاولوا إغرائي. كانوا بالفعل يراودونني كما يراود الواحد امرأة على نفسها. دعوني على شراب وسهرة. قلت لهم: ابتعدوا عني يرحم والديكم، ابتعدوا عني فأنا متّهم ومشوّه بما فيه الكفاية. لا تشوّهوني أكثر... لا أحبّ البعثيّين وتبجّحهم وشعاراتهم المجلجلة الخاوية، انغماسهم في المؤامرات والدسائس وتدبير المكائد؛ السياسة بالنسبة لهم دهاء وحيل ومكر ومكائد وانقلابات. يراودونني على نفسي مثل فتاة سائبة؛ قلت لهم ابتعدوا عني، إنني محصّن ولست طالقا، بل هجروني

Twitter: @ketab_n

في المجالس حتى أثوب إلى رشدي وأعود إلى سراط التنظيم. أي والله يارفيق، إنني نعجة ضالة وبي حسرة وندم، فلا تتركوني للذئاب. أريد رفاقي وأصدقائي الذين عاشرتهم لسنوات عديدة، سهرت معهم، وتجوّلت معهم، وتعلّمت معهم، وشربت معهم، وغنّيت معهم، وتحمّست معهم. هل هكذا، بجرة قلم تنهون العلاقات يا رفيق؟ أبهذه السهولة تفسخون شخصًا بأكمله من حياتكم؟ تلغونه، تشطبونه وهو حيّ يدبّ أمامكم، يتملّقكم، يتوسّل إليكم، ينظر إليكم بعينين ملؤهما الرجاء والطمع مثل كلب يتذلّل لصاحبه كي يعفو عنه. لو كنت كلبًا لما تركني صاحبي، لعفا عنّي بعد يوم أو يومين وفتح لي باب بيته من جديد، وأطعمني ومسّد على ظهري وهشّ لي. هل قلوبكم من حجر؟ أم ترى ليست لكم قلوب؟

لم أصعد معه لنجلس في مقهى الديبار كي نتصالح أو نتجادل ونتخاصم. عرف أنني لم أكن أنوي ذلك ولم يقل شيئا. نظر إليّ وأنا أودّعه، أو أتخلّص منه، بعينين ليس فيهما لوم ولا حزن، بل محبة كانت تسعى إلى تخليد نفسها في لحظة وداع. قال لي وهو يرجّ يدي في يده: إذهب، فلا أنت آت معي ولا أنا عائد عن هذا الذي أنا فيه ...«*لو كنتُ صديقا لصاحب الملكوت لصلّيت من أجل سلامك*».

كنت أحبّ مروان وبه ربطتني مودّة خاصّة. تسكّعنا معًا. سهرنا معًا. نمنا في غرفة واحدة. غازلنا فتيات معًا. تناقشنا، تجادلنا، تحادثنا عن طفولتنا، عن أصدقاء طفولة، عن أيام الثانويّة، عن تجربة مبيت الداخلية المقيتة، كلاً في مدينته، عن مغامراتنا، عن تهوّر أيّام مراهقتنا، عن صبايا عشقناهنّ ولم نظفر منهنّ سوى بالوجع والحرقة والأماني، عن

Twitter: @ketab_n

لوعات لم تخمد نارها في قلوبنا بعد. كان يجمعنا حبّنا للشعر وتأفّفنا لعزوف رفاقنا عن كل ما له صلة بالأدب والفنون. انتقدنا همسًا تكلس أرواحهم وتبلّد أذهانهم. تحدّثنا عن موقف الشيوعيّة من الأدب والفن، عن غوركي وأيزنشتاين، عن مسرح وشعر بريشت، عن كافكا ودوستويفسكي، عن رامبو وبودلير والشابّي ومحمود درويش وسميح القاسم ومعين بسيسو وغسّان كنفاني، عن شعر الصعاليك وكيف يمكننا أن نعيد قراءته من وجهة نظر ثوريّة تقدّميّة، تناقشنا في إمكانيّة تحرير صفحة ثقافيّة في جريدة التنظيم، وأصبنا معًا بخيبة الأمل عندما قوبل مقترحنا بكثير من الفتور من طرف الرفاق.

هذا الرجل بكلّه وكلّيته، وتلك المعاشرة برمّتها كان عليّ أن أفسخها، هكذا بجرّة قلم، وفقًا لموقف سياسي وقرار اتّخذ بعزله وعدم التعامل معه واعتباره ابتداء من تلك اللحظة لا من المعادين للتنظيم فحسب، بل من المنحلّين والمائعين والمعادين للثورة إجمالا. اعتدى على المقدّسات. تزندق وفسق وفتح بيته لمجالس المتعة والعلاقات المائعة. ولم يكتف بذلك بل يتطاول على الكتاب وعلى شخص الرفيق ماو ومشاعر الملايين من الثوريّين الذين يقدّسون الرفيق ماو وفكره وعمله وإنجازاته. قال عنه إنّه يبعث بالمثقّفين والفنّانين إلى مشاغل العمل الإجباري لأنّه يغار منهم، وأنّه مجرّد معلّم أرياف، لذلك يتعاطف مع الفلاحين ويكره المثقّفين.

عبثًا حاول من بعدها أن يقنع الرفاق بأنّه مجرّد مزاح وكلام يقال في جلسات الشراب لا أكثر: مزاح يارفاق! أقسم لكم بالماركسيّة اللينينيّة وفكر ماوتسي تونغ أنّه مجرّد مزاح. هل أصبحنا متزمّتين إلى هذا الحدّ؟ ألا تعرف الثورة قليلا من الفذلكة؟

Twitter: @ketab_n

قالوا له ابحث لك عن مواضيع أخرى للمزاح والفذلكة. فأجابهم: أيّة مواضيع أخرى؟ ومن أين لي بمثل تلك المواضيع؟ ألم ننظّف رؤوسنا من كلّ شيء ولم نترك فيها سوى الماركسيّة اللينينيّة حتّى أنّنا لم نعد قادرين على المزاح إلاّ من داخلها وبها ومعها؟ هل بقي لنا شيء آخر في رؤوسنا غير الماركسيّة اللينينيّة وفكر ماوتسي تونغ؟

Twitter: @ketab_n

توتّر

التوتّرات العاديّة بين علي وفرنسواز تحتدّ. كثرت مشاجراتهما. ولم يفلحا في إخفاء ذلك عن فطيمة التي كانت على قدر من الحساسية التي تجعلها تشتمّ التوتّرات في الفضاء. غدت تشعر بالحرج تجاه فرنسواز وعلي معًا. لا تدري لماذا. لكن شيئًا غامضًا وقاتما بدأ يلفّ بالجماعة. علي يبدو مرحًا بحضور فطيمة، لكنّه حالما يخلو بنفسه تعاوده كآبة ثقيلة. كثيرًا ما لاحظتْ غيابه في حالة من السهو والشرود. يدخّن بشراهة وحشيّة، وعاد إلى الإكثار من الشراب، لكن خفية هذه المرّة. بدأ يتحاشى الخروج مع أيّ كان. بعد أن يودّع فطيمة، يخلو بنفسه في أحد البارات، في أغلب الأحيان بارات جديدة ليس له فيها معارف ولا فرص للمشاكسات وهرج الخصومات.

لم يخف ذلك الأمر عن فطيمة طبعًا التي بدأت هي أيضًا تناوشه: لماذا يسكر خفية؟ ولماذا انقطع عن الرسم؟ عليه أن يهتمّ قليلا بنفسه، أن يقلّل من التدخين. ثمّ بدأ المرح الذي كان يرفرف بأجنحته الخفيفة فوق لقاءاتهما يتقلص، أو ينكمش. كثيرًا ما يجلسان صامتين، وحالما يبادر أحدهما بالكلام يبدأ شجار طفيف. توتّر يبحث له عن مخرج ويصطدم في أغلب الأحيان بجدار سميك. ذات ليلة أتت وحدها إلى الفندق. تحادثنا عن أشياء عديدة وقرأت لها بعض القصائد للوتريامون الذي تحبه. لاحظت فجأة أنّها تبكي فتوقّفت عن القراءة لأسألها إن كان

Twitter: @ketab_n

هناك شيء يزعجها؟ مشاكل ما مع فرنسواز؟ أو مع علي؟ لكنّها ألحّت عليّ أن أواصل القراءة، ثمّ كفكفت دموعها وابتسمت: ليس هناك ما يمكنه أن يبكيني أكثر من لوترياموں. ثم وبتغيير مفاجئ للموضوع: ما هي علاقة علي بفرنسواز؟ إنّها تبدو حزينة جدًا في الأيام الأخيرة، وهناك شيء غامض وغير عاديّ في علاقتهما.

فاجأني سؤالها، ولم أدر بماذا أجيبها، لأنّني لا أعرف أكثر ممّا تعرف عن علاقتهما، بل لعلّها بحكم معاشرتها لهما عن قرب قد غدت تعرف أكثر منّي. علي كتوم في هذه المسألة بالذات، وكلّما حاولت أن أفتح معه موضوع الحديث في هذا الأمر راوغ وتملّص وغيّر الموضوع بسرعة. في البداية، كان يبتسم ابتسامته الصفراء الماكرة ويقول: آ، تلك الإوزّة الغبيّة؟ تلك من محظيّات المسيح أو حوريّات الجنّة. لكنّ عقبة على غير هذا الرأي. قال لي ذات مرّة إنّه يحبها، لكنّه لا يجرؤ على مفاتحتها.

ـ علي! علي لا يجرؤ على مفاتحة امرأة؟ علي الذي نعاني الويلات من جرأته الوقحة ويديه اللتين لايعرف كيف يردّهما عن أفخاذ ومؤخّرات كلّ حريفات البارات! لعلّك تريد المزاح!

ـ أنا لا أمزح. علي يعاني من عقدة غامضة تجاه النساء العاديّات إنّه جريء جرأة غير معهودة، لكن على العاهرات ونصف العاهرات ونساء البارات فقط. لكنّه حالما يجد نفسه أمام امرأة لا تسكر ولا تعربد ولا تتعهّر ولاتفجر بالكلام والحركات، يرتبك، يضطرب ويشعر بحاجز متين يفصله عن تلك المرأة. لقد لاحظت ذلك الأمر عندما كنّا معًا في خليّة الحزب. لا يكاد يرفع عينيه في وجه أيّة واحدة من الرفيقات. جاكلين لاحظت ذلك أيضًا، وشعرت بميله الوحشيّ تجاهها. كان بودّه

Twitter: @ketab_n

لو يأخذها إلى بار من بارات سان دني ويسكرها حتّى تغدو قادرة على الكلام بصوت مرتفع والضحك بعهر كي يستطيع أن يقترب منها... كانت تشعر بغريزة أنثى أنه يشتهيها بعنف فدبّرت له أمر العلاقة مع فرنسواز.

ـ وفرنسواز؟ هل تحدّثتَ معها في الموضوع؟

ـ فرنسواز أكثر خجلا وتعقيدا منه.

فرنسواز فعلا أكثر تعقيدا من علي. إنّها من ذلك النوع الذي لا يأنس للحالات الطبيعيّة العاديّة. لا ترتاح إلاّ للرجال الذين يبدون لها في موضع من البؤس والشقاء يحيّد شيئًا من ذكورتهم ويجعلهم فقط موضع شفقة. أولئك الذين يسمحون لها بمراوغة شرطها الأنثويّ والاستعاضة عنه بالوظيفة الاجتماعيّة؛ وضع الكائن الخيِّر الذي يتدخّل من علياء حياديّته البيولوجيّة مساعدًا ومنقذًا ومحسنًا، وذلك بالضبط هو ما يثير سخط علي عليها.

تذكرت حادثة محاولة اغتصابها. قلت: فعلا إنها لا تريد أن تكون سوى محسنة. وعلي يريدها امرأة، عاهرة. ولعلها ترغب فيه وبإمكانها أن تنام معه، لكن دوما كمحسنة، أو على الأقلّ كمواطنة مسيحيّة مستقيمة وصالحة. وعليّ يريد أن ينيكها كقحبة، أو كما يقول هو كبقرة، لا لشيء إلا لأنه لا يرى نفسه في مثل هذه الحالة إلاّ كثور يخور ويرفس وليس كخوريّ أو مواطن مستقيم.

ـ لا أدري، أجبت فطيمة مرتبكًا ومتعثّرًا في تعقيدات وغموض هاتين الشخصيّتين. علاقة صداقة؛ فرنسواز امرأة مثاليّة ورحيمة، ووفيّة. لكنّ علي صعب، مزاجي، حادّ أحيانًا. فعلا، أنا لا أفهم سرّ علاقتهما. يطردها من بيته ويشتمها، لكنّها تعود. كثيرًا ما تظلّ جالسة هناك

Twitter: @ketab_n

لساعات صامتة بينما هو يرسم أو يشرب بيرّته مستلق على الأريكة ويدخّن. ساعدته كثيرًا، أمّا هو؟ لا أدري. عندما لا تأتي يشعر بالضيق ويغدو يتحدّث عنها بشيء من الرقة، رقة أو حنان خفيّ على أيّة حال، أو متستّر ومكابر... اعتقدت في وقت ما أنّه يحبّها. لكنّه أقسم لي أكثر من مرّة أن لا شيء من هذا القبيل يجول في نفسه.

ـ يكذب.

قالت فطيمة بوثوق.

ـ من أين لك هذه الثقة القاطعة في ما تقولين؟

ـ أنا متأكّدة من أنها تحبّه ولم تجرؤ أبدًا، أو لنقل أنّه لم يدع لها فرصة كي تعبّر له عن ذلك... وهو أيضًا يبدو مضطربًا بشعور مكبوت تجاهها. علي خجول في ما يبدو لي، أكثر مما يعتقد من لا يعرفه سوى معرفة سطحيّة.

*

بدأت أأسف فعلا لرحيل عقبة. كان سيقاسمني مشاقّ تحمّل عليّ وتقلبات مزاجه الدائمة، ويشغله عني بخصوماتهما. وأنا أعرف على أية حال أنه يحبه أكثر مما أحبه دون شك، أو أنه على الأقل أكثر التزاما ومواظبة في محبته. طينة عقبة لم تتلوث كثيراً بثقافة الكتب، وتلقائيته لم تشوشها النظريات بعد. كل أصدقائي الآخرين لا يحبّون عليّ ولا يحبّهم. هو يسمّيهم برؤوس القرع، وهم ينعتونه بالمتعفّن الذي لا رجاء فيه، ويحاولون إقناعي بالابتعاد عنه.

ارتحل عقبة إلى ليبيا منذ حوالي ستّة أسابيع وقد بدا هذه المرّة مقرًّا العزم على عدم العودة إلى فرنسا. كان قراره ذلك فرصة لخصومة أخرى بينه وبين علي الذي تدفق سيل سبابه ضدّ العرب عامّة وهو ينعته

Twitter: @ketab_n

بالجنون؛ كيف يعقل أن يترك الواحد بلدًا ينعم فيه بالحريّة بالرغم من كلّ شيء ليقذف بنفسه في جحيم من التخلّف والهمجيّة والفوضى. كان عقبة مصرا على رأيه الثابت بأنّ الفرنسيّين لا يريدوننا وأنه من حقّهم ألا يريدوا من لا يحبّون، كما أنّه من واجب من يشعر بأنّه غير مرغوب فيه أن يرتحل وينقذ كرامته، وأنّ ليبيا تظلّ في كلّ الأحوال بلدًا شقيقًا في حاجة إلى يد عاملة وخبرات، فلماذا نبخل بخبرتنا على الأشقّاء ونمنحها للفرنسيّين الذين يعاملوننا مثل قبائل من الهمج تهجم عليهم طمعًا في خيرات بلادهم؟ لكنّ علي مصرّ على أنّ عقبة هو الذي، مثله مثل جميع المهاجرين، يرفض التأقلم والاندماج، هو الذي لا يفعل سوى الانطواء على نفسه ويرفض التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه حتّى وإن كان ذلك يتطلّب شيئًا من المواجهة.

تحوّل النقاش إلى خصومة عندما راح علي يتهمه بأنّه بدويّ لا يأنس إلاّ للتخلّف والقبح والجفاف، ولا يرتاح إلى كلّ ما يمتّ إلى الحريّة والجمال بصلة: لا يمرح ولا يرتاد البارات الليليّة ولا المراقص، لا يجرؤ على التحرّش بالنساء ومغازلة الفتيات، وينكمش أمام كلّ امرأة جميلة ومثيرة ويستنفر ويغدو بهيأة حيوان مذعور. لماذا؟ ألأنّ النساء الباريسيّات غولات مفترسات؟ هل كلّهنّ عنصريّات كما يدّعي؟ بم يفسّر إذن ذلك العدد الكبير من المتزوّجات بجزائريّين وتونسيّين ومغاربة أغلبهم جاء إلى هذه البلاد وهو لا يقدر حتّى على الكلام لا بالفرنسيّة فحسب، بل حتّى بلغة أهله؟ وبم يفسّر وجود تلك الأعداد الكبيرة من المتكالبات على مقاهي الجزائريّين الصاخبة المكتظّة بأرهاط شبيهة بالأتياس المتهيّجة؟

توتّر عقبة واشتعل بريق الغضب في عينيه وراح يقذف علي بالانفصام ويتّهمه بالكذب على نفسه، وأنّه لا يفعل غير توهّم حريّة هي

Twitter: @ketab_n

في الواقع بعيدة عنه، مسيّجة بشتّى العقبات التي يضعها هذا المجتمع أمام الغرباء بالتحديد، وأنّ ما يدّعيه من غبطة وبهجة لا يتجاوز حشر يديه بين أفخاذ المومسات وشتّى فضلات المجتمع المترسّبة في البارات الليليّة مثل حثالة كريهة الهيأة والرائحة: قل لي كم مرّة تعرّفت على امرأة من غير المومسات والمتعفّنات في اليأس والكحول؟

- المومسات أيضًا نساء، وسواء ضاجعت عاهرة أو سكّيرة أو سكريتيرة أو طالبة أو مديرة مؤسّسة فأنت لا تفعل سوى مضاجعة امرأة. المرأة امرأة وانتهى. والمومس على أيّة حال أفضل من الوحدة وقبضة يدك التي تتوهّم أنّك تنفّس بها عن كربك.

خرج عقبة وهو يطبق الباب بعنف مردّدًا بأنّه لن يسمح لنفسه بعد اليوم بمعاشرة رجل منفصم متنكر لأصله وجذوره وغارق حتّى العنق في الأوهام. بعدها بيومين حزم أمتعته القليلة واستقلّ الطائرة التي نقلته إلى طرابلس.

*

أيقظني علي قبيل منتصف النهار. لم أكن أتوقّع مجيئه في تلك الساعة، لأنّه عادة ما يأتي لزيارتي مساءً في الفندق لعلمه بأنّني إمّا أن أكون نائمًا في مثل تلك الساعة لتعويض سهر الدوام الليلي بالفندق، أو أكون في الجامعة لحضور الدروس. كان يرتدي طقمًا من قماش رفيع بلون القهوة الممزوجة بكثير من الحليب وقميصًا أبيض مفتوحا على مستوى العنق على طريقة موضة أواخر الستينات وبداية السبعينات وحذاء أحمر يبرق مثل الجمر، وهو أمر غير مألوف لدى عليّ الذي لا يكاد يفارق الجاكيتة الجلديّة السوداء وبنطلون الدجينز وجزمة الكاوبوي.

Twitter: @ketab_n

بدا لي بهيأة واحد من عازفي الجاز من نيو أورليانس أو شيكاغو؛ لم تكن تنقصه غير القبّعة السوداء ليبدو بهيأة جون لي هوكر.

ـ عندك برنامج أوبرا هذا المساء؟

ـ أوبرا دبّ العود! «دبّ العود» هي عبارته الغريبة المبجّلة للتعبير عن استخفافه أو تهكّمه من أيّ شيء.

كان مرحا ومتحمّساً حماسًا بدا لي مريبًا شيئًا ما. ـ يالله انهض إنك ستغدو خميرة من كثرة النوم! مرّة يحاول إزاحة الغطاء عنّي ومرّة يحاول معالجة آلة الأنترفون المعطّبة، يتنقّل مثل نحلة أضاعت الاتجاهات بين المطبخ والنافذة، يسحب الستائر، يفتح حنفيّة الماء، يحرّك كرسيًا، يلعن شيئًا ما وهو يتعثّر في كومة كتب موضوعة على الأرض، يرطن بصوته النحاسيّ الذي يمكن أن يكون دقيقًا وحادًا حدّ الإزعاج:

Nous avons toute la vie pour nous amuser;

Nous avons toute la mort pour nous reposer.(1)

اللعنة! إذا اكتأب علي تعكّرت حياتنا وغدت جحيمًا لا يطاق، وإذا كان طربًا قلّت راحتنا! كنت أعرف أنّه لم يعد هناك من مجال للمماطلة، وأنّه سيظلّ يطنّ حول رأسي مثل الذّبابة ولن يتوقّف حتّى أنهض ولو كنت ميّتًا تعبًا.

كان يتمشّى داخل الغرفة الضيّقة بشيء من الارتباك والتوتّر كما لو أنّ ذلك الفضاء لم يكن ليتّسع لهيأته الجديدة ولنسق الحركة غير المعتادة التي تفرضها عليه البدلة الأنيقة جدًا والحقّ يقال.

ـ انهضْ! انهضْ ودعنا من تعليقاتك البائخة، سنتغدّى في ساحة

---

(١) لدينا كل الحياة من أجل أن نمرح/ ولنا كل الموت كي نستريح.

Twitter: @ketab_n

كليشي. أريد أن نحتفل اليوم ونعفس في الدنيا ونريها من نحن. تسلّمت مبلغ التعويض عن حادث الشغل الذي تعرّضت له قبل ثلاث سنوات، ولديّ الآن ما سيسمح لنا بالضحك على عفن الرأسماليّة وخراء المصانع. يالله! يكفي من النوم والخمول.

صعدنا بولفار باتينيول مشيًا على الأقدام وكان علي يخطر في بذلته الجديدة مثل أمير نصّب للتوّ على جزيرة زنجيبار! لا أدري لماذا خطرت لي زنجيبار هكذا لوحدها من بين بلاد الله الواسعة وبدت لي المكان الوحيد المناسب لإمارة علي. ثمّ تخيّلته، وأنا أراه الآن لا يركل الأرض بنعل الكاوبوي كما يفعل دوما، يخطر هناك في تلك الجزيرة البعيدة ممسكًا بذراع فطيمة الزهراء؛ هو في بدلته البيج الفاتحة وقميصه الأبيض الناصع وحذائه الأحمر الملتمع، وهي في ساري أصفر بلون الزعفران وعلى شعرها الأسود المعقود فوق رأسها على هيأة تاج من الدنتيل الأبيض منقّع في عطورات الجزيرة وأطيابها!

أثناء الغداء كان على غير عادته هادئًا هدوءً مشبوهًا. بل وبدا لي شاردًا شيئًا ما حتّى أنّه كان عليّ أن ألعب دور المهرّج؛ أعلّق على بذلته بكثير من الإعجاب حينًا، وبشيء من السخرية حينًا آخر، وكان هو لا يفعل سوى الابتسام باحتشام، أو بحرج غير معهود لديه.

أخيرًا نطق ونحن نتناول قهوة الإكسبريس مع الكونياك:

- اسمع ياسي بطّيخة! أريد أن أتحدّث معك في مسألة جديّة. لا تقاطعني، ولا تتفلسف، ولا تعقّد عليّ الأمور. اتّفقنا؟

- تفضّل يا أمير! نحن تحت أوامرك؛ لا مقاطعة ولا جدال ولا معارضة.

ثمّ اتخذت هيأة التلميذ الذي يستعدّ للإصغاء بكلّ أدب وقد أطفأت

Twitter: @ketab_n

سيجارتي واستقمت في جلستي وصالبت ذراعيّ. عندها ضحك ضحكته الماكرة التي أعرفها جيّدًا لديه ساعات محاولاته مراوغة حيائه أو حرجه، ثمّ ناولني سيجارة من علبة الجيتان ـ الشيء الوحيد الذي لم يغيّره اليوم في مجمل هيأته وسلوكه.

ـ اسمع، عندي مشكلة لم أستطع أن أجد لها حلاً وحدي. فطيمة. أنت تعرف أنّني... أو أنك لا تعرف، أو لا تريد أن تعرف... المهمّ. لا أدري ماذا سأفعل مع هذه المرأة؟ أنا واثق تمامًا من شعوري، لكنّني لا أجرؤ على مفاتحتها في الأمر. أخاف. بل أنت الذي خوّفتني بمسائل الإعاقة والعُقد وجرح العواطف ولا أدري ماذا من تلك الحكايات التي ملأت بها رأسي. ترى كيف أنّ كلامك قد شوّش عليّ كلّ شيء ولم أعد أعرف ما الذي أفعله! فعلا أنا خائف من أن أقوم بحركة غير لائقة، أن أتسرّع. رأسي مليء بالخطط التي أعدّها وأنسجها، ثمّ أنقضها وأعيد حبك نسيجها، لكن بمجرّد أن أجد نفسي وجهًا لوجه معها تتبخّر كلّ خططي وأغدو أبكم، أدخّن كثيرًا وأشرب ولا أقدر على قول أيّ شيء. أمّا هي فتلومني على كثرة التدخين والشراب ولا تدري ما الذي يضطرب في داخلي. بدأنا نتناوش من حين لآخر لأتفه الأسباب.

عدنا إلى مسألة الحرج، والإعاقة، وضرورة الحذر، وعدم التسرع، وكدنا نغرق في جدال يظل يدور حول نفسه دون مخرج. أخيراً ألقيت بالسؤال الذي بدا لي أنه يمكن أن يقودنا إلى مخرج ما:

ـ لكن هل أنت واثق؟ أعني، هل أنت واثق من مشاعرك.

ـ واثق! واثق، واثق! ومن هو الواثق من شيء؟ قل لي هل أنت واثق من كلّ شيء؟ عدا ثورتك هذه التي تدعي أنها حتمية تاريخيّة. وحتى هذه، هل أنت واثق منها حقا؟ أنت مؤمن ولست واثقا.

Twitter: @ketab_n

فجأة، قال وهو يرى أن كلّ نقاشاتنا لم تعد تفضي إلاّ إلى مزيد من التعتيم والتردّد الذي لا فائدة من ورائه: سأعرض على فطيمة الزواج اليوم، وبحضورك أنت وفرنسواز. اندهشت لذلك القرار الذي بدا لي حازمًا وصارمًا أكثر من اللزوم، ومفاجئا خاصة. حاولت أن أصدّه عن ذلك الأمر مبيّنا له أنّه تسرّع لا مبرّر له، عدا أنّه سيكون عديم الذوق، لا لأنّه سيحدث بحضورنا فحسب، بل لأنّه لم يأت نتيجة لمفاتحات حميميّة واقتراب وتوطئات ضروريّة من شأنها أن تجعله قرارًا متوّجا لسيرورة علاقة تطوّرت بما فيه الكفاية كي يصبح ذلك التتويج أمرًا منطقيًا ومقبولا.

انتظرنا فطيمة وفرنسواز في محطّة سان لازار. كان علي مضطربًا، قلقًا، وبالرغم من أنّنا وصلنا إلى مكان الموعد قبل الوقت المتفق عليه بما يزيد عن نصف ساعة، فإنه كان لا يكفّ عن النظر إلى ساعته بقلق والتمشّي بخطى متوتّرة في بهو المحطّة ممطّطا عنقه باتجاه الممرّ الذي سيأتي منه القطار القادم من سان دني. ثمّ راودته فكرة أن يشتري زهورًا يستقبل بها فطيمة، لكنّه سرعان ما تراجع عنها مفضّلا قارورة عطر تراجع عنها بدورها ملوّحا بيده بامتعاض: - لا زهور ولا هدايا، ولا دبّ العود! واستعاض عن ذلك كلّه باشتراء ولاّعة فضيّة من محلّ التبغ الذي في بهو المحطّة وأراد أن يشتري لي واحدة مثلها فرفضت بشدّة مدّعيًا أنّه لا فائدة من ذلك التبذير لأنّني على أيّة حال سأضيعها بسرعة، لكنّ ذلك لم يقنعه فتوتّر وانتفض مهدّدًا برمي ولاّعته وتهشيمها على الحائط، ولم يهدأ إلاّ عندما وعدته بأنّني سأقبل منه هديّة أخرى سأختارها لنفسي فيما بعد.

نقلتنا سيّارة تاكسي من محطّة سان لازار إلى الحيّ اللاتيني بعد أن رفضتُ أن نظلّ بحيّ الأوبرا وأعربت كلّ من فرنسواز وفطيمة عن

Twitter: @ketab_n

تأففهما لفكرة العشاء والسهرة بشارع الشانزيليزي. لم يكن علي الذي لا يرتاح إلاّ إلى بارات سان دني وساحة كليشي بين الحين والآخر، من المولعين بالشانزيليزي وأضوائه ومحلاته الفاخرة، ولا كان ليرتاح لأجواء الحيّ اللاتيني لأنّه حسب رأيه حفرة مليئة بالهبّيين والطلاب وشتّى الكذّابين والإدعائيين من «الإنتلّو» المزيفين؛ *Les faux* كما يحلو له أن يسمّي المثقفين والفنّانين. لكنّه تنازل اليوم ولم يبد أي تعنّت في الاعتراض، مجاملة لفطيمة طبعًا. ذهبنا إلى السنما بشارع سانت أندري ديزار. بعدها تعشّينا معًا في مطعم مغربي يدعى «طاجين» بشارع «لاغيتيه» بالقرب من مونبرناس. تمشّينا في شارع لاغيتيه، نظرنا إلى برنامج السهرة بقاعة بوبينو فلم يعجبنا، ثمّ دخلنا شارع الغرب Rue de l' Ouest وكنت أريد أن نتوقف قليلا أمام العمارة التي سأنتقل للسكن فيها عن قريب، لكننا لم نفعل. كان مجرد مرورنا أمام حانتين من حانات الجزائريين فرصة كي ينطلق لسان علي بالسباب والشتائم وشتّى التعليقات الخبيثة على تلك المقاهي وعلى المطاعم التونسيّة الصغيرة البائسة التي تعرض في واجهاتها كمّيات من الزلابية وحلويّات ذات مظهر يوحي بأنّها مصنوعة من التراب. كان يتوقّف من حين لحين وهو ينظر بطريقة استفزازيّة واضحة معلّقًا بصوت مسموع على التكادس الفوضوي للحلويّات في الواجهات الزجاجية، وطاولات الفورميكا ذات الهيئة البائسة، والجراسين الذين يتنقلون وهم يسحبون أرجلهم سحبًا داخل تلك المحلاّت الصغيرة في هيأة كسولة كما لو كانوا مريضين أو ضجرين حدّ القرف من الحياة برمّتها، ملفوفين في مناديل مبقّعة بالمرق والدهن كانت في يوم ما بيضاً: «أنظر هؤلاء الحمير!» بدأ عليّ يزعق بصوت مرتفع. بعد أن شبعنا من الشتائم والسباب والتعليقات الخبيثة والطريفة في آن واحد، عدنا أدراجنا باتجاه بولفار مونبارناس حيث

Twitter: @ketab_n

جلسنا بمقهى *Le Select* لمواصلة السهرة. طلب علي زجاجة شمبانيا أمام بهتتنا واستغرابنا جميعًا لعلمنا بغلاء هذا المشروب، وفي ذلك المحلّ بالذّات. لكنّ أحدًا لم يعترض أو يعلّق بشيء، ذلك أنّ هيأة علي داخل بذلته الجديدة كانت مبرّرًا كافيا على مايبدو لمثل هذا الترف. بل إنّ فطيمة أيضًا قد قبلت بقدح من الشمبانيا، هي التي لا تشرب في العادة غير الكولا وعصير الفواكه. فرنسواز وحدها كانت تبدو نهبًا لشيء من الحيرة والذهول وكثير من الانزعاج. لعلّها كانت تتساءل من أين لعلي تلك الأموال التي جعلته يتصرّف خلال هذه الأمسية مثل أمير خليجي هي التي تعرف أنّه عاطل عن العمل لما لا يقلّ عن ثلاث سنوات ولا يعيش إلاّ على منحة المساعدة الاجتماعيّة منذ أن أوقفت عنه جراية منحة العطالة منذ ما لا يقلّ عن سنة.

هل كان ذلك السلوك المبذر وحده هو مصدر ذهول فرنسواز وصمتها المتواصل خلال هذه السهرة حتّى غدت تبدو وهي تجلس واجمة بيننا شبيهة ببقعة من الظلّ داخل صورة مشعّة الألوان؟ بل إنّها لم تبد كثيرًا من الغبطة أو الانشراح حتّى عندما رفع عليّ كأسه نخب محكمة الشغل التي اعترفت له أخيرًا بحقه في منحة التعويض عن أضرار حادث الشغل التي ظلّ يطالب بها لما يزيد عن ثلاث سنوات، وقد ساهمت هي نفسها في تحرير العديد من رسائل الشكايات والاعتراض على الأحكام الأوّليّة الصادرة في تلك القضية! وبعد أن ارتشفت كأسها بملل كما لو كانت مرغمة على ذلك إرغامًا استأذنت بالانصراف لأنّ لها مواعيد عمل مهمّة وفي ساعة مبكّرة في يوم الغد. تململت فطيمة أيضًا كما لو كانت تهمّ بالنهوض هي الأخرى، وبدأت علامات التوتّر ترتسم على وجه عليّ. ولاحظنا ذلك جميعًا فأقنعناها بالبقاء وألحّت فرنسواز بالذات على ذلك الأمر قائلة لها إنه ليس هناك من مبرّر كي تقطع

Twitter: @ketab_n

سهرتها الآن وأنّ لديها على أيّة حال مفتاحها الخاصّ ويمكنها الدخول والخروج في أيّة ساعة من الليل والنهار.

اصطحبت فرنسواز إلى محطّة المترو، لا لأنّها في حاجة لتلك المرافقة في شارع حافل بالمارّة طوال الليل والنهار، بل لأنّني أردت أن أدع علي على انفراد مع فطيمة ولو لفترة وجيزة من الزمن. في طريقنا إلى محطّة المترو قالت لي فرنسواز إنّها لا تستطيع أن تفهم هذا السلوك الغريب لعليّ، عفويّته الصبيانية المبالغ فيها، تهوّره وعدم قدرته على التحكّم في ما في جيبه مؤكّدة لي أنّه سيعيش ليومين أو ثلاثة أيام مثل أمير ينفق خلالها كلّ المبلغ الذي حصل عليه بعد سنوات من الصراع والعناء، وبعدها سيجد نفسه مفلسًا من جديد لا يقدر حتّى على شراء علبة من السجائر، وإنّه رجل مهتزّ مثل مراهق، غير ناضج. مراهق، مراهق تتقاذفه الانفعالات وقد تودي به في يوم من الأيّام إلى أعمال طائشة وخطيرة.

تركتُ فرنسواز تفرغ شحنة هواجسها ومخاوفها وانتقاداتها، وأحيانًا كنت أحاول تهدئتها وطمأنتها بكلام عمومي مفاده أنّ علي أكثر فطنة مما تتصوّر، وأنّه وإن كان اندفاعيًا وفوضويًا فهو ذو فهم ثاقب وذكاء حادّ، لكن كلّ ما ينقصه هو علاقة تشدّه قليلا إلى الأرض، امرأة تملأ قليلا فراغات روحه وتسدّ عليه منافذ القلق والاضطراب.

ـ لكنّه لا يفعل شيئًا من أجل ذلك! قالت فرنسواز فجأة وبنبرة حادّة كما لو أنّ شيئًا قد قرصها في جوفها. ثمّ عدّلت قليلا من نبرتها ومن حدّة تلك الإجابة مضيفة: أعني أنّه لا يمكن أن تحصل له مثل هذه العلاقة وهو يعيش على هذا النمط الفوضويّ وهذه الوتيرة الجنونيّة.

Twitter: @ketab_n

ـ لكن، ماذا فعلتِ أنتِ كي تسهّلي عليه المرور إلى نمط ووتيرة آخرين؟

ـ أنا؟ ولِم أنا بالذّات؟ أنا..فعلت ما بوسعي، أنت تعرف ذلك، وعقبة كذلك.

ـ لا، أنا لا أعرف شيئًا... أم تراك تعنين زياراتك له، ونصائحك، وكتابة الرسائل الرسميّة؟

ـ وماذا تراني أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك؟ بل أضف أيضًا غسل ملابسه، وتنظيف وترتيب بيته بين الحين والآخر عندما تغدو الفوضى باعثة على الجنون.

ـ لكن ألا تشعرين بشيء آخر غير الرأفة تجاه عليّ؟ شيء آخر قد يجعلك أكثر نجاعة في مساعدته؟

ـ لا...لا أفهم ما الذي تقصده. عليّ أن أسرع الآن كي لا أفوّت القطار الأخير.

وهبطت الدرج مسرعة كما لو كانت تريد الهروب من شيء مخيف طلع لها من كلماتي الأخيرة.

عندما عدت إلى المقهى كان علي وفطيمة جالسين في صمت. يدخّنان وينظران إلى الشارع في شرود.

هل تخاصما؟ هل فاتحها عليّ بشيء؟

كانت فطيمة مرحة طوال العشاء. لكن خلال السهرة، وبالتحديد بعد خروجنا من السنما بدأ مزحها يخف شيئاً ما، لكنها لم تكن تبدي شيئًا من كآبة أو تجهّم. فقط كانت بين الحين والحين تسرح بعيدًا كما لو كان ذلك يحدث في غفلة منها. عندما تفاجئ نفسها متلبّسة بالشرود تلتفت

Twitter: @ketab_n

إلينا فجأة وتبتسم، كما لو كانت تعتذر بصمت. لكنّها الآن غدت كئيبة بوضوح.

ابتسمت فطيمة عندما دخلت. ابتسامة حزينة لها تضاريس ابتسامة مجاملة، أو اعتذار كما لو كانت هي التي عادت أخيراً بعد فترة من الغياب. أمّا علي فكان يبدو كما لو أنّه لم يلاحظ عودتي البتّة، يتلهّى بدفع كأسه على الطاولة يمينًا وشمالا مثل لاعب شطرنج يتردّد في تحريك بيدق على الرقعة، ينظر إلى الشارع في صمت وينفث الدخان دفعات متتالية من شقّ فمه. عندما وقع رماد السيجارة على جاكيته الأنيقة استيقظ من غفوته. نفض الرماد عن الجاكيت بحركة من إصبعه (الوسطى) ثمّ أطفأ السيجارة ونظر إليّ بنصف عين: ذهبت الراهبة؟ إنّها لا تجيد سوى تنغيص البهجة على الآخرين؟ هل هذه هي رسالة ديانتها؟ يابسة مثل الحطبة، جافّة ليس في جسمها كلّه قطرة واحدة من الدم... لا شيء غير كلام الإنجيل. مثل عقبة ذلك المتزمّت الآخر. كلكم هكذا. أنت أيضًا مثلهما في بعض الأحيان. هل حمّلكم الله وملائكته أو شياطينه بمهمّة نشر رسالة البؤس والكآبة على الأرض؟ لا تستطيع أن تفرح ولا تعرف سوى تنغيص فرح الناس. يا سيدي هي لديها مسيح قتله لها اليهود، أو صلب بسبب خطاياها، وأنا مالي؟ لا صُلب من أجلي أحد، ولا حملتْ خطاياي أحدا على الصليب؟

فطيمة صامتة. كما لو كانت تتهيّأ لاندلاع عاصفة باتت شبه متأكّدة.

ـ علي! يكفي من الهذيان الفارغ. من منّا يريد أن يحوّل بهجة السهرة إلى دمار؟ أنت تعرف فرنسواز، إنّها لا تستطيع السهر وقد فعلت ما بوسعها لمجاملتنا والبقاء معنا حتّى هذه الساعة. ماذا تريد منها أكثر؟ أمّا نحن فما زلنا معك، ومستعدّون فوق ذلك لمواصلة السهرة معك حتّى

Twitter: @ketab_n

نقع على وجوهنا من التعب، إن لم تعكّرها طبعا بمزاجك القاتم هذا. أليس كذلك يا فطيمة؟

- عليّ يحب يدابزْ. قالت فطيمة ولم تضف شيئًا.

- علي يحبّ يدابز؟ لا يا سيّدتي، علي يحبّ يفرح ويتمتّع بما تمنحه لنا الحياة، وهؤلاء لا يفوّتون فرصة كي ينغّصوا عليه فرحته. تلك الراهبة إنما ذهبت فقط كي تقول لي بصفة غير مباشرة: يكفي! إنّك تسرف في المرح! لا أكثر ولا أقلّ. أنا أعرفها أكثر منكما.

- طيب، وأنتما، هل تخاصمتما خلال غيابي؟ قلت ملتفتا إلى فطيمة.

- لا، قالت فطيمة.

- بلى! أجاب عليّ.

- حرام عليك ياعليّ. كيفاش تدابزْنا؟ هل قلت لك شيئًا؟

- بالضبط، لم تقولي شيئًا، فتخاصمنا بصمت. بل أنتِ التي تخاصمتِ معي بصمت، أمّا أنا فكنت طوال الوقت أنتظر منك كلمة..أن تقولي أيّ شيء، أن تغضبي، أو تستنكري أو تعلّقي بشيء. لكنّك لم تفعلي.

- شوف آ سيدي راهو باغي يدابزْ بأيّ ثمن! إذا قلنا شيء تخاصمنا معه، وإذا لم نقل شيئًا تخاصمنا معه أيضًا... آش نديرو معاه آ سيدي؟

- جرسون، شامبانيا رجاءً!

ثم التفت إلينا وابتسم: سنتراضى الآن. عندما نشرب شمبانيا لا نتخاصم. أليس كذلك يا فطيمة؟ سنشرب الآن نخب الذين لا يتخاصمون أبدًا، اللي ما يتدابزوش قاغ، ونخب الذين لا يقولون ماذا

Twitter: @ketab_n

يريدون، والذين يقولون ما لايريدون، والذين يريدون ما لايقولون، وكلّ الغامضين والمتردّدين والمتلكّئين وغير الواثقين من شيء. هكذا كي نغرق تردّدهم وتلكّؤهم وغموضهم في الشمبانيا، وسنرى مالذي سيحصل بعدها.

بعد أن أفرغنا زجاجة الشمبانيا الثانية تمشينا في بولفار مونبارناس ثم بولفار راسبايل حتّى سان جرمان. كان الهواء جميلا صافيًا ومنعشًا بعد يوم من الحرارة غير المعهودة والشوارع شبه خالية وصامتة، وكانت فطيمة تبدو كما لو أنها استعادت مرحها فانطلقت تغنّي بصوت عذب دقيق لكنّه مترع بشيء من الحزن الشفّاف؛ أغنية لإيديت بياف:

Non Jhonny, t' es pas un ange[١] ممدّة للحروف مرسلة صوتها في نبرة متوجّعة متخلّلة بنوع من التهكّم، أو التشفّي.

عندما بلغنا ساحة سان جيرمان وكنّا نهمّ بدخول أوّل بار وجدناه مفتوحًا في تلك الساعة قرّرت فطيمة العودة إلى البيت، وأصرّت أن تذهب وحدها.

أصرّت على العودة وحدها كي لا تحرمنا من مواصلة سهرتنا، وأصرّ علي بدوره على أن نرافقها لكنّها رفضت مدّعية أنّها فعلا بحاجة لتلك الرحلة الليليّة وحدها في سيّارة تاكسي كي تتمكّن من ترتيب بعض الأشياء في ذهنها، ورجتنا بمودّة أن نتيح لها مثل تلك الفرصة النادرة.

وافقنا.

ـ هل فاتحتها في شيء؟ سألت عليّ متلهفًا لمجرّد أن وجدنا نفسنا وحدنا.

---

(١) كلاّ، لستَ ملاكا يا جوني.

Twitter: @ketab_n

ـ لم أستطع. قال بشيء من الامتعاض والمرارة.

ـ لقد أطلت الحديث مع فرنسواز عمدا كي أترك لك فرصة للاختلاء بفطيمة. لماذا لم تفعل؟

ـ لمّحت لها بأشياء، أردت أن أقول لها إنّني أشعر بسعادة غير معهودة منذ تعرّفت عليها، وقلت لها إنّني بدأت افكّر في العودة إلى العمل وتهيئة نفسي للاستقرار، وأنّ شيئًا ما بدأ يملأ حياتي بمعنى جديد. لكنّني لم أستطع أن أمضي أكثر من هذا الحدّ. أردت أن أفتح لها مجالا كي تعبّر هي أيضًا عن شيء ما قد يكون مشجّعًا. لكنّها ظلّت مغلقة، ولم تردّ على كلامي إلاّ بكلمات غامضة وعموميّة من نوع: الحياة تستأهل أن يفعل المرء شيئًا من حين لآخر لجعلها مستساغة وأكثر بهجة، ومن لا يفعل ذلك فهو ليس جديرًا بها... ثمّ صمتت وانغلقت من جديد وبقينا على تلك الحالة التي وجدتنا عليها عندما عدت إلى المقهى. صحيح أنّني لم أكن واضحًا بما فيه الكفاية، لكنّها ذكيّة وحسّاسة بما فيه الكفاية كي يمكنها أن تدرك الفحوى الخفيّ لكلامي، أليس كذلك؟

الحياة تستأهل! إيه طيّب، وبعد؟ الحياة! الحياة! كلام فارغ لواحد يريد أن يستهزئ، أو يراوغ، أو لا أدري ماذا! وإلاّ فما معنى الحياة تستأهل؟ أيّة حياة؟ ألست أنا الذي أستأهل؟ أليست هي التي تستأهل؟ لماذا هذا الكلام الفضفاض عن الحياة؟ فلتذهب إلى الجحيم إذن!

ـ لكنك تحبها وتريدها، أليس كذلك؟

ـ لا أدري.

ـ كيف لا تدري؟ .ألم تكن طوال النهار تهذي بحبك لها؟ ألم تكن مقرا العزم على مفاتحتها وطلب يدها دفعة واحدة؟

Twitter: @ketab_n

ـ يا أخي قلت لك لا أدري، يعني لا أدري. هل هذه أيضاً مشكلة ستجعل لي منها جدالا فلسفيا؟

ـ

*

بعد يومين وجدت علي جالسا وحيدًا في المقهى المحاذي لبيته. كان متوتّرًا وحزينا حزنا ثقيلا. لاحظت احمرار عينيه وتورّما طفيفًا. هل كان يبكي؟

ـ ما لك، علي؟

ـ لا شيء.

ثمّ صمت لبضع دقائق.

الجوّ ثقيل من حولنا. البار خال من الحرفاء سوى واحد كان يلعب الفليبّر ويحدث بتلك الآلة الالكترونيّة طقطقات حادّة تدقّ صمت عليّ مثل المطرقة...

فجأة وضع رأسه بين كفّيه وشهق بالبكاء مردّدا بين الشهقات والغصص: فطيمة.. فطيمة...

ـ ما لها؟ ما الذي حدث لها؟

ـ سافرت.

ـ متى؟ وإلى أين؟

ـ إلى أين؟ إلى أين؟ إلى الجزائر. قرّرت فجأة أن تعود إلى هناك. أصرّت على أن لا يرافقها أحد إلى المطار، ولا حتّى فرنسواز. قالت إنّها تكره طقوس الوداع. هذه رسالة تركتها لنا عند فرنسواز.

العزيزان عين وعين،

Twitter: @ketab_n

معذرة عن هذا الرحيل المفاجئ. لقد فكّرت في الأمر مليًا خلال الأيّام الأخيرة ووجدت أنّه من الأفضل لي أن أعود إلى الجزائر كي لا أضيع سنة أو سنتين في انتظار أن يتمّ قبولي بالجامعة هنا. المسألة معقّدة أكثر ممّا كنت أعتقد. إنّه الحلّ الأكثر أمانًا. لست مغامرة بما فيه الكفاية، ولا أنا شجاعة. أرجو أن تتفهّما هذا الرحيل المفاجئ. خفت أن أتردّد إن فاتحتكما في الأمر وناقشناه معًا، أو أن ترتخي صرامة قراري أمام ما تحدثه طقوس الوداع من ضعف.

تحيأتي وقبلاتي، وشكرا على الأوقات الممتعة التي قضّيتها معكما.

فطيمة

Twitter: @ketab_n

كل شيء في الماء؟

من وراء زجاج الواجهة الذي كان مبرقعا ببقايا قطرات المطر التي كفت عن النزول قبل بضع دقائق، كانت ملامحه غائمة، فقط شارباه الكثان يبرزان مقطّعيْن لكنهما ثابتان مثل لمسة فرشاة فوق لوحة لم تخرج بعد من تحت الخلفية الرمادية التي وضعها الرسام. نط كعادته وهو يراني ألج عتبة المقهى، لكن شيئاً في تقاسيم وجهه، كما في هيأته وتقوّس كتفيه، كان يدل على أن المولدي اليوم، وعلى غير عادته، يبدو مثقلا بشيء ما يجعله أقل خفة ومرحا.

- مولدي، شبيك خويا ماكش قدّ بغضك اليوم؟

- لا، حتى شي. سرحت شوية، لا أكثر ولا أقل.

- وين؟ في البر، أم في البحر؟

- تريد الحقيقة؟ لا في البر ولا في البحر، في شيء كأنه بينهما.

باريس لم تعد باريس، يقول متأفّفًا. مرّة يتذمّر من تفاهة الفرنسيّين القادمين على باريس من الآفاق، ومرّة يشتم المظهر الكريه للمهاجرين الأجانب «المتسلّلين بين الأزقّة الخربة بهيأة كلاب مشردة». يشتم البورجوازيّة الأروبيّة التي حوّلت المدن بجشعها وتكالبها على مراكمة فائض القيمة إلى مقابر للأحياء وغابات إسمنت بلا روح. يدعك ويدوس بقدميه نظريّات ريكاردو وآدم سميث وكاينز ويمرّغ مقولات

Twitter: @ketab_n

رايمون آرون وجون فوراستييه عن التقدم والرفاه في الأوحال. ثم يصمت طويلا. فواصل صمت لم أعهدها في لقاءاتي به سابقا. - في البحر يذهب يقينك إلى الجحيم، قال لي، كما لو كان يخاطب نفسه في الحقيقة وهو ينظر بعيدًا عبر زجاج النافذة، أبعد من الطرف الآخر لساحة السوربون، أبعد من البناية المقابلة، أبعد من سان ميشال ومن الطرف الأقصى لباريس. يكذب من يدّعي أنه رأى شيئًا في عرض البحر. ليس هناك سوى هوّة سوداء لا نهاية لها. هناك الشكّ. الشكّ وحده. في البحر لا سند لك. هناك من يذهب في رحلة بحريّة طويلة ليفكّر، أو ليكتب! قد يكون. أمّا أنا فقد كنت كتلة من الفراغ. لم أستطع أن أفكّر في شيء. حاولت مرّات عديدة، لكنّني كنت أرتطم دومًا بذلك الفراغ الأسود. في البحر ليست هناك أفكار. لا أرض ولا سماء. جلست مرّات على الجسر ليلا وشرعت أحاول عدّ النجوم. هل يمكن عدّ النجوم؟ وأسماك البحر؟ قالوا لنا إنّنا نعبر المحيط الهندي. لم يكن ذلك ليعني ليّ أيّ شيء. يبدو أنّني نسيت حتّى الجغرافيا. هناك الماء؛ ماء. ماء. ماء... حتّى تنسى أنّه ماء. ننزوي إلى الحجرات السفليّة، نلعب الورق ونسكر ونهذي ونتخاصم، لكنّنا كنّا كلاً بمفرده. هناك طبعًا شيء من التقارب شبيه بنوع من الودّ في بعض الأحيان، نوع من التواطؤ فقط. تواطؤ على كذبة مشتركة نحاول جميعًا أن نصدّقها؛ أن نصدّق بأنّ الباخرة تتحرّك وأنّ السرعة شيء موجود بالفعل، وأنّها ذات معنى وهدف: أنّنا سنصل. لا بدّ أن يغدو الوصول شيئًا شبيهًا بإيمان أعمى - إيمان عجائز لا شيء يبرّره غير الإيمان؛ لأنّ آخرين، هنا، الآن، وأمس، ومنذ مئات آلاف السنين ما انفكّوا يركبون البحر ثمّ يصلون. لكنّهم جميعا يعلمون أنّ هناك سندبادًا واحدًا هو الذي ينجو دومًا من الهلاك عندما ينقلب البحر على راكبيه. وكلّ من ركب البحر يحلم أنّه

Twitter: @ketab_n

هو ذلك السندباد. الأنانيّة قابعة في الظلّ، لكنّها تطهى على نار هادئة. في البحر هناك الوحدة المطلقة. عندما رسَوْنا في بومباي وغادرنا الباخرة لبضع ساعات بدا لي كأنّني قادم إلى كوكب غريب تتحرّك فوقه كائنات لا تذكّرني بشيء. بعد الكأس الثالثة أو الرابعة بدأت أدرك أنّ تلك الفتيات المزقزقات من حولنا: *Hallo Sir! Do you need something Sir!* كنَّ يعرضن علينا أن نمزح معهنّ ونداعبهنّ ونجلسهنّ في حجرنا. يتحرّك الإدراك، وكذلك الرغبات في الداخل مثل انسراب الحرارة في جسم قادم من الصقيع. في بومباي تذكّرت باريس لأوّل مرّة، لكنّها بدت لي بعيدة في الزمن. قرونًا عديدة إلى الوراء. في بومباي ضحكت من باريس ومن كلّ أعمالي الطائشة. تهاوت كلّ يقينيّاتي وثوابتي القديمة، بل يبدو أنني هناك قد تفطنت إلى فقدانها كما لو أنها وقعت منّي في مياه المحيط في غفلة مني. في بومباي انتبهت لذلك. شعرت بشيء من الذعر في البداية.

عندما تعود إلى الأرض بعد رحلة طويلة في فراغ المحيط تكون فعلا قد اغتسلت. هكذا شعرت بنفسي وأنا أدخل باريس بعد رحلتي هذه: صافي الذهن، لكني غريب عن كل الأشياء من حولي. كلّ الأشياء بدت لي كما لو أنّها هي الخارجة للتوّ من تحت الماء، لكنه ماء فيضانات، موحل كدِر، أو كأنّها خلقت للتو، قبل لحظات قليلة ولم تجد بعد وقتًا لكي تتشكل في هيئات ثابتة وواضحة. أحيانا أشعر بها ثقيلة، ممتلئة حدّ الانفجار، مشحونة بكثير من الزوائد وأشياء لا لزوم لها. يبدو لك أنّك تعرف هذه المدينة ولا تعرفها؛ أليفة لديك وغريبة في نفس الوقت. جديدة وكدرة في الآن نفسه. إمّا أن تعدّل رأسك ومشاعرك عليها، أو أن تدخل في مصادمة معها، تحاول تعديلها على فراغك الداخليّ، تغسلها، تفركها، تلمّعها. هكذا وجدتني أسير في الشوارع

Twitter: @ketab_n

وأرى إلى حياتي الماضية مثل لباس قديم نسيته هنا منذ عدّة سنوات؛ باهت، مدعوك، عطن. لم يعد يتّسع لي. كأنّني انتفخت في المياه فلم تعد المدينة تتّسع لي.

في البحر ألقيت بكلّ قناعاتي القديمة. اغتسلت. والآن؟ ما العمل الآن؟ ذلك ما كنت أفكر فيه عند قدومك.

*

وراء الرجل الذي ولج قاعة الاستقبال كان جسد فتاة يتبعه كما لو كان يتسلل متخفّيًا بجسده. أكيد أنّها واحدة جديدة، لأنّ اللاتي نعرفهنّ ويعرفننا يدخلن هنّ أيضًا متسللات وراء حرفائهنّ، لكنّهن يملن عادة برؤوسهنّ من وراء الحريف ويحيّين بإشارة أو حركة ما. تلك هي الطريقة المتّفق عليها بغية التستّر. لكنّ هذه لم تطلّ برأسها ولم تومئ. إنّها بالتأكيد واحدة جديدة. عندما رفعت رأسي عن دفتر التسجيل بعد أن تثبتّ في المربّعات الخاوية التي تشير إلى الغرف الشاغرة، رأيتها تنسحب باتّجاه الباب من وراء ظهر حريفها، ثمّ فتحت الباب وانزلقت إلى الخارج كالفارّ من شيء مفزع. أظنّ أنّني عرفتها بالرغم من أنّني لم أجد وقتا كافيًا للنظر إلى وجهها. قفزت خارجا وراءها وتركت ذلك الرجل الغريب يقف مندهشًا لا يدري ما الذي كان يجري من حوله. لا بأس، فليندهشْ أو ليذهب إلى الجحيم، فقد تسلمت منه أجرة الغرفة ولن ينصرف الآن. رأيتها وقد ابتعدت حوالي عشرة أمتار، تسير بخطى حثيثة، تكاد تركض؛ هاربة فعلا! ناديتها: جوزيفين! جوزيفين! وركضت وراءها. أمسكت بها من ذراعها فالتفتت دون أن تتوقّف: دعني. ماذا تريد منّي؟ هل تعرفني؟

ـ جوزيفين، كفّي عن هذه البلادة وعودي حالاً، الرجل ينتظرك. لن

Twitter: @ketab_n

أدعك تذهبين. أنت تعملين، وأنا أيضًا أعمل، وكلّ منّا حرّ في ما يفعل بحياته. عودي إذن، إنّه ينتظرك. ثمّ تركت يدها وعدت إلى الفندق مسرعًا.

بعد أقلّ من ربع ساعة نزل الرجل وحده من المصعد الكهربائي وغادر محيّيًا بشيء من الارتباك والحرج مثل أغلب الذين يأتون مع المومسات. ربع ساعة كانت بالنسبة لي أكثر من خمس ساعات من الانتظار. لم أكن قادرًا على الجلوس، أذرع قاعة الاستقبال بعصبيّة. إنّها هي! جوزيفين أصبحت محترفة. ضحكت عليّ وعادت إلى رشيد بعد اختفائها من بيت فرنسواز؟ كانت فرنسواز على حقّ إذن! ثبتت صحة تحليلها. المهمّ أنها ضحكت عليّ، العاهرة!

سمعت خطوات تنزل الدرج. عدت إلى مقعدي وراء مبسط الاستقبال وتظاهرت بتصفّح جريدة.

ـ تريد أن تعمل؟ وأن تكسب من وراء قحبي؟ خذ!

رمت بورقة الخمسين فرنكا على وجهي تقريبًا وخرجت ترفس أرضيّة القاعة بكعبي نعلها بعنف. ارتعشت، اضطربت، هممت بالوقوف والخروج وراءها، لكن رجليّ لم تستجيبا. ركلت ورقة الخمسين فرنكًا بقدمي، نهضت، تمشّيت بعصبيّة جيئة وذهابًا داخل بهو الاستقبال، دخّنت، فتحت زجاجة بيرّة، وواحدة ثانية، ثمّ التقطت الورقة النقديّة، وضعتها في جيبي وعدت إلى الجلوس.

بعد يومين، وفي حوالي منتصف الليل دخلتْ. لكنها وحدها هذه المرّة. وقفت أمام المبسط وفتحت حقيبتها لتخرج منها زجاجة شمبانيا.

ـ معذرة عن سلوكي المجنون أوّل أمس. ثمّ مدّت يدها لمصافحتي. مددت يدي بحركة آليّة، وكان شيء ما ينتفض في صدري والدم يصعد

Twitter: @ketab_n

الآن بغزارة وسرعة إلى رأسي، أشعر بحرارة تغمرني وشيء من اصطكاك في الركبتين.

- جوزيفين!

- هل تسمح لي أن أجلس قليلا؟

أشرت إلى المطبخ.

- ضع الزجاجة في الثلاّجة، قالت وهي تسحب كرسيًا وتجلس.

كأنني ما زلت لم أصدّق. بقينا صامتين بضع دقائق. وجدنا مهربا في إشعال سيجارتين، ورحنا نسحب الأنفاس بصمت. ثم غدا الصمت أكثر من ثقيل. شيء محرج. كنت أتعثر في تخميناتي باحثا عن شيء يمكن أن يقال في مثل تلك اللحظة، ولم أجد شيئا.

- عادل! نطقت جوزيفين أخيراً وهي تسحق نصف سيجارتها في المنفضة وعيناها مركزتان على حركة إصبعيها وهما يبالغان في سحق ما لم يعد يتطلب أيّ سحق. أريد أن أشرح لك المسألة في كلمتين. كان عليّ أن أختار بين الخراء والكافيار كما قالت لي تلك العاهرة، أتتذكّر؟ اخترت الكافيار مع قليل من الخراء من حين لآخر. هذا كلّ ما في الأمر. لقد كنت فعلا لطيفًا وودودًا، لكنني لم أستطع ... كيف أفسّر لك ذلك؟ كنت أعاف نفسي في ذلك الحين، شيء شبيه بالقرف من نفسي هو الذي دفعني إلى الهروب. أردت أن أجد طريقي، غادرت باريس إلى سترازبورغ، ثمّ إلى ليل، ليون، تولوز، نيس. رحلة طويلة بالأتوستوب تعلّمت خلالها أنّني لن أحصل على شيء دون أن أقدّم جسدي مقابلا لذلك. سائقو الشاحنات الذين يلتقطونني في الطريق يعرفون جيّدًا الفتيات اللاتي في مثل وضعي، لا مال، لا بيت، لا أكل. قانون اللعبة واضح. حيثما ذهبت ارتطمت بالقانون نفسه، اللعبة ذاتها. أخيرًا قلت

Twitter: @ketab_n

لنفسي بما أنّ الأمر هكذا، فلأشتغلْ إذن وأكسب المال من ذلك بدلا من أن أظلّ أمنح جسدي مقابل رحلة على متن شاحنة وعشاء في مطعم من مطاعم الطريق السريعة. عدت إلى باريس. عدت إلى رشيد، لأنّه لا يمكن لفتاة أن تقف في الشارع وتعمل هكذا لحسابها الخاصّ، كما لو أنّ الشوارع والدنيا ملك مشاع لها. هذه هي كلّ القصّة. أرجو أن تتفهّمني، وحتّى إن كنت تحتقرني أن تغفر لي.

فتحنا زجاجة الشمبانيا لنختم بها على المصالحة، أو على توضيح علاقتنا بما كانت جوزيفين تعتقد أنّه كاف لتوضيحها. ثمّ رجتني أن أتفهّم موقفها إن هي لم تعد إلى الفندق مرّة أخرى، ربما تأتي كزائرة من حين لآخر، لكن كمومس أبدًا. هناك فنادق أخرى عديدة، لا أريد أن أشعر بالحرج في كلّ مرّة أدخل فيها أمامك مع حريف، كما لا أريد أن يدخل جيبك شيء من مردود عملي بهذه الطريقة الفجة. مع أنك فعلتَ معي في المرة الماضية مثل ما فعله معي رشيد في البداية. لا تنس ذلك.

قالت إنّها تحاول أن تجمع مبلغا كافيا من المال كي تشتري في يوم ما مقهى أو مطعمًا أوتفتح دكّانا في مكان ما وتنقطع نهائيًا عن هذا العمل. نفس الكلام الذي سمعته من مومسات أخريات كثيرات، بعضهن يرددنه منذ عشرين سنة وأكثر. حكت عن مشاريع كثيرة تتزاحم في رأسها أغلبها ممّا يمكن اعتباره مجرّد أحلام وخيالات كانت تشغل بها فكرها وتؤثّث بها أفق المستقبل، وربما لكي تجعل حياتها الحاليّة أقلّ مرارة وأكثر قابليّة للتحمّل. قالت وهي تمازحني: عندما يصبح لدي ما يكفي من المال سأغدو شريفة، وعندها يمكننا أن نتزوّج. هل تقبل بالزواج من واحدة قضت سنوات في ممارسة العهر. لا أعني العهر العادي الذي تمارسه كلّ النساء، بل مومسًا محترفة؟ هل تستطيع ذلك؟

Twitter: @ketab_n

لا أدري كيف انفلتت كلّ مشاعري المكبوتة دفعة واحدة مثل كيس انفتح فجأة وانفرت محتواه. يبدو أنّني تحوّلت فجأة إلى قدّيس مشبع بالشفقة والرحمة والتسامح، ومشاعر أخرى غامضة لزجة من نوع: من لم يخطئ منكم فليرمها بحجر! ولأنّني غالبًا ما كنت أخلط بين صفات التقدّمي ودور المخلّص، كدت أرتمي في أحضانها، أذرف أنا، لا هي، دموع التوبة وأقسم لها أيمان الوفاء. ولعلّني كنت على وشك أن أطلب يدها في تلك اللحظة لولا أنّها لم تعد إلى شيء من الجدّ وهي تقول لي: عادل، هذه كلّها خرافات، يمكن أن تكون موضوعًا لفلم عاطفيّ مثاليّ رقيق ولطيف، لكنّ الحياة ليست هكذا. إنسَ إذن هذا المزاح أرجوك. أنت أمامك الحياة بكلّيتها، أمّا أنا فقط دعكت جزءاً غير قليل من حياتي، ومهما فعلت لن أعيد البريق إلى ذلك الجزء، وخاصّة أمام واحد مثلك.

عندما تعانقنا طويلا وهي تودّعني عرفت أنّها لن تعود ثانية.

لا أظنّ أنّني كنت أحبّ جوزيفين. وكنت مع ذلك أحبّها. يعني أنني في تلك اللحظة كنت أحبّها، وكنت مقتنعًا أنّني لم أكن أحبّ غيرها طوال السنوات الأربع التي غابت عني خلالها. نسيت من أجلها آن ماري، جريت مثل الكلب عبر شوارع باريس كلّها متشمّمًا رائحتها في محطّات المترو، في الحدائق، في محطّات الأرتال، في المقاهي والبارات. نسيت أنّ آن ماري انفصلت عنّي، أو فصلتني عنها، وكذلك بريجيت، وجميلة الجزائريّة التي غدت تمازحني بلقب القدّيس عادل. نسيت مشاكل السكن والنوم في مدارج العمارات والسهر ليلا في محطّات المترو مع الكلوشارات تفاديًا للبرد. لم يكن في رأسي غيرها هي. جوزيفين كانت فرصتي على ما يبدو، فرصتي الأولى والأخيرة لإتيان عمل يستحقّ الذكر ـ هكذا بدا لنفسي العقيمة آنذاك ـ ؛ نوع من

Twitter: @ketab_n

التحدّي كنت بحاجة إليه. تحدّي ماذا؟ ومن؟ لا أدري. لعلّه رشيد، أعني ضربة الرأس، أو لعلها تلك الجملة الكريهة «لا تشرد هكذا مثل العجل ياضايع، يا خامل، يا بارد». كان عليّ ديْن قديم لنفسي لم أسدّده بعد. وكانت جوزيفين، جوزيفين وحدها، لا الثورة ولا الدراسة ولا أيّ شيء آخر، جوزيفين هي فرصتي لتسديد ذلك الدّيْن. كيف أقبل بهذه الهزيمة إذن؟ لا بدّ من فعلة كبيرة، دراميّة، شبه بطوليّة، مجنونة خرقاء. لكن ماذا؟ وكيف؟

*

Twitter: @ketab_n

ضربة رأس!

عندما دخلت حانة موغادور وأنا في شبه غيبوبة تقريبًا، وأمسكت بها من ذراعها ودفعتها باتّجاه الباب ثمّ حشرتها غصبًا داخل سيّارة التاكسي التي كانت تنتظر، لم أكن أفكّر في شيء في تلك اللحظة. كانت هناك آلة خفيّة قد انطلقت في الاشتغال بصفة دقيقة منظّمة منذ حوالي ساعتين؛ منذ هاتفت أحد أصدقائي توسلت إليه أن يأتي حالا ليعوّضني في الفندق لساعتين أو ثلاث ساعات بسبب شأن مهمّ جدًّا يتطلّب منّي الخروج، ثمّ الطريقة التي مشّطت بها كلّ الشوارع والأزقّة المجاورة للفندق من بولفار هوسّمان مرورًا بشارع لافايات حتّى محطّة سان لازار؛ طريقة منهجيّة دقيقة لا تترك سوى مجال ضيّق جدًّا لاحتمال تفويت رؤية الشخص الذي نبحث عنه. كلّ ذلك دون تفكير منظّم بوعي. كلّ شيء كان يحدث أو يتدفّق من داخلي بطريقة لا واعية، كما لو كنت في غيبوبة. لأنّني لو كنت واعيًا حقا وفكّرت لعُشر ثانية فقط لما تجرّأت على مثل تلك الفعلة الخرقاء التي لم أكن أملك لها ما يكفي لا من القوّة الجسديّة ولا من الحنكة والتمرّس في مثل هذه الأعمال، ولا حتّى الشجاعة الكافية في الحقيقة. لو أنّني فكّرت لعُشر ثانية فقط لما تجرّأت حتّى على مجرّد دخول مثل ذلك البار الذي يعجّ بأرهاط من القوّادين والمجرمين واللصوص ومروّجي المخدّرات. لكنّ لاوعيي هو الذي تسلّم مقاليد الأمور. غصّة قديمة متكوّرة في الحلق منذ سنوات

Twitter: @ketab_n

عديدة هي التي أرادت أن تقذف بمرارتها المترسّبة عميقًا في حركة بطوليّة تحاكي في تهوّرها وإرادة العنف التي تعتمل فيها عنف رشيد بوراس وأمثاله؛ تحاكيها وتنشد مناطحتها وتحدّيها.

ـ ابق مكانك! لا شيء هناك. إنّه من عائلتي، لا شيء، سأعود بعد قليل، قالت جوزيفين لاوية عنقها إلى الوراء باتّجاه الأشخاص الذين تململوا، أو اندفعوا مسرعين وراءنا بينما أنا أدفعها بعنف باتّجاه سيّارة التاكسي الواقفة أمام الباب مباشرة. لم أر بوضوح ما الذي حصل بالضبط، لكنني أذكر بعض الوجوه التي لمحتها بسرعة عند دخولي البار؛ وجوهاً أعرفها كلّها تقريبًا لمروري يوميّا أمام ذلك المحلّ في طريقي إلى الفندق؛ وجوه قاسية الملامح، بعيون متورّمة حمر على الدوام، رؤوس ضخمة وأذرع غليظة مزوّقة بحرث من الأوشام: ثعابين ومخاطيف مراسي سفن وسلاسل وسهام تخترق قلوبًا. أذكر أنّ تململا حدث ورائي، وأنني سمعت صوتًا غليظًا عنيفًا وراء ظهري. ولا أذكر شيئًا آخر. بعد أن اصطفق الباب وتحرّكت سيّارة التاكسي شعرت بحرارة غريبة تخترق جسمي كلّه واصطكاك في الركبتين.

بعد أول منعرج أخذته سيارة التاكسي طلبت جوزيفين من السائق أن يتوقف ففعل. انسحبتْ إلى الوراء وهي تضع إصبعها على صدري: لا تفعلها ثانية! هذه المرة أنقذت مؤخّرتك من أصدقائي الذين لا يتحمّلون مثل هذا المزاح البليد وهذه المسرحيّة الركيكة وعديمة الذوق التي قمت بها الآن. في المرة القادمة سيكون عليك أن تتدبر أمرك بنفسك. ثم فتحت الباب ونزلت.

والتاكسي على أهبة الانطلاق ضربت جوزيفين على زجاج النافذة. أنزلت الزجاج. كلمة أخيرة: أتدري أنك ستظل في عيني كما كنت دائما

Twitter: @ketab_n

طالبا مهذبا ولطيفا، لكن ليس أكثر؟ لتظل إذن كما أنت ولتدع عنك هذا الغرور الذي ليس على مقاسك.

انطلقت سيارة التاكسي، وأنا متكور على نفسي في المقعد الخلفي مثل قط مبلل يرتجف بردا.

مالذي كانت تعنيه بقولها إنني سأظل في عينيها طالبًا مهذبًا ولطيفًا؟ لماذا أصرت على تقول لي هذه الكلمة الأخيرة؟ «...لكن ليس أكثر». ليس أكثر! أية رسالة كانت تريد أن تبلغها لي؟

أتعني بذلك: أقلّ من الرجل الذي تريده أو تتصوره لنفسها؟ طفل خجول قابع في ظل هذا الأب أو ذاك من كل هؤلاء الذين يعرضون أنفسهم عليّ أولياءَ نعمة، حماةً، مربّين: العرفاوي، علي، رفاق التنظيم الذين يرومون تربيتي جَلدًا بحصص النقد والنقد الذاتي، آن ماري التي سعت هي أيضاً بطريقتها الساخرة المستفزة إلى أن تجعل مني الثوري الفوضوي الذي كانت تتمنى أن أصيره (شنطتي قرب الباب: «عفوا! لقد عاد صديقي اليوم من هولندا بعد غياب طويل... ـ أهه!»)، جميلة الجزائرية: راكْ باش تولّي ببّاص آ سي عاديل! ـ «حشّام؟ مد يدك مع الناس يا ولد بلادي»، يقول لي العرفاوي وهو يدفع بي إلى حلبة المنافسة الساخنة من أجل الإناث. لم أمدّ يدي كما كانوا يفعلون. لم أرفع صوتي وأضرب بعنف على الطاولة. كنت مثل القط الذي يلتقط طعامه مما يقع تحت مائدة الخوان الباذخ، أو يختطف شيئاً ويفر. كان عليّ أن أنتزع حصتي مواجهةً، صدامًا ولم أفعل. لذلك عافتني جوزيفين؟ وبحاسّة أنثى أدركتْ اليوم أن هجومي المفتعل لم يكن سوى حركة مسرحية بائسة، حركة قطّ وليست هجمة أسد.

هذه خبطة رأس ليس مثلها خبطة. ها أنا أعود إلى نقطة البدء، وأنا

Twitter: @ketab_n

لم أسدد بعد ذلك الدين الذي عليّ لنفسي: المبيت الداخلي، الأب الزاجر، العاتب دوما، الساحق باعتداده بنفسه وبنفسه فقط، لسانه الذي لا يرحم؛ الطفل الذي كان يفعل كل ما بوسعه لينال رضاه، يقتلع منه كلمة ثناء، اعترافًا ما، مرةً واحدةً فقط، بأنه يفعل ما بوسعه لكي يكون كما يريده كبشًا ذكرًا حارًا، لا نعجة بين النّعاج. لا الكدمات الزرق تحت العين، ولا الخدوش الأبدية على الرقبة وفوق الجبين، نياشيني الوحيدة التي أخرج بها من جل معاركي، لا شهادة السيزيام، ولا الباكالوريا، ولا دخول الجامعة، ولا الانخراط في أعمال النضال الطلابي والارتماء في أحضان عمل محفوف بالمخاطر، لا مغامرة الهجرة، مواجهة المجهول، النوم في الشوارع والحدائق العمومية، السرقة من المحلات التجارية، العمل في المصانع ومحطات شحن البضائع وفي المطابخ، لا الأفكار الثورية الجديدة الملعلعة في سماء باريس، ولا النقاشات الساخنة ومجادلة أساتذة جامعة السوربون في مسائل نظرية معقدة، لا عربدة بارات سان دني والخصومات المتكررة مع أرهاط من سفلة الرعاع الفرنسيين، لا شيء من كل هذا استطاع أن يلوح لي ببارقة نجاح في تسديد ذلك الديْن القديم. جوزيفين كانت فرصتي الأولى الحقيقية، وربما الأخيرة لتحقيق ذلك؛ جوزيفين التي خسرتها في أول مبارزة صامتة وخفية مع رشيد بوراس.

ضربة رأس أقوى من تلك التي لطختني بها قبل حوالي عشر سنوات يا رشيد يا ابن القحبة!

Twitter: @ketab_n

بداية العدّ التنازلي

انقطعت لعدة أشهر عن الذهاب إلى سان دني. لم يكن ذلك بسبب انشغالي بالحيّ الجامعي وجدالاته هذه المرة، فقد شرع حماسي لتلك المجالس في التراخي منذ ما لا يقلّ عن سنة أو أكثر. كنت في مكان عميق من نفسي أستعيد كلام علي وسخريته من هرج أوساط الطلاب والمناضلين السياسيّين. هنالك شخص خفيّ قابع في داخلي كان يقلّب في السرّ تلك الجدالات التي كانت تحدث بيننا، وفي السرّ يستعيد تلك المواجهات، لكن بشيء من الهدوء. أنا أعرف أنّني أميل بالفطرة إلى مناوشات علي وأحبّ الطابع الساخر والمستهتر لكلّ آرائه، وذلك النمط من العيش والسهرات الصاخبة والمزاحات الداعرة، ونساء بارات سان دني الشعبيّة. فقط وعيي هو الذي يظلّ يمانع ويواجه، أو يكابر، لكن حالما أنسحب وأبتعد عنه تشرع كلماته في الاشتغال في داخلي بصمت، ولا أشعر بعد مدّة إلاّ ببعض تأثيراتها الخفيّة، محتشمة في البداية في شكل تبرّم من الجدالات الفوقيّة وكثرة اللغط الأديولوجي النظري الجافّ؛ أفكار وأحاديث بلا لحم ولا دم، مثل صوارٍ من البخار منتصبة في خلاء لا يعمّره الأحياء. أفكار بطعم الكاغذ، علاوة على كونها تفتقر إلى جانب ذلك إلى أسس فلسفيّة عميقة ترفدها. بدأت أشعر بالملل من عمليّات تقشير الكتب الأديولوجيّة وانحباس تفكيرنا داخل ذلك الأفق الضيّق الذي جعلنا نسخر من كلّ الكتب والأفكار التي لا تباركها

Twitter: @ketab_n

الأديولوجيا الماركسية، بل الماركسيّة اللينينيّة، بل الماوية حصرًا بالنسبة للبعض، والتروتسكيّة بالنسبة للبعض الآخر. نستهزئ بالمجلات العلميّة والدراسات الفلسفيّة والأدبيّة، نسخر من الفنّ، ومن الأساتذة الذين لا يشاركوننا الانحباس داخل المجال الضيّق لمنهجنا ورؤيتنا. ذات يوم نظرت حولي فإذا شيء شبيه بالخراب يحيط بي. خرابات متداعية بدت كلّ تلك الكتب التي قرأتها قبل عشر سنوات وأكثر بلهفة وشغف: رأيتني وأنا أتذكر ذلك الكم الهائل من المؤلفات التي أصبحت تمثل لدينا أكواما من «الهذر البرجوازي» و«الفكر الرجعي»، كما لو كنت أمشي داخل مقبرة، بل لعلّي أنا المقبرة وأنا التائه في خلاء صنعْته لنفسي. لم أكن بالرغم من ذلك قد انتهيت إلى قناعة واضحة وثابتة بأنّني قد توغلت بعيدا في الخطأ. لكنّ قلقًا ما قد انبثق في داخلي مثل وخز الإبر. قلق وشيء من الخوف بدا طالعًا لي من تلك الخرابات المتكادسة من حولي. شكّ ما زال يعتمل بتردّد واحتشام، لكنّني أحس بتسرّبه ببطء ووثوق إلى كلّ كياني. عدت إلى قراءة بعض الكتب الأدبيّة غير تلك التي كانت تباركها لنا الأيديولوجيا. في نوع من السريّة كانت البداية، وبشعور مزيج من اللذّة والخوف كمن يقدم على فعلة شائنة، أو أيّ تجاوز مربك.

عاودتني رغبتي التي نسيتها منذ سنوات في الكتابة. كتابة نصّ أدبيّ ما. قصّة قصيرة، أو رواية! فجأة اكتشفت أنّ لديّ موضوعًا مهمًا، ومن صميم التجربة الواقعيّة فوق ذلك: علي التومي الذي نسمّيه بعلي الفنّان. لكن، ماذا سأكتب عنه؟ هل سأكتب أنّه كان عاملا مهاجرا قادما من وسط اجتماعي فقير ومتدهور، ثمّ ترك المصنع والعمل والعمّال وتحوّل إلى رسّام؟ أم أقدّمه كضحيّة لتفاعل ملابسات اجتماعيّة بعينها لا تنتج غير العاهات؟ لكن علي ليس بعاهة، ثمّ إنّه صديقي، وأنا لا أعتبره

Twitter: @ketab_n

نموذجا لفساد العامل، بل إنّني معجب بالكثير من أفكاره وسلوكه، وأحيانا ببعض مما يبديه من احتقار تجاه ما يسمّيه بقطيع البقر الذي يساق إلى العمل ثم العلف والتناسل والنوم في كلّ يوم. يبدو أن الإديولوجيا ما تزال جاثمة على صدري وعقلي بثقلٍ رصاصيّ. ضباب يسدّ الأفق ولا يدع مجالا للاندفاع. قفص ضيّق يضطرب داخله طائر الرغبة بجناحين مخذولين. لكنّني كنت الطائر الذي دخل بمحض إرادته إلى القفص. أنا الذي ساهمت بقسط وافر في وضع القضبان. قلت لنفسي: السجين المجبَر على سجنه يظلّ خارج زنزانته وهو داخلها، إنّه يتخطّى بالرغبة والحلم والخيال كلّ القضبان والأبواب والجدران والأسيجة ليمرح في الفضاء الرحب الذي ما زال يحتفظ به في داخله. لكنّ السجين الطوعيّ معوق؛ وهم الاختيار طواعيةً هو الذي يعوق حركته ويشلّ خياله. لو فُتح لي القفص الآن، ربما لن أستطيع الخروج. لكن لأحاول، إذ أنّني بدأت أرى في ما وراء السياج.

هكذا شرعت في كتابة قصّة «علي الفنان».

*

المولدي ألقى بقناعاته في مياه المحيط. اغتسل في البحر وعاد يكرز بأفكار جديدة. أمّا أنا فلم أركب البحر، ولم أغادر باريس منذ أكثر من ستّ سنوات. كدت أنسى أن وراء باريس عالمًا موجوداً بالفعل، ويمكن للمرء أن يراه ويلمسه. شيء شبيه بغيبوبة طويلة، لذيذة إلى حدّ ما. لكن ها أنّ أشياء تحدث هنا وهناك حتّى داخل هذه الحياة المنغلقة على هذيانها الحالم. رفاق أقصوا من حياتنا، أو بُتروا منّا كما لو أنّنا نحن الذين بُترنا من عضو من جسدنا. عمليّات حزّ متكرّرة لكلّ واحدة منها مذاق شيء شبيه بمرارة فراق، وأحيانًا بنوع من الحداد. بدأنا نكبر على

Twitter: @ketab_n

ما يبدو، والحياة، حتّى وهي تسير ببطء داخل هذه البوتقة الضيّقة التي أحكمنا إغلاقها على أنفسنا، الحياة التي تستنكف من الفراغ وتملّ التكرار وبرودة الروتين، بدأت تطرح علينا أسئلة جديدة. محيّرة أحيانًا. في مواجهتنا لهذه الأسئلة الجديدة بدأنا نتصادم. كلّ سؤال يحرّك الركود الذي نغفو داخله مثل مادّة من الجيلاتين تحيط بقطعة من للحم المعقّم، يربكنا، يصدم البعض منّا، يثير القلق لدى البعض الآخر وفزعًا لدى عدد غير قليل. هل كان أمرًا صائبًا كل هذا الذي نحن بصدده منذ سنوات؟ ها أنّك بدأت تترنّح يا رفيق! قناعاتك ترتجّ. - ألسنا بصدد الحلم داخل علبة مغلقة؟ إنّك تشكّك في رؤيتنا القائمة على تحليل إديولوجيّ علميّ صارم؛ لكأنّك بدأت تتعب يارفيق! - هل كان صحيحًا هذا الإقصاء الصارم الذي أجريناه على الكثير من الأفكار والفلسفات والآداب والفنون التي ختمنا عليها بالشمع الأحمر كنتاجات رجعيّة ثمّ رمينا بها في مزبلة التاريخ وانتهينا منها؟ الرفيقة سامية أصبحت تبدي ولعًا بالمسرح والسنما وتريد أن تسمع موسيقى كلاسيكيّة من حين لآخر. الرفيق محمود زوجها البروليتاري ثوري صلب يستطيع أن يهدم سور الصين بقناعاته الثوريّة، قنوع متقشّف تكفيه وجبة متواضعة من دفاتر ماو تسي تونغ يلحقها بلقمات من مقالات بعض الصحف اليساريّة الفرنسيّة أو صحيفة «أخبار بيكين»، وكلّ ما عدا ذلك فهو مجرّد تبذير وترف برجوازي لا فائدة من ورائه. والحقّ يقال، إنّ الرفيق محمود الذي التقطه التنظيم ذات يوم من أحد أحياء العمّال المهاجرين قد حقّق ما يشبه معجزة بتوصّله إلى قراءة مثل هذه الأشياء، هو الذي لم يعرف ذهنه حتّى ساعة لقائه بالتنظيم غير بعض صفحات الرياضة وقضايا الإجرام في صحيفة تونسيّة تصل إلى فرنسا بعد ثلاثة أيّام من صدورها. سامية المتخرّجة لتوّها من شعبة الحقوق قد اقترنت به في لحظة وجد

Twitter: @ketab_n

إديولوجيّ؛ سكرة استبدّت بها وهي ترى لأوّل مرّة عاملا بروليتاريًا لحمًا ودمًا يقف أمامها ويبدي حماسة ملتهبة للثورة وقلب الدنيا رأسًا على عقب. حماسة لا يمكن أن تتألّق بمثل ذلك العنف والتصميم إلاّ لدى واحد ظلّ لسنوات عديدة من عمره يعمل مثل دابّة ولا يرى إلى حرثه اليومي وشقاء منزلته ونعيم الآخرين إلاّ كقسمة ونصيب ومصير محتوم، ثمّ ها هو يلتقي فجأة بأناس متعلّمين يقولون له إنّما هي أشياء مدبّرة من قبل أياد وعقول بشريّة خبيثة وجشعة، وأنّ أمر تغيير هذا الوضع غير العاديّ ممكن ومتيسّر. بل ويؤكدون له أنّه هو العنصر الفعّال وخالق الحدث والمحرّك الأساسيّ لعجلة التاريخ. كيف لا يتحمّس إذن، ولا يلتهب ويتّقد ويتألّق في التوقّد والحماسة؟ الفكرة المجرّدة الشبيهة بحلم رومانسي تتوهّج به صفحات الكتب والمنشورات الثوريّة تغدو حالةً واقعيّة متحقّقة أمام عيني الرفيقة سامية طالبة الحقوق وأصيلة عائلة عريقة في الثراء. إنّه حلمها هي، لا كمناضلة يساريّة تقدّميّة فحسب، بل كفتاة تسكن قلبها ومخيّلتها في ما وراء القناعات الثوريّة أحلام أخرى ورغبات ونزوات لا يخلو منها قلب فتاة. والفتاة سامية جميلة ورقيقة ناعمة بالرغم من بعض مسحات التصلّب التي كانت تبرقع بها سحنتها كماكياج ضروري لفتاة تريد أن تكون ثوريّة ومتجاوزة لكلّ الاعتبارات والمقاييس الجماليّة التقليديّة البرجوازيّة؛ تلك الوردة المتنكرة في هيأة غيضة مليئة أشواكًا. والرفيق محمود البروليتاري لحمًا ودمًا يتحرّك أمام عينيها بكل جسده مثل كتلة ثقيلة، يحرّك يديه ويلوّح بذراعيه وهو يتكلّم كما لو كان يضرب أو يدفع أشياء ثقيلة؛ يتكلّم ويضحك بصوت مجلجل مدوٍّ؛ يناقش كما لو كان يخاصم، ويحاجج كما لو كان يقذف منجنيقات من الشتائم. والطالبة الرقيقة تذوب وجدًا ـ ليس إديولوجيًا خالصًا ـ فيما الكتلة البروليتاريّة تقتحم بصخبها الهادر كلّ

Twitter: @ketab_n

خلايا جسدها وتبعث في رأسها بخارًا دسمًا مدوِّخًا إلى حدّ ما. لقاؤها الأول به كان في إحدى الأسواق عندما كانت توزع مناشير سياسية بصحبة رفيقين آخرين. توقف الرجل ممسكا بالمنشور في يده لم يقرأه بعد وانطلق الحديث؛ سؤال، جواب، تعليق، وإذا الرجل شعلة من الحماس. تنظر إلى كفيه الغليظتين وقدميه اللتين كانتا ترفسان الأرض مثل حصان يريد الانطلاق، ومنخريه الذين يضطربان بأنفاس قوية مثل نافوخي محرقة. تخيّلت تلك الأنفاس بحرارة الجمر، وبدا لها رفيقاها الآخران مثل دميتين من الطين وقد انطفآ الآن كليًا في ظل الكائن البروليتاري الذي يخبط الآن أمامها ويرفس ويعد بفصول قادمة مليئة بالرفس والخبط والصكّ والدهس، وبصيف ملتهب لا يعرف الاعتدال.

تكررت اللقاءات مع البروليتاري الذي كان يفيض حماسًا، يكاد ينفجر. راحت سامية الآن تحاول تهذيب ذلك التوقّد وتشذّبه. فسرت له قوانين الانتاج والربح وفائض القيمة، وقالت له أنت القيمة، وأنت خالق فائض القيمة، وكان فيض في داخله يقول له إنه على استعداد لكي يفيض بكل ما تريد الفرْخة الطرية من الفوائض. يرى نفسه يسهو قليلا عن القيمة وفائض القيمة وقوانين الربح والتراكم وهو يرفع هذه القطة المتوثّبة بين ذراعيه، يرمي بها فوق كتفيه وينطلق بها عبر الفجاج. يضع جسمه الصلب وذراعيه وكتفيه تحت تصرف حماسها الثوري الملتهب حالمًا بلهب آخر يصعد من جوف القطة المتوثبة عندما ستتلوّى بين ذراعيه. ذلك هو ما سيتحقق له يوم رأيناه لأول مرة في اجتماع عموميّ يرفع قبضته ويرعد والرفيقة تتابع انفجاراته مذهولة تكاد تذوب أمام أعيننا.

تهذّبت طباع الرفيق محمود في الأثناء إلى حدّ ما، تأنّق في الهندام والخطاب وأصبح يجيد استعمال الحجّة الإديولوجيّة ومعالجة الجدل

Twitter: @ketab_n

والمراوغة اللفظيّة والأساليب الديماغوجيّة، وهدأت حركات يديه وذراعيه قليلا ولم يعد يستعمل قبضتيه إلاّ في حالات محدودة عندما تستدعي حاجة التنظيم ذلك لإرهاب خصم غدا مقلقًا أو تأديب عنصر قديم مبعد بدأ يسيء أو يهدّد بالإساءة. بل إنّ الرفيق محمود وهو يتهذّب ويتأنّق قد انفصل حتّى عن أعمال المصانع ومشاغل البناء وغدا يكتفي ببعض الأعمال البسيطة التي تعدّ من اختصاصات الطلبة عادة، كحراسة عمارة أو الجلوس في استقبال الفنادق ليومين في الأسبوع. لكن... الموسيقى الكلاسيكيّة! الأوبرا والمسرح والسنما! ما نفع كلّ هذا؟ وما الغاية منه؟ ألم نقل إنّنا حسمنا في نتاجات الفكر البرجوازي والفنّ البرجوازي الذي يغتذي من فائض قيمة رأس المال ويعكس رؤية الطبقات الرجعيّة المسيطرة؟ ـ لكنّ الفنّ فنّ! ستحاول سامية بكثير من العناء ودون جدوى أن تدخل هذه المسألة في دماغ الرفيق محمود. ـ آ، الفنّ للفن؟ يردّ عليها بكثير من الاشمئزاز كما لو كان مجرّد النطق بتلك العبارات يلوّث فمه. هكذا يبدأ الفكر البرجوازي بالتسرّب إلى العقول.

ـ لا بدّ من تكثيف التكوين الإديولوجي يا رفاق، وإعادة التكوين الإديولوجي. كان يصيح كمن يستغيث ويستنجد وقد بدأت تعاوده نبرة حماسته الخام الأولى، تلك التي دوّخت سامية ذات سنة بعيدة وفتحت كلّ مسامّ جسدها ورطّبت مواقع جافّة في داخلها وحرّكت غددًا كانت غافية فيها. الرفيق محمود يستغيث فعلا وهو يستشعر الآن بغريزة حيوان مهدَّد بدايات تبخّر مفعول الوجد الإديوبوجي الذي فتح له في أمسية سعيدة بعيدة قلب الرفيقة وأبواب روضها العاطر. رواسب التفكير البرجوازي لا تمّحي بسهولة. ـ الرفيقة سامية لم يتمّ تطهيرها إديولوجيًا كما ينبغي. منبتها الطبقي ما يزال راسخًا في أعماقها. ذئب البراري لم يفته أيضًا أنها غدت تبدي شيئاً من ميل غير مريح لرفيق قياديّ ناعم شيئاً

Twitter: @ketab_n

ما، مشذّب الحوافّ، يعرف كيف يمزج خمرته الإديولوجية ويخففها؛ ذئب هو أيضاً، لكن من ذئاب الصالونات، تلك التي ترعرعت تحت الأضواء وتعرف كيف تمتص الضوء، تسترقه من الآخرين عندما تقتضي الحاجة وتستدرج تسليط البروجكتورات عليها وحدها دون الآخرين. كيف لا يصرخ محمود إذن ويولول ويستغيث معلنًا حالة الفزع والطوارئ؟

حالات مشابهة من التململ راحت تبرز هنا وهناك وتنتشر على ما يبدو. نجيب يرتبط بواحدة تروتسكيّة! وتلك الفتاة التي إسمها ماميّة وتدعي أنها فنانة مولعة بالمسرح والسنما وتتحرّك داخل أوساط من الفنّانين الفرنسيّين المائعين، رأوها العديد من المرّات تجلس في مقاهي الماريه وتحضر حفلات تدشين معارض الرسم وتشرب شمبانيا، هاهي قد أصبحت تجالس الرفيقة سامية، وربما رافقتها أيضاً إلى عروض مسرحية وسهرات فنانين خليعين. وصابر هذا الشاب القادم للتوّ من تونس ولا يهذي سوى بمسرح أنطونين آرتو وبيكيت. من هما آرتو وبيكيت؟ لا أثر للالتزام في مسرحهما العبثيّ. يحبّ بريشت أيضًا! لكنه لا يحبّه كرسالة ثوريّة، بل كمسرح وركح فقط. هذا أيضًا ينبغي الانتباه إليه. يكثر من الاختلاط بالرفاق ويطيل الحديث عن الفنّ والشكل والجماليّة، ويريد تكوين فرقة مسرحيّة. يقال إنّه يجالس المولدي الداعر وحسن المستهتر أيضاً. قال لهم صابر: حسن فيلسوف وليس بمستهتر، وحتّى إن كان مستهترًا فذلك من حقّه. إنّه رجل يفكّر بصفة مستقلّة. ـ يفكّر بصفة مستقلّة! ـ ومن هو حتّى يسمح لنفسه بالتفكير بصفة مستقلّة؟ وماذا يعني التفكير بصفة مستقلّة إن لم يكن نزوعًا إلى الفوضويّة وإلغاء للمشروع الشامل للتغيير؟ ـ لكنّه لا يناصبكم العداء. إنّه يكتفي بعزلته، ويفكّر. أليس مهمًا أن يكون هناك واحد يفكّر منعزلاً؟ أحد رفاقنا، لا

Twitter: @ketab_n

أريد أن أذكر إسمه الآن، يضيف محمود، غدا هو أيضاً يكثر من مجالسة هذا الشاب وبصحبة المولدي، ذلك التروتسكي الفوضوي المخرّب. يتحدثون الآن عن بدعة جديدة يسمونها «اليسار الذكي».

آخر خبر: شوهد صابر مع سامية في أحد مقاهي الماريه.

ألم نقل لكم إنّه فنّان بورجوازي مائع؟

في الفنّ، كما في الفلسفة ليست هناك ميوعة، أجابهم صابر، هناك الفنّ أولا وقبل كل شيء.

- وما هو هذا الفنّ؟

- رؤية جماليّة للعالم والإنسان. الفنّان يبحث عن حقيقته الخاصّة دون اعتبارات مسبقة ومحدّدة بفكر ما، لكنّه يهفو إلى الجمال المطلق والحقيقة المطلقة. وبما أنّه لن يدركهما فسيظلّ يحترق دومًا بالأسئلة.

- هذر ولغو. ترف برجوازي. العمل الثوري بحاجة إلى يقين أوّلا وقبل كلّ شيء وإلاّ تاه في دوّامة الأسئلة وإعادة طرح الأسئلة..

- أنا لا أنكر على السياسيّين ضرورة التمتّع بشيء من اليقين، لكنّ مهمّة الفنّان تختلف عن مهمّة السياسي. على الفنّان أن يكون قلقًا وحذرًا ويقظًا على الدوام. لذلك يظلّ الفنّ خالدًا في حين تتغيّر الإديولوجيّات والأفكار والسياسات وتندثر.

كلام أدخل كثيرًا من القلق والذعر على الرفاق. خطاب يدعو إلى البعثرة والتخريب. وهو علاوة على ذلك يتمتّع بنوع من البريق الذي يبدو أنه بدأ يمارس على بعض الرفاق شيئًا من السحر وقد يغويهم ويحيد بهم عن الالتزام. هناك مجموعة من الرفاق تحبّ مجالسته وتبدو مفتونة بسحر كلامه الغريب وطبعه الخفيف. خفيف أكثر من اللزوم. هذا الرجل خطير.

Twitter: @ketab_n

أُدعى مرة أخرى إلى حصة نقد ونقد ذاتي. الرفاق غير مرتاحين لنشاطاتي المتفرقة والمبعثرة خارجًا عن المراقبة المباشرة للتنظيم. مراقبة فرقة المسرح بصفة خاصة. التحذير من كثرة الاختلاط بهذا الشاب الذي يدعى صابر. منذ ما لايقل عن سنة لم أقدم تقريرًا عن نشاطاتي مع أبناء المهاجرين في الضاحية الجنوبية. يقال إنني صرت أنادم بعضًا من الأولياء أيضاً. - صحيح. - في أي إطار؟ وضمن أي نوع من العلاقات؟ - علاقات ذاتية بحتة! - علاقات ذاتية أيضاً مع شخص يقال إن له علاقات مشبوهة مع ودادية المهاجرين التونسيين التابعة للقنصلية في ضاحية ماسّي؟ - صحيح. - اش معناها؟ - معناها أنه ينقل إليهم ما يستطيع أن يحصل عليه من أخبار عني، وينقل لي الكثير من أخبارهم وما يقولونه عني. - وماذا عن التنظيم في هذا كله؟ - ما دخل التنظيم؟ أنا هناك مجرد مواطن تونسي لا غير.

بعد هذا الاستجواب المطوّل شبعت نقدًا ولم أردّ بكلمة واحدة. لم أعلق، ولم أبرر، ولم أعارض أو أناقش. راحت الجلسة تدور في مجملها حول علاقة الذاتي بالموضوعي، وضرورة نبذ الذاتية. تكررت مرات عديدة تلك العبارة الكريهة التي أصبحت أشعر بالغثيان عند سماعها: أنت تذيّت. ذيّت، يذيّت، تذْييت؛ يا لهذا الاشتقاق البائس!

كنت أريد أن أقول لهم أنا لا أؤمن بالموضوعية المطلقة ولم أقل. وكنت أريد أن أقول لهم أنا ذات أولا وقبل كل شيء، وعلى أية حال لم أعد أرى إلى نفسي كموضوع، ولم أقل. كنت أرغب فقط في أن أرى تلك الجلسة تنتهي في أقرب وقت، وأن أغادر المكان وأقذف بنفسي في أول حانة أو ماخور، وأسكر حتى أتقيأ مع الشراب كل تلك الجلسة «الموضوعية» حتى آخر نقطة فيها وفاصلة! في الحقيقة كنت أريد أن أتقيأ سبع سنوات من الاغتراب عن نفسي في دوامة من الهذيان

Twitter: @ketab_n

الأحمق بمقولات شبيهة بتعاويذ الكهنة والفقهاء المتزمتين. يا دين أمي! فقط لأن الواحد يتجرأ ويقول أنا ذات، ولا شيء غير ذات، تجنّد له جحافل من الفقهاء ورجال الدين والوعاظ الأخلاقيين، والفلاسفة الأخلاقانيين، والدعاة الأديولوجيين والسياسيين! جيش عرمرم من دعاة نكران الذات، والمتأففين بعبارة «أعوذ بالله من كلمة أنا»، وآخرهم المناضلون التقدميون ـ الثوريون علاوة على ذلك! كل هذا الجيش لمواجهة فرد أعزل وحيد منعزل قال: يا أبناء الحلال أنا فردٌ ذاتٌ ولا أستطيع أن أجعل من نفسي برغيًا، دولابًا، أنبوبًا، سدّادةً مطاطية في آلة كبيرة معقّدة! يا سيدي أنا ذات، وأُذيّت، وسأذيّت أكثر، واللي ما عجبوش هاهو نهر السين أمامه!

تركتهم إذن يجلدونني بحصة طويلة من السياط اللاذعة للنقد، واكتفيت بالصمت هذه المرة. امتقع بعض الرفاق، وارتبك آخرون. وخرجنا من الجلسة بما يشبه خصومة مكتومة وكثير من البرودة والحذر.

محمود غدا متفرغا الآن لمتابعة أخبار سامية وجلساتها التي تكاثرت مع كل من صابر ومامية، وأصبحت تفضل ارتياد مقاهي الماريه عن الظهور في حلقات الحي الجامعي ومقاهي بولفار سان ميشال.

ـ من هو هذا الخرية الذي يدعى صابر؟

قالوا له إنه يمكنه أن يعثر عليه بين الحين والآخر في مقهى السوفلو أو مقهى le Gamin de Paris. بحث عنه ووجده في مجموعة من الرفاق وغير الرفاق ورفاق سابقين من المغضوب عليهم والمنبوذين. كان هناك أيضاً مروان، وفتحي، وكان النقاش يدور حول الفنّ والمسرح والأدب. الرفيق محمود يضيف إسما جديدا، إسمين، ثلاثة إلى القائمة التي كان يسجلها في ذاكرته: المرشحون بامتياز لمزارع البصل والبطاطا في

Twitter: @ketab_n

مشاغل الثورة الثقافية الشاملة. في مقهى السوفلو قال كلمته التي جاء ليقولها أمام زمرة الملعونين. حكى عن الفن المائع والفكر البرجوازي الذي يخرب عقول المناضلين الملتزمين، وعن عفونات الأفكار الرجعية والبذخ الفكري البورجوازي. وكان طوال الوقت يرشق صابر بعينين ملتهبتين بينما رغوة بيضاء بدأت تتجمع على زاويتي فمه وذراعاه تضطربان وأحيانا يضرب بكفه على الطاولة بعنف. ثم هدد الجميع متوعدا إياهم وغيرهم بأيام وفصول من الكد في أرياف البلاد وفجاجها الخالية حيث لا مسارح ولا نوادٍ للهراء، ولا شيء غير حقول البطاطا واللفت السكّري وأدغال الأشواك والصحاري والثعابين والعفاريت.

- مروان: لكننا نظل جميعنا من المنتمين إلى عائلة اليسار يا محمود.

- مفهومنا لليسار الذكيّ يتمثل فقط في أننا نريده أن يكون متجاوزًا للحدود الضيّقة للصراع الطبقي وحده، كي يتسنى له أن يطوّر فلسفة تحررية شاملة. وهذا بالضبط ما يجعلنا في خط التعارض مع الرجعية ونظامها الذي يعتبر أن حركة التحرر قد أُنجزت واكتملت وتوقّفت مسيرتها يوم حصلت البلاد على استقلالها السياسي. وبما أنه لا يمكنني أن أكون مبدعًا خارج إشكاليّات وحساسيّات عصري، فإنه لا يمكنني إلا أن أكون يساريًا.

- محمود: تنفي الصراع الطبقي وتدّعي مع ذلك أنك يساري! عن أيّ يسار تتحدث؟ يسار الفنانين البرجوازيين المائعين في حي لو ماريه؟ يسار المثليين الجنسيين والسحاقيات ودعاة الدعارة والتفسخ؟ هذه هي رسالتك المسمومة التي أتيت تدعو إليها بين صفوف رفاقنا؟

ثم هوى على صابر بضربة رأس مفاجئة أطارت نظارتيه وجعلت أنفه يتدفق بتسبقة أولية من ضريبة الدم التي تفرضها الثورة من أجل التطهير والتنقية وإحلال سلام الوحدة الإديولوجية والتناغم الثقافي.

Twitter: @ketab_n

سماء صافية فوق نهر السين

السماء صافية على ضفاف السين والجوّ بارد. ذلك هو ما يجعل التمشّي هنا بعيدًا عن لغط الشوارع المزدحمة شيئًا ممتعًا. تتحرّك القدمان بخفّة. البرد منشّط وأشعّة الشمس، حتّى وإن لم تكن دافئة، تبعث الانشراح وتجعل مياه السين الصفراء الكدرة عادة أكثر صفاء. الأفكار تتحرّك أيضًا بأكثر نشاط كما لو كانت تحاكي حركة القدمين، وشيء من الصفاء يشبه صفاء السماء يشعّ في الداخل. السين جميل، قلت لنفسي وكأنّني أراه لأوّل مرّة. كاتدرائيّة نوتردام بدت لي أيضًا جميلة جمالا غير معهود وهي تمتدّ بصومعتيها في الفضاء على خلفيّة زرقاء ناصعة صافية. باريس كلّها جميلة في هذا اليوم كما لو أنّها خارجة للتوّ من حمّام أزال عنها الغبار والكدر. قلت سأظلّ أتمشّى هكذا على ضفاف السين حتّى محطة أوسترليتز، ثم بيرسي. منذ مدّة طويلة لم أتمشّ هكذا دون هدف. لن أفكّر في شيء سوى في باريس. سأنظر بانتباه إلى مياه السين والسفن التي تمخره جيئة وذهابًا، والقوارب الصغيرة، والصيّادين، والمباني العتيقة والكنائس، سأنتبه أكثر إلى السيّدات الأنيقات ووجوه الفتيات الجميلات. غالبا ما أنسى الانتباه إلى هذه الأشياء الجميلة من حولي خاصّة عندما لا أعبر الشوارع وحدي بل برفقة واحد أو إثنيْن من الأصدقاء. كثيرًا ما يشغلنا الحديث وتلك النقاشات الجديّة، فلا نرى شيئًا من العالم الذي حولنا. إنّنا غالبا ما نمشي على الأرض

Twitter: @ketab_n

كالمسرنمين. نائمين. غافلين. والأيام تمرّ والسنوات ... العمر يمرّ وها نحن قد كبرنا بسرعة في باريس كما لو أنّ هذه السنوات قد انقضت في غفلة منّا، تسلّلت هكذا هاربة من بين أيدينا. ترى كم من الأشياء الجميلة قد فوّتنا التمتّع برؤيتها ونحن منغمسون في غيابنا، ساهمون، عابرون هكذا مثل أطياف؟ هذه البناية مثلا، بأقواسها العالية وبابها الحديدي الضخم وأفاريز بلكوناتها، لا أذكر أنّني رأيتها من قبل والحال أنّني مررت مئات المرّات من هنا. ثمّ كم مرّة انتبهت إلى جزيرة سان لوي وأنا أمرّ قبالتها؟ وكم مرّة انتبهت إلى كاتدرائيّة نوتردام وأنا أعبر ساحتها باتّجاه الأوتيل دو فيل؟ تذكّرت الرفيق حميد الذي سألنا ذات مرّة: هل تعرفون البانثيون يارفاق؟ إنّني أسمع دائمًا بهذا البانثيون، كلّ الناس تحكي عن البانثيون ولم أره إلى حدّ الآن! ضحكنا ووعدناه بمرافقته توًّا إلى البانثيون، والحال أنّه يسكن بشارع سان جاك غير بعيد من ساحة البانثيون، وهو كلّما خرج من شارع سان جاك ومضى سواء باتجاه شارع سان ميشال أو في الإتجاه المعاكس يكون مبنى البانثيون دائمًا قبالته، وهو يمرّ يوميًا في الزقاق المحاذي لبناية البانثيون في ذهابه إلى جامعة سونسييه أو في عودته منها. ليس حميد وحده هو الذي ظلّ لسنوات عديدة يمرّ إلى جانب الأشياء ولا يراها. كلّنا، وإن بدرجات متفاوتة نمرّ على الدنيا في نوع من الذهول والعماء. كم مرّة انتبهت فعلا إلى بناية كاتدرائيّة المادْلين التي أمرّ من أمامها ليلا في طريق عودتي من الحيّ اللاتيني إلى الدائرة السابعة عشرة البعيدة بعد أن يتوقف سير المترو؟ يمكنني حتى الآن أن أسلك تلك الطريق مغمض العينين لكثرة ما سلكتها من قبل، ـ لأنّني مغمض العينين دومًا كنت أمرّ على الأشياء. كم مرّة تنزّهت هكذا دون غرض؟ كنت متسكّعًا من درجة أولى وكان بإمكاني في تلك الفترة إرشاد الناس إلى أيّ شارع صغير يبحثون عنه

Twitter: @ketab_n

مما كان يثير دهشة سائلي في بعض الأحيان. لكن تسكّعاتي تلك كانت غالبا ما تهمل المهمّ، لا المعالم الكبرى والقصور والمتاحف الشهيرة، فتلك تفرض نفسها على الجميع تقريبًا بحضورها المشهدي، لكن تلك الغالريات الصغيرة والجزئيّات الدقيقة المتخفية عن العين المتعجّلة؛ نقش على باب أو بلكون، تمثال متوار قليلا، أقواس جسر، نوعيّة الأشجار هنا أو هناك إن كانت بلوطًا أو حورًا أو كستناء، الزهور المتنوعة التي تتفتّح وتذبل وتسقط وتتفتّح من جديد ولا نراها ـ كما لوكنّا في مباراة عنيدة معها؛ هي تصرّ على الظهور والعودة محاولة أن تفقأ أعيننا كي نراها، لأنّها هنا من أجل أن نراها، ونحن نصرّ على ذهولنا وتجاهلنا لوجودها كما لو كان ذلك ضربًا من التشفّي والشماتة. ما نفع كلّ هذه الأشياء وهذه الجزئيّات؟ إن كانت لهذه المعالم المعمارية من فائدة ممكنة قال الرفيق الحبيب مرّة، فهي أن تظلّ تذكّرنا بإسراف الطبقات الإقطاعيّة المهيمنة ومدى الاستغلال الوحشي الذي كانت تمارسه على طبقات العمال والفلاحين؛ إنها شاهد على إجرام الطبقات المهيمنة، لا أكثر. كم من الأجساد تدمّرت على أحجار هذه المعالم؟ وكم من الأنفس والأرواح زهقت كي يرتفع مبنى قصر أو كنيسة أو كاتدرائيّة؟ ـ هذا جانب من الحقيقة يا سي الحبيب، أجابه صابر، لكنّ شعوب الدنيا قاطبة منذ أن تعلّم الإنسان معالجة الحجر ثم الحديد وبقيّة المعادن حاولت أن تترك على الأرض بصمات لخيالها وصورًا متفاوتة الأحجام ومتنوّعة الأشكال عن مقدّسها؛ عن مخاوفها وآمالها. إنّها حاجة إنسانيّة اكتشفها الإنسان البدائيّ وهو ما يزال في طور العيش على ممارسة الصيد وقطف الثمار؛ كان يجلس مساء داخل مغارته ويشرع في رسم صورٍ، رموزًا لمخاوفه وآماله وأحلامه.

ـ لكنّ هذه الحاجة البدائيّة البريئة تحولت إلى فساد وآلة استغلال

Twitter: @ketab_n

مفرط؛ كم من ملايين الأرواح قد تمت التضحية بها من أجل بناء مجد الفراعنة في تلك الأهرامات مثلا!

ـ هذا أيضًا صحيح، وهو أمر عنيف ولا أحد يدعو للإبقاء عليه اليوم. لكنّه الآن ماضٍ، وكلّ ما تبقّى من ذلك الماضي هو هذه الصور والرموز التي تشهد للحياة ببعد ملحميّ بديع ومذهل. إنّها حلقات الوصل الدائم التي تجعلنا لا نتذكّرهم ونعجب بهم فحسب، بل نستعيد حضورهم ونجلّهم، ومن خلال إجلالنا لهم نجلّ الحياة كصيرورة من التواصلات. ثم، لا تنس يا سي الحبيب أنّه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

ـ هذه فلسفة ترف لا تسمن ولا تغني من جوع، قال الرفيق الحبيب بكثير من الاشمئزاز قبل أن ينهض منتفضًا كما لو كان ينفض يديه من هذا الشخص الذي لا يرى غير الرموز ولا يسبّح إلاّ بالبعد الجمالي للأشياء. بعدها بقليل سيسري الحديث هنا وهناك بأنّ هذا الشخص غير مرغوب في صحبته. ـ أسمعت يا رفيق عادل؟

أؤمن بالتيليباتي ولا أؤمن بها. المهمّ هو أنّ يدًا سحبتني من الخلف وأيقظتني من هذا الحوار الصامت الذي انغمست فيه حتّى بدأت أنسى نزهتي التي كنت أودّها خالية من أيّ تفكير.

ـ صابر! أردت اليوم أن أقوم بنزهة مجانيّة، هكذا لمجرّد التسكّع والنظر إلى الأشياء دون هدف محدّد، لكنّك أفسدتَ عليّ هذا المشروع.

ـ أوه، عفوًا، عفوًا! لن أستوقفك طويلا. أردت فقط أن أسلّم عليك وقد رأيتك تمشي شاردًا نوعًا ما، فقلت لا بأس من تحيّة، أرجو المعذرة إن كنت ...

Twitter: @ketab_n

ـ لا، لا، إنّما أردت أن أقول إنّني أنا الذي أفسدت على نفسي مشروع نزهتي، لأنّني في اللحظة التي بدأت أتمتّع فيها بمجانية هذا التسكّع برزت لي أفكار من بينها أشياء لها علاقة بك وبأفكارك ورؤيتك للأشياء.

ـ وقد أشبعتني شتائم دون شكّ، لكن ما رأيك في بيرّة هنا على عتبة هذا المقهى الصغير الجميل وفي مثل هذا اليوم المشمس وباريس أمامنا مثل عروس؟

جلسنا في زاوية جنب الواجهة المطلّة على نهر السين.

ـ كنت تنوي القيام بنزهة خالية من كلّ تفكير، هذا شيء جميل! لكنّك وبدون شعور منك رحت تفكّر. وبماذا؟ بالثورة طبعًا، أليس كذلك؟ لصابر ضحكة لذيذة مليئة حبورًا وبهجة. لا يبدو متوتّرًا بالجدّيّة المفرطة التي ترسم ملامح قاتمة على وجوه أغلب الرفاق. بل يمكن القول إنّ وجه صابر بكلّيته؛ شكله البيضويّ الأسمر وجبينه المتقدّم شيئًا ما، لكن دون إفراط بحيث يبدو منبت الشعر على مقدّمة رأسه بعيدًا عن حاجبيه، عيناه اللوزيّتان، وأنفه المستقيم، ثمّ تلك الغمازة الطفيفة التي ترتسم بين زاوية الفم والخدّ عندما يبتسم؛ تلك الأشياء كلّها في تعاضدها وتفاعلها هي التي تضفي على وجهه دومًا ملامح حبور وخفّة، وحتّى شيئًا من مسحة عابثة محبّبة تجعله يعطي على الدوام انطباعًا بأنّه يمزح حتّى وهو يتحدّث بمنتهى الجدّيّة.

ـ طيبّ، وكيف حال مشروعنا المسرحيّ؟

ـ لا أدري. أو بصراحة لا أظنّ أنّه سيجد مناصرين، لأنّ الرفاق لا يؤمنون سوى بالمسرح الملتزم والدعائي المباشر، وأفكارك ليست مما يجلب الرضى في المدّة الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

قطّب صابر هذه المرّة قليلا. ثمّ ابتسم وقال: لكن ألا يمكن أن نشتغل خارج حلقات الرفاق؟

ـ مع من؟ وأين؟ ولأيّ جمهور؟

ـ مع نفسنا ولنفسنا في البداية. يمكننا أن نشرع في العمل وحدنا؛ هناك مسرحيّات بشخص واحد وبشخصين. نعمل في البداية دون هدف سوى العمل، ونتحدّث عن ذلك في كلّ مكان، ثمّ سنرى ما الذي يحدث؟

ـ صابر، أنت تعرف أنّ لي حاليًا نشاطات كثيرة، ثمّ إنّني لم أتعوّد على العمل دون هدف محدّد..

ـ تريد أن تقول دون إطار منظّم؟

ـ ودون إطار أيضًا.

ـ لكن الفنّ لا يعرف الأطر يا صديقي، لماذا تريدون تأطير كلّ شيء؟ لم لا نشتغل كلاً في ورشته، وكلاً بوسائله، ثمّ نلتقي بعد الإنتاج، وعندها يمكننا أن نتجادل ونتصادم ونتحاور ونتبادل الآراء والتجارب؟ عادل، أنت تبدّد وقتك في الأعمال المنظّمة والمؤطّرة، وتهدر طاقاتك في نشاطات ليست لك في الواقع. أنا متأكّد أنّ لك هُمومًا أخرى غير الجري بين الأحياء العمّالية والجلوس ساعات طويلة في اجتماعات تعاد فيها نفس النقاشات للمرّة الألف والمليون، نفس المصطلحات ونفس الأفكار، نفس الأفق، نفس الأسيجة. إنّك، مثل الجماعة كلها، أشبه بجواد مقيّد يرفس الأرض بحافره ويتخيّل أنّه يسير وهو ثابت في مكانه. أنت تحبّ الأدب والشعر، وحكيت لي عن مشاريع كتابة طمرتها لسنوات عديدة، عليك أن تعود إلى هذه المشاريع، إنّنا ما زلنا شبابًا والحياة كلها أمامنا. يمكننا أن نتوقّف، نغيّر

Twitter: @ketab_n

الاتجاه، نسلك طريقًا مغايرة وننطلق من جديد. عد إلى الكتابة أرجوك. حاول وسترى. قد تجد صعوبة في البداية، لكن يمكننا أن نتعاون على كتابة نصّ مسرحي مثلا؛ نكتب ونخرج ونمثّل معًا في نفس الوقت.

ـ لا أستطيع أن أفكّر في هذا الأمر الآن. في ذهني أشياء عديدة متداخلة ولم تعد واضحة، عليّ أن أرتّبها أوّلا، لذلك أردت أن أذهب اليوم في نزهة خالية من كلّ تفكير؛ أن أرى باريس فقط. أن أنظر إلى السين وضفافه والبنايات والفتيات الجميلات وأملأ نفسي بأشياء أخرى حتّى تتخمّر بعض الأفكار في رأسي دون تدخّل واع وقسريّ منّي.

ـ هذا أمر جيّد، لأنّه لا بدّ من التهوئة يا عزيزي، وهذا بالضبط هو ما يمكن أن تمنحك إيّاه الكتابة. كتابة شيء لا علاقة له بأهداف وأطر وأغراض بعينها. تمامًا مثلما تتمشّى في باريس من أجل التمشّي والنظر إلى باريس دون هدف محدّد، كذلك هي الكتابة. اكتب عن شيء لا غرض لك فيه ولا فائدة سياسيّة أو اجتماعيّة من ورائه.

ـ ذلك بالضبط هو ما يعيبه عليك الرفاق وهو الأمر الذي سيجعل كلّ عمل تقوم به، أو نقوم به معًا لا يلقى غير الرفض والمقاطعة.

Twitter: @ketab_n

الإخوة الأعداء

بدأنا نتصادم. تحولت الصدامات إلى تقاتل. الشكّ يرجّ البعض منّا ويلقي به في عراء أسئلة جديدة عنيدة وقاسية، بينما يدعّم لدى الطرف الآخر يقينه. الشكّ والتساؤلات مثل جرثومة تسري في الجسد تستنفر لها قوى المناعة اليقينيّة، تترنح لدى البعض، بينما «المعافون» يدعّمون يقينهم بنبذ المصابين والابتعاد عنهم تدريجيًا قبل أن تُضرب حولهم الكارنتينة. تصادمنا في ما بيننا في البداية بين جدران الغرف المغلقة، داخل خلايا التنظيم وأطره المغلقة. نزلت الكتب الإديولوجيّة من الرفوف كما لو كنّا نرفع المصاحف على السيوف، لكن ليس من أجل وقف التقاتل، بل لشحذ نار الفتنة. قلنا لنحسم الأمر هنا في ما بيننا ولتكن كتبنا الحكم الفيصل بيننا. لكنّ الكتب لا تستطيع أن تصمد أمام لهب الأسئلة التي لم تكن قد هيّأت لها أجوبة مسبّقة. هكذا هي الكتب، دومًا تخذلنا في اللحظة التي نكون في أشدّ الحاجة إليها. بدأنا نفهم ما كنّا نقرؤه معًا كلاً بحسب تأويله الخاصّ وزاوية النظر التي اختارها. قلنا لم لا نسائل الواقع. لا واقع خارجًا عن النظريّة العلميّة. أهه! عدنا إذن إلى المقولة التي كنّا نزعم تفنيدها «كل ما هو عقلي فهو واقعي، وكلّ ما هو واقعي فهو عقلي». قلنا لنسائل التاريخ. «كلّ ما هو تاريخي لا بدّ أن يكون مادّيًا». ماديا فقط؟ ألا يفلت شيء وإن بقدر قليل عن صرامة هذا القانون؟ قلنا لنسأل الثقافة. الثقافة هي نتاج الواقع المادّي في مجال

Twitter: @ketab_n

البنى الفوقيّة. لكن، ألا يمكن للثقافة أن تراوغ وتتنصّل وتدخل في مواجهة مع البنى التحتيّة التي لا تستطيع أن ترفد اندفاعات حلمها؟ والميتافيزيقا، والديانات والأساطير وحبّ الغرابة والحلم والرغبة، هل هي كلّها خاضعة آليًا لقانون مادي جبري صارم؟

حميد يسلم عليّ ببرودة الآن. مررت بمقهى الديبار ولم أجد أحدًا. قال لي أحد الأصدقاء إن بعض الرفاق بدأوا يؤمّون مقهى السوفلو. البعض الآخر متمترس بمونتسوري بالقرب من الحيّ الجامعي. بدأت الخارطة تتغيّر. انقسمت المجموعة الكبرى إلى مجموعات صغيرة متناغمة إلى حدّ ما. بدايات النفور والقطيعة. في بهو الحي الجامعي اندلعت خصومة بين رفيقين تحوّلت إلى عراك بين مجموعتين متقابلتين. رفعت الكراسي وتجاذب البعض من أطراف الملابس. اعترضني عبد الرحيم في شارع سان ميشال، حيّيته فأدار وجهه ومرّ. اعترضني عبد الرحيم مرّة أخرى فأدرت وجهي ومررت. محمود وسامية يتخاصمان الآن علنا وفي الأماكن العموميّة، محاولين كل من جهته أن يجعلا تلك الخصومة تتخذ هيأة الصراع السياسي والإديولوجي البحت. حديث يسري عن إمكانية انفصال، أو طلاق. ماهر وحليم اللذان ظلاّ سنوات عديدة لا يفترقان تنابذا واحتدّت اللهجة بينهما في مقهى السوفلو أوّل أمس. قيل إنهما منذ أشهر يتخاصمان حول «نظريّة العوالم الثلاثة» الجديدة التي طلع بها الحزب الشيوعي الصيني. مريم التي كانت متردّدة بينهما اختارت ماهر. لكن يبدو أنّ اختيارها قد تمّ قبيل اندلاع المعركة الأديولوجيّة المفتوحة بينهما، الأمر الذي أسرع بتأجيج فتيل الصراع الإديولوجي.

توتّرت العلاقة بيني وبين حسني وبدأنا نتلافى حتّى الالتقاء في

Twitter: @ketab_n

حصص الدروس والمحاضرات في الجامعة. جمع بيننا صديقنا مجيد ذات يوم من أجل المذاكرة في مادّة الإحصائيّات الديموغرافيّة التي يجيدها أكثر منّا. كان اللقاء باردًا، لكنّها برودة تنطوي على كثير من التوتّر والتشنّج. بدأنا العمل فورًا كي نتجنّب النقاشات والمصادمات. اختلفنا حول حلّ معادلة، كما يمكن أن يحدث في حالات عديدة. تمسّك كلّ برأيه بتصلّب وعناد. لم نعد نستمع إلى مجيد الذي كان أشطر منّا في هذه المادّة. بدأنا نتحاجج بحجج غير رياضيّة ولا علميّة، عيوننا ملتهبة، صوتانا يرتعشان، أحشاؤنا تضطرب. أيدينا ترفّ. انطلقت قبضاتنا كي ينفرج توتر ذلك الرفيف الشبيه بالارتعاشات اللامرئية لقوس مشدود. وخرجنا عدوّين معلَنين بعد صداقة سبع سنوات.

برزت أحقاد لا ندري أين كنّا نخبّؤها. الكراهية والعداوة التي كنّا نشحذ سكاكينها معًا ضدّ خصوم خارجيّين كنّا نسمّيهم أعداء انقلبت علينا الآن. السكاكين المحمّاة والخناجر التي كنّا نصقلها لسنوات عدّة في مواجهة الآخرين طلعت الآن لنواجه بها بعضنا. رفاق الأمس؛ إخوة تقاسموا الرغيف والسهرات والنقاشات ومواجهة الخصوم ـ أعداء اليوم. اكتشفنا أن لا محبّة هناك. كنّا طوال سنوات عديدة نتدرّب على الكراهية ونعمّر قلوبنا بالجفوة والحقد على كلّ مخالف لنا ـ الحقد ولا شيء غير الحقد. قال لي المولدي ذات مرّة: إنّكم تعدّون أنفسكم ليوم مشؤوم، ليوم ستتناحرون فيه كتلا وعصابات وتأتون على الأخضر واليابس. أتدري لماذا لا تنشأ سوى علاقات حبّ نادرة بين الرفاق والرفيقات؟ أتدري ما هو سرّ هذا التعفّف الظاهري المخادع؟ إنّما هو تكلّس الروح وتيبّس في القلب. احذروا القلوب الجافّة إنّها مصدر كلّ بلاء.

*

Twitter: @ketab_n

كان النقاش صاخبًا في مقهى السوفلو. كلّ شيء من النبرة إلى ارتفاع الأصوات وحركات الأيدي ينبئ بقرب انفجار معركة، وصاحبة المقهى تنظر بعينين غير مطمئنّتين إلى هذا الصخب الذي لم تعهده من هؤلاء الشبّان من حرفائها القارّين الذين تعرفهم واحدًا واحدًا تقريبًا. سمعتُ طرقات على البلّور مباشرة خلف رأسي. التفتّ؛ صابر يومئ إليّ بيده يدعوني إلى الخروج. جذبني من ذراعي قائلا: دع الموتى يدفنون موتاهم وتعال معي، سأسمعك شيئًا رائعًا اكتشفته قبل يومين فقط. تعال.

اقتنينا زجاجة نبيذ وذهبنا مباشرة إلى بيته في شارع مونج. كنت شبه متأكّد أنّه وقع على مقطوعة موسيقيّة لا يعرفها بعد. قلت لنفسي هذا الشيطان سيغويني مرّة أخرى بشيء جميل جديد. مع صابر بدأت أحبّ الجاز والبلوز، وإن كنت أستمع مع عليّ أيضًا إلى بيلّي هوليداي وإيلا فيتجيرالد، وخاصّة مغنّيه المفضّل جون لي هوكر. في بيت صابر عرفت بيبي كينغ وداك إلينغتون وكولترايِن ومايلس دايفس. ومعه أيضًا بدأت لأوّل مرّة أتذوّق الموسيقى الكلاسيكيّة التي كانت تزعجني في ما مضى. صابر يعرف كيف يستمع وكيف يجعلك تحبّ ما يستمع إليه، بل كيف تصغي إلى الموسيقى بأذنيك وقلبك متجرّدًا من كلّ الانتظارات المسبّقة وعناصر التشويش الخارجيّة. مقطوعاته المفضّلة إلى جانب الجاز والبلوز وجيمي هندريكس وجيم موريسون، هي «البوليرو» لرافيل و«عرس الفيغارو» و«الناي السحري» لموزارت. صابر لا يستسيغ إلاّ الموسيقى التي فيها اندفاع وبهجة. البهجة هي التي تصنع عظمة الشعوب، يحبّ أن يردّد دائما. القتامة لا تولّد غير البؤس والتحجّر، القاتمون هم الذين لن يغريهم أبدًا بهاء الحياة؛ منهم يطلع الطغاة والمستبدون والفاشيون. سترى يا عادل، الأيّام بيننا وسترى ما الذي سيطلع من هؤلاء الذين لا يطربون إلاّ إلى المناحات التي تتغنّى لهم بالآلام والبؤس والتجهّم.

Twitter: @ketab_n

قال، ونحن نستعدّ للجلوس: لنفتح هذه الزجاجة أوّلا ونتهيّأ بكأس، ثمّ هذه قطعة من الجبن، وهذه بعض مخلّلات، وهذا قليل من بقايا سلمون مبخّر لأجل الشماتة في بؤس الطلبة الثوريّين، قليل من صدر البطّة قطعًا لدابر الالتزام، وهذا قليل من مرق الهريسة شديدة الحرارة مع زيت زيتون وحامض وبعض حبات زيتون درءًا لمشاعر الغربة، ثمّ سترى أنّها ستكون ملائمة للموسيقى التي ستسمعها بعد حين، لأنّها ليست موسيقى بورجوازيّة ولا أرستقراطيّة كما يمكن أن يخيّل إليك؛ بل هي مزيج غامض سحريّ.. ولا أقول لك أكثر من ذلك الآن.

كانت مقطوعة من ألوان متداخلة من الموسيقى في جوّ احتفالي كرنفاليّ، تتواتر فيها الأنغام كما الأصوات خفيفة هادئة هامسة في البداية، ثمّ هازجة، صاعدة، مرحة، عابثة، تتناظر وتتداخل، ثمّ تتبارى، تتحاور، تتجادل. شيء شبيه بأجواء كرنفال، مسرح وأوبرا، وكلّ شيء متجاور متداخل في جوّ من الحبور العابث والبهجة الطريّة.

«كارمينا بورانا» لكارل أورف، قال لي صابر. فيها كلّ شيء. مهرجان موسيقيّ، وشعبيّ علاوة على ذلك. أتدري أنّ هذا العمل مؤلّف من مجموعة من أغاني شعبيّة من القرون الوسطى جمّعها هذا الفنّان وكوّن منها عملا فنيًّا من أروع الأعمال الموسيقيّة الحديثة؟ فيها كل شيء. هذا هو الفنّ حيث المتضاداتّ والتعارض والتقابل تغدو متعانقة كلّها داخل نسيج واحد متعاضد. التناغم الأعظم الذي يقابل ويؤاخي بين المتناقضات.

أتدري بماذا أوحت لي هذه المقطوعة؟ بفكرة ستظلّ تؤرّقني طالما لم أنجزها: كتابة الكاراكوز. كاراكوز تتداخل فيه وتتداعى نتف من

Twitter: @ketab_n

قصص شعبيّة بدأت تذهب في طريق الاضمحلال مع حكايات أدبيّة قديمة، وشخصيّات شهيرة من مختلف الفئات من أبي نواس إلى أشعب وعيسى بن هشام وهارون الرشيد والسندباد وشهرزاد والجازية الهلاليّة وعنترة وأبو زيد وأبو غضوان وعلي بن السلطان وخليفة الزناتي والدغباجي وقيس بن الملوّح وايلى. يعني «خوضة» بالعبارة التونسيّة، لكنّها خوضة و«تشكْشيكة» فنيّة.

لم أحدث صابر عن مشروع القصة أو الرواية التي شرعت في كتابتها عن حياة علي التومي، ثم توقفت عنها. فكرت في أن أفاتحه بالأمر ثم عدلت عن ذلك. لكن يبدو أنه استشعر شيئا، وإذا هو يسألني: لم لا تكتب شيئاً عن نفسك؟

- عن نفسي؟ وماذا يمكنني أن أكتب عن نفسي؟ تراءت لي حياتي فجأة مثل ثقب واسع، أو حفير بائس لا شيء في قاعه. حياة رتيبة وخالية من كل ما يمكن أن يجعل منها موضوعا لنص ما. أيّ نصّ.

قال صابر وهو يقطع الصمت الذي تخلل تلك الدقائق القليلة التي تراءت لي خلالها حياتي خاوية وعديمة الأهمية: لسنوات وأنا أبحث عن نواة لقصة الكاراكوز. لكن يبدو لي أنني وجدتها الآن. لا بد أن أكون الشخصية المحورية للكاراكوز. الكاراكوز هو أنا، وكل ما يدور من أحداث، بما في ذلك تلك التي لها في الظاهر علاقة بشخصيات متعددة ومن فترات تاريخية متباعدة، إنما هي قصتي الخاصة؛ أو أن قصتي الخاصة ينبغي أن تكون النسيج الخلفي لهذا العمل. أما ماهي قصتي؟ فتلك هي المسألة الآن. أحيانا يخيل إلي أن ليست لي قصة يمكن أن يحاك حولها نسيج عمل فني. لكن لكل منا قصته بالنهاية، وبالتالي لا بد أن تكون لي قصتي التي ما زلت لا أستطيع جمع شتات

Twitter: @ketab_n

عناصرها. إننا نبعثر أنفسنا ونتفتت في العالم الخارجي وفي تفاصيل إشكالات العالم الخارجي، لذلك تضيع عنا ملامح قصتنا الخاصة، في حين أن العالم الخارجي بكليته ليس سوى حاصل قصصنا المفردة. إنه حصيلة وليس حقيقة متعالية.

تذكرت غضب علي عندما قرأت عليه مشروع قصته. ثم تذكرت محادثة لاحقة بعد أن نسينا كلانا ذلك المشروع والخصومة التي دارت حوله.

ـ أتدري لماذا انزعجت عندما قرأت لي ذلك النص قبل بضعة أسابيع؟ أنا لا يهمني كيف ترى الأشياء، وكيف تعيد روايتها بالطريقة التي تبدو لك ملائمة أو صحيحة، أو لا أدري ماذا... ما أزعجني هو أنك سطوت على حياتي وعلى قصتي وجعلت منها قصة ترويها أنت، وتتصرف فيها بالطريقة التي تريدها أنت. هل تفهم؟ إنها قصتي؛ قصتي أنا ولا يحق لأحد غيري أن يرويها عوضا عني. أنا أسعى إلى التخلص منها بالألوان، أو إلى تدجينها أو قتلها، وأنت تحاصرني على الدوام ولا تكف عن محاصرتي ومضايقتي. تسطو عليّ وتحاول أن تفرغني من قصتي كما يفرغ كيس من محتواه. ثم ماذا ستفعل بي بعد أن تفرغني؟ وبالنهاية لِم لا تكتب قصتك الخاصة؟ إن لديك بالتأكيد قصتك أنت أيضاً. لكل منا قصته، وعلى كلٍّ أن يروي قصته، وقصته فقط. دعني إذن يا سيدي لحالي، وارو قصتك الخاصة.

ـ نعم، أضاف صابر بعد لحظات من الصمت، الكاراكوز هي قصتي. الكاراكوز، تلك «الخوضة» الخليط الفوضوي والمتناغم في آن واحد الذي لا أدري من أين أبدأه. عمل ضخم لا يمكن للمسرح وحده إنجازه دون الاستعانة بموسيقار موهوب فوضويّ ومجنون. عمل

Twitter: @ketab_n

سيتطلّب سنوات عديدة من البحث والتجميع والتوثيق والبناء والتفكيك وإعادة البناء. ها هو مشروع ثورة حقيقيّة يا صاحبي. وعندما تتبخّر كلّ الاديولوجيات وتمحى آثار الثورات بثورات أخرى مناقضة تنقرض بدورها، لن يبقى غير هذا العمل. مشروع العمر يا صاحبي!

Twitter: @ketab_n

الثعبان يغيّر قشرته

يوم شتائي بارد ونحن في منتصف فبراير. التقيت يوم أمس بمحرز صدفة بالقرب من ساحة السوربون، قال لي إنه سمع بخصومتي مع حسني التي آلت إلى استعمال اليدين. كانت عيناه تبرقان بنوع من الخبث من ذلك الذي تبرق به عين المتشفي لحظة تكون قدماك تغوصان في أوحال مستنقع بينما يقف هو على أرض صلبة يدخن سيجارته بمتعة وينتظر أن يرى ماذا سيكون مصيرك. أعرف محرز جيدا، وقد فترت علاقتي به منذ مدة طويلة لاختلاف اهتماماتنا ولكثرة تهكمه وسخريته من نشاطاتي السياسية التي يعتبرها عبث صبيان ومضيعة للوقت. لم تكن سخريته من ذلك النوع البريء الذي أستطيع أن أتحمله وأقبل به من علي مثلا، علاوة على أن علي الذي لم يدخل مدرسة ولا يعرف جامعات أذكى وأعمق بكثير من محرز الذي يمثل الطالب السطحي الوصولي الذي تنزلق الأفكار على عقله انزلاقا ولا تترك أي أثر منها على شخصيته. فاجأني هذا اليوم، ولأول مرة برغبة في الدخول في نقاش سياسي معي، ولم يُخف عني انحيازه إلى حسني في الصراع الذي كان يهز أركان الحركة السياسية إلى أن أفضى بالنهاية إلى الانشقاق. ـ لحظة، لحظة يا محرز، منذ متى أصبحت لك اهتمامات بهذا الشأن وتفقه في تفاصيل الخلافات السياسية والأديولوجية، أنت الذي لم تكن مشاغلك تتجاوز نوعية الملابس وأنواع السيارات وملاحقة

Twitter: @ketab_n

الفتيات؟ انتهى ذلك اللقاء بخصومة حادة تبادلنا فيها الشتائم والإهانات وخرجت منها برضوض معنوية جسيمة، لا لأنني كنت أولي اهتماما ما لآراء محرز الذي لا أكن له سوى الاحتقار، بل آلمني كثيراً أن يكون الخلاف بيني وبين حسني قد بلغ هذا الحد من الحقد والعداوة الذي جعله يؤلب عليّ محرز، ويحاول أن يكسب نصرته، هو الذي يعرفه جيداً وظل دوما يشاطرني احتقاري لسطحيته وغبائه، ولم يتردد حتى في أن يعبر لي عن شكوكه في أن له علاقات مع جهات أمنية تونسية والإلحاح علي بالابتعاد عنه ومقاطعته. كانت خصومتي مع محرز في الحقيقة خصومة ثانية مع حسني أحسست أنني تلقيت فيها طعنة خنجر في الظهر. قضيت ليلة حزينة على إثر ذلك اللقاء متقلبا على سرير من أشواك الحزن والإحباط ولم يكد يغمض لي جفن إلا لسويعات قليلة وبصفة متقطعة. بلغنا نهاية الزقاق، كنت أردد لنفسي مهموما، ومجمل حصيلتنا من هذه السنوات من الركض والتهيج هي هذا الحقد. عنفنا الذي كنا نوجهه إلى الخارج، وتلك الكراهية التي كنا نغذيها تجاه كل من لا يوافقنا الرأي، أو من ينتمي إلى تنظيم أو حزب غير تنظيمنا، هو ذا ينقلب علينا اليوم، وهاهي ريح تعصبنا تعصف بنا الآن وتذرونا شتاتا. أبهذه السرعة يتحول حلمنا الجميل إلى هذا الكابوس؟

*

خرجت من بيتي مبكرا كما لو كنت أطمع في الفرار من كوابيس تلك الليلة الثقيلة. همت على وجهي دون هدف طوال النهار. لم أكن قادرًا على التفكير في شيء. لم أختر بوعي أن لا أفكّر في شيء من أجل الامتلاء بأشياء أخرى، بل كنت عاجزا عن التركيز على شيء محدّد. في داخلي شيء شبيه بالفراغ. لكنّه ليس فراغًا مريحا. كتلة كثيفة تتكوّر في الأحشاء، أو في الرأس، أو لا أدري أين بالضبط. تضغط ولا

Twitter: @ketab_n

تتفتّت، مثل كآبة مجهولة المصدر والسبب. تفاديت مقاهي الحيّ اللاتيني كلّها وتوغّلت في شارع فوجيرار الطويل حتّى وجدت نفسي في آخره وقد أشرفت على تجاوز Porte de Vanves. عدت متوغّلا في شوارع الدائرة الخامسة عشرة، ثم انحرفت يمينا قبل أن تقودني قدماي إلى شارع كومبرون حيث كان يسكن حسني لمدة طويلة وكنت كثيراً ما أزوره هناك ونقضي لياليَ طويلة من النقاشات والمزاح، ثم انحرفت إلى اليمين ثانية راسما نصف دائرة واسعة، وجهتي الآن «الأنفاليد»، تمشيت كثيراً من قبل عبر هذه المنطقة، أحيانا مع حسني، وأحيانا وحدي في تلك السنة البعيدة التي كنت أذرع فيها شوارع المدينة بحثا عن عمل، في هذه البناية الإدارية العالية كسبت الفرنكات الشحيحة الأولى من أول عمل أعثر عليه في باريس كمنظف. مازلت أتذكر جيداً ممراتها الطويلة والمكاتب الكثيرة المصطفة على جانبيها وأنا أعبرها مجرجرا آلة التنظيف الكهرابية لسحب الغبار، أتذكر بعض المكاتب، وخاصة إثنَيْن منهما، واحد كنت أجد في درج من أدراج طاولته العريضة الفاخرة مجلات بها نساء عاريات كنت أقضي لحظات طويلة في تصفحها بنهم، والثاني، وهو مكتب امرأة كنت أسرق منه بعض قطع من الحلوى والشوكولاطة، وبين الحين والآخر سيجارة من السجائر النسوية الطويلة والدقيقة.

اخترقت الدائرة السابعة ورحت أتمشى في شارع Rue du bac باتّجاه سان جرمان، ثمّ من هناك وعبر شارع سان بلاسيد باتّجاه مونبرناس. كان المساء قد حلّ منذ ساعات عندما بلغت شارع لاغيتيه القريب من بيتي، لكنّني تجاوزت شارع الغرب متوغّلا في الاتجاه المعاكس باتجاه برنيتي، ثم نحو حيّ لا أعرفه كثيرًا. ربما كنت أبحث عن حانة شي موريس التي قادنا إليها المولدي ذات يوم، ولم أستطع العثور عليها. ولجت حانة أخرى كنت واثقا أنه لا يدخلها أحد ممّن أعرفهم. قدماي

Twitter: @ketab_n

وحدهما كانتا تتحرّكان طوال العشيّة بينما بصري ووعيي لا يتوقّفان على شيء. أذكر فقط أنّني توقّفت في بار بالدائرة الخامسة عشرة حيث شربت بيرّة ثمّ واصلت سيري. أشعر الآن بالجوع والعطش. لكن لا رغبة في تناول أي أكل. إنّه جوع بائس لا يعبّر عن نفسه رغبة حقيقيّة في الأكل. شيء مثل الخواء يخز الأمعاء ولا يستثير الشهيّة. بعد البيرّة الثانية اختفى ذلك الوخز الناجم عن خواء في المعدة. في الحانة نساء شبيهات بحريفات حانات سان دني، والنادلة التي تشتغل وراء البار ذكّرتني ببرناديت بصدرها الضخم وضحكتها الملعلعة بكثير من العهر. سان دني! لم أذهب إلى هناك منذ ما يقارب السنتين. انقطعت عنّي أخبار علي أيضًا. لم يأت لزيارتي منذ أن انتقلت إلى حيّ مونبارناس، ولا يعرف عنواني طبعًا، لكنّه يعرف أنّه بإمكانه أن يجدني في فندق السويس صافوا. لم أبحث عنه، وعقبة الذي كان يصل بيننا في فترات الانقطاع عاد الآن نهائيا إلى تونس. عقبة أيضاً توترت علاقاتي به بعد عودته الخائبة من مغامرته الليبية بسبب الخلافات التي كانت تعصف بالحركة. تباعدت لقاءاتنا التي غدت متوترة وصاخبة أحيانا، ولم نلتق قبل رحيله إلى تونس. حاولت أن أفهم ما الذي حصل لعلاقتي مع علي، لكنّني لم أكن قادرا على التركيز. تذكّرت فقط لقاءنا الأخير أمام مصنع سيتروان. كان ذلك قبل سنة تقريبًا. ذهبت إلى هناك مع رفيقين لتوزيع منشور يدعو إلى مظاهرة مساندة للحركة النقابيّة في تونس على إثر انتفاضة ٢٦ جانفي. لم أكن أعرف أنّه يعمل هناك، ولا كنت أعرف أنّه عاد إلى العمل أصلا. رأيته بعد رحيل فطيمة مرّتين أو ثلاث مرّات. كان يبالغ في السكر والمشاجرات ويهذي كثيرًا عن فطيمة وعن مشاريع رحيل إلى الجزائر، أوعن كسب أموال من أجل تأجير بيت لائق في باريس، وعن عودة فطيمة إلى باريس. لكن لا شيء في سكره المبالغ

Twitter: @ketab_n

فيه وفي مجمل سلوكه كان يدلّ على أنّه سيقوم بخطوة واحدة في هذا الاتجاه. لا أدري هل غدا علي مملاً بالنسبة لي، أم أنّني أنا الذي لم أعد قادرًا على التمتّع بتلك الأجواء التي ينتعش فيها. الواضح هو أنّ آخر لقاء لي به في تلك الفترة كان باهتًا ومضجرًا إلى حدّ أنّنا لم نتخاصم ولم نتناوش، وحتّى عندما أعربت عن رغبتي في الانصراف لم يمانع ولم يلحّ عليّ بأن أشرب كأسًا أخرى، بل مدّ لي يده بلامبالاة تقريبًا، أو أنّها لامبالاة مفتعلة فيها شيء من السخرية المرّة، ثمّ تلك العبارة التي تشبه وداع يأس وانكفاء على هزيمة ما: «تلقى الخير!» كأنّها نوع من العتاب المستسلم لأمر مقضيّ: أنت الذي أردت ذلك، فلنمض كلاً إلى وجهته ـ . كان وداعًا حزيناً على أيّة حال. حزين ببرود. في هذه الليلة وأنا أجلس في زاوية قصيّة من بار لا أعرف فيه أحدًا، تذكّرت علي وسان دني وقلت لنفسي: إنّني خائن، ولا بأس في ذلك، لأنّ كلّ شيء لابد له من نهاية. قبلت بخيانتي لعليّ بنوع من استسلام الحكمة، كجزء من صيرورة الحياة. ثمّ تأكّدت لي صحّة ذلك القرار وأنا أتذكّر كيف التقيته صدفة أمام باب مصنع سيتروان وأنا أقف وقفة المحارب بين رفيقين متوتّرين بأحداث دمويّة هزّت البلاد قبل يوم فقط. لم يكن هناك من مجال لأيّة عواطف أخرى غير الغضب والتشنّج والنقمة. وهاهو وجه علي يطلع لي من بين الوجوه العديدة المتدفّقة من باب المصنع في الساعة الخامسة، وهي جميعها وجوه نكرة متشابهة في حياديّتها، أو في حيادنا تجاهها، نمدّ أيدينا نحوها بالورقة المطبوعة كما لو كنّا نناولها عبوات ناسفة. تتناول بعض الأيدي أوراقنا بلامبالاة، البعض ينظر إليها بشيء قليل من الفضول ثمّ يتطلّع في وجوهنا بسرعة خاطفة ويمرّ، والبعض الآخر يمرّ وهو يراوغ الورقة الممدودة باتّجاهه ممتعضًا، أو مغمغمًا بتبرّمات غامضة. وجه معروف أليف يتقدّم نحوي، لا يمدّ يده

Twitter: @ketab_n

للورقة، ترتسم على شفته السفلى المتهدّلة قليلا تعبيرة غامضة بين السخرية والعتاب: *T'es encore là à faire la révolution, toi ?*[1]

لم يقل هذه المرّة: يا هرّاب، يا نكّار العشرة! لم يعد يحيّي ولا يعاتب. كما لو أنّه قضى حداده وغسل يديه من فصل قد انقضى. ـ عدت إلى العمل؟ قلت له محاولا تحريك ركود ذلك الفتور الثقيل وأنا أمد يدي من دون ورقة. ـ البغل يبقى بغلا، أجابني وهو يصافحني، وليس للبغل سوى الحرث! ماذا تريد؟ إحساس بالخجل، وشعور بالذنب مثل كتلة صلبة كانت ساكنة وبدا لها أن تتحرك الآن داخل أمعائي. نسيت المناشير والأحداث ولم أعد أدري ماذا أقول إلى أن أخرجني هو من تلك الورطة أو الحرج وهو يسألني إن كان بودّي أن نشرب كأسا في البار المقابل. قبلت فورًا وأنا أشير برأسي إلى الرفيقين، لا أدري إن كنت أستسمح، أو أنّني كنت أشير إلى لقاء مهمّ، فالرجل الذي يقف معي الآن عامل بروليتاري بالنهاية، ووجودنا هنا سببه العمّال والحركة العمّاليّة. سيظنّون دون شكّ أنّني وقعت على غنيمة سأمارس عليها مهمتي الدعائية والتحريضيّة بصفة مباشرة وأكثر نجاعة مما يمكن أن يجنيه جهدنا من خلال منشور يقرأه العامل وحده وقد لا يقرأه، وقد يقرأه ولا يفهم الكثير مما جاء فيه...

شربنا بيرتنا في جو من الفتور، وربما نوع من حرج لم تعرفه لقاءاتنا من قبل. سألته بغباء عن أحواله فردّ عليّ بما يناسب غباء سؤالي: ماشي الحال. أردت أن أسأله عن فطيمة ولم أسأله. وأردت أن أسأله عن سبب شحوبه وعن سنّيه المفقودتين اللتين كان يحاول إخفاءهما، أو إخفاء مكانهما الشاغر بيده ولم أسأله. ولعلّه هو أيضًا قد أراد أن يسألني أسئلة

---

(١) أما تزال عالقا في ثورتك؟

Twitter: @ketab_n

كثيرة ولم يسألني. أو لعلّه لم يرد أن يسألني عن أي شيء. شربنا بيرّتنا بسرعة ولم نطلب بيرتين ثانيتين، لكنّ الوقت بدا لي طويلا وعلي فاتر، بارد مثل كيس فارغ أو مجرد ظل لعليّ الذي كنت أعرفه. ليست برودة مقصودة تجاهي، بل كانت نوعًا من البرودة تجاه كلّ شيء. كأن لا شيء يعنيه ولا حتّى البيرّة التي أفرغها في جرعتين طويلتين، بلامبالاة. فاتر في نظراته إلى ما حوله، فاتر في شرابه، فاتر في حركاته. قلت له: لا بدّ أن أعود لأنّ الزميلين - لم أقل الرفيقين - في انتظاري. - أنا أيضًا لا بدّ أن أذهب، قال وهو يمدّ يده لمصافحتي، سان دني بعيدة من هنا... لأنني مازلت أسكن في سان دني.

ما زلت أسكن في سان دني! قالها بنبرة شبيهة بصيغة تعجّب مفتعل، كما لو كان يتعجب عوضا عني: أمازلت تسكن هناك! أو لعله يتعجب لي: أنسيت ذلك؟ ولعلّه أراد أن يقول: ها الغيبة! لكنه لم يقلها. ولعلّه أراد أن يقول: يا نكّار العشرة، أوهل ستأتي يومًا ما؟ أو متى ستأتي؟ لكنه لم يقلها. قال كلّ شيء دفعة واحدة ولم أسمعه، أو أنني لم أرد أن أسمعه. أو لعلّه لم يرد أن يقول أيّ شيء، وافترقنا على ذلك الغموض الواضح تمامًا.

لم أعد أتذكر كم شربت من بيرّة وكونياك وأنا أستعيد ذكرى ذلك اللقاء الأخير بعلي. تواترت علي صور مبعثرة سريعة من شريط السنوات السبع الأخيرة كلها، كانت تنهمر علي متلاحقة متدافعة كما لو أن مزقة كبيرة قد انفتحت في ذاكرتي فجأة وانفلتت منها وقائع كثيرة ووجوه متعددة: سان دني، أحياء المهاجرين في أوبرفيليي ولاكورنيف، مظاهرات في شوارع بارباس وبلفيل وساحة ناسيون: لا مجاهد أكبر إلا الشعب! خبز، حريّة، كرامة وطنية! الرحلة إلى مديدنة ليل لحضور مقابلة وديّة لكرة القدم بين المنتخب التونسي والمنتخب الفرنسي أثناء

Twitter: @ketab_n

الإعدادات لكأس العالم بالأرجنتين. حافلتان ممتلئتان بالعمال التونسيين الذين التفوا حول اللجان العمّالية لمساندة الاتحاد العام التونسي للشغل على إثر أحداث ٢٦ جانفي، حالة من الهيجان والحماس، لكنه حماس لذيذ مستحب هذه المرة على خلاف مظاهراتنا من قبل عندما كنا نعبر الشوارع مثل شرذمة من الطلاب المشاغبين لا أحد يحفل بنا: «لجنة لجنة عمالية، سيب عليك من القنصلية!»، «يا حشّاد يا حشّاد عاش عاش الاتحاد!» لا أدري من أين انفجرت تلك الطاقات الحماسية لدى عمالنا المهاجرين فجأة، وتلك الروح الوطنية والطاقات النضالية العالية التي لم نكن نلمسها فيهم من قبل! مالذي قمنا به في هذه المرة حتى وجدنا هذا التجاوب الذي لم نكن نحلم به، بل وراح يراودنا اليأس منه؟ ما الذي كان خاطئا في ممارساتنا إلى حد الآن؟ الشريط يواصل انسيابه بسرعة ولا وقت للتفكير؛ شانزيليزي، شارع ماربوف، حانات شارع تيلسيت وساحة كليشي، جوزيفين التي كان وجهها يفرّ من أمامي خلف زجاج سيارة التاكسي في شارع باتينيول، آن ماري وهي تضع شنطتي بالقرب من الباب وتعتذر عن قبولي في بيتها في تلك الليلة لأن صديقها قد عاد من هولندا بعد غياب طويل، دعك من هذه الخرافات الرومانسية المهترئة، أنا لست مُلكًا لك ولا لغيرك كما يزيّن لك هذا الوهم الذي تسميه حبًا ووفاء! أنت فعلا بورجوازي صغير والهواء في دماغك راكدٌ عطِنٌ؛ الرفيق حميد وهو يلتقط حجرا لا أدري أين وجده في شارع سان ميشال ويهم بأن يهوي به على رأس المولدي المتطاول على زعيم التنظيم الذي كان ينعته بسلالة الاقطاع المنحط وبالبعثي الانقلابي؛ مصنع Paul et Roger وأنا أدب مثل القط بين الورشات الفسيحة وراء ليش كي، محطة بيرسي لشحن البضائع ودي ديه السكير العجوز الذي يدفع عربة البضائع بصعوبة ويصيح باتجاهي وهو يراني

Twitter: @ketab_n

أصل متأخرا إلى العمل مضطرب الخطوات وقليل الحماس: *C'est dur la vie d'artiste, mon petit!*[1] دي ديه، دي ديه، ذلك الرجل الوقح والطريف في الآن نفسه، الذي يبدأ صباحه بزجاجة النبيذ الرخيص وكلما رآني أشرب بيرة ينظر إلي باشمئزاز: أية لذة تجد في شراب الحمير هذا! وأحيانا يضيف: معك حق، نسيت أنك قادم من بلاد ليس فيها من شراب غير حليب الجمال! وعندما أقول له: يا دي ديه، يا أحمق لقد عرفت بلادي الكروم والنبيذ قبل أن تعرفه فرنسا بعدة قرون، يضع إصبعه على صدغه ويجيبني: صحيح، وأنا أيضاً قد ولدت من حبَل بلا دنس تماما مثل يسوع ها ها ها!، أنا وحسني ونحن نرتمي على بعضنا لكمّا ولطمًا في خصومتنا الإديولوجية المخبأة تحت الجلدة لأشهر عديدة، الانشقاق الذي فرّقنا كتلاً متناحرة متعادية إلى الأبد...

عندما دفعت الحساب وخرجت شعرت أنّني سكران وأن رجليّ لا تستجيبان لإرادتي، بينما كل شيء من حولي بخار وضباب. كيف بلغت بولفار مونبارناس بعدها؟ ومن أين مررت؟ وهل توقّفت في محلاّت أخرى وشربت؟ كلّ ما أتذكره هو أنّني كنت في بولفار مونبارناس غير بعيد من مقهى الكوبول وكنت أبكي بصوت مسموع والشارع مقفر تقريبًا وأنا أتحامل على نفسي لأقف وأواصل السير وأقع مجدّدًا. يبدو أنّني بعد كلّ وقوع أظلّ ممدّدًا مدة من الوقت قبل أن أحاول النهوض من جديد. ربما فقدت الوعي، أو نمت على الرصيف. لا أتذكر أنني نمت، ولا أتذكر كيف استيقظت. أتذكر فقط رطوبة قارسة كانت تخترق الجلدة واللحم وتجعل عظامي ترتعد، وكان هناك ضباب يلف بشارع لاغيتيه.

منذ مدّة طويلة لم أبك هكذا في الشارع. ربما لم أبك أبدا بمثل

---

(١) قاسية حياة الفنانين يا صغيري!

Twitter: @ketab_n

تلك الحدة وبتلك المرارة. لا أدري إن كان ذلك على مرأى ومسمع من المارّة أم أنّ الشارع كان مقفرًا. المهمّ أنّ شيئًا كان متكوّرًا في داخلي قد انفجر فجأة في فضاء ليلة شتائيّة باردة في بولفار مونبارناس الواسع الذي يبدو ملائمًا تمامًا لمناحة عاتية.

*

نمت كامل اليوم بعدها. استفقت مساء لأشرب نصف زجاجة من الماء وأعود إلى النوم حتى فجر اليوم الموالي. كنت أركض في زقاق أو شارع ضيّق بدا لي مثل شارع موغادور، ثلاثة أشخاص يركضون ورائي: هو *C'est lui, le petit enculé!*، أنعرج شمالا في شارع بروفانس، فندق سويس صافوا، أدفع الباب الزجاجي وأقذف بنفسي داخل المبنى؛ ساحة فسيحة، قاعة امتحانات، المقاعد شاغرة، يد تشير إلى طاولة في الزاوية اليسرى غير بعيد من السبورة، أحدّق في الورقة، رأسي فارغ تماما، وما من فكرة واحدة تحوم في ذهني. صوت أبي ضاحكا بسخرية: سنرى كيف ستخرأ على حالك في امتحان الباكالوريا! أنهض من مكاني لمغادرة قاعة الامتحان ملوحًا بورقة عريضة في وجه شخص يقف قرب السبورة: أُنظرْ! إنها شهادة الليسانس من جامعة السوربون! أرأيتها؟ تلك الورقة التي في يدك يمكنك أن تمسح بها الآن!

Mais tu n'es pas que cela! ـ أنت أكثر من كونك هكذا: صوت الأب فينيال أستاذ الفلسفة اليسوعي اللطيف، بتلك النغمة المترنمة الناعسة التي أعرفها فيه، والتي كنا نحبّ تقليدها! أستيقظ. أمد يدي إلى زجاجة الماء، أفرغ نصفها في جوفي كمن يطفئ حريقا. الأب فينيال؟ أبتسم ثم أنهض وأنا أردد: لكنك أكثر من هذا! دون أن أنطق بها، كما لو كنت

Twitter: @ketab_n

أنفخ بها داخل صدري، أو لعلها هي التي كانت تهدر في داخلي: *Tu n'es pas que cela!*

*

ساعود نهائيًا إلى تونس. وأنا أعدّ قهوتي بيد مرتعشة طلعت الجملة فجأة، كما لو كانت تتمّة لحوار لم ينته عند *Tu n'es pas que cela!* : سأعود نهائيًا إلى تونس. وأنا أترشّف السائل الساخن: سأعود نهائيًا إلى تونس. وأنا أنحدر في شارع لاغيتيه باتجاه بولفار مونبارناس، وأنا أحاول قراءة صحيفة، في المترو، في بولفار سان ميشال، في مكتب استقبال فندق سويس صافوا مساءً، في طريقي إلى الجامعة، وأنا أتمشّى في بيغال أمام المومسات الكثيرات صاعدا شارع **Rue des Abbesses** باتجاه ربوة مونمارتر... في كلّ مكان: سأعود نهائيًا إلى تونس. ألغيت كلّ مواعيدي وانقطعت عن حلقات النقاشات وقاطعت الحيّ الجامعيّ نهائيًا. اعتذرت لرفاقي عن عدم حضور الاجتماعات لأسباب لا أرغب في شرحها الآن. انفردت بنفسي وبهذه الجملة اللازمة حتّى التقيت بصابر في شارع سانت أنطوان بحيّ الماريه. أوّل كلمة قلتها له: سأعود نهائيًا إلى تونس.

- هل هذا قرار مباغت؟ مجرّد نزوة، أم فورة غضب أو أيّ شيء؟ أم أنك فعلا تريد ذلك عن رويّة؟

- أريد ذلك، والقرارات الهامّة لا تحتاج إلى كثير تفكير وتمحيص وإرجاء. أنا هكذا، تطلع لي القرارات الهامّة دوما فجأة مثل عاصفة في يوم صحو، وتلك هي القرارات التي أثق فيها دومًا، وخاصة منها تلك التي أستفيق عليها صباحا. رجوته أن لا نناقش الأمر أكثر، لأنّه لا يتطلّب أيّ نقاش، فقبِل بذلك ولم نعد إلى الحديث في الموضوع.

Twitter: @ketab_n

لم تعد الجملة تطنّ في أذنيّ بعدها. لكنّني أصبحت أدرك أنني قد اتخذت قراري النهائي، وباريس الآن غدت مستنفدة باهتة أمام عينيّ، وكلّ ما كان يعني لي شيئًا ذا أهمّية غدا لا أهمّية له ولا طائل من ورائه.باريس الآن مرحلة انتقاليّة، وسأحاول بدءًا من الآن أن أعيشها كذلك. خيانة أخرى ضروريّة، لأنّ الثعبان قد بلغ الآن مرحلة تغيير قشرته، ولا مفرّ من الخيانات.

أتنقل الآن مثل سائح عبر شوارع باريس. حتّى جلسات المولدي لم تعد تعني لي شيئًا هي أيضاً. لا أتحاشاه، لكنّني لا أبحث عنه. الوحيد الذي سيغدو جليسي المفضل إلى جانب مروان المنبوذ هو صابر. مع صابر أحس بنوع من الدفء الهادئ والمريح. صابر لا ينهال عليك مثل المولدي بأسلوب عنيف، وإن كانت لذلك الأسلوب جوانبه الشيّقة أيضًا. مع صابر أشعر دوما أنّ صوتًا أليفًا خافتًا وحميمًا يخاطبني من داخلي وانطلاقا من مواقع مهيّأة في صيرورة تحوّلاتي الباطنيّة ومراجعاتي الذهنيّة السريّة. باريس تبدو كما لو أنها تخرج أمامي مغتسلة الآن؛ نظيفة وجديدة في بعض المواقع؛ قديمة مترهلة في مواقع أخرى: الحي اللاتيني، الحي الجامعي الدولي، سان دني، شارع ماربوف... شيء شبيه بآثار مدينة عتيقة، وأحيانًا مثل مقبرة. هكذا بدت باريس للمولدي بعد عودته من البحر، بكل تأكيد.

«دع الموتى يدفنون موتاهم...» صابر وحده هو الذي بقي مشرقًا متوهّجًا بنضارة سنوات ما قبل باريس. كأنّني أعود معه إلى زمن كان جميلا ومليئًا وعودًا، لكنّني أهملته وتناسيته دون أن تمّحي إشعاعاته من ذاكرتي. في الوقت نفسه نطلّ على زمن آخر قادم يتراءى لنا قريبًا جدًّا ومشعًا بالوعود هو الآخر.

Twitter: @ketab_n

«دع الموتى يدفنون موتاهم وتعال معي!»

لكن إلى أين؟

صابر لا يستطيع هو أيضاً أن يقول لي إلى أين بالضبط. كلّ ما يعرفه أنّ في رأسه الآن مشروع الكاراكوز الذي لا يدري من أين سيبدأه ولا كيف ومتى: مشروع العمر.

إلى أين؟ قرار العودة النهائية واضح، لكنني أنتبه الآن إلى أمر مقلق. لم أعد أعرف تونس. لا أدري ماهي الآن.. ثم هل عرفتها من قبل حتى يمكنني أن أقول إنني سأتعرف عليها من جديد؟ ما الذي سأفعله هناك؟ من أين سألجها؟ والأصدقاء القدامى، ما الذي طرأ عليهم خلال هذه السنوات السبع الأخيرة؟ أين هم الآن؟ بماذا يحلمون؟ لِم يخططون؟ وماذا يفعلون؟ هل سأجد أصدقاء حقا؟ هل يمكن للمرء أن يجمّد أصدقاءَ ثم يخرجهم من الثلاجة متى يريد أن يجدهم مجددا؟

ما لم أعد أريده صرت أعرفه الآن، لكنّ ما أريده...

أوكي، لنبدأ من جديد، كل شيء من جديد، لم لا؟

وصلتني رسالة من عقبة. قال لي إنّ علي في السجن على إثر خصومة عنيفة في بار سحبت فيها السكاكين. توفّي خصمه في المستشفى بجرح عميق في الكبد.

علي!

علي لم يبتعد عني كثيرًا في الحقيقة. انفصلنا جسديًا، وفي فترة ما ظننت أن علاقتنا قد اهترأت بما فيه الكفاية كي تنتهي. لكنّني في جلساتي مع صابر كنت غالبًا ما أتذكّره، وأحيانًا أودّ لو أنّني أعرّفهما على بعضهما وكنت متأكّدا تمامًا أنّ صابر سيحبّ علي ويولع به، لكنّني لم أكن متأكّدًا من ردّة فعل علي.

Twitter: @ketab_n

راسله عقبة العديد من المرّات دون أن يتّصل منه بردّ. التجأ بعدها إلى فرنسواز التي أعلمته بأنه في السجن. مزّقت الرسالة فورًا قبل أن تقع عيني على السطر الذي يحمل عنوان السجن. قلت: لا فائدة.

على الثعبان أن يغيّر جلدته بالكامل.

*

Twitter: @ketab_n

كل شيء في الماء؟
كلا، كل شيء في السيل

لم ألق بحذائي في الماء هذه المرّة، وأنا أعرف، أو أحاول أن أذكر نفسي على الأقل بأنّني بعد أربع وعشرين ساعة سأدخل ميناء حلق الوادي.

أنظر إلى الماء وقد توغلنا بعيدا في البحر وغاب كل أثر للساحل من ورائنا وأقول إنّها مجرّد بحيرة. لكنني كلّما أمعنت النظر إلاّ وأصبحت فكرة الوصول شيئًا شبيهًا بفكرة مجرّدة تستعصي على اللمس، أو التصوّر.

سنصل، أقول بصوت مرتفع وأنا أقف على جسر السفينة. أكيد أننا سنصل، فمن قبلنا ركب الآلاف من الناس البحر مثلنا الآن، ووصلوا جميعهم.

أردد لنفسي: إنّها بحيرة. مجرّد بحيرة. أحاول استحضار صورة الساحل التونسيّ: شيء مثل ضباب أو غيم كثيف يغمر التلال والأودية. لا تضاريس هناك. ضوء مكثّف يجعل إدراك التضاريس والمتناقضات وفوارق الألوان أمرًا مستحيلا. يبرز لي وجه علي وأنا أحاول أن أستحضر أشياء أخرى، الفتيات السمراوات الملوّحات بتنّوراتهن في الفضاء مثلاً، أو كيف تدخل باخرة إلى الميناء، هرج العتّالين، رائحة

Twitter: @ketab_n

الصيف القادمة من الأرض الملاصقة، الأهالي القادمون لاستقبال العائدين، أحاول استدراج تلك الصور لكن ذهني لا يستقر على صورة من كل الومضات التي تبرق، تلوح بطرف، تتداخل كلها وتختفي بسرعة. لا شيء غير الفراغ! وفي ذلك الفراغ ترتسم أمام عينيّ صورة علي: اختلاج عضلات الفكين، عيناه الصغيرتان تبرقان ببريق عيني ذئب صحراوي، شفته السفلى المتهدلة قليلا من الجانب الأيسر لفمه في تعبيرٍ صلِفٍ مكابرٍ ساخرٍ. أحاول أن أزيح الصورة التي غدت مرتسمة هناك متموجة على سطح الماء مثل إدانة: يا خائن، يا نكار العشرة! أشتمه، أتبرأ منه: سيبني، تروح تقوّد أنت وسان دني وبارناديت وعقبة والعرفاوي وكل الرفاق، وباريس كلها! مددت لك يدي فرفضتها مفضلا الانطواء على الصمت والمكابرة، تلوك أوجاعك القديمة، تحفظها في قاعك المظلم وتصونها فيما أنت تدعي نسيانها حيث ما من شيء ينسى، كل شيء لابد أن يمرّ بمحرقة التجاوز؛ تدير وجهك ولا تريد أن تنظر إليه في المرآة، لتذهب إلى الجحيم! أصرخ بحدة في وجه الماء والفراغ، وفي داخلي شيء يتململ بقلق: ألا تراني أفعل مثل عليّ أنا أيضا؟ ألستُ بصدد الهروب؟ أليست هذه طريقة أخرى لإلقاء حذائي في الماء صائحًا بتلك النبرة الظافرة الكاذبة: لن أعود؟ والأب فينيال؟ ماذا عن الأب فينيال الذي ظل يرجّني وهو يردد *Mais tu n'es pas que cela!* .

أتذكّر ذلك الحلم بأكثر وضوح الآن: يده التي كانت ترجّ كتفي بصرامة كما لو كان يريد إيقاظي: «نادرًا ما يصبح المرء رجلاً حقًا قبل الأربعين يا ابني. أمامك الآن تمرين صعب شيّق ومفيد للعشر سنوات القادمة. بدءًا من الآن ستكون ابنَ نفسك وصنيعةَ نفسك. اذهب الآن، معك بركتي يا ابني! أحاول أن أستدعي صورًا أخرى: الساحل التونسي، ميناء حلق الوادي، مرتفعات قرطاج وسيدي بوسعيد، جبل بوقرنين،

Twitter: @ketab_n

ربوة سيدي بلحسن الشاذلي، البنايات البيض لمدينة تونس... لكن لا شيء من كل ذلك ينقاد إليّ. ومضات سريعة باهتة، ولاشيء هناك غير الماء».

«ماء ماء ماء،

حيثما قلّبْتَ وجهكَ هناك الماء!»

برلين ـ الجزور ـ شيانغ راي

(٢٠٠٣ ـ ٢٠١٤)

Twitter: @ketab_n

الفهرس

مرسيليا ذات مساء ٥

توريسك ٨

باريس ١٣

"Paris est gris et plein de pigeons" ١٧

الرفرافي ٢٢

مائدة البروليتاريا ٣٠

سان دني ٤٣

الحي الجامعي العالمي ٥٠

وجه آخر لفونطوماس ٥٩

الدوّامة ٧٧

العرفاوي ٩٤

وجه ثالث لفونطوماس ١٠٤

شانزيليزي. ماربوف ١١١

Twitter: @ketab_n

جوزيفين ١١٨
حرائق ١٤٢
مقهى ليسكولييه ١٥٢
القاع المظلم ١٦٢
لكن أين اختفت جوزريفين؟ ١٦٩
فرنسواز ١٧٢
في المصنع ١٨٠
يومان لجوزيفين ١٩٤
زمرة الشياطين ٢١٥
زاوية أخرى من القاع المظلم ٢٢١
حانة برناديت ٢٣٣
عودة السندباد ٢٤٤
فطيمة الزهراء ٢٥١
خوروطو ٢٥٨
علي العاشق ٢٧٣
توتّر ٢٨٨
كل شيء في الماء؟ ٣٠٨

Twitter: @ketab_n

ضربة رأس! ٣١٧
بداية العدّ التنازلي ٣٢١
سماء صافية فوق نهر السين ٣٣٣
الإخوة الأعداء ٣٤٠
الثعبان يغيّر قشرته ٣٤٨
كل شيء في الماء؟ كلا، كل شيء في السيل ٣٦٢

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

لم أتفاءل خيرًا بدخولنا حانة Chez Bernadette في تلك لليلة. لثلاث مرّات انتهت سهرتنا هناك بخصومة. وفي كلّ مرّة أقسم بأن لن تطأ قدمي تلك الحفرة الكريهة بعدها أبدًا. علي أيضًا يقرر في كلّ مرّة وهو يلعن برناديت وحانتها وينعتها بقحبة النازيّين وفضلة الألمان أن لن يعود أبدًا إلى ذلك الماخور النتن. لكنّه يعود دائمًا. «شي برناديت» بار صغير معتّم يقع على التخوم الفاصلة بين سان دني وكليشي، غير بعيد من ساحة بلاييل، مما يعني أنّ الوصول إليه يتطلّب المرور بما لا يقلّ عن عشر حانات أخرى والتزوّد خلال تلك الرحلة بكمّية محترمة من الكحول، ويكون الواحد قد وصل إلى هناك وهو في وضع يتطلّب من صاحبه الإسراع إلى الفراش، إن كان في دماغه مقدار ذرّة من العقل طبعًا.

ISBN 978-9933351199

9 789933 351199